



مركز دراسات الدكتوراه: "اللغات والتراث والتهيئة المجالية"
تكوين الدكتوراه: التاريخ والتراث.
محور: الدراسات الإسلامية.
مختبر: الأصول الشرعية للكونيات والمعاملات.

أطروحة لنيل الدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية

في موضوع:

وحدة الامة الإسلامية من خلال القرآن الكريم،
تعريف مصطلحي وتفسير موضوعي

اسم الأستاذ(ة) المشرف(ة):
د. جميلة زيان.

إعداد الطالب(ة) الباحث(ة):
عبد الحق معزوز.

تاريخ المناقشة: 30 نونبر 2020م

لجنة المناقشة:

الدكتور حسن عزرزي رئيسا
الدكتور إدريس الشرقي عضوا
الدكتور أحمد ناصري عضوا
الدكتورة جميلة زيان مشرفة ومقررة

السنة الجامعية: 2019-2020م
الموافق ل: 1440-1441هـ

مقدمة

1- بين يدي البحث.

الحمد لله الذي جعل أصل الإنسان من طين لازب، ثم صير نسله متقلبا بين الصلب والترائب، وجعله نسبا وصهرا، فشاء بحكمته سبحانه وتعالى أن يكون منطلق الإنسانية كلها من نفس واحدة، خلق منها زوجها، ثم بث من خلاهما رجالا كثيرا ونساء، حتى صاروا قبائل وشعوبا، وعشائر وبطونا، يقول سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ بِتَفْوَ رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]، ثم ربط سبحانه بين هؤلاء وهؤلاء بأمشاج التراحم، فتكوّن منهم الأصول والفروع، والخواشي والأصهار، وهذا لعمرى من تجليات القدرة الإلهية والعظمة الربانية، يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: 54].

فتقرر من هذا أنه مهما تفرق الناس إلى قبائل وأمم، وأجناس ودول، فإنما هو كتفرق الفروع والأغصان، التي ترجع في أصولها إلى جذر أصيل، يجمع شتاتها، ويوحد أطرافها، وما الاختلاف بين الناس في الأجناس والألوان، والألسنة والأوطان، إلا اختلاف تكامل لا تأكل، وتعارف لا تنافر.

2- فذلكة تاريخية عن وحدة الأمة وتفرقها.

لقد كانت الإنسانية أول الأمر متواطئة على هذا المنهج القويم، منهج الوحدة في الأصول، والتنوع في الفروع، واستمسكت بذلك حيناً من الدهر، تتعاون على الخير والنفع، وعلى الشر بالدفع، لا تستمرئ التشردم والتفرق، وتجتمع على الحق والإيمان والتوحيد، وفق ما نزل على الأب آدم نبي الله عليه السلام. لكن أتى عليها زمن الغربة عن الدين، فاجتالهم الشياطين عن شرع الله، وأمرتهم أن يشركوا به ما لم ينزل به سلطانا، وزجت بهم

في مهاوي الكفر بالله، فافترقوا واختلفوا، وتفرقوا وتخالفوا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: 19].

ولما حصل للإنسانية التنكب عن هذه الوحدة -التي هي أولى مراحل الوجود البشري- اقتضى الأمر تصحيح المسار، والتدخل لإبعاد الخلق عن شرور الاختلاف، وردهم إلى ما كانوا عليه من الاجتماع والاتحاد والاتلاف، فتعاقبت بعثة الرسل التي تنشد جمع الكلمة، وتوحيد الصف، وتصويب المعتقد، ورد الناس إلى الإيمان والتوحيد، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: 211].

وقد شاءت حكمة الله تعالى أنه كلما ظهر الاختلاف، وحصل الشتات، وتفرق الناس شذر مذر في عقائدهم وشرائعهم وسلوكاتهم... إلا وجدد الله البعثة، فيوحي إلى من اصطفاهم من خلقه، وينزل عليهم من لدنه وحيا ونورا يمشون به بين العباد، فيستضيء بهم العُشُو، ويستهدي بهم الضُّلال، فتتقارب بدعواتهم القلوب، ويحصل التآلف، ويتحقق التساكن... وقد تجد دعواتهم تلك آذانا صاغية وعقولا واعية، وقد تجابه أحيانا بالتسفيه والتكذيب، بل وبالتنكيل والتعذيب.

ثم شاءت إرادة الله تعالى أن تحتّم هذه السُّنة التجديدية ببعثة سيدنا محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه، الذي جمع الله به الناس بعد فرقة، ولملم شعبتهم، وحقق وحدتهم؛ ثم توفاه الله وقد تركهم كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضا، لا تجد فيه فُرْجا ولا هدما. وقد استمرت الأمة الإسلامية على هذا السنن مدة من الزمن فسادت، ثم اعترتها لحظات ضعف وخور فبادت، ثم استمسكت مرة أخرى بذلك الحبل المتين، واهتدت إلى الصراط المستقيم، فجددت قومتها، واستعادت مجدها... فكان المنحنى التاريخي لها مضطربا، تارة في صعود وأخرى في أفول.

وأما حال الأمة اليوم، فإن الناظر في واقعها وحالها، وما آلت إليه من فرقة مستشرية، وصراعات مستفحلة، تكاد عيناه تبيض من الحزن وهو كظيم. إن النفس لتفيض حسرات، وتتأوه زفرات، وهي ترى هذا الجموح المتنامي في الأمة عن توجيهات الشارع الحكيم، وتبصر الفرق الشاسع والشرح الواسع بين مقررات الشريعة وواقع الحال، حيث أسلمت نفسها إلى أودية الضياع، ومجاري التقاطع والنزاع، واستبدلت أسباب القوة بأسباب الضعف، وكواهل العزة بعوامل الذلة، وبواعث الشدة بعلل الوهن، فجرها ذلك إلى الفشل والكسل، والخمول والذبول حتى تدهورت قوتها، وخارت شدتها، وزالت دولتها، وذهبت ريحها، وتحقق فيها ما حذر منه ربنا سبحانه، حيث قال: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا بِتَبَشُّلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 47]. فانفرط عقدها بأمرين اثنين رئيسين هما:

- **الأول: التطاحن الداخلي:** ومرجعه هو الحياد عن المنهج القويم وآي الكتاب المين، التي تؤكد على ضرورة الوحدة والاجتماع، والاعتصام بوشائج الأخوة، باعتبار ذلك ثمرة مباشرة لعقيدة التوحيد، ونتيجة طبيعية من نتائج تمثلها والعمل بمقتضياتها؛ في حين أنها تعتبر الفرقة هدمًا لهذا الدين، بل مظهرًا من مظاهر الإشراك برب العالمين، ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿بَآفِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيبًا فِطْرَتَ اللَّهِ إِلَيْهِ فِطَرُ النَّاسِ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ مَنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٢﴾﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم: 29-31].

- **الثاني: العدوان الخارجي:** وقد نبه كتاب الله على خطر الأيدي العميلة، والتنظيمات الدخيلة، والحركات النفاقية، التي تسعى إلى تقويض بنية الجماعة وتخوير قوتها، وتفكيك لحمتها، ثم كَشَفَ دسائسها، وفضح سرائرها، وأبان عن سماتها وصفاتها، لئلا تحذر عبر

التاريخ، وتُتقى في الحاضر والمستقبل، ذلك أن اتباعها والتهاون في التعامل معها مفض لا محالة إلى الفتنة والفرقة؛ يقول ربنا سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَلَكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلِيتَنَ وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 47].

3- أهمية الموضوع.

إن التأمل لواقع الأمة اليوم لينكشف له بجلاء صدق هذا الكلام الرباني ودقته، فقد أصغى بعض أمتنا للمتربصين بها، فوقع الضعف والوهن، وأصاب الأمة خبال وفتنة، فتمكن الأعداء من بث الفرقة فيها، وتقطيع وصالها، فرسموا الحواجز في ديار المسلمين، وحدوا الحدود بين أراضيتهم وأوطانهم، وجعلوا الأشبار والأمطار تزهق من أجلها الأرواح والأعمار، وأثاروا الثارات، واستدعوا النعرات، وأحيوا صراع اللهجات واللغات... واستثمروا كل فرصة ترد عليهم لتمزيق وحدتها، وإنهاكها بالصراعات الانفصالية التي تستنزف قوتها ومقدّراتها الاقتصادية والعسكرية، وتقطع علاقاتها السياسية والاجتماعية، وتشوه مجهوداتها الفكرية والمعرفية، مستثمرين في ذلك كله قوتهم الاقتصادية والسياسية والإعلامية، ومستفيدين من نيران الفتن الطائفية الواقعة بالمسلمين، يسندهم في عملهم ذاك عملاء وأتباع، وأجراء ووضاع، يدسون العلل في جسد الأمة الإسلامية دس الكذبة في الحديث، يعوجون بها المستقيم، ويروجون بها للسقيم، تبعا لأهواء وأمراض، وأدواء وأغراض.

إن هذا الوضع الذي تعيشه الأمة محرج وخطير، يستدعي النظر والاجتهاد، وتظافر جهود الساسة والعلماء، والسادة والحكماء، والمفكرين والفقهاء، والمثقفين والأدباء، والطلبة والباحثين في حل معضلاته، وكشف بواعثه ومسبباته، وبيان عواقبه ومآلاته... فلا بد لكل مسلم حريص على دينه، غيور على أمته، أن يتفكر في همومها، وما انتابها من صروف الدهر ومظاهر الوهن، حتى صارت مهیضة الجناح، مستنزفة تحت مطارق الهيمنة الغربية،

ويسعى جهده ويستفرغ وسعه فكرا وقلما، تخطيطا وعملا، ليعالج علل التفرقة، وعوامل التجزئة التي فحرت الجسم الإسلامي حتى صار معرضا للفناء والانهار، ولكل قسط من تبعات ذلك، صغرت أم كبرت.

ولعل أجل ما يفيد في ضبط عوامل الفرقة وحصرها، ويكشف أسرار الاختلافات ويفسر آثارها، ويُجلي طرق علاجها والحد من نتائجها، هو مطالعة كتاب الله تعالى، وتأمل ظواهر ألفاظه وأسرار آياته، والغوص في سبر معانيه وهداياته، فهو الدواء لكل داء قد يصيب الأمة ويفت عضدها، والمضاد الحيوي الذي يذهب أمراضها وأسقامها، وهذا ما أوما إليه رسول الله ﷺ حيث قال لعلي عليه السلام: «ألا إنها ستكون فتنة. فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا فُرْعَانَ عَجَبًا﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ» [الجن: 1-2]، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»⁽¹⁾.

ووعيا مني بهذا الذي ذكر؛ ارتأيت بتوجيه وتسديد من أستاذتي الفاضلة الدكتورة: جميلة زيان، حفظها الله وبارك فيها، أن يكون موضوع هذا البحث موسوما بـ:
«وحدة الأمة الإسلامية من خلال القرآن الكريم: تعريف مصطلحي وتفسير موضوعي».

(1) سنن الترمذي، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض. الطبعة الأولى. كتاب ثواب القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في فضل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، ح: 2906. ص: 649.

وهو عمل يرنو إلى معالجة قضية وحدة هذه الأمة، وسبل النأي بها عن مهاوي الشتات والافتراق، راجيا من الله سبحانه أن يكون لبنة صالحة في مشروع بناء الأمة واستعادة شهودها على الأمم.

4- دوافع البحث.

أما دوافع اختيار هذا الموضوع فيمكن إجمالها في الآتي:

دوافع ذاتية:

لقد دفعتني لهذا البحث رغبة دفينة لطالما منيت النفس بها، وهي الرجوع إلى كتاب الله قصد معرفة معاني نصوصه وتجميعها في نسق موضوعي، أتناول من خلاله موضوعا من موضوعات القرآن الكريم تتبعا وترتيا، واستيعابا وتبويبا، واستقراء وتحليلا، لتقريب صورة متكاملة متناسقة شاملة حول التناول القرآني له.

وأظن أن هذا النظر المنهجي في نصوص القرآن الكريم له حظ من الواجهة والرصانة؛ ذلك أنه يقصد إلى تجلية التصور القرآني للقضايا المختلفة؛ اجتماعية كانت أم سياسية أم اقتصادية أم أخلاقية... وله من القوة ما يمكن أن يهدم أسس ما يسمى اليوم بالقراءات الحداثية أو القراءات الجديدة للقرآن الكريم، والتي تستند إلى مرجعيات متحيزة، وتعتمد النظر التجزيئي للنص القرآني بدل النظر الكلي الشمولي الذي يجلي حقائقه من كل أطرافها وجوانبها. وقد شاءت قدرة الله تعالى أن تتحقق هذه الأمنية من خلال اقتحام غمار هذا الموضوع الذي له صلة بوحدة الأمة واجتماعها.

دوافع موضوعية، وتتلخص في الآتي:

- أولا: ما يعرفه العصر الراهن من تيارات مختلفة، وتوجهات فكرية متصارعة، وفصائل حركية دعوية متناحرة، تعج بضجيجها وعجيجها الساحة الإعلامية؛ مقروءة ومسموعة ومرئية، وتظهر آثارها على الأجيال المؤمنة التائهة التي تلتبس الخروج من

ظلمات البحر اللجي الذي اختلط فيه الحابل بالنابل، والحق بالباطل... وليس لها من مخرج إلا الرجوع إلى الاتحاد والتآلف، وجمع الكلمة انطلاقاً من العقيدة الجامعة والشرعية النازمة لمختلف التيارات والتوجهات والحركات، رعاية لمصلحة عموم الأمة وخصوصها.

- **ثانياً:** ما تعانيه الأمة الإسلامية من ضعف وهوان، وخور واستكان، حتى صارت قصعة مستباحة، وكلاً مباحاً بسبب ما آلت إليه من التآكل الداخلي، ف وقعت في مستنقع التخلف والهزيمة، وهذا الوضع يقتضي تفكيراً عميقاً وواعياً، واقتراح الحلول الحكيمة والكفيلة للنهوض بها، وإخراجها من حالة الصراع والنزاع الذي أتى على بنيانها من القواعد حتى صارت من القواعد... إن وحدة الأمة هي الملاذ الأوحـد بعد الله عز وجل، والحل الأمثل لتحقيق القوة والعزة، والعود إلى أوج الرفعة والمكنة، والوفـاق والاتفاق الذي كان عليه القرن الأول والجيل الأمثل رضوان الله عليهم جميعاً.

- **ثالثاً:** ما يشهده مفهوم وحدة الأمة الإسلامية من محاولات التغييب والطمس والتشويه، وإفراغه من مضمونه الشرعي، ومحتواه الإسلامي، وجامعه العقدي، واستبداله أو شحنه بمضامين قومية أو عرقية أو قطرية أو لغوية... عدها رباط الوصال وحبل الوثاق، والدعوة إليها، وتعميمها لتسود بمفاهيمها الفكرية وحمولاتها الثقافية، وتُستنتب في المنظومة المعرفية الإسلامية، وقد لقيت هذه المفاهيم والمصطلحات والدعاوى للأسف الشديد منظمات حاضنة، وجهات داعمة، وآذاناً صاغية من بعض النخب المثقفة والسلط النافذة في العالم الإسلامي، التي تعيش أزمة فكرية حادة، وحالة انهزامية واضحة أمام كل وافد غربي.

- **رابعاً:** ما تعيشه الساحة الدعوية التي يشغلها علماء ودعاة ووعاظ وخطباء من اختلافات خرجت عن نطاقها، وفقدت أدبياتها وأخلاقياتها، فاستشرى النزاع المذموم بين أتباعهم وعموم متبـيعيهم من طلبة العلم وعوام المسلمين... فساءت الظنون وشاعت الطعون، وصار القوم إلى التربص بالزلات والسقطات، وتتبع العثرات والفلتات، والتكلف في تأويل الكلمات والعبارات، وتحميلها أبعد المحتملات، واتهام المقاصد والنيات... مما نتج عنه تشتت شمل المسلمين، وورث بينهم العداوة والبغضاء، حتى قدح بعضهم في بعض بلا

حجة ولا بينة، فخرجت الخلافات عن دائرتها العلمية البحثية، وظهرت أعراضها وآثارها على العامة الذين تناولوها بعقولهم الضيقة وخاضوا فيها برؤاهم المحدودة؛ فأضحت ثمرات ذلك تفسيقا وتشنيعا، وتضليلا وتبديعا، وتشويشا وتشويها...

إن هذه الدوافع تستدعي الاهتمام والعناية والدراسة والتحليل، ولا شك أن هذا الموضوع لا يكتفى في تشخيصه وعلاجه بالمواعظ والمحاضرات والمقالات، وإنما يقتضي الأمر بحثا أكاديميا يأخذ حظه من الوقت والجهد، ونصيبه من التتبع والتقصي، وهو ما ترمي إليه هذه المحاولة البحثية.

5. أهداف البحث:

أسمى من خلال هذا البحث إلى تحقيق جملة من الغايات والمقاصد، منها:

- تحقيق بعض من مقاصد التأليف التي ذكرها علماؤنا، وهي سبعة جمعها أحمد بن عبد العزيز الهلالي (ت 1175هـ) نظما فقال⁽¹⁾:

في سبعةٍ حصروا مقاصد العُقلا *** من التأليف فاحفظها تَنَلْ أملا
أَبْدَعْ تَمَامَ بيانٍ لاختصارك في *** جمعٍ ورَتَّبْ وأصلحْ يا أخي العملا

ومقصدي من هذه الرسالة، هو تجميع الآيات القرآنية المتعلقة بوحدة الأمة، ولملمة مفرداتها، وفهم مضامينها، ثم دراستها دراسة سياقية موضوعية، تستنبط القضايا من آيات الوحدة، رجاء أن تكون الدراسة بعد تمامها، مرجعا لكل من رام البحث في هذا الموضوع - وحدة الأمة - منطلقا من مشتقات الوحدة إن شاء الله تعالى.

(1) وهذه الأبيات هي نظم لما نقله الناظم عن ابن حزم (ت: 456هـ) حيث قال: "أقسام التأليف سبعة لا يؤلف العاقل إلا في أحدها: إما شيء لم يسبق إليه يخترعه، أو ناقص يتممه، أو مستغلق يبينه، أو طويل يختصره دون إخلال بمعانيه، أو مفترق يجمعه، أو مختلط يرتبه، أو خطأ يصلحه". [ينظر: نور البصر في شرح مقدمة المختصر لأبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي، طبعة حجرية، 1309هـ، ص: 9].

- تقديم خدمة تربوية وعلمية لطلبة العلوم الشرعية، وأصحاب المنابر الدعوية، والكراسي العلمية، وللمهتمين بالشريعة الإسلامية دراسة وتخصصاً، في موضوع له صلة وثيقة بواقع الناس ومعاشهم، وذلك بتوفير مادة علمية قد تسعفهم في تناول موضوع وحدة الأمة وتبصير الناس بأهميتها وأثرها على المسلمين حاضراً ومستقبلاً.
- وضع تصور متكامل عن وحدة الأمة الإسلامية المنشودة من خلال بيان أهميتها، وتحديد الأسس التي تقوم عليها، مع بيان المقاصد والغايات التي يرام أن تتحقق من خلالها، والمرجع في تحديد ذلك كله هو آي الكتاب المبين اعتماداً، وتفسير علمائنا من المتقدمين والمتأخرين اعتضاداً.
- الكشف عن المعوقات التي تحول دون وحدة الأمة الإسلامية سواء تعلقت بأفرادها من الداخل أم بأعدائها من الخارج، مع محاولة تقديم الحلول المناسبة التي تعين على تجاوزها.

6. منهج تناول الموضوع.

أما منهجي في البحث فيحكمه طبيعة الموضوع والدراسة المقصودة، وهو تفسير موضوعي مبني على مدخل مصطلحي، يتناول استقصاء الآيات التي وردت فيها مشتقات لفظ الوحدة وتجميعها، والنظر فيها نظراً كلياً، وتفسيرها مترابطة متكاملة، واستنباط ما فيها من الأحكام، وإبراز ما تحويه من الحكم والأسرار، ليعالج من خلالها واقع الإنسان والأمة، وتُجعل معياراً لتصحيح التصورات وتصويب التصرفات، وقد اقتضى مني هذا النوع من التفسير أن أسلك الخطوات البحثية التالية:

- المرحلة الأولى: إحصاء وتتبع كل الآيات القرآنية التي وردت فيها مشتقات مصطلح الوحدة؛ إحصاء لا يغادر مشتقاً منها سواء كان له تعلق بمفهوم وحدة الأمة، أم لم يكن، وذلك لتستجمع كل المعاني التي قد تخدم تركيب مفهوم الوحدة، وتحدد معالمه، وتقرب أبعاده في النصوص القرآنية وسياقاتها، وقد اعتمدت في ذلك على المنهج الاستقرائي؛

وذلك لإبراز مكانة وحدة الأمة وحضورها في النصوص القرآنية، وتجليه المنهج القرآني الكريم في الحث عليها والتحذير مما يضادها من فرقة واختلاف. أما مصطلح الأمة فلم يحظ بنفس الجرد والتتبع والإحصاء والاستقصاء؛ إذ سبق إلى ذلك الدكتور عبد الكبير حميدي في أطروحته: «مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف» وقد تعقبته في بعض ما أورده.

- المرحلة الثانية: التصنيف والترتيب: عمدت خلالها إلى فرز الآيات المجموعة المتعلقة بموضوع وحدة الأمة، ثم قمت بتصنيفها وترتيبها وفق نسق مترابط، وقد تكون من جراء ذلك مجموعة من القضايا المتناسقة بعضها له صلة بأسس الوحدة ومقوماتها، وبعضها له صلة بمعوقات الوحدة وموانعها.

- المرحلة الثالثة: الدراسة والتحليل: وقد قمت خلال هذه المرحلة بدراسة الآيات المستقرة والمنظمة، دراسة أحسبها وافية تنطلق من تعرف أسباب النزول إن وجدت، ثم البحث عن دلالات الألفاظ واستعمالاتها، والروابط الموجودة بينها، وكذا الصلات بين سياق كل آية وسبقها ولحاقها، وذلك من أجل فهم الألفاظ القرآنية في ذاتها وفي سياق الآية التي وردت فيها، والسورة التي تضمها، وفي علاقتها بما يماثلها من كتاب الله تعالى، وهو ما يفيد في تقديم الرؤية القرآنية الشاملة والمتكاملة لموضوع البحث. ولا شك في أن المنهج التحليلي، هو الأنسب لهذه المرحلة.

- المرحلة الرابعة: التنسيق والتركيب: وبعد المراحل السابقة قمت بتركيب قضايا موضوع وحدة الأمة التي تكتنزها آيات الوحدة وترتيبها ترتيبا منطقيا، مع الحرص على الشرح والمناقشة والتوجيه والتعليل لكل قضية في ضوء الهدايات القرآنية، مستعينا بكلام أهل الاختصاص من المفسرين الأعلام.

7- الدراسات السابقة.

لا شك في أن موضوع وحدة الأمة الإسلامية من الموضوعات التي تناولها عدد من الباحثين والعلماء، في كتب ومؤلفات، وأبحاث ومقالات؛ نظرا لما يتسم به الموضوع من

أهمية وراهنية، غير أن تلك الدراسات تختلف باختلاف منهج كل باحث في تناول الموضوع.

وعموما يمكن تصنيف ما ألف في هذا الموضوع إلى مجموعات:

1- كتب ألفها علماء وباحثون اکتبوا بواقع الأمة المشرذمة، وتأثروا بأحواله، فكان منطلقهم في التأليف هو التركيز على جانب الإصلاح والتوجيه، وهذا النوع من الكتابات كثير، أقتصر ههنا على نماذج وهي:

- كتاب «الوحدة الإسلامية والأخوة الدينية» للشيخ محمد رشيد رضا رحمته الله، قصد من خلاله إلى نشر ثقافة الوحدة، والتقريب بين المذاهب الإسلامية، وتفعيل عناصر القوة في كيان الأمة لتستعيد عافيتها، إلا أن المؤلف غلبت عليه المعالجة الفقهية، والدعوة إلى ردم الهوة بين المذاهب فقها وأصولا. لذلك فالكتاب يبعد أن يكون مرجعا في وحدة الأمة من زاوية النظر القرآني الكلي والشمولي.

- كتاب «الوحدة الإسلامية» للشيخ محمد أبو زهرة رحمته الله، وأصله رسالة مختصرة، توسع المؤلف في فصولها، حتى صارت كتابا ضافيا وموسعا في مجالات وأطر الوحدة الإسلامية، وقد عالج فيه كثيرا من القضايا التي تعد سبلا مؤدية إلى تفعيل وحدة الأمة في شتى المجالات، وذكر بالأسس التي ارتكزت عليها هذه الوحدة في العهد النبوي والخلافة الراشدة وبعض مراحل التاريخ، وقدم مقترحات عدة من شأنها تذليل العقبات التي تحول دون العودة إلى الوحدة التي كانت عليها الأمة في عهدها الأول. والمؤلف - على توسعه في قضايا الوحدة - لم يتتبع الوحدة من خلال نصوص القرآن الكريم، وغلبت عليه شواهد السيرة والتاريخ.

- كتاب «الأمة الربانية الواحدة» للشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، تطرق فيه للروابط الإنسانية، وكذا لروابط الأمة الربانية، ولحركية بناء الأمة في العهد النبوي، ثم أبان عن فوائد الوحدة، ومكائد أعداء الإسلام لتفتيت هذه الأمة، وقد أتى باستدلالات قرآنية

قيمة، إلا أنه لم يهتم بتتبع واستقصاء الآيات التي تناولت الموضوع، واكتفى في بعض ما تناوله بإشارات عامة.

2- كتابات ذات صبغة أكاديمية تركز في تناولها للموضوع على الرجوع إلى القرآن الكريم، وتتبع تفاصيله في آياته، ومنها:

- كتاب «مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف» للدكتور عبد الكبير حميدي، وهو عبارة عن دراسة مفصلة عن مفهوم الأمة بمنهج الدراسة المصطلحية، تترصد دلالات مفهوم الأمة، وتبرز خصائصها، وتكشف قضاياها، وقد استفدت منها ومن مضامينها. غير أن هذه الدراسة تتسم بالعموم والشمول مقارنة ببحثي هذا، ذلك أنني أروم من خلاله تناول موضوع جزئي أخص، أقتصر من خلاله على تناول أهم قضية من قضايا الأمة، وهي قضية الوحدة انطلاقاً من القرآن الكريم، وهي قضية دقيقة أشار إليها الباحث، غير أنه تناولها في مبحث يتيم لا يتجاوز سبع عشرة صفحة.

- كتاب «منهج الكتاب والسنة في تحقيق الوحدة الإسلامية وأثره من الناحية العملية» لمحمد بن محمد بن الأمين الأنصاري، وهي رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة أم القرى بمكة، تطرق فيها الباحث لعوامل الوحدة الإسلامية، ووسائل تكوينها، وآثار تطبيق الوحدة ومعوقاتها، غير أن البحث مع كثرة صفحاته (906 صفحة) افتقد العمق في التعريف والتحليل والاستنباط؛ حيث أطنب صاحبه في سرد التعاريف والمعاني اللغوية والاصطلاحية لكل لفظة وردت في مطالب البحث (مثال ذلك: تعريفه للفترة في 25 صفحة، وللعقيدة في 44 صفحة)، وأكثر من سرد الشواهد القرآنية في كل موضوع وموضع دون التوقف عند تفسيرها واستنتاج معانيها وأسرارها، كما أسهب في الحديث عن بعض الموضوعات الجانبية دون ربطها بصلب الموضوع، (خصص مثلاً مبحثاً على امتداد 65 صفحة للحديث عن أركان الإيمان، والتوسع في تفاصيل كل ركن، دون ربط ذلك بموضوع الوحدة الإسلامية) ... والبحث لا يخلو من فوائد علمية وإشارات حسنة لامست موضوع

الوحدة. وقد جمع الباحث في بحثه هذا من النصوص مادة غزيرة يمكن استثمارها، وتعميق النظر فيها، لطرقٍ مختلفٍ جوانب موضوع الوحدة الإسلامية.

- كتاب «وحدة الأمة الإسلامية: الأسباب والمعوقات كما بينها القرآن الكريم»، وهو رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير من إعداد عبد الغني أدراعوا بماليزيا، وتندرج الرسالة ضمن محور التفسير الموضوعي، عزم فيها الباحث على تتبع موضوع الوحدة في القرآن الكريم، واستخلاص نظرة شاملة عنه من حيث الأسباب والآثار والمعوقات، معتمدا على أقوال المفسرين، مع مقارنة أسباب الوحدة في القرآن بواقع الأمة الحالي، إلا أنه خلال بحثه في الموضوع حاد عما رسمه من منهج، فأكثر من إيراد نصوص السنة استدلالا واعتمادا، بل قد خلت بعض الفصول عنده من آي القرآن (الباب الرابع في فصليه الأولين)، علما بأن عنوان البحث مقيد بما ورد في كتاب الله دون غيره، كما أنه أحيانا يسرد الآيات تباعا دون تفسير أو تفصيل.

- كتاب «دعائم الوحدة للأمة الإسلامية من خلال القرآن الكريم: دراسة موضوعية» وهو عبارة عن رسالة ماجستير أعدتها الباحثة سميرة حلمي أحمد الشناوي، نالت بها شهادة الماجستير من كلية الدراسات الإسلامية والعربية التابعة لجامعة الأزهر سنة 2017م. وهي منشورة على الانترنت، وكثيرة الصفحات (أزيد من 800 صفحة)، لكن يلاحظ عليها ما لوحظ على أطروحة الدكتور محمد بن محمد بن الأمين الأنصاري، من كثرة الاستدلال بالسنة النبوية، وهو ما يتنافى ومنهج التفسير الموضوعي. كما يغلب عليها الاستطراد في تناول بعض القضايا الخارجة عن صلب الموضوع.

أما المقالات المنشورة في المجلات والدوريات فهي كثيرة لا يتسع المقام لإيرادها، غير أن الناظر في مضامينها يجد أغلبها لا تتجاوز صفحاتها أصابع اليدين، واكتفت بإيراد بعض الآيات المتعلقة بالوحدة، مع وضع عناوين لها من غير توصيف ولا دراسة ولا تحليل عميق.

والذي أرنو إليه من خلال هذا البحث هو سد الخلة في مجال البحوث والدراسات القرآنية التي بحثت موضوع وحدة الأمة، ومحاولة استنباط أسرار النصوص القرآنية

وهداياتها، لبيان أهمية وحدة الأمة، ومدى عناية القرآن بها في خاتمة كتبه، وإبراز أهم مرتكزات هذه الوحدة وأسسها، وتجلية مقوماتها ومعوقاتهما، كل ذلك من خلال الوحي الرباني - كتاب الله - أساسا؛ وسنة النبي ﷺ استئناسا، منطلقا لتحقيق ذلك من السياق القرآني لآيات الوحدة خصوصا، ومعتضدا بآيات الذكر الحكيم المعززة للمعنى والموسعة لقضايا البحث، معتمدا في ذلك منهاجا استوحيت بعض خطواته من منهج الدراسة المصطلحية، بتوجيه من مشرفتي الدكتورة جميلة زيان، لتكون القضايا المطروقة نابعة من نصوص الوحدة الصريحة في القرآن الكريم.

8- خطة البحث.

لقد جاء تصميم هذا البحث وتنظيم محتوياته، تبعا لما اقتضته مادته ومنهج تناوله، في ثلاثة أبواب وخاتمة.

فأما الباب الأول؛ فقد خصص لتحديد المفهوم الأساسي في العنوان، حيث عرفت فيه مفهوم الوحدة لغة واصطلاحا ثم في القرآن الكريم، ثم ثنيت بتحديد مفهوم الأمة في وضعها اللغوي ومعناها الاصطلاحي وأيضا في القرآن الكريم، ثم ختمت ببيان مفهوم وحدة الأمة باعتباره مركبا إضافيا.

وأما الباب الثاني فجعلته لبيان أهمية وحدة الأمة الإسلامية ووسائلها من خلال القرآن الكريم، وقسمته إلى فصلين.

تناولت في الفصل الأول منها أهمية وحدة الأمة الإسلامية من خلال القرآن الكريم، فبينت أن الوحدة فريضة شرعية، كما أنها مقصد من مقاصد الشارع، ثم هي في النهاية مطلب حضاري أيضا. وقد خصصت لكل ملمح من ملامح هذه الأهمية مبحثا يتناول مضامينها.

وأما الفصل الثاني من هذا الباب، فأفردته للحديث عن سبل وحدة الأمة الإسلامية ومقاصدها من خلال القرآن الكريم، وذلك في مبحثين. جعلت المبحث الأول لبيان سبل وحدة الأمة، والمبحث الثاني لبيان مقاصد وحدة الأمة.

وأما الباب الثالث، تناولت فيه مقومات وحدة الأمة الإسلامية ومعوقات تحقيقها، وذلك في فصلين.

فأما الفصل الأول؛ فقد بينت فيه مقومات وحدة الأمة من خلال القرآن الكريم، وحررته في مباحث أربعة. فأما المبحث الأول فتكلمت فيه عن وحدة الخلق. وتطرقت في الثاني للحديث عن وحدة التصور العقدي. وتناولت في الثالث: وحدة المرجعية التشريعية. وفي الرابع: وحدة الشعائر التعبدية.

وأما الفصل الثاني من الباب الثالث، فقد حرصت فيه على تبين معوقات وحدة الأمة من خلال آيات الوحدة، وقد قسمته إلى مباحث خمسة. فأما المبحث الأول فتكلمت فيه عن الاختلاف. وتحدثت في الثاني عن التفرق. وتطرقت في الثالث للتقطع وأثره على الوحدة. وجعلت الرابع لبيان أثر اتباع الهوى على وحدة الأمة. وذكرت في الخامس أثر البغي على الوحدة.

وختمت البحث بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج العلمية والمنهجية التي توصلت إليها، ثم بيان بعض الآفاق العلمية التي يفتحها الموضوع والتي يمكن أن تكون مشروع بحوث ودراسات مستقبلية.

صعوبات البحث.

إن إخراج هذا البحث وفق المنهج المرسوم، وطبقا لخصوصيات الموضوع وطبيعته قد حفته عقبات وصعوبات من أبرزها:

(1) صعوبات تتعلق بالمنهج المتبع في بناء البحث وأخرى بالمتن المدروس: فالمنهج في بعض مراحله هو منهج الدراسة المصطلحية تحريرا لمفهوم وحدة الأمة، واستنباطا للقضايا الكامنة في سياق آيات الوحدة، وهو منهج يحتاج الباحث فيه إلى تمرس ومران حتى يوفق في تحقيق مقصده وبلوغ ثمرته، ولم يكن لي به من الدراية والمعرفة إلا ما امتن الله به علي من جلسات علمية ولقاءات تكوينية بين يدي أستاذتي الدكتورة: جميلة زيان، وما وجهتي إليه من مؤلفات ودراسات استعنت بها ليكتمل تصور المنهج الذي عملت على تتبعه في البحث. أما المتن المدروس فهو كلام الله المقدس والمعجز بهيته ورهبته على القلوب، وبثقله وبلاغته، وبدلالاته الواسعة والوارفة، مما يجعل النظر فيه وتقديم فهم لآياته أمرا بالغ الصعوبة، لا يؤمن الزلل فيه، وعواقب ذلك من القول على الله. ما لم يتسلح المرء بتقوى الله أولا وبعلم مكين ثانيا. لذلك سيلمس القارئ اعتمادي على أقوال المفسرين وتذليل مطالب بحثي بكلامهم وفهومهم خشية أن أزل في معنى أو أضل في مغزى، فيكون لي العذر عند ربي، أن رجعت لأهل الذكر وأخذت عن ذوي العلم.

(2) كون القرآن الكريم حمال أوجه، وهو مجال رحب لاختلاف المفسرين والشرح، اختلافا جعل مهمتي شاقة في استيعاب هذا الخلاف أحيانا، وتحرير الراجح من المرجوح، لما يحتاجه ذلك من تتبع للسياقات القرآنية، ونظر في أسباب النزول وغيرها من أنواع علوم القرآن، وهذا أمر يتطلب من الباحث اجتهدا عقليا حصيفا، ونفسا عميقا ونظرا دقيقا.

(3) تشعب الموضوع: إن من أجل صعوبات هذا البحث كون مادته مبثوثة في القرآن الكريم كله؛ إذ تجدها حاضرة في سياق الحديث عن العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق، بل مضمنة حتى في القصص والأخبار والوعد والوعيد، وذلك عائد إلى طبيعة القرآن التركيبية، كما أن تلك المادة فيها ما هو واضح الدلالة وفيها الخفي والمشكل والمجمل والعام والخاص... وهذا يحتاج إلى جهد وتبع ونظر في كلام المفسرين وغيرهم حتى تتجلى هذه الهدايات القرآنية الدالة على وحدة الأمة، وقد كان من رحمة الله بي؛ توجيه أستاذتي إياي إلى ضبط البحث في حدود القضايا التي وردت في سياق الآيات التي تضمنت الوحدة

ومشتقاتها وهي كثيرة، لعلمها بسعة الموضوع، وأن الوحدة حاضرة في كل تفاصيل الشريعة وأحكامها، أصولها وفروعها.

وبعد هذا كله أود في خاتمة هذه الفاتحة أن أقول إن هذه الصعوبات المنهجية والمعرفية -وغيرها من الصعوبات التي ارتأيت أن احتفظ بها لنفسي- ما كانت لتثني عزمي، وتفت من عضدي، وتحول بيني وبين إتمام هذا البحث، وهذا توفيق وفضل من الله تعالى يستدعي مني الشكر والحمد والثناء، ثم هو بعد ذلك تسديد ودعم وإشراف من لدن الأستاذة الفاضلة، والمشرفة المتفانية: الدكتورة جميلة زيان، أحاطها الله بسياج الحفظ والأمان، التي لم تأل جهداً في تتبع بناء هذا البحث لبنة لبنة، وتقديم التوجيه والإرشاد باستمرار، حتى استقام على ما هو عليه بين يدي القارئ الكريم. فالله تعالى أسأل أن يثيبها على ذلك خيراً، وأن يديم علينا توجيهاً تترى، وأن يبارك في علمها، وأن يحفظها من كل المكاره، وأن يجزيها عني خير الجزاء. إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، والحمد لله رب العالمين.

الباب الأول

☐ وحدة الأمة: تعريف مصطلحي



☐ وفيه فصلان:



✓ الفصل الأول: مفهوم مصطلح الوحدة. ☐

✓ الفصل الثاني: مفهوم مصطلح الأمة. ☐



توطئة

يتوخى البحث في هذا الباب الأول تحقيق ما يلي:

أولاً: الوقوف على دلالة لفظي «الوحدة» و «الأمة» في اللغة والاصطلاح العام.

ثانياً: الوقوف على الدلالة القرآنية للفظين - الوحدة والأمة - وصياغة تعريف مناسب للمركب الإضافي «وحدة الأمة».

وسيتم البدء بتحديد الدلالة المعجمية اللغوية للفظين بغية الوقوف على الأصل الاشتقاقي لكل لفظ في اللغة، وتعرف مداره ومعناه، للوصول بعد ذلك إلى معرفة المأخذ أو الأصل الدلالي الذي منه أخذ، وشرح معناه في ضوء هذا الأصل.

وستمثل الدراسة اللغوية والمعجمية والاصطلاحية الفرش النظري الضروري لفقه المصطلحين، وتحليل معانيهما وعناصرهما، ثم الوقوف على أبعادهما وامتداداتهما في الآيات القرآنية.

وسيكون ذلك في فصلين، يندرج تحت كل منهما مباحث:

الفصل الأول: يتعلق بمفهوم الوحدة في اللغة والاصطلاح والقرآن الكريم.

الفصل الثاني: يتعلق بمفهوم الأمة في اللغة والاصطلاح والقرآن الكريم، مع صياغة تعريف جامع مانع للمركب الإضافي «وحدة الأمة الإسلامية».



□ الفصل الأول: □

□ مفهوم مصطلح الوحدة. □



□ وفيه ثلاثة مباحث: □

✓ المبحث الأول: تعريف الوحدة في اللغة. □

✓ المبحث الثاني: تعريف الوحدة في الاصطلاح. □

✓ المبحث الثالث: مفهوم الوحدة في القرآن الكريم. □

الفصل الأول مفهوم مصطلح الوحدة.

المبحث الأول: مفهوم الوحدة في اللغة.

إن تحديد المعنى اللغوي للفظ الوحدة يستلزم الوقوف على مشتقاته، لمعرفة موقعه ضمن أسرته اللغوية المكونة منه ومن بقية المشتقات المنتمية معه إلى نفس الجذر اللغوي، ثم البحث عن دلالات تلك المشتقات للوصول إلى تحديد الدلالة الأصلية للجذر ككل، والتي تمثل الباب الذي سندلف من خلاله إلى معنى مشتق (الوحدة).

وقد أفضت عملية الرصد والتجميع للمشتقات في المعاجم اللغوية المدروسة⁽¹⁾ إلى النتيجة المبينة في الجدول الآتي:

المشتقات	المادة اللغوية
الْأَحَدُ، الْآحَادُ، الْأُحْدَانُ، أَحَدٌ، إِحْدَى، الْإِحْدُ، وَاحِدٌ، أَحَدٌ، أَحَادٌ، إِحْدَى، الْإِحْدُ.	أ ح د
أَحَدٌ، وَحَدٌ، وَحَدٌ، حِدَةٌ، وَاحِدٌ، وَحِيدٌ، وَحْدَةٌ، وَحُودٌ، وَحْدَةٌ، وَحْدَةٌ، مَوْحِدٌ، أَحَادٌ، أُوحِدُ، إِحْدَى، أُحِيدُ، مُوَحِّدٌ، أُحْدَانُ، وَحْدَانُ، وَحَادَةٌ، وَحَادَةٌ، وَحُودَةٌ، مُتَوَحِّدٌ، مُوَحِّدٌ، تَوْحِيدٌ، إِيْحَادٌ، تَوْحُّدٌ، مِيْحَادٌ، وَحِيدَةٌ، وَاحِدَةٌ، أُحِيدَى، أُحْدِيَّةٌ، إِتْحَادٌ، وَاحِدُونَ، وَحْدَانِيَّةٌ، وَحْدَانِيٌّ، مَوَاحِيدٌ.	و ح د

ومن خلال التأمل والنظر ضمن مادة المشتق «الوحدة» في هذه المعاجم اللغوية خلصت إلى النتائج الآتية:

(1) وهي: العين والصحاح والتكملة واللسان والقاموس المحيط والتاج...

أولاً: إن مشتق الوحدة ينحدر من الجذر اللغوي «و. ح. د» غير أن بعض مشتقاته ورد في بعض المعاجم اللغوية ضمن الجذر «أ. ح. د»،⁽¹⁾ وهذا ينبىء عن الارتباط بين هذين الجذرين على مستوى الدلالة الأصلية.⁽²⁾

ثانياً: إن الجذر «و. ح. د» يتميز بنوع من الثراء والخصوبة الاشتقاقية، فقد أحصيت من مشتقاته أحدا وأربعين مشتقا، وهذا التميز والغنى الذي يتمتع به الجذر ضمن أسرته أو بابه من الجذور اللغوية سوف يساعد على وضع هذا اللفظ -الوحدة- في إطاره الدلالي العام الذي يعبر عنه الجذر اللغوي ككل.

وقد تبين من خلال البحث والتدبر في معاني هذه المشتقات أن الدلالات الكبرى للفظ «الوحدة» تنتظم ضمن أربعة معانٍ أصلية، وهي:



(1) ينظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1421 هـ - 2000 م، (مادة: أ ح د)، 407/3. والتكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية للصفاني، تحقيق: إبراهيم إسماعيل الأبياري، راجعه محمد خلف الله أحمد، مطبعة دار الكتب - القاهرة، السنة: 1391 هـ - 1971 م، (مادة: أ ح د)، 189/2-190.

(2) الهمزة أصلها واو. قال الأزهري: "والأَحَدُ أصلها الْوَحْدُ..." وقال أبو إسحاق النحوي: "الأحد أصله الوحد". (تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، تحقيق: عبد الله درويش، مراجعة: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، (مادة: أ ح د)، 194/5).

وقال ابن سيده المرسى: "وَالْوَحْدُ وَالْأَحَدُ كالواحد همزته بدل من واو". (المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، 489/3). وقال ابن منظور: "تقول ما جاء من أحد، والهمزة بدل من الواو وأصله وَحْدٌ لأنه من الوحدة، والأحد بمعنى الواحد." (لسان العرب لابن منظور، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة: 1419 هـ - 1999 م، (مادة: أ ح د)، 82/1). قال الأزهري: "يقال في جمع الواحد أُحْدَانٌ والأصل وَحْدَانٌ فقلبت الواو همزة لانضمامها". (لسان العرب لابن منظور، 230/15).

المعنى الأول: الوحدة بمعنى الانفراد.

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170) رَحِمَهُ اللهُ: «وَحَدَّ: الوَحْدُ: المنفرد... ووَحَدَ الشيء فهو يَحِدُّ حِدَةً... والرجل الوحيد ذو الوحدة، وهو المنفرد لا أنيس له، وقد وَحَدَ يُوَحِدُ وَحَادَةً وَوَحْدَةً وَوَحْدًا».(1)

والوحدة الانفراد، تقول رأيته وحده... أَوْحَدْتُهُ برؤيتي إichادا: أي لم أر غيره.(2) ورجل وَحِدٌ وَوَحْدٌ ووحيد: أي منفرد، وتوحد برأيه: تفرد به، وفعل ذاك من ذات حِدَتِهِ، وعلى ذات حِدَتِهِ، ومن ذي حِدَتِهِ: أي من ذات نفسه ومن ذات رأيه(3) أي انفرد برأيه ولم يشرك معه أحدا. ويقال وحِد فلان، بالكسر، ووَحِد بالضم، أي بقي وحده ودخلوا مَوْحَدًا مَوْحَدَ أي فرادى... وَأَوْحَدَتِ الشاة فهي مُوَحِدٌ: أي وضعت واحدا،(4) وفيه معنى الانفراد. ومتوحد أي منفرد، والأنثى وَحِدَةٌ... وكان رجلا مُتَوَحِّدًا أي منفردا لا يخالط الناس ولا يجالسهم.

ويقال رأيته وحده وجلس وحده أي: منفردا.(5) ويقال: أَوَحَدْتُهُ إichادا: أي أفردته،(6) وجعله في قبر على حدة: أي منفردا وحده.(7)

(1) كتاب العين مرتبا على حروف المعجم للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1424هـ - 2003م، (مادة: أ ح د)، 351-350/4.

(2) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة: 1990م، (مادة: أ ح د)، 547/2.

(3) التكملة والذيل والصلة، 357/2. تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، راجعته: لجنة فنية من وزارة الإعلام بالكويت، مطبعة حكومة الكويت، 1391هـ - 1971م، (مادة: أ ح د)، 265/9. القاموس المحيط للفيروز آبادي، وبهامشه تعليقات وشروح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، السنة: 1400 هـ - 1980م، (مادة: أ ح د)، 340/1.

(4) الصحاح للجوهري، 548/2.

(5) لسان العرب، 231/15 - 232.

(6) تاج العروس، 267/9. الصحاح، 548/2.

(7) تاج العروس، 268/9.

قال ابن سيده (ت458هـ) رَحِمَهُ اللهُ وأما قوله:

طاروا إليه زرافات ووحدانا⁽¹⁾

فقد يجوز أن يعنى أفرادا، وهو أجود لقوله: زرافات.⁽²⁾ وصلينا وُحدانا: أي منفردين.⁽³⁾ والميحاد: الأكمة المفردة.⁽⁴⁾

وحكى سيبويه (ت: 180هـ) رَحِمَهُ اللهُ: الوحدة في معنى التوحد.⁽⁵⁾ واتحد الشيطان اتحادا صارا شيئا واحدا، وذلك كما يختلط الماء بالماء.⁽⁶⁾

واستأحد الرجل: انفرد،⁽⁷⁾ واستوحد: انفرد،⁽⁸⁾ والوحداني: المفارق للجماعة المنفرد بنفسه، وهو منسوب إلى الوحدة والانفراد بزيادة الألف والنون للمبالغة⁽⁹⁾ والموحد من الحروف ما كان ذا نقطة واحدة كالباء، ويقال لها موحد تحتية، والنون ويقال لها موحد فوقية.⁽¹⁰⁾

(1) هذا عجز بيت شعري للعنبري. ينظر: شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد الأصفهاني، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 1424هـ - 2003م، ص: 23.

(2) المحكم والمحيط الأعظم، 489/3.

(3) لسان العرب، 231/15. تاج العروس، 264/9.

(4) التكملة والذيل والصلة، 357/2. لسان العرب، 234/15.

(5) لسان العرب، 232/15. تاج العروس، 274/9.

(6) محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية لبطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة: 1987م، (مادة: أ. ح. د)، ص: 960.

(7) المحكم والمحيط الأعظم، 407/3.

(8) أساس البلاغة للزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1419هـ - 1998م، (مادة: أ. ح. د)، 323/2.

(9) لسان العرب، 234/15. تاج العروس، 269/9.

(10) أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد لسعيد الخوري الشرتوني اللبناني، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، 1403هـ. ص: 1432. و ينظر: المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة: 1425هـ - 2004م، ص: 1016.

وقد جعل ابن فارس (ت395هـ) رَحْمَةُ اللهِ الانفراد هو مدار مادة «و. ح. د» فقال رَحْمَةُ اللهِ: «الواو والحاء والذال أصل واحد يدل على الانفراد، من ذلك الوحدة».(1)

وجمع الاستعمالات الواردة في المعاجم تدل على الإفراد والانفراد والتفرد، وهو المعنى الظاهر للوحدة في معظم اشتقاقاتها، وهو «في مقابل الكثرة والتعدد».(2)

المعنى الثاني: الوحدة بمعنى انقطاع النظر.

قال الجوهري (ت: 393هـ) رَحْمَةُ اللهِ: «فلان واحد دهره: أي لا نظير له، وفلان لا واحد له. وأوحده الله: جعله واحد زمانه».(3) ويقال فلان قريع وحده... وهو الذي لا يقارعه في الفضل أحد،(4) وهو واحد قبيلته إذا لم يكن فيهم مثله، قال:

يا واحدَ العُربِ الذي *** ما في الأنام له نظير(5)

ويقال نسيج وحده: أي لا ينسج مثله لنفسه.(6) وفلان أوحده أهل زمانه، والجمع أُحْدَانٌ... وأصله وُحْدَانٌ قال الكميت:

فبَاكَرَهُ وَالشَّمْسُ لَمْ يَدُ قَرْنُهَا *** بِأُحْدَانِهِ الْمُسْتَوْلِغَاتِ الْمُكَلَّبِ(7)

(1) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة: 1399هـ - 1979م، (مادة: و ح د)، 90/6.

(2) محيط المحيط، ص: 960.

(3) الصحاح، 548/2.

(4) كتاب العين، 351/4.

(5) معجم مقاييس اللغة، 90/6. وينظر البيت الشعري في: المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي لأبي الفرج المعاني الجري، تحقيق: محمد مرسى الخولي وإحسان عباس، عالم الكتب، الطبعة الأولى: 1413هـ - 1993م، 186/1.

(6) معجم مقاييس اللغة، 91/6.

(7) شرح هاشميات الكميت لأبي رياش أحمد بن إبراهيم القيسي، تحقيق: داود سلوم ونوري حمود القيسي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية: 1406هـ - 1986م، ص: 96.

يعني بكلايه التي لا مثلها كلاب⁽¹⁾ ومنه قولهم: «رجل واحد: متقدم في بأس أو علم أو غير ذلك، كأنه لا مثل له فهو وحده لذلك، قال أبو خراش:

أقبلتُ لا يشتدُّ شدِّي واحدٌ *** علجٌ أقبُّ مُسِيرُ الأقراب⁽²⁾

وفي قول ابن سيده (ت: 458هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «طاروا إليه زرافات ووحداناً» يجوز أن يعنى به الشجعان الذين لا نظير لهم في البأس،⁽³⁾ وقوله:

ليهني ثرائي لا مريئ غير ذلةٍ *** صنابرُ أُحْدانٍ لهن حفيف⁽⁴⁾

فإنه عنى بالأحْدان السهام التي لا نظائر لها.⁽⁵⁾

وقال أبو عبيد في قول عائشة ووصفها عمر رضي الله عنه: «كان والله أحوذيا نسيج وحده،⁽⁶⁾ تعني: أنه ليس له شبيه في رأيه وجميع أموره». ⁽⁷⁾



(1) الصحاح، 548/2.

(2) لسان العرب، 230/15. وينظر البيت الشعري في: شرح أشعار الهذليين لصنعة السكري، تحقيق عبد الستار فراج، ومراجعة محمود محمد شاكر، دار العروبة، القاهرة، طبعة: 1384هـ - 1965م، 1240/3.

(3) المحكم والمحيط الأعظم، 489/3.

(4) تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، مراجعة: علي محمد البيحاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 271 / 12.

(5) المصدر نفسه، 489/3.

(6) مصنف ابن أبي شيبة تحقيق: محمد عوامة، شركة دار قرطبة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1427هـ - 2006م، كتاب المغازي، باب ما جاء في خلافة أبي بكر وسيرته في الردة، ح: 38210، 584/20.

(7) لسان العرب، 232/15. تاج العروس، 272/9.

المعنى الثالث: الوحدة بمعنى عدم قبول التجزؤ والانقسام.⁽¹⁾

قال ابن منظور (ت 711هـ) رَحِمَهُ اللهُ، بعد إيراده لمعنى الانفراد وانعدام المثل والنظير: «وقيل الواحد: هو الذي لا يجزأ ولا يثنى ولا يقبل الانقسام...».⁽²⁾

فما امتنع فيه التجزي إما لصغره وإما لصلابته سمي واحدا.⁽³⁾

المعنى الرابع: الوحدة بمعنى الاتفاق.

جاء في محيط المحيط في معاني مادة «و.ح.د» ومشتقاتها: «اتحد الشيئان: صارا شيئا واحدا، وذلك كما يختلط الماء بالماء... والقوم اتفقوا».⁽⁴⁾

وهذا المعنى يؤول إلى المعنى الأول وهو الانفراد والتفرد، فاتحاد الشيئين تصورهما شيئا واحدا فردا بعد أن كانا اثنين، ومنه جاء في المعجم الوسيط «اتحد: انفرد».⁽⁵⁾

تعليق.

من مجموع ما ورد في المعاجم اللغوية من معاني الوحدة واشتقاقاتها يمكن أن يستفاد ما يلي:

إن معاني الوحدة متداخلة متقاربة، ومردّها عند التأمل إلى أصل واحد وهو الانفراد كما صرح به ابن فارس إلا أنه لم يشر إلى المعنيين الآخرين -عدم قبول التجزؤ والانقسام وكذا معنى الاتفاق- ولم يعن بالربط بين المعنيين الأولين اللذين ذكرهما.

(1) لم يرد هذا المعنى في كتب المعاجم اللغوية المتقدمة ككتاب العين، وتهذيب اللغة، والصحاح، ومعجم مقاييس اللغة، والمجمل، والمحكم والمحيط الأعظم، وأساس البلاغة، والتكملة والذيل والصلة. وأول من ذكره هو صاحب اللسان، وورد ذكره في كتب الاصطلاح، وسيأتي إيراده في المبحث التالي.

(2) لسان العرب، 233/15. تاج العروس، 269/9.

(3) تاج العروس، 275/9.

(4) محيط المحيط، ص: 960. وينظر: أقرب الموارد، 1432.

(5) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية، ص: 1016.

فالوحدة بمعنى الانفراد هو الأصل الدلالي الذي تؤول إليه المعاني الثلاثة الأخرى؛ إذ انقطاع النظر وعوز المثل يعني التفرد بخصائص وصفات بحيث لا يماثله فيها غيره. فقولهم: «فلان واحد دهره: أي لا نظير له»⁽¹⁾ فهو منفرد من حيث كونه لا يضاهيه أحد في صفته.

وقولهم: «وفلان قريع وحده وهو الذي لا يقارعه في الفضل أحد»⁽²⁾ أي إنه منفرد من حيث لا يماثله أحد في قوته وفضله. وفي قول ابن سيده: «طاروا إليه زرافات ووحدا» عنى بقوله أحدا: أفرادا، وجاز أن يعني به الشجعان الذين لا نظير لهم في البأس، وهذا المعنى يؤول إلى الأول فهم منفردون بوصف الشجاعة والبسالة.

والوحدة بالمعنى الثالث، وهو عدم قبول التجزؤ والانقسام، دال على قوة التماسك وشدة الارتباط بين مكونات الشيء وعناصره، لكأنه شيء واحد لا يقبل تشية ولا كثرة ولا تعددا. فالجسم إذا بلغ درجة من الدقة والصغر انفرد بها عن بقية الأجسام فلا يقبل انقساما، وإذا تصلب واشتد تفرد بصفة الصلابة حتى لا يستطاع تجزئته وتقسيمه.

والوحدة بالمعنى الرابع، وهو الاتحاد والاتفاق دال على معنى الانفراد، حيث يصير الجمع المتنوع والكثرة المتعددة المختلفة متألفة متفقة كأنها فرد واحد.⁽³⁾ فاتحاد الشيئين تصيرهما شيئا واحدا، واتحاد القوم اتفاقهم حتى يصيروا على قلب رجل واحد، ويصبحوا لكأنهم فرد واحد.

(1) الصحاح، 548/2.

(2) كتاب العين، 351/4.

(3) يدل على هذا المعنى ما رواه النعمان بن بشير عن النبي ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». (صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، مكتبة الرشد، الرياض - المملكة العربية السعودية، طبعة: 1422 هـ - 2001 م، ح: 2586، 2000/4).

وتجدر الإشارة إلى أنني لم أقف فيما اطلعت عليه من المعاجم اللغوية على من استعمل لفظ الوحدة⁽¹⁾ - بالكسر - وإنما ورد ذكر الوحدة - بالفتح - إلا ما كان من قاسم بن علي الحريري (ت: 516هـ) رَحِمَهُ اللهُ حيث أشار إلى الفرق بين المشتقين فقال: «ومن أوهامهم أنهم لا يفرقون بين الوحدة - بفتح الواو - والوحدة - بخفضها - فيقولون: الوحدة العربية: ويعنون انصهار الدول العربية في دولة واحدة، فيوهمون لأن الوحدة - بالفتح - تعني الانفراد بينما الوحدة بالخفض تعني الارتباط والانصهار وجمع الأجزاء... وعلى هذا تكون الوحدة من الانفراد وتكون الوحدة من الاتحاد»⁽²⁾.

وهذا المعنى: الاتحاد والارتباط قد ورد في المعاجم اللغوية المعاصرة كما سبقت الإشارة في معاني مادة «و.ح.د»⁽³⁾ وهو آيل إلى معنى الانفراد. إذ اتفاق الآحاد واجتماع الأفراد يجعل منهم كيانا واحدا منفردا لا يقبل تجزؤا ولا انقساما. واتحاد القوم اجتماعهم كأنهم صاروا شخصا واحدا.

وخلاصة القول: إن بين المصطلحين تكاملا؛ فالوحدة - بالكسر - وسيلة، والوحدة - بالفتح - مقصد، فنحن مأمورون أن نكون أمة واحدة كالجسد الواحد لا أجزاء منقسمة، وهذا مقصد لن يتحقق إلا بانضمام أفرادنا وجمع جماعاتنا في سلك واحد وعلى سبيل ومنهج واحد، نقصد وجهة واحدة وغاية واحدة، فتكون الوحدة وهي ضم الكثرة وجمعها في سلك واحد وسيلة لتحقيق الوحدة التي لا تقبل الانقسام والتجزئة - وهي المقصد -.

(1) ذكر المناوي عند شرح حديث رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في الوحدة ما أعلم ما سار راكب بليل وحده»، (صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب السير وحده، ح: 2998، 328/2)، أن السفاسي أنكر الوحدة بالكسر. (فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية: 1391هـ - 1972م. 336/5).

وخالفه في ذلك ابن حجر رحمه الله، فقال: "والوحدة بالفتح، ويجوز كسرهما، ومنعها بعضهم". (فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز بن باز. ترقيم وتبويب: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة: 1424هـ - 2004م، 155/6).

(2) درة الغواص في أوهام الخواص، لأبي محمد الحريري البصري، تحقيق: عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1418هـ - 1998م، (مادة: و ح د)، 291/1.

(3) محيط المحيط، ص: 960، وينظر أقرب الموارد، ص: 1432.

المبحث الثاني: مفهوم الوحدة في الاصطلاح العام.

إن الوحدة في الاصطلاح العام من المصطلحات التي حافظت على معناها المعجمي اللغوي إذ لم تتعد كتب التعريفات الاصطلاحية⁽¹⁾ ما تداولته المعاجم اللغوية في شأن معنى الوحدة. قال الراغب الأصفهاني (ت: 502هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «الوحدة: الانفراد... والواحد هو الشيء الذي لا جزء له البتة»،⁽²⁾ فأشار إلى المعنى اللغوي الأول - الذي عده ابن فارس أصلاً وعليه المدار وهو الانفراد - ثم ذكر المعنى الثاني وهو عدم قبول التجزؤ والانقسام، ومنه وصف الله بالواحد «وهو الذي لا يصح عليه التجزي ولا التكثر»،⁽³⁾ وأشار الراغب أيضاً إلى المعنى الثالث - وهو انعدام القرن والنظير والمثيل - في معرض ذكره لأوجه إطلاق لفظ الواحد.⁽⁴⁾

(1) ينظر: المفردات في غريب القرآن، وأساس البلاغة، والنهاية في غريب الحديث والأثر، وكتاب التعريفات، والتوقيف على مهمات التعاريف، والكليبات، وموسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، ودستور العلماء.

(2) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: مركز الدراسات والبحوث، مكتبة نزار مصطفى الباز، (مادة و. ح. د)، 667/2.

(3) المصدر نفسه، 667/2.

(4) عد الراغب لفظ الواحد من المشترك على ستة أوجه وهي: "الأول: ما كان واحداً في الجنس أو في النوع كقولنا: الإنسان والفرس واحد في الجنس، وزيد وعمر واحد في النوع. الثاني: ما كان واحداً بالاتصال إما من حيث الخلقة، كقولك: شخص واحد، وإما من حيث الصناعة، كقولك: حرفة واحدة. الثالث: ما كان واحداً لعدم نظيره إما في الخلقة، كقولك: شمس واحدة، وإما في دعوى الفضيلة، كقولك: فلان واحد دهره، وكقولك: نسيج وحده. الرابع: ما كان واحداً لامتناع التجزيء فيه إما لصغره كالهباء، وإما لصلابته كالألماس. الخامس: للمبدأ، إما لمبدأ العدد كقولك: واحد، إثنان. وإما لمبدأ الخط كقولك: النقطة الواحدة".

(المفردات في غريب القرآن 667/2). وقد نقل عنه المناوي هذا التقسيم ولم يتجاوزه في كتابه: التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب - القاهرة، الطبعة الأولى: 1410هـ - 1990م، ص: 335.

وقد حصر الكفوي (ت: 1094هـ) رَحِمَهُ اللهُ معنى الواحد في هذين الأخيرين - عدم الانقسام وانعدام النظير - ثم قال عقبه: «وليس في الوجود من يتصف بالمعنيين حقيقة سوى الله تعالى».(1)

والوحدة تطلق بإزاء الكثرة،(2) وهو أمر متصور بديهية لا يحتاج معه إلى نظر وتدبر؛ قال التهانوي (ت: 1191هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أن ما ذكر تعريفات لفظية لا حقيقية لأن تصور الوحدة والكثرة بديهي كما عرفت - وإلا يدور - لأننا إذا قلنا الوحدة كون الشيء بحيث لا ينقسم إلى أمور متشاركة في الماهية، فقد قلنا إن الوحدة كون الشيء بحيث لا يتكرر ضرورة، فقد أخذنا الكثرة في تعريف الوحدة... والكثرة لا يمكن تعريفها إلا بالوحدة، لأن الوحدة مبدأ الكثرة ومنها وجودها وماهيتها، ولذا أي تعريف يعرف به الكثرة يستعمل فيه الوحدة».(3) فإدراك معنى الوحدة من الإدراك التصوري الضروري وإنما ورد التعريف بالمقابلة توضيحاً كما أشار الأحمدي نكري (ت: ق 12هـ) رَحِمَهُ اللهُ في دستوره.(4)

أما المعنى الرابع للوحدة في كتب الاصطلاح - وهو الاتفاق والاجتماع - فقد أشار إليه الزمخشري (ت: 538هـ) رَحِمَهُ اللهُ حين قال: «اتحد الرجلان: بينهما اتحاد»(5)، ولعله لم يذكر المعنى - الاتفاق والاجتماع - تصريحاً لوضوحه، بخلاف ما فعله الجرجاني (ت:

(1) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية للكفوي، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية: 1419هـ - 1998م، ص: 931.

(2) الكليات، ص: 931. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناتي، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى: - 1996م، 1774/2. دستور العلماء، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون للقاضي الأحمدي نكري، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت، الطبعة الأولى: 1421هـ - 2000م، 310/3.

(3) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، 1774/2.

(4) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون للقاضي الأحمدي نكري، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت، الطبعة الأولى: 1421هـ - 2000م، 310/3.

(5) أساس البلاغة، 323/2.

816هـ) رَحِمَهُ اللهُ: حيث أبان المعنى في تعريفه للاتحاد فقال: «امتزاج الشئيين واختلاطهما حتى يصيرا شيئا واحدا». (1)

وبهذا المعنى الأخير للوحدة عرفها بعضهم فقال: «اتحاد الدول أو البلدان والأفراد والجماعات في سائر أمورهم وحياتهم ومعاشهم وسيرتهم وغايتهم، وبموجب هذه الوحدة يصبح الجميع شيئا واحدا وأمة واحدة». (2) فالوحدة بحسب هذا المعنى - وهو المقصود في الأطروحة - تعني انتظام أفراد الأمة في جماعة واحدة كأنهم جسد واحد، كما وصفهم النبي ﷺ لا يغني عضو فيه عن عضو، يلتحم أعضاؤه ويتكاتف أفرادها كالبنيان المرصوص، وهذه الوحدة هي التي لا تقبل الانقسام والتجزئة، كأن الجمع والأمة فرد واحد لا تعدد فيه. (3) وهذا باعتبار ما ينبغي ويلزم لا باعتبار ما هو كائن وواقع.

وقد تحمل الوحدة معنى التفرد أيضا كما سبق في أصل المادة اللغوية، وفي كتب الاصطلاح، ومرد ذلك إلى أن الأمة لما أضيفت إلى الوحدة دل على نوع تفرد بخصال ومزايا تجعلها تنفصل عن غيرها من الأمم التي لا تتمتع بتلكم الخصال والسمات، فتفردت الأمة بخصائص وقيم وأهداف وآداب، فكانت واحدة منفردة لا نظير لها بين الأمم.

فالوحدة تعني التفرد من هذه الحثيثة، وتعني عدم قبول العضوية والتقسيم كأن الجمع واحد والأمة واحدة، والواحد في الحقيقة ما لا جزء له البتة.



(1) كتاب التعريفات للجرجاني، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار النفائس، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1424هـ - 2003م، ص: 64.

(2) وحدة الأمة الإسلامية في السنة النبوية لأحمد عمر هاشم، بحث مقدم للملتقى الأول للعلماء المسلمين تحت عنوان: وحدة الأمة الإسلامية في مكة المكرمة، مطابع رابطة العالم الإسلامي، الطبعة الأولى: 1427هـ - 2006م. ص: 7.

(3) نفي التعدد والتكثر ههنا إنما هو نفي للتعدد المذموم الذي يؤول إلى تطاحن وتصارع. أما تعدد التنوع مع اتفاق القصد واتئلاف القلوب فهو أمر محمود مطلوب مرغوب.

وحاصل الكلام بعد النظر في المعاجم اللغوية والاصطلاحية:

إن لفظ الوحدة مشتق من الجذر اللغوي (و. ح. د)، وجماع استعمالات هذا الجذر ومشتقاته في المعاجم اللغوية والاصطلاحية يدل على الانفراد، وهو المعنى الأصلي الذي ترجع إليه المعاني الأخرى وتتفرع عنه، فالوحدة بمعنى انقطاع النظير يعني التفرد بخصائص وصفات لا تماثل ولا تسامى، والوحدة بمعنى عدم قبول التجزؤ يعني قوة الارتباط بين شيئين أو أكثر كأنهم شيء واحد فرد، والوحدة بمعنى الاتحاد دال على الاتفاق آيل إلى الالتحام حيث تصبح الكثرة المتعددة متحدة كفرد واحد.

فالمعاني الثلاثة الفرعية متداخلة مع المعنى الأصلي، والخيط الناظم لها والرابط بينها ظاهر لمن تأمله، ولعل هذا يمهّد السبيل لبحث مصطلح الوحدة في القرآن الكريم واستنباط معانيه، ورصد شيء من تطوره الدلالي، ومقاربة المعنى المنشود منه والمناسب لهذه الأطروحة.



المبحث الثالث: مفهوم الوحدة في القرآن الكريم.

من المعلوم عند أهل اللغة أن القرآن الكريم بعد نزوله أحدث تغييرا في حياة الناس، وكذا في لغتهم؛ قال ابن فارس: «كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائهم وقرابينهم، فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع آخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت»⁽¹⁾ وبناء عليه يقصد هذا المبحث رسم معالم مصطلح الوحدة واستجماع معانيه عبر استنطاق نصوصه التي هي بمثابة المجال الحيوي والإطار المرجعي الذي يستند عليه في تقريب المعنى وصياغة تعريف مناسب للفظ، متوافق ومقصد البحث، لذا سأعمل على تتبع لفظ الوحدة ومشتقاته في الآيات وأقوال أهل التفسير فيها، لبيان مفهومه، وإبراز ما أحدثه القرآن من طفرة دلالية فيه.

3-1 إحصاء موارد الوحدة وصيغها في القرآن الكريم.

إن أكثر ما ورد من مادة «و ح د» في القرآن الكريم مرتبط بمشتقين اثنين: «واحد» و«واحدة» وورد مصدر «وحده» وصيغة المبالغة «وحيد» أما لفظ «الوحدة» بهذه الصيغة المصدرية فلم يرد له ذكر في القرآن الكريم، وبيان ذلك في الجدول التالي:

عدد مرات الورد	المشتقات	
30 مرة	واحد	الصفة المشبهة
31 مرة	واحدة	الصفة المشبهة
6 مرات	وحده	المصدر

(1) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لابن فارس، علق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1418هـ - 1997م، ص: 44.

صيغة المبالغة	وحيد	مرة واحدة
---------------	------	-----------

فقد وردت مشتقات الوحدة في ثلاث صيغ هي:

أ - صيغة الصفة المشبهة باسم الفاعل: «واحد» و «واحدة». وقد وردت هذه الصيغة في واحد وستين موضعاً، ثلاثون منها بصيغة «واحد»، ومن أمثلتها:

* قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسِي لَنْ نَّصِيرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: 60].

* وقوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا﴾ [البقرة: 132].

* وقوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 162].

* وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: 170].

* وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: 75].

وقد وردت هذه الصيغة في اثنين وعشرين موضعاً في سياق إثبات الوجدانية لله تعالى؛ ست منها بصيغة الاسمية إثباتاً لله عز وجل «الواحد» وفي ستة عشر موضعاً ورد مقيداً بوصف الإلهية «إله واحد».

وورد بصيغة «واحدة» في واحد وثلاثين موضعاً منها:

* قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: 211].

* وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ بِتَفْؤُا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1].

* وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْكُمْ﴾ [المائدة: 50].

* وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: 99].

* وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: 118].

إحدى عشرة منها في سياق الوعيد والإهلاك للكفرة المكذبين، وتسعاً في سياق إثبات وحدة الأمة، وأربعاً في سياق التذكير بوحدة الخلق والنشأة من نفس واحدة.

ب - صيغة المصدر «وحده»، ووردت هذه الصيغة في ستة مواضع وهي:

* قوله تعالى: ﴿فَالَوْأَ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: 69].

* وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْفُرْعَانِ وَحْدَهُ، وَلَوْأَ عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: 46].

* وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ إِشْمَازَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: 42].

* وقوله تعالى: ﴿ذَالِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ، كَبَرْتُمْ﴾ [غافر: 11].

* وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [غافر: 83].

* وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [المتحنة: 4].

وهذه الصيغ كلها في سياق الحديث عن وحدانية الله تعالى إما إثباتا وتقريراً وتأكيذاً، وإما حكاية لقول الكفار في إنكارهم وتوليهم على أدبارهم واشمئزاز قلوبهم من توحيد الله، وكفرهم به.

ج - صيغة المبالغة: وحيدا، وقد وردت في سياق التهديد في موضع واحد من القرآن الكريم عند قوله تعالى:

* ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَفْتُ وَحِيداً﴾ [المذثر: 11].

2-3 إحصاء عدد موارد مشتقات الوحدة على مستوى الآيات والسور:

أما توزيع العدد الإجمالي لمشتقات الوحدة على السور فأورده مفصلاً في الجدول الموالي⁽¹⁾:

اسم السورة	مكية / مدنية	الترتيب في النزول	الترتيب في المصحف	مشتقات لفظ الوحدة			المجموع
				الصفة المشبهة	المصدر	صيغة المبالغة	
المذثر	مكية	4	74	-	-	1	1
القمر	مكية	37	51	3	-	-	3
ص	مكية	38	38	4	-	-	4

(1) اعتمدت في هذا الترتيب على جدول المكي والمدني لسور القرآن الكريم، الذي سطره عبد الرحمن حنبكة الميداني في قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية: 1989، ص: 178-184.

الأعراف	مكية	39	7	1	1	-	2
يس	مكية	41	36	3	-	-	3
الفرقان	مكية	42	25	2	-	-	2
الإسراء	مكية	50	17	-	1	-	1
يونس	مكية	51	10	1	-	-	1
هود	مكية	52	11	1	-	-	1
يوسف	مكية	53	12	3	-	-	3
الأنعام	مكية	55	6	2	-	-	2
الصفات	مكية	56	37	2	-	-	2
لقمان	مكية	57	31	1	-	-	1
سبا	مكية	58	34	1	-	-	1
الزمر	مكية	59	39	2	1	-	3
غافر	مكية	60	40	1	2	-	3
فصلت	مكية	61	41	1	-	-	1
الشورى	مكية	62	42	1	-	-	1
الزخرف	مكية	63	43	1	-	-	1
الكهف	مكية	69	18	1	-	-	1

النحل	مكية	70	16	3	-	-	3
إبراهيم	مكية	72	14	2	-	-	2
الأنبياء	مكية	73	21	2	-	-	2
المؤمنون	مكية	74	23	1	-	-	1
الحاقة	مكية	78	69	2	-	-	2
النازعات	مكية	81	79	1	-	-	1
العنكبوت	مكية	85	29	1	-	-	1
البقرة	مدنية	87	2	4	-	-	4
المتحنة	مدنية	91	60	-	-	1	1
النساء	مدنية	92	4	7	-	-	7
الرعد	مدنية	96	13	2	-	-	2
النور	مدنية	103	24	1	-	-	1
الحج	مدنية	104	22	1	-	-	1
المائدة	مدنية	113	5	2	-	-	2
التوبة	مدنية	114	9	1	-	-	1
المجاميع				61	6	1	68

3 - 3 تعليق:

أ- تحليل معطى حجم الورود:

يتبين من خلال هذا الجدول الإحصائي لاشتقاقات مادة «و.ح.د» توزيع حصيص هذه المشتقات على السور المكية والمدنية، ويستفاد من القراءة المتأنية للجدول ما يلي:

- إن هذه المشتقات تكون بمجموعها 68 موزعا في القرآن الكريم، تتوزع في 35 سورة، منها 27 مكية وهي: الأنعام والأعراف ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والنحل والإسراء والكهف والأنبياء والمؤمنون والفرقان والعنكبوت ولقمان وسبأ ويس والصفات وص والزمر وغافر وفصلت والشورى والزخرف والقمر والحاقة والنازعات والمدثر، و8 سور مدنية وهي: البقرة والنساء والمائدة والتوبة والرعد والحج والنور والممتحنة.

- مجموع المشتقات الواردة في السور المكية 49، وهو يشكل نسبة (72.06) من الحصيص الكلي، ومعدل توزيعها على السور المذكورة ما يقرب المرتين (1، 8) لكل سورة.

- مجموع المشتقات الواردة في السور المدنية 19 مشتقا، يشكل نسبة (27.94) من الحصيص الكلي، ومعدل توزيعها أكثر من مرتين (2.37) لكل من السور المعنية.

ويستنتج من خلال ما سبق ما يلي:

✽ إن لمشتقات الوحدة حضورا نوعيا مهما في القرآن الكريم، ليس فقط بالنظر إلى حجم الورود (68 موزعا)، ولكن بالنظر أيضا إلى طبيعة النصوص التي وردت فيها، والتي يمكن أن نصفَ جلها بأنها نصوص أصول، لها أبعاد عقدية تعلق بوحداية الله تعالى، بالدرجة الأولى، وبالبعث والحشر، وبإهلاك الأمم الظالمة الكافرة، وأخرى ذات أبعاد حضارية وإنسانية، تعلق بوحدة المنشأ والخلق، ووحدة الأمة الإنسانية.

✽ إن حضور هذه المشتقات أغلبه في القرآن المكي «27 سورة مكية، مقابل 8 سور مدنية» وهذا يعكس البعد العقدي لمفهوم الوحدة، وارتباطه بعدد من مفاهيم العقيدة الإسلامية الكبرى كبدء الخلق من نفس واحدة، وإرسال الصيحة على من كذب الرسل، ثم النفخة والزجرة والدكة الواحدة... وهي آيات بأبعاد عقدية.

✽ إن هذه المشتقات للوحدة قد وردت في سياقات مختلفة، ومستويات دلالية متنوعة، وتفصيل ذلك كما يلي:

- أبرز سياق ورود المفهوم وأغلبه هو سياق إثبات وحدانية الله تعالى، وذلك في آيات دعوات الرسل لأقوامهم، ودعوة محمد ﷺ لقومه وأمته، وقد ورد ذلك في إحدى وعشرين آية، ثم ورد في سياق حكاية حال المشركين في صدودهم عن الحق وتكذيبهم دعوة التوحيد وكفرهم بها، وقد ورد ذلك في خمس آيات، وهو ما يوحى بالبعد العقدي لمفهوم الوحدة في القرآن الكريم.

- وردت المشتقات في مستوى ثان من مواردها في سياق الحديث عن سنة إهلاك الله للكافرين وإحضارهم للمثول بين يديه سبحانه، وهذا السياق يؤكد على البعد العقدي لمفهوم الوحدة وقد ورد ذلك في إحدى عشرة آية.

- وفي مستوى ثالث من موارد اشتقاقات الوحدة، أتت الآيات تتحدث عن وحدة الأمة، وتخبّر أنها الأصل في الوجود الإنساني، وأن الاختلاف طارئ عليها، وأن الله لو شاء لجعل الناس أمة واحدة بالجبر والإكراه، إلا أن مقتضى التكليف الإلهي يأبى ذلك، وقد ورد هذا المعنى في تسعة مواطن، وهو يوحى بالبعد التاريخي في مفهوم الوحدة.

- وفي مستوى رابع وردت مشتقات الوحدة في سياق الحديث عن أصل الخلق لبني الإنسان من نفس واحدة، وفيه إشارة للمشارك الإنساني والأصل الخلقي الجبلي، وهذا سياق يوحى في مفهوم الوحدة بالبعد الإنساني، وقد وردت في أربع آيات.

- وفي مستوى خامس وردت مشتقات الوحدة في سياق الحديث عن أحكام المواريث، وحد الزنا، وحكم تعدد الزوجات، وذلك في خمس آيات، وهذا يوحى بالبعد التشريعي لمفهوم الوحدة.

إن القرآن المكي على امتداد مراحل المتوسطة والختامية قد خصص لمشتقات الوحدة مجالا فسيحا من نصوصه الخبرية عن وحدانية الخالق سبحانه وانفراده بالألوهية «15 موضعا في القرآن المكي» وعن وحدة الأمة «7 آيات» وعن البعد الغيبي المآلي في سياق الوعيد «14 آية مكية». وهذه الآيات لها دلالات مقصودة في كل مراحل التنزيل، ومن ثمة فلا غرابة أن تطالعنا آيات في السور المدنية تشير إلى نفس الحقائق الإيمانية والأبعاد العقدية.

ولعل هذا التكامل بين النصوص يبرز بجلاء أن القسم المدني، على قلة ورود مشتقات الوحدة فيه مقارنة بالقسم المكي، جاء تكميلا وبيانا لتلك الحقائق الكبرى والأبعاد العظمى التي احتفى بها القرآن المكي، وحرص على بيان أهميتها وارتباطها بمفهوم الوحدة.

ب- تحليل معطى شكل الورد.

من خلال دراسة الصيغ والأشكال الصرفية التي وردت بها مشتقات الوحدة في القرآن الكريم خلصت إلى ما يلي:

إن مشتقات لفظ «الوحدة» وردت في كل النصوص القرآنية بالصيغة الاسمية المفردة، مما يفيد أن مفهوم الوحدة يتعلق بوجود قائم ثابت متميز عن غيره، وطبيعة الصيغة الصرفية لهذه المشتقات غلبت عليها الصفة المشبهة باسم الفاعل - واحد وواحدة - وهو وصف مشتق من الفعل اللازم للدلالة على معنى ثابت في الموصوف،⁽¹⁾ وهذا شأن الواحدية وصفا للذات الإلهية، فقد ورد اسما من أسمائه الحسنی كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَہٗ ۖ هُوَ اللَّهُ

(1) شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: يحيى بشير مصري، الإدارة العامة للثقافة والنشر بالجامعة، الطبعة الأولى: 1417هـ - 1996م. ص: 745.

الْوَحْدُ الْفَهَارُ [الزمر: 5]⁽¹⁾ والاسم لا يكون إلا بوجود المسمى أولاً، وهذا في حق الله أمر ثابت معلوم.

وورد وصفا للأمة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ في آيات عدة، والوصف لا يقوم إلا بذات، فلا بد من تصور جماعة وأمة حتى تتخيل الوحدة صفة لها.

وصيغة الصفة المشبهة باسم الفاعل تدل على الثبات والدوام⁽²⁾، وهذا هو الأصل في الأمة الإسلامية أن تثبت على الاجتماع والوحدة، وإن عرض دون ذلك عارض أو طراً طارئ نتج عنه فرقة وشتات، فلا أقل من أن يكون هذا المعنى الوحدوي حاضراً في أذهان أفرادها وقلوب آحادها، ليسعوا جاهدين إلى تحقيق هذه الوحدة واستعادة هذه اللحمة.

فالصيغة الصرفية لمشتقات الوحدة تنسجم والمفهوم المعجمي والاصطلاحي والقرآني للوحدة، وهو التفرد والانفراد، وأعني به تفرد الأمة بخصائص ومميزات وصفات فلا يوجد لها نظير، وكذا الاتفاق والاجتماع، وهو الوصف الذي ينبغي أن يكون ثابتاً للأمة دائم الحضور، حتى لا تقبل تجزؤاً ولا انقساماً.

(1) ينظر: [يوسف: 35]، [الرعد: 16]، [إبراهيم: 48]، [ص: 65]، [غافر: 16].

(2) المستقصى في علم التصريف لعبد اللطيف محمد الخطيب، مكتبة دار العروبة، ص: 495.

ج- تحليل المعاني والدلالات.

من خلال الدراسة المتأنية والتأمل العميق لكل موارد مشتقات «الوحدة» في القرآن الكريم يتبين أنها تشترك بين المعاني التالية ولا تخرج عن واحدة منها، وهي:

المعنى الأول: التفرد والانفراد في مقابل الثنية والتعدد.

وقد ورد هذا المعنى في سياقات قرآنية متنوعة وبصيغ مختلفة وتعلقات متنوعة، تفصيلها فيما يلي:

- وردت بصيغة « الواحد » وهو من أسماء الله الحسنى وذلك في ستة مواطن من القرآن الكريم وهي:

* قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِثْلِي إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْفَهَّارُ﴾ [ص: 64].

* وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْفَهَّارُ﴾ [الزمر: 5].

* وقوله تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْفَهَّارِ﴾ [غافر: 15].

* وقوله تعالى: ﴿آزَبَابٌ مُتَّبِعُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْفَهَّارِ﴾ [يوسف: 39].

* وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ خَلْقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْفَهَّارُ﴾ [الرعد: 18].

* وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْفَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 50]. (1)

(1) يلاحظ اقتران اسم الواحد والقهار في المواطن الست من القرآن الكريم، وسر ذلك والله أعلم أن اسمه الواحد يستلزم استغناءه عن كل أحد وأن يكون قاهرا لكل شيء، إذ يوحي لفظ الواحدية إلى الضعف والانكسار فأعقبه رب العزة بلفظ القهار للدلالة على عظيم قوته وجليل قدرته، فهو الواحد الذي لا يقهر، ويقهر غيره لوحده دون احتياج لأحد، قال السعدي رحمه الله: "... القهر ملازم للوحدة، فلا يكون قهارين متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء = هو

والواحد أي «المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله».⁽¹⁾ فلا ثاني له في قدرته وقهره وسلطانه.

قال الخطابي (ت: 388هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «الواحد الفرد الذي لم يزل وحده».⁽²⁾

وقال بعض الحكماء: «إنما قيل له واحد لأنه عز وجل لم يزل قبل الخلائق متوحدا بالأزل لا ثاني معه ولا خلق، ثم أبدع الخلق، فكان الخلق ثانيا».⁽³⁾ فهو سبحانه كان متفردا قبل خلق الخلق إذ كان الله ولا شيء معه، ثم خلق الخلق والكون فصار الخلق ثانيا، وبقي الخالق واحدا متفردا بصفات جلاله وكمال فعاله وحسن أسمائه، لا يشاركه في ذلك شيء.

ووردت وصفا للنبي صالح -عليه السلام- وذلك في موضع إنكار المشركين لصدق نبوته، قال تعالى: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُكَ إِنَّا إِذَا لَمِ ضَلَلٍ وَسُعِرٍ﴾ [القمر: 24].

قال الإيجي⁽⁴⁾ (ت: 905هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «واحدا: منفردا لا تبع له».⁽⁵⁾ فأنكروا أن تتبع الجماعة الكثيرة الفرد الواحد، وهذا من عجيب الإنكار وغريب الاستهتار، وقد درج الله في سنته أن يرسل إلى الأمم من قبلهم رسلا آحادا، ولم يُذكر من إرسال الجمع من الرسل إلا ما

=الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يعبد وحده، كما كان قاهرا وحده". (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1420هـ - 2000م. ص: 716).

- (1) المرجع نفسه، ص: 261.
- (2) وقيل: "هو المنقطع القرين، المعدوم الشريك والنظير، وليس كسائر الآحاد من الأجسام المؤلفة فإن كل شيء سواه يدعى واحدا من جهة، غير واحد من جهات". (زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة: 1404هـ - 1984م، 225/4).
- (3) كتاب الزينة في الكلمات الإسلامية العربية لأبي حاتم الرازي، تحقيق: حسين بن فيض الله الهمداني اليعربي الحارزي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، الطبعة الأولى: 1415هـ - 1994م. ص: 200.
- (4) الإيجي: عبد الرحمان بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدين الإيجي: عالم بالأصول والمعاني والعربية، من أهل إيج بفارس ولي القضاء، من تصانيفه، "المواقف" و "العقائد العضدية" و "شرح مختصر ابن الحاجب"، (ت: 756هـ). ينظر: الأعلام، لخير الدين للزكلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر 2002م، 295/3.
- (5) جامع البيان في تفسير القرآن للإيجي، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى: 1424هـ - 2004م. 225/4.

ورد في قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْفَرِيقَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٢﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ بُنْيَانًا فَأَنذَرْنَاهُمْ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَمَزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يس: 12-13]. كما استكبروا أن يكون الرسول بشرا،⁽¹⁾ لاسيما وهو ليس من طائفة أخرى ليكون له المزية والفضل عليهم، ثم هو موصوف بالوحدة والانفراد فكيف يكون الجرم الغفير له تابعا.⁽²⁾

قال الشوكاني (ت: 1250هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «الاستفهام للإنكار، أي: كيف نتبع بشرا كائنا من جنسنا، منفردا وحده لا متابع له على ما يدعو إليه».⁽³⁾

وأشار محمد الطاهر بن عاشور (ت: 1394هـ)، رَحِمَهُ اللهُ إلى معنى ثالث للوحدة دالّ على الانفراد وهو كونه «منفردا في ادعاء الرسالة، لا سلف له فيها».⁽⁴⁾

ومعنى الانفراد في الآية ظاهر، سواء عني به انفراده في دعوته فلا أتباع له ولا أنصار -وهذا في بداية دعوته وبعثته-، أو قصد به انفراده في ادعاء الرسالة كما يتهمونهم كذبا واقتراء.

(1) دل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَبَشِّرْ يَهُودَ نَنَا﴾ [التغابن: 6].

(2) وذهب بعضهم إلى أن معنى واحد: "أي من الآحاد لا من الأشراف". ينظر: (جامع البيان في تفسير القرآن للإيجي، 225/4). "وهو نظير قول المشركين ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 30]"، وينظر: (التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر - تونس، طبعة: 1984 هـ، 197/27).

(3) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية للشوكاني، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، الطبعة الأولى: - 1414هـ، 166/5.

(4) التحرير والتنوير، 197/27.

وجاء معنى الانفراد في موضع آخر بصيغة المبالغة «وحيد» في قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَفْتُ وَحِيداً﴾ [المائدة: 11]، وقد اتفق المفسرون على أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة.

قال الرازي (ت: 604هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «أجمعوا على أن المراد هنا هو الوليد بن المغيرة، وفي نصب قوله وحيدا وجوه: الأول: أنه نصب على الحال، ثم يحتمل أن يكون حالا من الخالق وأن يكون حالا من المخلوق، وكونه حالا من الخالق على وجهين: الأول: ذرني وحدي معه فإني كاف في الانتقام منه. والثاني: خلقتة وحدي ولم يشركني في خلقه أحد، وأما كونه حالا من المخلوق، فعلى معنى أني خلقتة حال ما كان وحيدا فريدا لا مال له ولا ولد، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 95]. القول الثاني: أنه نصب على الذم، وذلك لأن الآية نزلت في الوليد وكان يلقب بالوحيد، وكان يقول: أنا الوحيد بن الوحيد، ليس لي في العرب نظير، ولا لأبي نظير»⁽¹⁾.

والذي يترجح من المعاني أن الوصف عائد على الوليد، وأنه حال من المخلوق، وذلك أن السياق المقالي يقتضي أن يعود الحال على أول سابق له - وهو المقدر المحذوف - ثم الآيات أتت في مقام الذم له، فهو الذي قد خلق وحيدا فريدا مجردا من كل شيء، ثم جعل الله له مالا كثيرا وبنين حضورا يأنس بهم ويفخر، ويسر له العيش تيسيرا، فأبى إلا الإعراض والعناد، والكفر والجحود، والفخر والاستكبار، فاستحق أن تصرف شهرته بالوحيد مدحا وثناء وافتخارا إلى غرض الوصف له بذلك قدحا وذما واحتقارا.

ثم إن وصف الخالق بالوحيد لم يرد له في القرآن نظائر، فلو كان فيه لرب العزة مزية مدح وثناء لتكرر ذلك في مواطن أخر، وهذا ما لا وجود له في الآي والسور، فدل على أن

(1) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1401هـ - 1981م.

الأمر متعلق بغيره، والسياق دال عليه، والله أعلم، وهو الظاهر كما قال صاحب البحر المحيط: «الظاهر انتصاب ﴿وَحِيدًا﴾ على الحال من الضمير المحذوف العائد على ﴿مَس﴾ أي: خلقته منفردا ذليلا قليلا لا مال له ولا ولد»⁽¹⁾.

وورد هذا المعنى في صيغة اسم المصدر «وحده» وذلك في الآيات التالية:

* قوله تعالى: ﴿فَالْوَأَاجِئَتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: 69].

* وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَى أَدْبُرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: 46].

* وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: 42].

* وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَبَرْتُمْ﴾ [غافر: 11].

* وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا فَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [غافر: 83].

* وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [المتحنة: 4].

وبتبع اللفظة في سياق آياتها، نجد أنها لم تخرج عن معنى توحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة والإقرار بوحدانيته والبراءة من الشرك والكفر والطواغيت، وخلع ما يُعبد من الأصنام والأنداد والأوثان.

(1) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض. شارك في التحقيق: زكريا عبد المجيد النوي وأحمد الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1413 هـ - 1993 م، 365/8.

قال ابن كثير (ت: 774هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «﴿حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ أي: إلى أن توحّدوا الله فتعبّدوه وحده لا شريك له، وتخلّعوا ما تعبّدون معه من الأنداد والأوثان».(1)

وهذا لا يتحقق إلا بنفي العبادة عما سوى الموحّد وإثباتها له، وذلك أن النفي المحض تعطيل محض لوصف العبودية له سبحانه، والإثبات المحض لا يمنع من مشاركة غيره له في استحقاق العبادة. فالتوحيد إدراك لوجود أمور خاصة بالله تعالى لا يجوز أن يشاركه فيها غيره، وإذا اعتقد العبد أنها لله تعالى دون غيره حصل منه الأفراد والاختصاص والحصر، وهو الذي فهمه مشركو العرب وأنكروه فيما حكاه القرآن عنهم ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: 4]. وهم في ذلك على نهج خصوم الأنبياء ومنكري الرسالات، ومن ذلك ما جاء في جواب قوم هود له كما قصه رب العزة عنهم، فقال سبحانه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الأعراف: 69].

والآية صريحة في أن هودا عليه السلام جاءهم بالتوحيد⁽²⁾، وقوله «وحده» نص في الوحدانية، ووجوب صرف الأعمال والأقوال لله تعالى وحده، وقد استعظم المشركون ذلك لما ألفوه من تعدد الآلهة، وتوارثوه من كثرة المعبودات.

فأفراد القصد بالقول والفعل لرب البريات هو المطلوب من العباد، وبه تحقق الإخلاص في كل عبادة، وهو الذي لم تطقه القلوب الكافرة، والنفوس الفاجرة، والتي حكى القرآن إعراضها في باب الدعاء مثلاً، فقال جل جلاله: ﴿ذٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ

(1) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض — المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية: 1420هـ - 1999م، 8/87.

(2) التوحيد المقصود في الآية هو توحيد الألوهية لقوله تعالى: ﴿لِنَعْبُدَ اللَّهَ﴾ وهو متضمن لغيره من أقسام التوحيد (توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات).

وَحْدَهُ، كَبَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ، تَوْمِنُواً ﴿٤٦﴾ [غافر: 11]، وحكى توليهم حال ذكر النبي لربه مفردا إياه، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوْ عَلَىٰ أَذْبَرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: 46].

قال ابن عجيبة الحسني⁽¹⁾ (ت: 1224هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «أي: واحدا غير مشفوع به آلهتهم، ولّوا على أدبارهم نفورا هربا من استماع التوحيد».⁽²⁾ وقوله غير مشفوع به آلهتهم عنى به؛ ذكره منفردا كما صرح به محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت: 1403هـ) رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره للآية حيث قال: «ووحده حال مؤولة: أي منفردا».⁽³⁾

وجاء عن الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ) رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الآية المتقدمة قوله: «ومعنى ﴿ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ﴾، ظاهره أنك ذكرته مقتصرًا على ذكره ولم تذكر آلهتهم لأن «وحده» حال من «ربك» الذي هو مفعول «ذكرت». ومعنى الحال الدلالة على وجود الوصف في الخارج ونفس الأمر، أي كان ذكرك له، وهو موصوف بأنه وحده في وجود الذكر، فيكون تولي المشركين على أدبارهم حينئذ من أجل الغضب من السكوت عن آلهتهم وعدم الاكتراث بها، بناء على أنهم يعلمون أنه ما سكت عن ذكر آلهتهم إلا لعدم

(1) هو أحمد بن محمد بن المهدي، ابن عجيبة الحسني الأنجومي مفسر صوفي مشارك، من أهل المغرب، دفن ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان) له كتب كثيرة منها: "البحر المديد في تفسير القرآن المجيد" و "أزهار البستان"، (ت: 1224هـ). ينظر: الأعلام للزركلي، 1/245.

(2) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة الفاسي، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، سنة الطبع: 1419 هـ - 1999م، 3/205.

(3) إعراب القرآن وبيانه لمصطفى درويش، (دار الإرشاد للشؤون الجامعية - حمص - سورية)، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت) الطبعة السابعة: 1420هـ - 1999م، 2/578.

الاعتراف بها. ولولا هذا التقدير لما كان لتوليهم على أدبارهم سبب، لأن ذكر شيء لا يدل على إنكار غيره»⁽¹⁾.

فالقوم عقلوا أن دعاء النبي ربه وذكره لله وحده يُقصد به ضمنا إنكار مألوهاتهم ومعبوداتهم، وإبطال معتقداتهم، وهذا عين التوحيد وحقيقة التفريد، وهو ما تسمئز منه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، ويحتمل أن المعنى: «إذا ذكرت ربك بتوحيد الإلهية⁽²⁾ وهو المناسب لنفورهم وتوليهم لأنهم إنما ينكرون انفراد الله تعالى بالإلهية، فتكون دلالة «وحده» على هذا المعنى بمعونة المقام وفعل «ذكرت»⁽³⁾».

فدلالة لفظ وحده على الأفراد له سبحانه بالذكر باللسان والقصد بالجنان والتقرب بالجوارح والأركان ظاهرة، واعتقاد اتصافه بالوحدانية، وتخصيصه بالعبودية، وإفراده بالألوهية، وهو الإيجاد والتوحيد وهو الذي يقرع آذان المشركين وتتصدع به قلوبهم.

إضافة إلى ما تقدم فقد ورد هذا المعنى بقوة في صيغة الصفة المشبهة باسم الفاعل - واحد - صفة لله تعالى وذلك في خمسة عشر موضعا منها:

* قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [البقرة: 132].

* وقوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 162].

* وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: 170].

(1) التحرير والتنوير، 118/15.

(2) توحيد الإلهية: "هو إفراد الله وحده بالعبادة دون سواه". (العقيدة الإسلامية وأسسها، لعبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم - دمشق الطبعة الرابعة عشر: 1430 هـ - 2009 م، ص: 158).

(3) التحرير والتنوير، 118/15.

* وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: 75].

* وقوله تعالى: ﴿فَلِإِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 20].⁽¹⁾

ومن خلال التأمل في سياقات هذه الآيات كلها نجد أنها تدل على توحيد الله وإفراده بالعبادة دون غيره مما يؤله من الأوثان والأنداد، ويعبد من الشركاء، ويتخذ من الأولياء، ويرجى من الشفعاء، إما تقريراً لهذه الوحداية، أو رداً على الذين قالوا بأكثر من إله؛ ثنوا أو ثلثوا أو عددوا.

فالآيات قاطعة في الدلالة على توحيد الألوهية، لاسيما وأن بعضها جاء بصيغة الحصر «إنما» كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: 170]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: 51]. وبعضها جاء بالنفي والإثبات مما يدل على الانفراد والإيجاد، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: 75]. وقوله جل جلاله ﴿وَمَا امْرُؤٌ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة: 31]. وقوله تعالى ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163].

قال الطبري (ت: 310هـ) رحمه الله: «ومعنى قوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]، والذي يستحق عليكم أيها الناس الطاعة له،

(1) تنظر الآيات: [إبراهيم: 54]، [النحل: 22]، [النحل: 51]، [الكهف: 105]، [الأنبياء: 107]، [الحج: 32]، [العنكبوت: 46]، [فصلت: 5]، [التوبة: 31]، [الصافات: 4].

ويستوجب منكم العبادة، معبود واحد ورب واحد، فلا تعبدوا غيره، ولا تشركوا معه سواه، فإن من تشركونه معه في عبادتكم إياه، هو خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ إلهِكُمْ مثلكُمْ، وإلهكم واحد، لا مثل له ولا نظير⁽¹⁾. فهو المستحق للعبادة المألوه بالحب، وقد تواترت كلمات المفسرين الدالة على هذا المعنى بما لا يتسع المقام لحصره وإيراده، ووحدانيته في الذات والأسماء والصفات والأفعال، ونفي النظر عنه يستلزم استحقاقه للعبودية واختصاصه بها دون سواه.

وقال السعدي (ت: 1376هـ) رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الآية السابقة: «يخبر تعالى - وهو أصدق القائلين - أنه ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فليس له شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفو، ولا مثل ولا نظير، ولا خالق ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه⁽²⁾». وهذا أمر قد قرره القرآن في آيات عدة بصيغة الجزم القاطع الذي لا يصح معه ريب كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِلَٰهِي فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: 51]. وقوله جل جلاله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوجَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 105]، وقوله عز من قائل: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: 103]. فهذه ونظائرها في القرآن كثير تؤكد وحدانية الإله سبحانه وتنزيهه عن الشريك وتثبت انفراده باستحقاق العبادة، وفي القرآن آيات أخرى تقرر صفة الوحدانية له عن طريق الحجاج

(1) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع: مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر، الطبعة الأولى: 1422 هـ - 2001م، 745/2.

(2) تفسير السعدي، ص: 77-78.

العقلي المنطقي، كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَبَسَدَتَا وَسَبَحَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22]، وقوله جل جلاله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 92]... فكلها تشير إلى حقيقة أساسية كبرى ترتبط بعمق التصور العقدي في الإسلام، ألا وهي إثبات وحدانيته في ألوهيته وربوبيته فلا شريك له، وهو إثبات لانفراده بالخلق والتدبير، وإفراد الخلائق له بالعبادة والطاعة، ونفي كل تعدد للآلهة؛ ثنائية أو تثليثا أو تعدادا كثيرا.

وورد معنى الانفراد والإفراد في مقابل الكثرة والتعدد وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا أَلْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان 14]. قال البغوي (ت: 516) رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيل: أي هلاككم أكثر من أن تدعوا مرة واحدة، فادعوا أدعية كثيرة».(1) فمعنى الإفراد في الآية ظاهر لا يحتاج إلى كبير عناء لفهمه والسياق مفصح عنه، فجاء وصف الثبور بالواحدية للدلالة على الفردية - أي مرة واحدة - في مقابل الكثرة - ثبورا كثيرا -.

قال صاحب الكشف (ت: 538هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم فيه واحدا وإنما هو ثبور كثير، إما لأن العذاب أنواع وألوان كل نوع منها ثبور لشدة وفظاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم»(2). فما هم فيه من العذاب

(1) معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة: 1417 هـ - 1997م، 75/6.

(2) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد عوض، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى: 1418هـ - 1998م. 336/4.

وقيل: "وصف الثبور بالكثير إما لكثرة ندائه بالتكرير وهو كناية عن عدم حصول الثبور لأن انتهاء النداء يكون بحضور المنادى، أو هو يأس يقتضي تكرير التمني أو التحسر". ينظر: (التحرير والتنوير، 334/18).

الشديد وللأبد المديد يستوجب تكرار الدعاء في كل آن وحين، لعل الله أن ينهي عنهم العناء، ويحل بهم الهناء، ولكن هيهات حتى يلج الجمل في سم الخياط.

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ الواحد في مقابل التعدد قوله تعالى في وصية يعقوب لبنه حين أرسلوا إلى مصر: ﴿وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَبَرِّجَةٍ﴾ [يوسف: 67]. قال ابن عاشور: «والمتفرقة أراد بها المتعددة لأنه جعلها في مقابلة الواحد».(1)

كذلك جاء معنى الانفراد في مواضع عدة بصيغة الاشتقاق - واحدة - في سياقات قرآنية مختلفة بلغت واحدا وعشرين موضعا:

• أربع منها بيانا لخلق البشرية جميعا من أصل واحد ونفس واحدة، وذلك في الآيات التالية:

* قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1].

* وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَفَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: 99].

* وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189].

(1) التحرير والتنوير، 21/13. قال: "وجه العدول عن التعددة إلى المتفرقة الإيماء إلى علة الأمر وهي إخفاء كونهم جماعة واحدة". (المصدر نفسه 21/13). وتحتل الآية معنى آخر من معاني الواحدية وهي الاجتماع: أي لا تدخلوا مجتمعين بل ادخلوا متفرقين، وسباق الآية دال على هذا المعنى ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَبَرِّجَةٍ﴾ يبين المراد من الوصية.

* وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: 7].

ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بقوله ﴿مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم عليه السلام. فالخطاب ب «خلقكم» عام. والمعنى: أنكم تفرعتم من آدم عليه السلام. (1) فالكثرة المنتشرة، والشعوب المتناثرة، والقبائل المتفرقة كلها ترجع إلى أصل واحد من حيث الخلقة، وهي النفس الواحدة التي منها تكاثروا وتوالدوا وتناسلوا. قال السعدي: «أي: هو الذي خلقكم أيها الرجال والنساء المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم ﴿مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ». (2)

فدلالة النصوص على الواحدية والفردية واضحة جلية، فأدم واحد من حيث بداية الخلق البشري، وواحد من حيث إنه مبدأ الخليقة الإنسانية والتعددية البشرية.

• وتسع منها في سياق الحديث عن إهلاك بعض الأمم الطاغية الكافرة وقيام الساعة وذلك في الآيات التالية:

* قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَلِيدُونَ﴾ [يس: 28].

* وقوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: 48].

* وقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ

﴾ [يس: 52].

* وقوله تعالى: ﴿بِإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الصافات: 19].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ [ص: 14].

(1) البحر المحيط في التفسير، 4/436.

(2) تفسير السعدي، ص: 311.

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيِّحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمُخْتَظِرِ﴾ [القمر: 31].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50].

* وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: 12].

* وقوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: 13].

* وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: 13].

فقد وردت الواحدية وصفا للصيحة والميلة والزجرة والنفخة والدكة في الدنيا والآخرة، فأفادت الآيات معنى الأفراد الذي يقابل التثنية أو المثنوية، وينفي التكرار؛ إفادة للمرة.

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيِّحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾: «واحدة: أي لا يحتاج معها إلى ثانية». ⁽¹⁾ «ووصفها ب «واحدة» لأن ذلك الوصف هو المقصود من الاستثناء المفرغ، أي ما كان ذلك النفخ إلا صيحة واحدة لا يكرر استدعاؤهم للحضور بل النفخ الواحد يخرجهم من القبور». ⁽²⁾

وبمثل هذا المعنى قال ابن كثير في تفسير قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ

﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: 13-14] «أي: فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا

(1) تفسير الرازي، 26/87 بتصرف. وينظر الباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: محمد سعد رمضان حسن - محمد المتولي الدسوقي حرب، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1419 هـ - 1998 م، 16/237. وتنكير (صيحة) للتهويل، ووصفها بواحدة تعظيم للصيحة وتحقير لشأنهم. وينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1416 هـ - 1996 م، 5/539.

(2) التحرير والتنوير، 23/39.

تأكيد»،⁽¹⁾ وهذا التوصيف للدكة في الآية 14 من سورة الحاقة - بالوحدة - «تعظيم لها وإشعار بأن المؤثر لك الأرض والجبال وخراب العالم، هي وحدها، غير محتاجة إلى أخرى». ⁽²⁾

وقد وردت هذه الصيغة في سياقات إخبارية وتشريعية أخرى دلت على المعنى نفسه، وهو الأفراد في مقابل التثنية أو الكثرة والتعدد، وذلك في:

* قوله تعالى: ﴿بِإِن كُنَّ نِسَاءً بَاقَاتٍ يَتَوَفَّوْنَ مِنْهُنَّ ثَلَاثًا مَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ [النساء: 11].

* وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: 101].

* وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا﴾ [يوسف: 31].

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً﴾ [ص: 22].
وبالنظر في مقامات الآيات وسياقاتها القرآنية نجد أنها لا تخرج عن معنى الأفراد في مقابل التثنية أو الكثرة والتعدد.

المعنى الثاني: الاتفاق والاجتماع في مقابل الاختلاف والتفرق.

حسب ما توصل إليه البحث إحصائيا، فقد ورد هذا المعنى في سياقات القرآن الكريم مقترنا في الأغلب الأعم بذكر الأمة ووصفها بالوحدة، وموارد ذلك في المواطن التالية:

* قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: 210].

(1) تفسير ابن كثير، 8/314.

(2) محاسن التأويل للقاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى: 1376هـ - 1957م. 5914/16.

* وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْتُكُمْ﴾ [المائدة: 50].

* وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: 19].

* وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ﴾ [هود: 118].

* وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [النحل: 93].

* وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 91].

* وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا﴾ [المؤمنون: 53].

* وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الشورى: 6].

* وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُفُهَاً مِّنْ وَضْءٍ وَمَعَارِجَ﴾ [الزخرف: 32].

وقد اتفقت كلمة المفسرين على أن المقصود من لفظ «واحدة» في هذه المواضع هو الاتحاد والاتفاق والاجتماع،⁽¹⁾ وفيما يلي نقل لبعض أقوالهم بما يشهد لذلك:

(1) واختلفوا في الأمر الجامع بين أفراد الأمة، فذهب بعض المفسرين إلى أن الناس كانوا أمة واحدة مجتمعين على الكفر والضلال، وقال آخرون: إنما كان اجتماعهم بمقتضى أصل الفطرة والجبلة التي يرشدهم إليها العقل في الاعتقاد والعمل، وذهب جمهور المفسرين إلى أن الناس كانوا أمة واحدة على الإيمان والإسلام، واستدلوا لذلك بما نقل عن ابن مسعود أنه قرأ: "كان الناس أمة واحدة فاختلّفوا فبعث الله النبيين..."، ودلالة الاقتضاء في وجود حذف في الآية لا يستقيم المعنى إلا به... كما أكدوا قولهم ومذهبهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [سورة يونس: 19].

ينظر: تفسير الطبري، 621/3 وما بعدها. تفسير القرطبي، 404/3 وما بعدها. تفسير الرازي، 11/6-12. تفسير ابن كثير، 569-570/1. فتح القدير للشوكاني، 377/1.

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: 6]، «ولو أراد الله أن يجمع خلقه على هدى، ويجعلهم على ملة واحدة لفعل، و﴿لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يقول: أهل ملة واحدة، وجماعة مجتمعة على دين واحد»⁽¹⁾ وللرازي كلام قريب منه قال فيه: «أي جماعة متفقة على شريعة واحدة، أو ذوي أمة واحدة، أي دين واحد لا اختلاف فيه»⁽²⁾.

وفي تفسير قول الله جل جلاله: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا﴾ [المؤمنون: 53]. قال البيضاوي (ت: 691هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «أمتكم أمة واحدة: أي متحدة في الاعتقاد وأصول الشرائع، أو جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة»⁽³⁾.

فاعتبار معنى الأمة: الجماعة،⁽⁴⁾ يعطي لفظ «واحدة» معنى الاتفاق كما قال جل جلاله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: 210]، «أي متفقين على دين الإسلام»⁽⁵⁾.

(1) تفسير الطبري، 472/20.

(2) تفسير الرازي، 15-14/12. وينظر الباب في علوم الكتاب، 371/7.

(3) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى - 1418 هـ، 89/4.

(4) ورد لفظ الأمة بهذا المعنى مقرونا بالواحدة في المواطن التالية: [البقرة: 213] - [المائدة: 48] - [يونس: 19] - [هود: 118] - [النحل: 93] - [الشورى: 8] - [الزخرف: 33]. ينظر: مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف لعبد الكبير حميدي، دار السلام، الطبعة الأولى: 1431 هـ - 2000 م، ص: 236.

(5) الكشاف للزمخشري، 421/1. ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بدوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1419 هـ - 1998 م. 177/1.

وباعتبار معنى الأمة: الملة والدين،⁽¹⁾ يعطي لفظ «واحدة» معنى الاتفاق والاجتماع على الأصل العظيم الذي دعا إليه كل الأنبياء والرسل.

فالمقصود آنئذ اتفاق ملل الأنبياء ورسالاتهم واجتماعها على أمر جامع وهو تحقيق التوحيد لله وإفراده بالعبودية، مع اختلاف في الشرائع والأحكام بحسب ما تقتضيه متغيرات الأحوال وتبدلات العصور والأمصار. قال الشوكاني: «﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ هذا من جملة ما خوطب به الأنبياء، والمعنى: أن هذه ملتكم وشريعتكم أيها الرسل ملة واحدة، وشريعة متحدة يجمعها أصل هو أعظم ما بعث الله به أنبياءه وأنزل فيه كتبه، وهو دعاء جميع الأنبياء إلى عبادة الله وحده لا شريك له».⁽²⁾

فأصول التوحيد وأركان الإيمان وقواعد الاعتقاد وحقائق الأخبار من الكليات الثابتة المتفقة، والقضايا المسلمة التي اتفقت عند كل الرسل، وهي من محكمات الدين المنزل من عند رب العالمين، وفيه قال ﷺ: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد».⁽³⁾

وورد معنى الاتفاق في موضعين آخرين في غير سياق وصف الأمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَلْمُوسَىٰ لَسَ نَصْبِيرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: 60]. وقوله تعالى: ﴿تُسْفَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُقْبَضُ بِعُضَاهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: 4]. وقد دل

(1) ورد لفظ الأمة بهذا المعنى مقرونا بالواحدة في المواطن التالية: [الأنبياء: 92] - [المؤمنون: 52]. وحدة الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف ص: 233.

(2) فتح القدير للشوكاني، 3/661.

(3) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَلْمُوسَىٰ لَسَ نَصْبِيرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: 60]. (فتح الباري لابن حجر العسقلاني، ح: 3442، قام على نشره: علي بن حسن الحلبي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة. طبعة: 2006م. 2/472. ومعنى الحديث: "أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع". (فتح الباري لابن حجر العسقلاني، 549/6. وينظر: المنهاج في شرح صحيح مسلم للنووي، كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، بيت الأفكار الدولية، الأردن، ص: 1447).

سياق الآية على معنى الاتفاق إذ إيراد اختلاف أجناس الثمرات والزروع والنخل أشكالا وألوانا، وطعما ورائحة، وورقا وزهرا، مع استمداد الكل من ماء واحد متفق ومتجانس لا يختلف بعضه عن بعض، دليل المعنى وقرينة المراد. قال ابن جزي (ت: 741هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «حجة وبرهان على أنه تعالى قدير ومريد، لأن اختلاف مذاقها وأشكالها وألوانها مع اتفاق الماء الذي تُسقى به: دليل على القدرة والإرادة».(1) وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسِي لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: 60]، يريدون ما رزقوا في التيه من المن والسلوى، وبوحدته أنه لا يختلف ولا يتبدل.(2)

وورد معنى الاجتماع في مقابل التفرق في وصف تنزل القرآن على محمد ﷺ حيث استنكر المشركون نزوله مفرقا، وحكى القرآن قولهم ورد عليه بيان شاف كاف توصيفا وتعليلًا، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32]. وقد تواترت كلمة المفسرين على أن المقصود من قوله: ﴿جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ كون القرآن نزل منجما متفرقا. نجد هذا المعنى جليا في تفاسيرهم عند قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: 32]، وهذا أمر مستفاد بدليل الخطاب القرآني الراد على شبهة الكفار الطاعنين في صحة كلام الله، فكان الجواب إثباتا لنزوله مفرقا، وتعليلًا لذلك بتثبيت فؤاد النبي ﷺ.

(1) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الغرناطي، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، ضبط وتصحيح: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1415هـ-1995م، ج: 1/431، وينظر: البحر المديد، 3/7-8.

(2) تفسير البضاوي، 1/83.

قال صاحب الهداية: «فإن معنى التفريق قد تضمنه قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان: 32]، لأن معناه لم نزل متفرقا؟ فقال الله تعالى نزل: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، أي: نزل متفرقا لنثبت به فؤادك يا محمد».(1)

فحديث المفسرين عن نزول القرآن مفرقا يدل على كون الوحدة في الآية تعني عدم التفرق. قال الواحدي⁽²⁾ (ت: 468هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «أي: لم نزل عليه متفرقا؟ وهلا كان دفعة واحدة كالتوراة والإنجيل؟».(3)

المعنى الثالث: نفي الشبيه والمثيل.

وقد اختار هذا المعنى بعض المفسرين في تفسير وحدانية الله تعالى في الآيات التي وردت بصيغة الواحدية⁽⁴⁾ من مثل قوله جل جلاله: ﴿وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]. قال الطبري: «واختلَف في معنى وحدانيته تعالى ذكره، فقال بعضهم: معنى وحدانية الله، معنى نفي الأشباه والأمثال عنه، كما يقال: فلان واحد الناس - وهو واحد قومه، يعني بذلك أنه ليس له في الناس مثل، ولا له في قومه شبيه

(1) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب القيسي، مجموعة رسائل جامعية، قام بتدقيقها ومراجعتها مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى: 1429هـ - 2008م، 5216/8.

(2) الواحدي (ت: 468هـ): الإمام العلامة الأستاذ، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، صاحب التفسير وإمام علماء التأويل، وأصله من ساوه. صنف التفاسير الثلاثة: "البسيط" و"الوسيط" و"الوجيز"، ولأبي الحسن كتاب "أسباب النزول". ينظر: سير أعلام النبلاء، دار الحديث القاهرة، طبعة 1427هـ - 2006م، 340_339/18.

(3) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لأبي الحسن الواحدي النيسابوري، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، الطبعة الأولى: 1415هـ - 1995م، ص: 778.

(4) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب القيسي، 521/8. التفسير الوسيط للواحدي 340/3. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1422هـ - 2001م، 209/4.

ولا نظير. فكذاك معنى قول: «الله واحد» يعني به: الله جل ثناؤه لا مثل له ولا نظير⁽¹⁾. فهو واحد في صفته ونعته لا شبيه له ولا نظير وليس كمثله شيء⁽²⁾.

ووصف الأمة بالواحدة يدل على معنى الانفراد الذي سبقت الإشارة إليه، ويدل أيضا على نفي الشبيه والمثيل لها، فهي أمة لا نظير لها من جنسها ولا ثاني لها من نوعها، لما تميزت به من خصائص وتفردت به من سمات، وخصت به من صفات جعلتها تحظى بالخيرية وتسمو بالشهادة على الأمم الأخرى. وهذه الدلالة تنسجم والدلالة اللغوية الأصلية -الانفراد- وهي الدلالة الأكبر والمعنى الأبرز لمشتقات الوحدة في جل النصوص التي وردت فيها.

والذي يظهر أن بين المعنيين -الانفراد ونفي النظير والمثيل- نوعا من التلازم والتكامل، وذلك أن الانفراد والتفرد شرط من شروط التميز ومظهر من مظاهر الاختصاص بجميل الأوصاف مما لا يبلغه من دونها من الأمم.



(1) تفسير الطبري 745/2.

(2) ورد في القرآن الكريم نفي المثل وما في معناه؛ كالند والشريك والعديل والمساوي والكفو والسمي، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 9]. وقال في الند: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 21]. وقال في الشريك: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: 18]. وقال في العديل: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 2]. وقال في المساوي: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَمِ ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 97-98]. وقال في الكفو: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 4]. وقال في السمي: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65].

المعنى الرابع: نفي التجزؤ والانقسام.

ولم يرد هذا المعنى إلا في آيات الواحدية وصفا لله عز وجل، حيث أشار عدد من المفسرين إلى أن من معاني قول الله عز وجل: ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ «نفي التبعض والانقسام».(1)

قال ابن جزي: «اعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حق الله تعالى... - فذكر الواحد في مقابل نفي الثنية والتعدد، ثم ذكر المعنى الثاني وهو نفي النظر والشريك، ثم قال: - والثالث: أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض».(2)

قال أبو حيان الأندلسي (ت: 745هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «والواحد المراد به نفي النظر أو القديم الذي لم يكن معه في الأزل شيء، أو الذي لا أبعاد له ولا أجزاء، أو المتوحد في استحقاق العبادة. أقوال أربعة...».(3)

وقريب من هذه المعاني ما ذكره الطبري: «ولدلالة الواحد بشكل عام في لغة العرب معان أربعة: أحدها: أن تكون «واحدا» من جنس، كالإنسان «الواحد» من الإنس. والآخر: أن يكون غير متفرق، كالجزم الذي لا ينقسم. والثالث: أن يكون معنيا به المثل والاتفاق،

(1) المحرر الوجيز، 232/1. وقد نسب هذا القول إلى أبي المعالي.

(2) التسهيل لعلوم التنزيل، 91/1. وينظر البحر المحيط في التفسير، 637/1، بتصرف.

وهذا المعنى للفظ الواحد وهو عدم التجزؤ والتبعض والانقسام معنى كلامي فيما يظهر. قال القاضي عبد الجبار المعتزلي: "اعلم أن الواحد يستعمل في الشيء ويراد به أنه لا يتجزأ ولا يتبعض" (شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار الهمداني. تحقيق: عبد الكريم عثمان. مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الثانية: 1408هـ، ص: 277). ووافقه إمام الحرمين الجويني الأسعدي، قال رحمه الله: "الواحد الحقيقي هو الشيء الذي لا ينقسم". (لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة للجويني، تحقيق: فوقية حسين محمود، مراجعة التحقيق: محمود الخضيري، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية: 1407هـ - 1987م، ص: 98). وقال رحمه الله: "والواحد في اصطلاح الأصوليين: الشيء الذي لا ينقسم... والرب سبحانه وتعالى موجود فرد متقدس عن قبول التبعض والانقسام". (الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصل الاعتقاد للجويني، تحقيق: محمد يوسف موسى وآخر. مكتبة الخانجي مصر. سنة الطبع: 1369هـ، ص: 52).

(3) البحر المحيط في التفسير، 636/1-637.

كقول القائل: «هذان الشيئان واحد»، يراد بذلك أنهما متشابهان، حتى صارا لاشتباههما في المعاني كالشيء الواحد. والرابع: أن يكون مرادا به نفي النظر عنه والشبيه.⁽¹⁾

وهذا المعنى للواحد - أي نفي التجزؤ والانقسام - والذي ذكره غير واحد من المفسرين، لا يشهد له سياق الآيات القرآنية، إذ تتبع ورودها، سباقها ولحاقها دال على قصدية معنى الأفراد والتفرد والانفراد، وهو الذي عليه مدار دعوة الأنبياء والرسل، ونصوص القرآن في تقريره وإثباته وتأكيده أكثر من أن تحصى في هذا المبحث.

تعليق:

- إن جل ما ورد من مشتقات الوحدة في القرآن الكريم دال على معنى الانفراد والأفراد والتفرد، وهو المعنى الذي شهدت له السياقات القرآنية للآيات الكريمة محل الورد، إذ جاءت في مقابل الكثرة والتعدد والتكرار سواء من ذلك:
- ما تعلق بوصف الخالق الواحد جل جلاله ونفي الشركاء عنه وإفراده بالألوهية والربوبية والصفات والأفعال.
- ما تعلق بوصف النبي ﷺ فيما استنكره المشركون من أتباعه، وهم الجماعة والعصابة القوية، فأنى تتبّع رجلا واحدا كان بالأمس من ضعفائهم وراعي غنمهم.
- أو ما تعلق بوصف الصيحة والزجرة والدكة والرجفة... وإفرادها دون الحاجة إلى ثانية أو ثالثة في إهلاك المكذبين وإفناء الدنيا.

- ورد من معاني الوحدة معنى الاتفاق والاجتماع، وذلك في سياق وصف الأمة. وهو المعنى المقصود في هذه الأطروحة. وهذا المعنى وإن لم تعن به المعاجم اللغوية المتقدمة ولم تورده، إلا أن السياق القرآني دل عليه بما لا يخفى على متبصر باللسان العربي ومتدبر للخطاب القرآني.

(1) تفسير الطبري 745/2-746.

• ورد من معاني الواحدية نفي الشبيه والنظير والمثيل، وهو معنى ثابت في حق الله عز وجل، بارز في تفسير آيات الوحدانية، مستلزم لتحقيق التنزيه له سبحانه وتعالى، ويشهد له استعمال اللغة واللسان العربي. وهذا الوصف وإن لم يذكره أهل التفسير فيما اطلعت عليه في حق الأمة الإسلامية إلا أنه يستقيم وصفا لها، ومعنى من معاني وحدتها لما خصها الله به من صفات، وميزها به من سمات، إن تحققت بها والتزمتها كانت أمة لا شبيه لها ولا مثيل بين الأمم، فتتفرد بذلك عن غيرها.

• ورد من معاني مشتقات الوحدة معنى نفي التجزؤ والانقسام، ووروده عند بعض المفسرين في معرض الحديث عن واحدية الخالق جل جلاله، وهو معنى كلامي - فيما يظهر - إذ لم تورده المعاجم اللغوية المتقدمة، ولم تعرض لشيء من أمثله، وهو وإن كان معنى حادثا، إلا أنه في وصف الأمة له وجه دلالة؛ إذ وحدة الأمة بمعنى الاتفاق تومئ إلى عدم التفرق والانقسام، وهو مقصد أساس من مقاصد القرآن ومعنى ظاهر للاتفاق والاتحاد.

• إن بين هذه المعاني نوعا من التداخل، والسبب يرجع إلى كون معاني مشتقات الوحدة بحسب ورودها في القرآن الكريم تشترك بين معان متلازمة، وكون الوحدة في أصل دلالتها ترجع إلى معنى الانفراد والإفراد، لا يمنع من تفرع معان أخرى تؤول في نهاية المطاف إلى المعنى نفسه. فهي دلالات متقاربة لا يفرق بينها سوى ظلال جانبية، تأتي غالبا من السياق.

• إن وصف الأمة بالوحدة: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي الجماعة المتفقة على دين واحد وملة واحدة؛ وصف يتفق ومعنى الانفراد إذ هي وحدها المتفردة بالائتلاف والمنفردة بالاتفاق المجتمعة على توحيد الله، وهي الأمة الخيرة الوسط التي لا نظير لها ولا مثيل، وهي المتألفة أفرادها، والمتآخية أعضاؤها، فلا تقبل تجزؤا ولا انقساما، لكأن أفرادها فرد واحد وجسد واحد.

ملاك الأمر في تعريف الوحدة في القرآن الكريم.

يستخلص من جميع ما تقدم أن أظهر المعاني لمشتقات الوحدة في القرآن الكريم معنيان
اثنان:

الأول: هو الانفراد والتفرد وقد ورد في الغالب متعلقا بالله تعالى وصفا «واحد» واسما «الواحد» وفيه إفراده بالألوهية والربوبية والصفات والأفعال ونفي الشركاء عنه، وهذا المعنى يتضمن معنى نفي النظير والمثيل عنه سبحانه. كما ورد في سياق الوعيد والإهلاك للكفرة والمكذبين، وورد في سياق التذكير بوحدة الخلق والإنشاء من نفس واحدة.

الثاني: هو الاتحاد والاتفاق وأظهر ما استعمل فيه هذا المعنى هو وصف الأمة بالواحدة وذلك في تسع آيات.

والرابط بين المعنيين - الانفراد والاتفاق - في وصف الأمة هو أن الأمة الواحدة تعني اتفاق أفرادها واتحادهم حتى يكونوا فردا واحدا وجسدا واحدا، والجامع لهم الموحد لصفهم المحقق لألفتهم ووحدتهم هو أفراد الله تعالى وتوحيده وإخلاص العبودية له.

الفصل الثاني :

□ مفهوم مصطلح الأمة.

□ وفيه أربعة مباحث:

□

✓ المبحث الأول: تعريف الأمة في اللغة. □

✓ المبحث الثاني: تعريف الأمة في الاصطلاح. □

✓ المبحث الثالث: مفهوم الأمة في القرآن الكريم. □

✓ المبحث الرابع: مفهوم وحدة الأمة الإسلامية. □

الفصل الثاني مفهوم الأمة لغة واصطلاحاً.

المبحث الأول: مفهوم الأمة في اللغة.

لم يرد لفظ الأمة في المعاجم اللغوية بمعنى واحد، إنما تعددت معانيه، حتى ذكر ابن الأنباري (ت: 328هـ) رَحِمَهُ اللهُ، أن الأمة تنقسم في كلام العرب على ثمانية أقسام، وهي: الجماعة، وأتباع الأنبياء، والدين، والرجل الصالح الذي يؤتم به، والزمان، والقامة، والأُمُّ، والمنفرد بالدين.⁽¹⁾

وفي كتاب العين معان أخرى لا تبعد عن هذه ولا تخرج عنها، قال الخليل (ت: 170هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «وكل جيل من الناس هم أمة على حدة. وكل جنس من السباع أمة»،⁽²⁾ «وكل شيء يضم إليه ما سواه مما يليه فإن العرب تسمي ذلك أُمَّاً». ⁽³⁾ «والإمَّةُ، بكسر الألف، النعمة». ⁽⁴⁾ والأمة: الملك، والأمة: الطاعة، وأم الشيء: أصله. ⁽⁵⁾

والأمة من الأمِّ والأمِّ وهما الجذر الذي ورد فيه تعريف الأمة في معاجم اللغة العربية: «والأُمُّ: القصد فعلاً واسماً. وأمَّ فلان أمراً، أي: قصد. يقال: أُمَّهُ وأُمَّمَهُ وتَأَمَّمَهُ: إذا قصده». ⁽⁶⁾

(1) الزاهر في معاني كلمات الناس للأنباري. تحقيق: حاتم صالح الضامن، إعتنى به: عز الدين البدوي النجار، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1412هـ - 1992م. 1/149 - 151، بتصرف.

(2) كتاب العين، 1/88.

(3) كتاب العين، 1/87.

(4) كتاب العين، 1/89. والزاهر في معاني كلمات الناس، 1/151.

(5) تاج اللغة وصحاح العربية، 5/1863 - 1865.

(6) كتاب العين، 1/89، وتاج اللغة وصحاح العربية، 5/1865.

وقد حدد ابن فارس مدار مادة "أم" في اللغة، فقال: «وأما الهمزة والميم فأصل واحد، يتفرع منه أربعة، وهي: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدين. وهذه الأربعة متقاربة، وبعد ذلك أصول ثلاثة، وهي: القامة، والحين، والقصد»⁽¹⁾.

● أما الفرع الأول المتفرع عن أصل مادة «أم» فهو الأصل، فالأمة تعني الأصل، تقول العرب: أم الشيء: أصله.⁽²⁾ ومنه الأم أي الوالدة لأنها الأصل بالنسبة للأولاد، «وتطلق على الجدة، يقال: حواء أم البشر ويقال: هو من أمات الخير: من أصوله ومعادنه»،⁽³⁾ «وأم القرى مكة، وكل مدينة هي أم ما حولها من القرى»⁽⁴⁾ وقد سبق أن كل شيء يضم إليه ما سواه مما يليه فإن العرب تسمي ذلك أما.

● أما الفرع الثاني المتفرع فهو المرجع، ومنه الإمام، لأنه يرجع إليه ويقتدى به.

قال ابن فارس: «والإمام: كل من اقتدي به وقُدِّم في الأمور. والني ﷺ إمام الأئمة، والخليفة إمام الرعية، والقرآن إمام المسلمين»⁽⁵⁾ فالقرآن مرجع الأمة في الأحكام والعقائد والتشريعات... والني ﷺ مرجع العباد في الاقتداء والاقتفاء والاتباع، يرجع إليه في الأقوال والأفعال والتقارير، والخليفة مرجع الرعية في الخصومات والخلافات وتنظيم شؤون الرعية...⁽⁶⁾

(1) معجم مقاييس اللغة، 21/1.

(2) تاج اللغة وصحاح العربية، 1863/5.

(3) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية، ص: 27.

(4) العين 87/1. ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي حِجِّ الْأَكْتَبِ﴾ [الزخرف: 3] أي اللوح المحفوظ، وذلك لكون العلوم

كلها منسوبة إليه. المفردات في غريب القرآن، 27/1.

(5) معجم مقاييس اللغة، 28/1.

(6) ومنه قوله تعالى: ﴿بِقَائِهِمْ هَاوِيَةً﴾ [القارعة: 8]، أي: مثواه النار، فجعلها أما له، المفردات في غريب القرآن،

28/1. أي مرجعه ومآله.

● وأما الفرع الثالث فهو الجماعة، فالأمة تعني الجماعة، وقد تكون الجماعة من جنس الحيوان، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: 39]، وقوله ﷺ: «لولا أن الكلاب أمة لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها كل أسود بهيم»⁽¹⁾، أو جماعة من الناس، ومنهم الجماعة أرسل إليهم رسول سواء آمنوا به أو كفروا، «وكل قوم نسبوا إلى نبي وأضيفوا إليه فهم أمة، وكل جيل من الناس أمة»⁽²⁾، ومنه جماعة العلماء كقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ...﴾ [آل عمران: 104].⁽³⁾

● وأما الفرع الرابع فهو الدين، فالأمة تعني الدين، «قال الخليل: الأمة الدين. وحكى أبو زيد: لا أمة له، أي لا دين له»⁽⁴⁾ قال الجوهري: «الأمة الطريقة والدين، يقال: فلان لا أمة له أي لا دين له ولا نحلة له. قال الشاعر: وهل يستوي ذو أمة وكفور...»⁽⁵⁾



(1) سنن الترمذي، كتاب الصيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في قتل الكلاب، ح: 1486، ص: 352.

(2) كتاب العين، 88/1. ومعجم مقاييس اللغة، 27/1.

(3) معجم مقاييس اللغة، 27/1.

(4) المصدر نفسه، 27/1.

(5) الصحاح 1864/5. وينظر لسان العرب: 213/1. ومنه قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]. قال الأخفش: يريد أهل أمة، أي خير أهل دين. ينظر الصحاح 1864/5. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 23]، أي على شرعة ودين، وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: 211]، أي كانوا على دين واحد. (ينظر كتاب العين، 87/1، ولسان العرب، 23/12).

وأنشد النابغة:

حلفت فلم أتركْ لِنَفْسِكَ رِيبةً *** وهل يَأْتُمَنَّ ذُو أُمَّةٍ⁽¹⁾ وهو طائع⁽²⁾؟

وكل من كان على دين واحد حقٌّ مخالفٌ لسائر الأديان فهو أمة.⁽³⁾

● وأما الفرع الخامس فهو القامة، فالأمة تعني القامة. «والعرب تقول: إن بني فلان لطوال الأُمم، يعني: القامة والجسم، كأنهم يتوهمون بذلك طول الأُمم تشبيهاً»،⁽⁴⁾ قال الأعشى:

إن معاويةَ الأَكْرَمِينَ *** بيضُ الوجوه طِوالِ الأُمَمِ⁽⁵⁾

أي طوال القامات. ومثله قول الشَّمرْدَلِ بن شريكِ اليربوعي:

طوال أنصية الأعناق والأُمم.⁽⁶⁾

(1) ويروى "ذو إمة"، فمن قال: "ذو أمة"؛ فمعناه ذو دين، ومن قال: ذو إمة فمعناه ذو نعمة أسديت إليه. (لسان العرب 215/1). وذهب بعض أهل اللغة إلى أنه لا فرق بين الأمة والإمة، قال الزبيدي: "الإمة بالكسر الحالة وأيضا الشرعة والدين، ويضم". (تاج العروس، مادة: أُمم، 228/31). وقال ابن منظور: "والإمة والأمة: الشرعة والدين وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾. قاله اللحياني، وروي عن مجاهد وعمر بن عبد العزيز: على إمة". (لسان العرب، 213/1).

(2) ديوان النابغة الذبياني، لصنعة ابن السكيت، تحقيق: شكري فيصل، دار الفكر، د ط، د ت، ص: 51.

(3) كتاب العين، 87/1 ومعجم مقاييس اللغة، 27/1.

(4) كتاب العين، 88/1، لسان العرب، 27/12، بتصرف.

(5) ديوان الأعشى الكبير لميمون بن قيس، شرح وتعليق: محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، د ط، د ت، ص: 41. ولفظ البيت عنده: فإن معاوية الأكرمين *** عظام القباب طوال الأُمم.

(6) لسان العرب، 216/1.

● وأما الفرع السادس فهو الحين والزمان، فالأمة تعني الحين.⁽¹⁾ قال الفراء في قوله عز وجل: ﴿وَأَذْكُرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، أي: بعد حين.⁽²⁾ وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَ آخِرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: 8]. معناه إلى أجل مسمى وحين معلوم.⁽³⁾

● وأما الفرع السابع فهو القصد، فالأمة تعني القصد، قال الخليل: «الأم: القصد، يقال: أمة وأممه وتأممه، إذا قصده... أم فلان، أي: قصد». ⁽⁴⁾ قال الشاعر:

فلم أجبن ولم أنكل ولكن *** يَمَمْتُ بها أبا صخر بن عمرو⁽⁵⁾

يَمَمْتُ أي: قصدت⁽⁶⁾. وتقول: «أمت ويمت فلانا بسهمي ورحمي؛ أي: توخيته به دونما سواه. قال:

يَمَمْتُه الرُّمَحَ شَزْرًا ثم قلت له *** هذي المروءة لا لِعَبِّ الزحاليق»⁽⁷⁾

وتوخيته أي قصدته. قال الأعشى:

تَيَمَّمْتُ قيساً وكم دونه *** من الأرض من مَهْمَةٍ ذي شَزَنِ⁽⁸⁾.

وإلى هذا المعنى الأخير «القصد» أرجع الأزهري (ت: 370هـ) أصل باب «أم» كله، قال رحمه الله: «وأصل هذا الباب كله من «القصد». يقال: أمت إليه، إذا قصدته. فمعنى

(1) المحكم والمحيط الأعظم 574/10.

(2) معجم مقاييس اللغة، 28/1.

(3) الصحاح 1864/5، والمحكم والمحيط الأعظم، 574/10.

(4) كتاب العين 89/1، الصحاح، 1865/5.

(5) المحكم والمحيط الأعظم 571/10. نسب سيبويه البيت إلى الفرزدق. ينظر: الكتاب لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة: 1408 هـ - 1988 م، 506/3.

(6) لسان العرب، 22/12.

(7) البيت لأبي داود الإيادي. ينظر: ديوان أبي دؤاد الإياديّ نشر ضمن دراسات في الأدب العربي، ترجمة إحسان عباس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الأولى: 1959م، ص 327. وينظر: كتاب العين 89/1.

(8) البيت في ديوان الأعشى الكبير ص: 19. وينظر: لسان العرب لابن منظور، 212/1.

«الأمة» في الدين، أن مقصدهم واحد. ومعنى الإِمة في النعمة: إنما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه. ومعنى الأمة في الرجل المنفرد الذي لا نظير له: أن قصده منفرد من قصد سائر الناس... ومعنى «الأمة» القامة، سائر مقصد الجسد. فليس يخرج شيء من هذا الباب عن معنى «أمت» أي: قصدت»⁽¹⁾.

وقد نقل ابن منظور نص كلام الأزهري في اللسان ولم يَحِد عنه⁽²⁾ إقراراً منه لهذا الأصل الذي عليه مدار باب «أُمَّ» أو «أَمَمَ»⁽³⁾ وهذا الذي صرح به أبو البقاء الكفوي في كلياته في بيان أصل لفظ الأمة فقال: «الأمة بالضم، في الأصل: المقصود، كالعمدة والعدة في كونهما معموداً ومُعَدَّاً، وتسمى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق»⁽⁴⁾.

وبهذا يكاد أصحاب المعاجم يتفقون على أن جذر لفظ الأمة (أَمَّ، أَمَمَ) ومصدره الأمة، ويتمركز معناه حول القصد وما يدور في فلكه من المعاني اللغوية الشرعية. فالخليل الفراهيدي أسس لهذا المعنى وذكر بعض الشواهد له، وصار على نهجه كل من الأنباري ثم الأزهري ثم الجوهري...⁽⁵⁾

(1) تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت: 370هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكاتب العربي، طبعة: 1967م، 635/15.

(2) هذا النص من كلام الأزهري ظنه الدكتور عبد الكبير حميدي من كلام ابن منظور فنسبه إليه وعقد بينه وبين كلام ابن فارس مقارنة محاولاً الجمع بين القولين والتوفيق بينهما، ولعله لم ينتبه إلى أن هذا النص بحرفيته قد نقله صاحب اللسان من كتاب تهذيب اللغة". (ينظر مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف" ص: 28-29).

(3) لسان العرب، 22/12.

(4) الكليات، ص: 181.

(5) ابن فارس أيضاً ممن لم ينء بعيداً عما ذكره الخليل وغيره في معاني الأمة وأوردوه من شواهد وأمثلة وشروحات، وإنما خالفهم في عَدَّ أصل الباب كله راجعاً إلى القصد، حيث ذكر لمادة أم أربعة أصول: الأول تنفرع عنه أربعة أبواب هي: الأصل والمرجع والجماعة والدين، والثاني: القامة، والثالث: الحين، والرابع: القصد. وقد رأى الأزهري وابن منظور أن تلك المعاني المتعددة كلها ترجع إلى معنى القصد، وهو أصل الوضع اللغوي للفظ، ثم استعمل بعد ذلك في كل ما يؤم ويقصد، كما أبان ذلك الأزهري وابن منظور، إلا أنهما لم يستوعبا كل المعاني ليكشفوا الصلة الاشتقاقية الجامعة لمعاني كلمة الأمة، مع المعنى الأصلي ألا وهو القصد.

ويكاد أصحاب المعاجم اللاحقون لمن سبق ذكرهم يتفقون على ما ذكر، ولا نجد لديهم إضافات أو استدراكات إلا ما كان من تجميع أو إضافة شواهد أو شروح لما ذكره الأوائل، وذلك شأن الصغاني في التكملة والذيل والصلة، وابن منظور في اللسان، والفيروز آبادي في القاموس وفي بصائر ذوي التمييز، والمرتضى الزبيدي في تاج العروس، وغيرهم...

وأما وجه العلاقة بين المعنى الأصلي للأمة - وهو القصد - وبين المعاني الأخرى المتفرعة عنه، فقد سبق بيان شيء من ذلك نصا من كلام الأزهري، حيث ذكر أن معنى الأمة في الدين أي الجماعة وذلك أن مقصدهم مقصد واحد⁽¹⁾، ومعناه في النعمة إنما هو الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه، ومعناه في الرجل المنفرد الذي لا نظير له: أن قصده منفرد من قصد سائر الناس⁽²⁾، ومعناه في القامة أنها سائر مقصد الجسد⁽³⁾. وتطلق الأمة على الدين باعتباره مقصدا لكل جماعة ولكل أمة، قال الكفوي في معرض بيانه لأوجه إطلاق الأمة: «... وعلى الدين والملة والطريقة التي تؤم»⁽⁴⁾.

= وقد يبدو هذا المعنى جليا في دلالات بعض المشتقات كما مثل لذلك الأزهري ويبدو خفيا في بعضها الآخر لما يعلم من تفاوت دلالات الألفاظ في لغة الضاد بين جلي وخفي وصريح وكناية، وحقيقة ومجاز، وعبرة وإشارة، وظاهر ومؤول... لمزيد من بيان وجه إطلاق لفظ الأمة في استعمالات أخرى فيها نوع خفاء كالحين في الزمان وكذا الدين. (ينظر مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف لعبد الكبير حميدي، ص: 31-32).

(1) وقيل: "تسمى الجماعة بالأمة من حيث تؤمها الفرق" ينظر (الكليات ص: 181). وقيل: "لأن الذي يقصده الناس ويصرونه إنما يصرون الكثرة المجتمعة حتى يقصدونها". (تحصيل نظائر القرآن للحكيم الترمذي، تحقيق: حسني نصر زيدان، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى: 1389هـ-1969م، ص: 82).

(2) ومنه الإمام القدوة العالم الرباني المعلم الجامع لخصال الخير: "لأنه هو الذي يؤم الناس ويقصدونه، فتشخص إليه القلوب قصدا، وتشخص إليه الأبصار عند رؤيته نظرا، وتنحو إليه نفوسهم آملا بالاعتداء بفعله، فهو إمام القلوب وإمام الأبصار وإمام الأبدان: ليؤمهم: أي يقصدونه فيأتمون به" ينظر: (تحصيل نظائر القرآن للحكيم الترمذي، 80-81).

(3) وذلك أن الوجه والقامة كثيرا ما يعبران عن الجهة التي يقصدها الإنسان، وهكذا يقال لا أمة لبني فلان: أي لا وجه لهم يقصدون إليه ولكنهم يحبون خبط عشواء. (ينظر: الأمة في دلالتها العربية والقرآنية لأحمد حسن فرحات، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى: 1403هـ-1983م، ص: 15).

(4) الكليات ص: 182.

ذهب الدكتور أحمد حسن فرحات إلى نظرة عميقة للربط بين بعض معاني كلمة الأمة باعتبار المراحل التي تمر بها الأمة فقال: "تتمثل الأمة أولا برجل واحد، حينما يكون على دين الحق مخالفا لسائر الأديان، وهو النبي غالبا أو من يسير على طريقته،

المبحث الثاني: تعريف الأمة في الاصطلاح.

أما الأمة في الاصطلاح العام فتعني الجماعة يجمعهم أمر ما، كما ورد عند الراغب الأصفهاني: «الأمة كل جماعة يجمعهم أمر ما، إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخييرا أو اختيارا».(1)

وقد أورد المناوي (ت: 1031هـ) رحمه الله والكفوي (ت: 1094هـ) رحمه الله التعريف نفسه، ولم يحيدا عنه إلا ما كان من حذف حروف لا يخل حذفها بالمعنى المقصود في شيء.(2)

وعلى نهجهما سار التهانوي في كشفه مع نوع تفصيل؛ قال فيه: «الأمة جمع لهم جامع من دين أو زمان أو مكان أو غير ذلك، وتطلق تارة على كل من بعث إليهم نبي؛ ويسمون أمة الدعوة. وأخرى على المؤمنين به؛ ويسمون أمة الإجابة».(3) ومعنى ذلك أن الاجتماع على أمر جامع يكسب الجماعة وصف أمة، فالجيل من الناس يجمعهم زمان أمة، وأهل بلدة

=ومن ثم يكون الرجل الذي لا نظير له، لأنه الرجل الجامع للخير، والذي يكون إماما وقدوة لغيره من الناس. فإذا استجابت لهذا الرجل فئة من الناس، وسارت على طريقته ومنهجه، سميت أمة لاجتماعها إليه في حال الدين، أو لأنها تعبير عملي عن تعاليم الدين وأحكامه مطبقة في عالم الواقع. فإذا تخلت الأمة عن دينها وعقيدتها فقدت حقيقة وجودها، ومن ثم تسمى أمة باعتبار ما كان، فكان الأمة هنا يراد بها الحقبة الزمنية التي كانت فيها ملتزمة بدينها، وكأن القرآن يلفتنا في هذا إلى أن التاريخ لا يكون بوحدات زمنية فقط، وإنما يمكن أن يحسب بوحدات دينية أيضا، يعبر عنها بالأمة ويراد بها الحقبة الزمنية التي كانت فيها تلك الأمة منسجمة مع عقيدتها ودينها. وهذا يعني أن الإسلام لا يقيم كبير اعتبار للزمن وحده، وإنما الاعتبار الأهم لما يجري فيه من نماذج عملية ملتزمة بطرق الهداية، ومن ثم يكثر في القرآن إطلاق لفظ القرون على الأمم السابقة، مع أنها في الأصل لفترة من الزمان". (الأمة في دلالتها العربية والقرآنية ص: 20).

(1) المفردات في غريب القرآن، 28/1.

(2) قال المناوي: "كل جماعة يجمعها أمر، إما دين أو زمان أو مكان واحد، سواء كان الأمر الجامع تسخييرا أم اختيارا". (التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 62. وينظر: الكليات، ص: 176).

(3) كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، 262/1. ظن الدكتور عبد الكبير حميدي حفظه الله أن هذا التقسيم مما سبق إليه التهانوي في كشفه، وقد أشاد بصنيعه وعده إضافة عما ذكره الراغب في مفرداته وبسطا لتعريفه وبيانا لكلامه، إلا أنه لم ينتبه إلى أن الكفوي قد سبق إلى هذه القسمة، فكان أخرى بالذكر وأحق بالإشادة. (ينظر: مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف، ص: 43-44).

يجمعهم مكان أمة، مثل اجتماع من شاهدتهم موسى عليه السلام عند ماء مدين في مكان واحد، فجمعهم المكان، وجمعهم المقصد وهو سقاية أغنامهم. وأهل كل دين أمة، وكل جنس من الدواب في الأرض أمة تسخيراً، والبشر أمم بأمر جامع اختياراً، وقد يكون غير اختياري كمن جمعهم زمان أو مكان أو نوع أو لغة...

إن الذي يلاحظ أن دلالة الأمة في المعاجم الاصطلاحية تنصرف مباشرة إلى معنى الجماعة، قال أبو حاتم الرازي (ت: 277هـ): «الأمة أصلها الجماعة من الناس والدواب والطير - أي جماعة - وأصله: الاجتماع على الشيء وعلى حالة واحدة»⁽¹⁾ وقال ابن قتيبة⁽²⁾ (ت: 276هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «أصل الأمة: الصنف من الناس والجماعة»⁽³⁾.

فالأصل الجماعة وينطوي تحت هذا الأصل أنواع عدة، ولا يختص لفظ الأمة بالناس، بل يعم الدواب والطير⁽⁴⁾ والكلاب وغيرها. ودلالة لفظ "كل" في تعريف الراغب على العموم ظاهرة، وتفصيله القول في الأمر الجامع بالتسخير أو الاختيار دال على ذلك، وتمثيله للأمر الجامع بالزمان والمكان إشارة إلى الجماعة المسخرة من قبل الحق سبحانه، والتي تعم كل الأحياء مما يصدق عليه لفظ "الأمة والجماعة"، وقد صرح بذلك في قوله... «أي كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع، فهي بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية

(1) لا وجوه ولا نظائر في كتب الوجوه والنظائر لعبد الجبار فتحى زيدان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، طبعة: 1971م، ص: 189.

(2) ابن قتيبة الدينوري: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، فإنه كان كوفياً، ومولده بها، وأخذ عن أبي حاتم السجستاني وغيره، وكان فاضلاً في اللغة والنحو والشعر متقناً في العلوم، وله المصنفات المذكورة والمؤلفات المشهورة منها: "غريب القرآن" و"غريب الحديث" و"أدب الكاتب" و"دلائل النبوة".

ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لعبد الرحمان بن محمد الأنباري، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الرقاع - الأردن، الطبعة الثالثة 1405هـ - 1985م، ص: 159-162.

(3) تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: 276هـ)، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث القاهرة، الطبعة الثانية: 1393هـ - 1973م، ص: 445.

(4) كما في الآية: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ [الأنعام: 39].

كالسُرْفَةِ،⁽¹⁾ ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقته كالعصفور والحمام، إلى غير ذلك من الطبائع التي تخصص بها كل نوع».⁽²⁾

ويدخل في الأمة المسخرة جماعة البشر ممن جمعهم زمان واحد أو مكان واحد، إذ يكون الأمر الجامع قدرها جبريا خارجا عن دائرة الاختيار في أغلب الأحيان.⁽³⁾

إن تدبر هذه التعريفات الاصطلاحية المتقاربة المعنى يفضي إلى أمور وهي:

● الأمر الأول: إن الأصل عند إطلاق لفظ "الأمة" انصراف المعنى إلى "الجماعة".
كما ذكر ابن قتيبة في تأويله.⁽⁴⁾

(1) السُرْفَةُ: دويبة تتخذ لنفسها بيتا مربعا من دقاق العيدان، تضم بعضها إلى بعض بلعابها، ثم تدخل فيه وتموت. الصحاح تاج اللغة، 4/1373.

(2) المفردات في غريب القرآن، 1/28.

(3) قلت في أغلب الأحيان، إذ جامع المكان قد يكون للعبد فيه اختيار حال تمييزه أو بلوغه بمفارقتها لمكان ولحوقه بمكان آخر، وهذا أمر مألوف معروف بالعادة والواقع بسبب الهجرة أو اللجوء أو غير ذلك.

(4) قال رحمه الله: "أصل الأمة: الصنف من الناس والجماعة، كقوله عز وجل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي صنفا واحدا في الضلال ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 213]. وكقوله عز وجل: ﴿إِلَّا أُمَّةٌ أَمَثَلُكُمْ﴾ [الأنعام: 39]، أي: أصناف، وكل صنف من الدواب والطير مثل بني آدم في المعرفة بالله، وطلب الغذاء. وتوفي المهالك، والتماس الذرع، مع أشباه لهذا كثيرة. ثم تصير الأمة: الحين، كقوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]. وكقوله: ﴿وَلَيْسَ أَخْرَأْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: 8]. أي: سنين معدودة. كأن الأمة من الناس القرن ينقضون في حين، فتقام "الأمة + مقام" الحين". ثم تصير الأمة: الإمام والرباني، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: 120]. أي: إماما يقتدي به الناس، لأنه ومن اتبعه أمة، فسمي أمة لأنه سبب الاجتماع. وقد يجوز أن يكون سمي أمة: لأنه اجتمع عنده من خلال الخير ما يكون مثله في أمة. ومن هذا يقال: فلان أمة وحده، أي: هو يقوم مقام أمة. وقد تكون الأمة: جماعة العلماء، كقوله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104]. أي: يعلمون. والأمة: الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 21]، أي: على دين.

قال النابغة: حلفت فلم أترك لنفسك ريبة *** وهل يأثم ذو أمة وهو طائع؟

أي: ذو دين.

فقد صرح ابن قتيبة - كما الرازي من بعده رحمهما الله - بأن الأصل في معنى الأمة هو الجماعة ثم فرع ببيان المعاني الجزئية والتمثيل لها بالآيات القرآنية، وعند التأمل والنظر فيما أورده واستقرأه يظهر أن معنى الجماعة والاجتماع حاضر في هذه الأمثلة كلها، فالأمة بمعنى الحين والقرن لأن ذاك الزمان محل لاجتماع جيل من الناس، أو صنف من جنس حي آخر، فهو من باب «إطلاق المحل وإرادة الحال»⁽¹⁾ وقيل: «لاجتماع الأيام والشهور في سنين كثيرة»⁽²⁾.

والأمة بمعنى العالم الرباني لاجتماع صفات الخير والصلاح فيه، والأمة بمعنى الدين لأن الدين سبب الاجتماع والاتلاف، فيقام ما كان سببا في الاتفاق مقام الجماعة المجتمعة عليه.

● الأمر الثاني: اتفقت تعريفات كتب الاصطلاح على أن الأمة قد يكون الجامع لها تسخيرا وقد يكون اختيارا، فيشمل لفظ الإنسان وغيره من دواب وطير.

● الأمر الثالث: ويتعلق بتعريف الكفوي حيث أورد إطلاقا عاما للفظ الأمة، وهو الذي تداولته كثير من المعاجم اللغوية؛ أن الأمة هي الجماعة يجمعهم أمر ما، ثم أعقب ذلك بالحديث عن الأمة بمعنى من بعث إليهم نبي، وفي ذلك تخصيص بعد تعميم لمزيد اهتمام بهذا المعنى، وبيان أن خير ما يجتمع عليه هو ما جاء به أنبياء الله ورسله، وقد قسم هذا المعنى إلى شقين:

=والأصل أنه يقال للقوم يجمعون على دين واحد: أمة، فتقام الأمة مقام الدين، ولهذا قيل للمسلمين: أمة محمد ﷺ؛ لأنهم على أمر واحد، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: 53]. مجتمعة على دين وشريعة. وقال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [النحل: 93]، أي: مجتمعة على الإسلام.
ينظر: تأويل مشكل القرآن، ص: 445-446.

(1) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، قام بتحريره: عبد القادر عبد الله العاني، راجعه: عمر سليمان الأشقر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الثانية، 1413هـ - 1992م، 2/209.
(2) تحصيل نظائر القرآن، ص: 83.

- أمة الدعوة: وهم الذين دعوا إلى الإيمان برسالة النبي المبعوث فيهم، وهم كل من بلغتهم دعوة النبي.

- أمة الإجابة: وهم الذين أجابوا دعوة النبي المبعوث فيهم وآمنوا به، وانتظموا في سلك الإسلام.⁽¹⁾

● الأمر الرابع: إن مفهوم الأمة في هذه التعريفات يتكون من مقومين هما:

- أولا: الجمع أو الجماعة دون تحديد جنسها ولا طبيعتها.

- ثانيا: الأمر الجامع الذي قد يكون تسخيرا أو اختيارا، ومثل له بالدين أو الزمان أو المكان...

● الأمر الخامس: إن كلا من الراغب ومن تلاه - كالناوي والكفوي ثم التهانوي - قد ذكروا الأمر الجامع للجماعة بشكل عام مجمل، ثم أعقبوه بالتمثيل: إما الدين أو الزمان أو المكان، ولعل في ذلك إشارة إلى أن المقصود هو عدم حصر المفهوم في الجماعة البشرية، بل يتعدى المعنى ذلك إلى غيرها من الأجناس كما قد ذكره بعضهم.

● الأمر السادس: اقتصرت بعض المعاجم الاصطلاحية التي تطرقت لمعنى الأمة على ذكر معنى الجماعة دون التطرق إلى المعاني اللغوية الأخرى،⁽²⁾ ولعل في ذلك إشارة إلى ما قد صرح به ابن قتيبة من أن الأصل في معنى الأمة هو الجماعة، في حين ذكر غيرهم المعنى الأصلي وأشار إلى ما يتفرع عنه إما تصریحا أو تلمیحا.⁽³⁾



(1) كشف اصطلاحات الفنون، ص: 262.

(2) ينظر: التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 62. موسوعة كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، 262/1.

(3) ينظر: تأويل مشكل القرآن، ص: 445-446. المفردات في غريب القرآن، ص: 27 وما بعدها. الكليات، ص: 176 وما بعدها.

حاصل الكلام بعد النظر في المعاجم اللغوية والاصطلاحية.

إن الأصل في معنى مادة «أم» و «أمم» في المعاجم اللغوية هو القصد والتوجه وما يدور في فلكه من المعاني اللغوية، وعنه تفرعت المعاني الأخرى، فإطلاق الأمة على الجماعة لأن مقصدهم يكون واحدا، وإطلاقها على الدين باعتباره مقصد الناس، وإطلاق الأمة على المرجع والإمام لأنه يُقصد للاقتداء والاهتداء، أو لأن مقصده منفرد عن قصد سائر الناس، وإطلاق الأمة على الأصل لأن الأصل يكون مقصدا يجتمع حوله الناس، وإطلاق الأمة على النعمة لأنها الشيء الذي يقصده الخلق ويطلبونه، ومنه أيضا إطلاقها على القامة لأنها سائر مقصد الجسد.

أما في الاصطلاح العام فالأصل عند إطلاق لفظ الأمة انصراف المعنى إلى الجماعة يجمعهم أمر ما، سواء كانت الجماعة إنسا أو جنسا آخر، وسواء كان الجامع تسخييرا أم تخييرا، وإلى هذا الأصل الدلالي الاصطلاحي - الجماعة - أرجع أهل الاصطلاح المعاني الأخرى، فالأمة بمعنى الدين لأن الدين سبب الاجتماع والائتلاف فأقيم ما كان سببا في الاجتماع مقام الجماعة المجتمعة عليه، والأمة بمعنى الحين لأن الأمة تكون في الحين والزمان فأقيمت مقامه، وأما الأمة بمعنى العالم الرباني لأنه سبب الاجتماع والجماعة فيقام مقام الأمة.

المبحث الثالث: مفهوم الأمة في القرآن الكريم.

من المعلوم أن الدلالة الشرعية للألفاظ تستفاد من استعمال القرآن أو الحديث لها، وإطلاقها على معان شرعية ثابتة، فتكون حقيقة شرعية، أو من إطلاق علماء الشرع مفسرين ومحدثين وفقهاء وغيرهم، واستعمالهم لها، فتكون حقيقة عرفية اصطلاحية، ولفظ الأمة من الألفاظ التي احتفظ النص الشرعي قرآنا وسنة بدلالاتها اللغوية الأصلية، وضمنها معاني أوسع، ويبدو ذلك جليا من خلال إيراد بعض ما ورد من معاني الكلمة -أمة- في القرآن الكريم في سياقات مختلفة حيث يظهر الحفاظ على الدلالة الأصلية، ويبرز ما تدل عليه اللفظة من معاني أوسع وذلك بدراسة نصوص القرآن لاستنباط الفهوم التي تُقرب من معنى مصطلح الأمة، وثُمَّ كُنْ من صياغة تعريف له يكون مفتاحا لولوج المباحث الموضوعية لهذه الأطروحة.

لقد ورد لفظ الأمة في القرآن الكريم أربعاً وستين مرة، واحد وخمسون منها بصيغة المفرد: «أمة» وثلاث عشرة بصيغة الجمع: «أمم».

وإن تتبع هذا المصطلح في موارده القرآنية والتأمل لمعانيه يقتضي تحليلاً مفاهيمياً سياقياً لكل مورد له في القرآن كله، وتجلية لحقوله الدلالية، ولا تطمع هذه الدراسة في ذلك، إذ ثمة من سبق إليه،⁽¹⁾ ولذلك أقف عند حد التأسيس الأولي للمفهوم بإيراد أمثلة من الآيات، تشمل المعاني الرئيسة للكلمة، وهذه المعاني تشترك بين أربعة،⁽²⁾ وهي:

(1) ينظر: مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف لعبد الكبير حميدي.

(2) لقد حاول بعض أهل العلم والتفسير وأصحاب الوجوه والنظائر تتبع معاني الأمة في القرآن الكريم واستقراءها، وتفاوتت نتائج النظر والتحليل عندهم، فعدها ابن قتيبة ستة: "الصف من الناس والجماعة، وهو المعنى الأصلي، ثم الحين، ثم الإمام الرباني، ثم جماعة العلماء، ثم الدين، وأخيراً القوم مجتمعون على دين واحد". (تأويل مشكل القرآن، ص: 445-446). وعدها الحكيم الترمذي أيضاً ستة وهي: "الجماعة، فالملة، فأهل كل دين، فالسنيين، فالقوم، فأبراهيم عليه السلام". (تحصيل نظائر القرآن، ص: 82-83). وعدها الفيروز آبادي عشرة وهي: "الصف المصفوف، فالسنيين الخالية، فالرجل الجامع للخير، فالدين والملة، فالأمم السالفة والقرون الماضية، فالقوم بلا عدد، فالقوم المعدود، فالزمان الطويل، فالكفار، فأهل الإسلام". (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، 2/79-80). واعتبرها مكّي بن أبي طالب = القيسي القيرواني خمسة وهي:

1 - الجماعة.

2 - الملة والدين.

3 - الرجل القدوة الجامع لخصال الخير.

4 - الحين والفترة من الزمان.

قال الشنقيطي (ت: 1393هـ) رَحِمَهُ اللهُ في أضوائه: «استعمل لفظ «الأمة» في القرآن أربعة استعمالات:

الأول: هو ما ذكرنا هنا من استعمال الأمة في البرهة من الزمن.

الثاني: استعمالها في الجماعة من الناس، وهو الاستعمال الغالب، كقوله تعالى:

﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسَفُونَ﴾ [القصص: 22]، وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ

رَسُولٌ﴾ [يونس: 47]، وقوله ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً﴾ [البقرة: 213]، إلى غير ذلك من الآيات.

الثالث: استعمال «الأمة» في الرجل المقتدى به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ

أُمَّةً﴾ [النحل: 120].

= "العصبة والجماعة، فالملة، فالسنين والحين، فالقوم، فالإمام". (الهداية إلى بلوغ النهاية 3239/5-3240). وكذلك عدها ابن عادل الحنبلي فقال: "الملة، فالجماعة، فالسنين، فالإمام يعلم الخير، فأحصى الأمم". (اللباب في علوم الكتاب 501/3). إلا أنه عند النظر والتأمل في هذه المعاني التي أوردوها يظهر أن مردها إلى معان أربعة جامعة دلت عليها سياقات النصوص القرآنية، وصرحت بها أقوال المفسرين، وإن تفاوتت في بعض المواضع بقيود وأوصاف لا تخرجها عن أصل المعنى الذي سيقته له. وهذه المعاني الأربعة هي ما توصل إليه الباحث الدكتور عبد الكبير حميدي حفظه الله في دراسته، وقد صرح بها من قبله الشنقيطي رحمه الله في تفسيره.

الرابع: استعمال «الأمة» في الشريعة والطريقة؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 21]، الآية، وقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: 92]، إلى غير ذلك من الآيات»⁽¹⁾.

وفيما يلي بيان ذلك بشيء من التفصيل.

المعنى الأول: الجماعة يجمعهم أمر ما.

وهذا هو الأصل في معنى الأمة كما رأينا ذلك في المبحث السابق عند أهل الاصطلاح العام، والجامع إما تسخيري وإما اختياري، ويندرج ضمن هذا المعنى الأول أنواع من الجماعات وهي:

أ- الجنس من كل دابة أو طير.

وقد ورد هذا المعنى في قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 39]، قال الطبري: «... جعل ذلك كله أجناسا مجنسة، وأصنافا مصنفة، تعرف كما تعرفون، وتتصرف فيما سخرت له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها، ومثبت كل ذلك من أعمالها في أم الكتاب»⁽²⁾.

(1) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، وقف: مؤسسة سليمان بن

عبد العزيز الراجحي الخيرية، دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية: 1400 هـ - 1980 م، 3/17-18.

(2) تفسير الطبري، 9/232.

قال قتادة: «الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة».⁽¹⁾ فقوله الطير أمة: أي جماعة لها جامع مشترك من جنس أو صنف.

وقال القرطبي (ت: 671هـ) رَحِمَهُ اللهُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَهْمُ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: 39]، «أي: هم جماعات مثلكم في أن الله عز وجل خلقهم، وتكفل بأرزاقهم، وعدل عليهم، فلا ينبغي أن تظلموهم، ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به».⁽²⁾

ب - الجماعة من الناس.

وقد ورد هذا المعنى في مثل قوله تعالى ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُفُونَ﴾ [القصص: 22-23]. قال الطبري: «يعني الجماعة من الناس يسقون نعمهم ومواشيهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»،⁽³⁾ وهو قول ابن كثير في تفسيره.⁽⁴⁾

(1) تفسير ابن كثير، 3/253.

(2) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان للقرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، شارك في تحقيق هذا الجزء محمد رضوان عرقسوسي، ماهر حبوش، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1427هـ - 2006م. 8/370.

اختلفت أقوال العلماء في وجه المماثلة بين الإنسان والحيوان في الآية ﴿إِلَّا أَهْمُ أَمْثَالُكُمْ﴾، فقليل هي أمثال لنا في التسبيح والدلالة والمعنى، وما من دابة ولا طائر إلا وهو يسبح الله تعالى، ويدل على وحدانيته لو تأمل الكفار. وقال أبو هريرة: "هي أمثال لنا على معنى أنه يحشر البهائم غدا، ويقتص للجماء من القرناء"، ثم يقول الله لها: كوني ترابا. وهذا اختيار الزجاج، فإنه قال ﴿إِلَّا أَهْمُ أَمْثَالُكُمْ﴾، في الخلق والرزق والموت والبعث والاقتصاص، وقد دخل فيه معنى القول الأول أيضا. وقال سفيان بن عيينة: "أي: ما من صنف من الدواب والطير إلا في الناس شبه منه؛ فمنهم من يعدو كالأسد، ومنهم من يشتره كالخنزير، ومنهم من يعوي كالكلب، ومنهم من يزهو كالطاووس فهذا معنى المماثلة". واستحسن الخطابي هذا وقال: "فإنك تعاشر البهائم والسباع فخذ حذرک". وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَهْمُ أَمْثَالُكُمْ﴾، قال: "أصناف لمن أسماء تُعرف بها كما تعرفون". (تفسير القرطبي 8/370-371. تفسير الرازي 12/224-225)، بتصرف.

(3) تفسير الطبري، 18/206.

(4) تفسير ابن كثير، 6/226.

وتكاد كلمة المفسرين تجمع على أن الأمة في الآية الكريمة تعني الجماعة من الناس، ومثاله أيضا قول الله جل جلاله في الآية 164 من سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، فلفظ الأمة هنا يعني الجماعة من الناس كما قاله غير واحد من أهل التفسير.⁽¹⁾ ووردت آيات أخرى في هذا المعنى -الجماعة من الناس-.⁽²⁾

ج - الجماعة يجمعهم قرن أو جيل واحد.

وقد ورد هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفْهِمُونَ﴾ [الأعراف: 32]. قال ابن كثير: «يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي قرن وجيل»،⁽³⁾ «ويمكن أن يقال: الأمة هي الجماعة في كل زمان». ⁽⁴⁾ «لأن الأمة هي الجماعة التي يجمعها عصر وعادات وتقاليد، ويكون فيها توجيه إلى الخير أو إلى الشر، فهي جيل له أحواله، وعليه تبعاته، فالله - سبحانه - أخبرنا أن لكل جيل من الأجيال أجله الذي ينتهي عنده، ويذهب بأثقاله ويحيي من بعده جيل آخر له شأنه». ⁽⁵⁾

(1) ينظر: تفسير الطبري، 511/10، وتفسير الرازي، 41/15، وتفسير القاسمي، 2888/8، وتفسير المراغي لأحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى: 1365 هـ - 1946 م. 94/9.

(2) مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف، ص: 120.

(3) تفسير ابن كثير، 409/3.

(4) تفسير النيسابوري، 227-228/3.

(5) زهرة التفاسير لأبي زهرة، دار الفكر العربي، 2825-2826/6.

ونجد المعنى نفسه في تفسير قول الله عز وجل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مِمَّا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: 133]، حيث قال الطبري: «يعني بالأمة في هذا الموضع: الجماعة والقرن من الناس».(1)

د - الجماعة تجتمع على دين.

وقد يكون الدين الذي اجتمعت عليه حقاً وهو دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 84]، وقد يكون باطلاً، وماذا بعد الحق إلا الضلال، فالجماعة تجتمع على دين معنى أصيل في استعمال لفظ الأمة، قال الطبري في تأويل قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 213]. «... وأصل الأمة الجماعة تجتمع على دين، ثم يكتفي بالخبر عن الأمة من الخبر عن الدين لدلالاتها عليه. كما قال جل ثناؤه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [النحل: 93] و [المائدة 48]. يراد به أهل دين واحد وملة واحدة».(2)

هـ - الجماعة التي أرسل إليها رسول سواء آمنوا أو كفروا:

وقد ورد هذا المعنى في مواطن كثيرة بلغت سبعة وأربعين موضعاً،(3) مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ فَضِيَ بَيْنَهُم بِالْفِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 47]، فالمراد من الأمة ها هنا: الذين يُبعث فيهم الرسول مؤمنهم

(1) تفسير الطبري، 588/2.

(2) تفسير الطبري، 622/3. وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، 696/1. بتصرف.

(3) مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف، ص: 107.

وكافرهم،⁽¹⁾ فلكل أمة رسول شاهد عليهم،⁽²⁾ يبعث إليهم لينبهم على التوحيد ويدعوهم إلى دين الحق،⁽³⁾ ويقيم حياتهم على الصراط المستقيم.

قال الرازي في تفسير الآية: «وفي هذه الآية مسائل: المسألة الأولى: هذه الآية تدل على أن كل جماعة ممن تقدم قد بعث الله إليهم رسولا. والله تعالى ما أهمل أمة من الأمم قط. ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24]». (4)

و - الجماعة التي تؤمن برسالة محمد ﷺ:

ورد هذا المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]. قال الطبري: «كما هديناكم أيها المؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام، وبما جاءكم به من عند الله...». (5) فالأمة في الآية تعني أمة محمد ﷺ، (6) وهذا «خطاب لجميع الأمة أولها وآخرها، من كان منهم موجودا وقت نزول هذه الآية، ومن جاء بعدهم إلى قيام الساعة». (7) ويشهد لهذا التحديد بأمة محمد ﷺ سياق القرآن حيث ورد الحديث عن توجيه القبلة قبل بيت الله الحرام، ثم أعقب بشهادة الأمة المحمدية على سائر الأمم، وتلاه بالتفريع وذكر ملابسات هذا الحدث، وما في ذلك من الحكمة والابتلاء، وتطبيب خاطر سيد الأنبياء...

(1) تفسير ابن كثير، 4/308.

(2) تفسير القرطبي، 8/349.

(3) تفسير البيضاوي، 3/115، بتصرف. وتفسير النسفي، ص: 465.

(4) تفسير الرازي، 17/111.

(5) تفسير الطبري، 2/626.

(6) تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، مصر - القاهرة، الطبعة الأولى: 1423هـ - 2002م، 1/184.

(7) الباب في علوم الكتاب، 3/15.

«فهذه الأمة بحسن سيرتها تكون شهيدة على الأمم السالفة، وحجة عليها في انحرافها عن هدى المرسلين»⁽¹⁾، وقد فضل الله أمة نبينا محمد ﷺ على سائر الأمم الخالية، وأخبرهم بذلك في قوله سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110].

قال الزجاج⁽²⁾ (ت: 311هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «يعني به أمة محمد ﷺ... هذا الخطاب أصله أنه خوطب به أصحاب النبي ﷺ وهو يعم سائر أمة محمد، والشريطة في الخيرية ما هو في الكلام، وهو قوله عز وجل: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]». (3)

ز - الجماعة من العلماء:

وقد ورد هذا المعنى في قول الله جل وعلا: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]. حيث قال الضحاك: «هم خاصة أصحاب رسول الله ﷺ، وهم خاصة الرواة»⁽⁴⁾، «يعني المجاهدين والعلماء... والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه»⁽⁵⁾.

(1) تفسير المراغي، 43/5.

(2) الزجاج: أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل الزجاج، كان من أكابر أهل العربية، وكان حسن العقيدة، جميل الطريقة، وصنف مصنفات كثيرة منها: "المعاني في القرآن" وكتاب "الفرق بين المؤنث والمذكر"، (ت: 311هـ). ينظر: نزهة الألباء، ص: 183.

(3) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1408هـ - 1988م. 456/1.

(4) تفسير الطبري، 662/5.

(5) تفسير ابن كثير، 91/2.

قال الزجاج: «ذكر الدعاة إلى الإيمان، والدعاة ينبغي أن يكونوا علماء بما يدعون إليه وليس الخلق كلهم علماء، والعلم ينوب فيه بعض الناس عن بعض، وكذلك الجهاد».⁽¹⁾

وهذا على قول من ذهب إلى أن «من» للتبعض، أي «إنما أمر الله بعض المؤمنين بالدعاء إلى الخير، لأن الدعاة ينبغي أن يكونوا علماء بما يدعون الناس إليه».⁽²⁾ ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفايات، ولأنه لا يصلح له إلا من علم المعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته وكيف يباشر، فإن الجاهل ربما نهى عن معروف وأمر بمنكر، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب صاحبه فنهاء عن غير منكر، وقد يغلظ في موضع اللين، ويلين في موضع الغلظة، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تماديا، أو على من الإنكار عليه عبث».⁽³⁾ فثبت أن هذا التكليف متوجه على العلماء، ولا شك أنهم بعض الأمة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿بَلِّغُوا نَبَرَ مِ كُلِّ فِرْفَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةً

لِّيَتَّبَعَهُوْا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: 122].

فهذا من فروض الكفاية «بمعنى أنه متى قام به البعض سقط عن الباقي، وإذا كان كذلك كان المعنى: ليقم بذلك بعضكم، فكان في الحقيقة إيجابا على البعض لا على الكل»⁽⁴⁾ إذ فعل هذه الأفعال على وجوها، وحفظ قوانينها على الكمال لا يكون إلا بعلم واسع، وقد علم الله تعالى أن الكل لا يكون عالما، فصار متعلق الأمر بعض الأمة وهم الذين يصلحون لذلك.

وهذا الذي رجحه القرطبي⁽⁵⁾ وأبو حيان⁽¹⁾ وغيرهما.

(1) معاني القرآن وإعرابه، 1/452-453.

(2) الهداية إلى بلوغ النهاية، 2/1088.

(3) الكشف، 1/604. وينظر تفسير الرازي، 8/182.

(4) ينظر تفسير الرازي، 8/182. المحرر الوجيز، 2/310.

(5) ينظر: تفسير القرطبي، 5/253. والبحر المحيط، 3/23.

المعنى الثاني: الدين والملة.

من الآيات التي وردت فيها كلمة الأمة بمعنى الدين قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ آية: 91. وقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا﴾ آية: 52.

قال ابن عباس رضي الله عنه: «يريد دينكم»، وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.⁽²⁾

قال ابن قتيبة: «والأمة الدين. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22]. أي على دين. والأصل أنه يقال للقوم يجتمعون على دين واحد أمة فتقام الأمة مقام الدين»⁽³⁾ وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. قال ابن عباس: «دينا واحدا»، والمعنى: أن هذه

=قال القرطبي: "ومن في قوله منكم للتبعيض، ومعناه أن الأمرين يجب أن يكونوا علماء، وليس كل الناس علماء. وقيل: لبيان الجنس، والمعنى: لتكونوا كلكم كذلك. قلت: القول الأول أصح، فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عينهم الله تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَفَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الحج: 39]. وليس كل الناس مكنوا". (تفسير القرطبي، 253/5).

(1) قال أبو حيان الأندلسي: "و" من" في قوله منكم للتبعيض، وقاله الضحاك والطبري لأن الدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يصلح إلا لمن علم المعروف والمنكر... فعلى هذا تكون من للتبعيض ويكون متعلق الأمر ببعض الأمة، وهم الذين يصلحون لذلك". (ينظر: البحر المحيط، 23/3).

(2) ينظر: تفسير ابن كثير، 371/5. وتفسير الطبري، 392/16.

(3) تأويل مشكل القرآن، ص: 446.

الشريعة التي نبينها لكم في كتابكم دينا واحدا إبطال لما سواها من الأديان.⁽¹⁾ وبنحوه قال الطبري في تأويله: «يقول تعالى ذكره: إن هذه ملتكم ملة واحدة».⁽²⁾

والملة المقصودة في هذه الآية من سورتي الأنبياء والمؤمنون هي ملة الإسلام، فأبطل ما سوى الإسلام من الأديان كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، وقوله جل جلاله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 84].

قال الزخشري: «الأمة: الملة و﴿هَذِهِ﴾: إشارة إلى ملة الإسلام، أي: إن ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها لا تنحرفون عنها، يشار إليها ملة واحدة غير مختلفة».⁽³⁾

على أن الأمة بمعنى الدين والملة عند الإطلاق، لا يلزم منها ضرورة دين الإسلام، بل يطلق اللفظ على كل دين تعبد به الناس ولو كان باطلا، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 21]. وقوله جل جلاله: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 22]. فقد اتفقت كلمة المفسرين على أن المراد بالأمة في الآيتين هو الدين والملة، إذ أتتا في سياق الإنكار على الكفار تقليد الآباء والأجداد فيما كانوا عليه من دين باطل، وقد جاءهم الرسول ناطقا بالحق، ولكن أكثرهم للحق كارهون، فلم يأتوا بحجة عقلية ولا عقلية، ولا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجاهلة فهم على آثارهم مقتدون، وفي ذلك توبيخ لمن تجمد على تقليد أسلافه، وقد ظهر من هو أهدى منهم.

(1) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحددي. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود. علي محمد معوض — أحمد محمد صبرة — عبد الرحمن عويس. قدمه: عبد الحي الفرماوي. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى: 1415 هـ - 1994 م. 251/3.

(2) تفسير الطبري، 392/16.

(3) الكشف، 164/4.

المعنى الثالث: الإمام العالم القدوة الجامع لخصال الخير.

وأما المعنى الثالث للأمة فهو الرجل المنفرد الذي لا نظير له، والجامع لخصال الخير وخلال الفضل، والذي يصح أن يوسم عالماً ويوصف قدوة، وقد ورد هذا المعنى في قول ربنا جل جلاله في آية واحدة من محكم تنزيله وذلك في سورة النحل: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً فَايْتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الآية 120، وقد سئل ابن مسعود رضي الله عنه عن الأمة في الآية فقال: «الذي يعلم الناس الخير».(1)

قال الطبري: «يعني بقوله أمة: إماماً في الخير يقتدى به، ويتبع عليه... وكأن من قال هذا القول استجاز تسمية الواحد باسم الجماعة لاجتماع خلال الخير التي تكون في الجماعة المتفرقة فيمن سماه بالأمة...»(2) وقد يجوز أن يكون سماه بذلك؛ لأنه سبب لاجتماع الأشتات من الناس على ما دعاهم إليه من خلال الخير...»(3) فهو الذي أرشد الناس بوحى الله إلى أم بيت الله لتعظيمه وتقواه، وتوحيده وطاعته، فصاروا إليه رجالاً وعلى كل ضامر، من كل فج عميق، فلأنه كان سبب الاجتماع سمي أمة، إذ يقام ذلك اللفظ مقامه، أو لكماله -عليه الصلاة والسلام- واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا مفرقة في أشخاص كثيرة.(4)

(1) تفسير الطبري، 393/14.

(2) قال ابن الأنباري: "هذا مثل قول العرب: فلان رحمة، وفلان علامة، ونسابة، ويقصدون بهذا التأنيث قصد التناهي في المعنى الذي يصفونه، والعرب قد توقع الأسماء المبهمة على الجماعة، وعلى الواحد، كقوله: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: 39]، وإنما ناداه جبريل وحده". (زاد المسير في علم التفسير، 503/4).

(3) تفسير الطبري، 623/3.

(4) ينظر: تفسير البيضاوي، 244/3. وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي (ت: 982هـ)، تحقيق: حسن أحمد مرعي - محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 149/5.

ليس على الله بِمُسْتَنْكَرٍ *** أن يجمع العالم في واحد⁽¹⁾

فإبراهيم عليه السلام هو رئيس الموحدين وقدوة المحققين الذي جادل فرق المشركين، وأبطل مذاهبهم الزائغة بالبراهين القاطعة والحجج الدامغة.⁽²⁾

وقيل: أمة بمعنى: مأموم، أي يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير، كما قال سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 123]». ⁽³⁾ فيرجع إلى المعنى نفسه.

فلفظ الأمة «يحتمل أنه يعدل أمة كاملة بما فيها من خير وطاعة وبركة. ويحتمل أنه كان إماما يقتدى به في الخير. وورد في التفسير بالمأثور هذا المعنى وذاك وهما قريبان. فالإمام الذي يهدي إلى الخير هو قائد أمة وله أجره وأجر من عمل بهدايته، فكأنه أمة من الناس في خيره وثوابه لا فرد واحد».⁽⁴⁾ فهو في ذاته أمة لأنه جامع لكل صفات الكمال البشري، ومستجمع لكل أسباب الرفعة عند الله، وهو مع ذلك إمام يؤتم ويقصد، إذ هو إمام الموحدين فيقتدى به في وجوه الطاعات وفي ألوان الخيرات، وفي الأعمال الصالحات، وفي إرشاد الناس إلى صنوف القربات، قال جل جلاله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: 123]. يؤمه الناس ويقصدونه، وينحون نهجه وطريقته، ويقتفون أثره وسنته. ولا شك أن لحاق الآيات تؤكد هذا المعنى، لأنه ورد في رفع القواعد من البيت، والبيت رمز التوحيد الخالص، والقبلة وجهة الأمة الشاهدة والواحدة.

(1) هذا البيت قاله أبو نواس في هارون الرشيد مادحا له. ينظر: شرح ديوان أبي نواس ضبط معانيه وشرحه: إيليا الحاوي، الشركة العالمية للكتاب، د ط، 1987م، 349/1.

(2) ينظر في هذا المعنى: تفسير البيضاوي، 244/3. وتفسير أبي السعود، 149/5.

(3) فتح القدير، 280/3.

(4) في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي (ت: 1385هـ). دار الشروق. الطبعة الثانية والثلاثون: 1423هـ - 2003م، 2201/4.

المعنى الرابع: الحين والأجل والفترة من الزمان.

أما المعنى الرابع للأمة فهو الحين والفترة والمدة من الزمان، وقد ورد هذا المعنى في موضعين من القرآن الكريم؛ الأول في سورة هود: ﴿وَلَيْسَ آخِرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابُ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيْقُولُوا مَا يَحْبِسُهُ﴾ [هود: 8]، وفي سورة يوسف: ﴿وَقَالَ أُلْذِمْنِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَاوِيلِهِ﴾ [يوسف: 45]. قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: 8]، إلى أجل محدود، وقاله مجاهد وقتادة وجمهور المفسرين.

قال الطبري: «وبنحو الذي قلنا أن معنى الأمة في هذا الموضع الأجل والحين قال أهل التأويل».(1)

وتكون الأمة عبارة عن المدة وأصلها الجماعة، فعبر بها عن المدة لحلولها في مدة وهذا من تسمية الشيء باسم ما يحصل فيه،(2) فإنما قيل للسنين المعدودة والحين والأجل والفترة من الزمان أمة لأن فيه تكون الأمة. وقيل إن وجه تسمية الحين والفترة من الزمان أمة لأنه جماعة الأيام، والأمة الجماعة.(3)

قال الرازي: «وذلك لأن الحين إنما يحصل عند اجتماع الأيام الكثيرة، كما أن الأمة إنما تحصل عند اجتماع الجمع العظيم، فالحين كان أمة من الأيام والساعات».(4) فيكون بحسب هذا المعنى تقدير محذوف متأخر ولعل هذا المعنى هو الذي قصده ابن عجيبة التطواني حين

(1) ينظر: تفسير الطبري، 337/12. وتفسير ابن أبي زمنين، 280/2.

(2) النكت والعيون للماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 460/2.

(3) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن، ضبطه وصححه: عبد السلام محمد علي شاهين، محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1425 هـ - 2004 م، 474/2.

(4) تفسير الرازي، 152/18.

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، أي: «وتذكر بعد جماعة من السنين».(1)

ملاك الأمر:

إن المعنى اللغوي للفظ الأمة والذي غلب استعماله في القرآن الكريم، هو الجماعة وتشمل (الجماعة من كل دابة أو طير، والجماعة من الناس، والجماعة يجمعهم قرن وحين، والجماعة تجتمع على دين، والجماعة أرسل إليهم رسول سواء آمنوا أو كذبوا، والجماعة من العلماء، والجماعة آمنت برسالة محمد ﷺ) وأخص دلالاته وأغلبها أن يطلق لفظ الأمة على جماعة من الناس تجتمع على دين، ثم أطلق على الدين لأنه سبب الاجتماع ومناطه، فأقيم مقامه، ثم أطلق على الحين لأنه محل وجود الأمة وقيامها وهذا من تسمية الشيء باسم ما يحصل فيه، ثم أطلق على الرجل الصالح لأنه قد يكون سببا لاجتماع الناس على ما يدعوهم إليه كشأن الأنبياء والرسل، أو لاجتماع خصال الخير فيه.

فهذه المعاني الأربعة - الجماعة والدين والحين والإمام - التي آل إليها البحث والنظر في دلالات الآيات القرآنية والتي ذكرها غير واحد من أهل التفسير تعود عند التدقيق والتحقيق إلى المعنى الجامع الأصلي الذي ينتظمها جميعا وهو معنى «الجماعة والجمع».(2)

(1) البحر المديد، 601/2.

(2) يؤيد ذلك ما ذكره السمرقندي (ت: 537هـ) رحمه الله عن القتي رحمه الله (ت: 276هـ) مشيرا إلى الخيط الناظم لهذه المعاني: "قال القتي: الأمة الصنف من الناس والجماعة، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا أُمَّةٌ أَمَّتْكُمْ﴾ [الأنعام: 38]، ثم تستعمل الأمة في الأشياء المختلفة، يقال للإمام: أمة، كقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 12]، لأنه سبب للاجتماع، ويسمى الدين أمة، كقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 21]، أي على الدين، لأن القوم يجتمعون على دين واحد، فيقام ذلك اللفظ مقامه، ويسمى الحين أمة، كقوله: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: 45]، كقوله: ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود: 8] إنما سمي الحين أمة، لأن الأمة من الناس ينقضون في حين، فتقام الأمة مقام الحين". (بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي، تحقيق: علي محمد عوض، عادل أحمد عبد الموجود، زكرياء النوي، دار الكتب

المبحث الرابع: مفهوم وحدة الأمة الإسلامية.

من مجموع ما سبق تتبعه واستقراءه من معاني الوحدة والأمة، يمكن تركيب زبدة تعريف للمركب الإضافي «وحدة الأمة» وصياغته صياغة موجزة كما يلي:

وحدة الأمة الإسلامية هو اتفاق الجماعة المسلمة على أصل جامع ومقصد واحد هو توحيد الله تعالى، وتفردا بذلك.

هذا التعريف يجسد أهم الأصول الأساسية المكونة لمصطلحي «الوحدة» و «الأمة»:

- فالوحدة بمعنى الاتفاق هو المكون الأول للتعريف، وهو المقصود أصالة من هذا البحث، وهو المعنى الذي ورد في المعاجم اللغوية المعاصرة، ولم يرد فيما وقفت عليه في معاجم المتقدمين، إلا أن الاستعمال القرآني للوحدة بهذا المعنى كان ظاهرا في نصوص القرآن الكريم، وأغلب ذلك وروده في ذكر الأمة ووصفها بالواحدة، وذلك في عشرة مواطن، وهو المعنى الذي اتفقت عليه كلمة المفسرين وإن اختلفوا في الأمر الجامع بين أفراد الأمة.

- الأمة بمعنى الجماعة، وهو المكون الثاني للتعريف، لأنه الأصل الدلالي الكلي الذي تؤول إليه المعاني الأخرى، والمقصود ها هنا تحديدا وتخصيصا جماعة من الناس يجمعهم أمر ما، إذ لا يتصور اجتماع أمة دون رابطة تجعل منهم كيانا موحدا وجمعا متفقا، ولذلك كان من مكونات التعريف ذكر الجامع وهو المكون الثالث.

- الأصل الجامع: والذي تبين من خلال النظر في آيات القرآن الكريم أن الأمة قد جعل لها الشارع الحكيم أصلا تجتمع عليه وتتوافق حوله، وهو ما توصل إليه البحث من خلال استقراء نصوص «الوحدة» و «الأمة» في الذكر الحكيم. وهذا الجامع هو الدين الذي أصل ما فيه وأجل ما يجتمع حوله توحيد الله تعالى، وهذا البعد التوحيدي العقدي قد دل عليه الحضور المكثف لقضية التوحيد في سياقات الآيات القرآنية التي وردت فيها مشتقات

=العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 1413هـ - 1993م. 164/2). القتيبي: هو ابن قتيبة وقد وقفت على نص كلامه هذا في "تأويل مشكل القرآن" ص: 445-446، تصرف فيه السمرقندي رحمه الله.

الوحدة، وهذا التوحيد هو مقصد البعثة، ومقصد الشارع من الخلق، ولذلك كان المكون الرابع من باب زيادة البيان هو قولي: على مقصد واحد.

• المقصد الواحد هو تخليص النيات، وتخليص البواطن، وتخليص النفوس من الشوائب والمهلكات التي قد تخالط حقيقة التوحيد وتتسرب إلى سرائر الناس، فيؤول اجتماعهم مظهرًا، ويكون حقيقة أمرهم فرقا ومزقا، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، فكان لابد من إصلاح المقاصد وتنقية النيات ليتحقق الاتفاق والاتلاف والاجتماع.

• أما المكون الخامس في التعريف فهو توحيد الله تعالى، وهو ذكر للخاص بعد العام لأن أصول الدين وقواعده الكلية التي يجتمع الناس عليها ويلتفون حولها كثيرة، لكن أصلها وأجلها اجتماعهم على التوحيد والإخلاص فيه، وبه تتحقق الوحدة الحققة والألفة الصادقة.

• ويكون من ثمرة هذا كله تحقق الوصف السادس الذي ورد في التعريف والذي عُدَّ أصلا في مفهوم الوحدة وهو الانفراد والتفرد، فبهذا الاجتماع على التوحيد والاتفاق في القصد تتميز الأمة الإسلامية عن غيرها، ويتحقق لها وصف الشهود والخيرية، ويتحقق بها ما أخرجت من أجله، بحيث يكون أعضاؤها كجسد واحد وفرد واحد. وتكون في صفاتها أمة متفردة لا تماثلها أمة ولا تساميهها جماعة.

وخلاصة هذا الفصل التمهيدي: إن لفظ «الوحدة» يرجع من حيث اشتقاقه اللغوي إلى مادة «وحد»، ومن حيث دلالة ومعناه اللغوي يرجع إلى معنى: «الانفراد» وهو المعنى الأصلي الذي عنه تفرعت المعاني الأخرى -انقطاع النظر وعدم التجزؤ والاتفاق -.

أما موارد اللفظ في القرآن الكريم فقد دلت على معنيين:

الأول: الانفراد، وورد هذا المعنى في أغلبه متعلقا بالله تعالى وصفا أو اسما، وهو معنى متضمن لمعنى نفي النظر.

الثاني: الاتفاق والاجتماع، وأظهر ما ورد فيه هو سياق الحديث عن الأمة ووصفها بالوحدة.

أما لفظ الأمة فمرجع اشتقاقه اللغوي إلى مادة «أَمَّ»، ودلالته اللغوية ترجع إلى معنى القصد، وعن هذا الأصل تفرعت المعاني الأخرى -الأصل، والجماعة، والدين، والحين، والرجل القدوة الجامع للخير، والقامة-.

أما في الاستعمال القرآني، فالذي غلب في معنى «الأمة» هو «الجماعة يجمعهم أمر ما سواء كان الجامع تسخيريا أم اختياريا» وهذا المعنى هو الأصل في دلالة اللفظة القرآنية، وأطلق أيضا على ثلاثة معان أخرى ترجع إلى هذا الأصل، وهي: الدين، والحين، والإمام القدوة الجامع للخير.

فتكون المعاني الرئيسة للوحدة في القرآن هي الاتفاق والانفراد، والمعنى الرئيس للأمة هو الجماعة تجتمع على مقصد واحد، ومن هذه المعاني الرئيسة والأصلية في دلالة اللفظين في القرآن الكريم، انتهيت إلى تعريف المركب الإضافي «وحدة الأمة الإسلامية» بأنه:

«اتفاق الجماعة المسلمة على أصل جامع ومقصد واحد هو توحيد الله تعالى وتفردا بذلك».

فالاتفاق هو المعنى الأصلي في وصف الأمة في القرآن الكريم بأمة واحدة، والجماعة هو المعنى الأصلي للأمة، والأصل الجامع وهو الدين أيضا من معاني الأمة كما سبق بيانه، وأصل أصول هذا الدين الجامع؛ هو توحيد الله تعالى وإفراده، وهو معنى جلي وحاضر بأغلبية في سياقات آيات الوحدة، وفيه أن البعد العقدي هو جوهر وحدة الأمة ورباط ألفتها واتحادها، وهو الصفة الأجل في تميزها وتفردا عن غيرها من الأمم، وهكذا يتبين الخيط الرفيع الراق بين دلالات «الوحدة» و «الأمة» في التعريف التركيبي لوحدة الأمة.

وانطلاقا من هذه المعاني واستنادا إلى هذه الحقائق التي بني عليها مفهوم وحدة الأمة، سأشرع في دراسة قضايا وحدة الأمة وتفسيرها تفسيراً موضوعياً؛ ابتداء من الأهمية والوسائل والمقاصد، وانتهاء بالمقومات والمعوقات، وذلك في باين يعدان صلب البحث وعموده.



مدخل إلى التفسير الموضوعي

لقد تعددت تعاريف التفسير الموضوعي بتعدد وجهات نظر المهتمين به غير أنها لا تكاد تخرج عن عده منهجا يقوم على «جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد لفظا أو حكما، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية مع الربط بينها لخدمة الموضوع الذي وردت فيه»⁽¹⁾.

وإذا كان هذا التعريف يعتبر القرآن كله مجالا للبحث، غير أن من الباحثين من يرى اتخاذ سورة واحدة موضوعا مستقلا للبحث هو أيضا من صميم التفسير الموضوعي قال مصطفى مسلم في تعريفه: «هو بيان موضوع ما من خلال آيات القرآن الكريم في سورة واحدة أو سور متعددة»⁽²⁾ وذلك باعتبار السورة القرآنية وحدة موضوعية متكاملة، وموضوعاتها الفرعية -إن وجدت- لها ارتباط بالموضوع الأساس المحوري في السورة وتكمل غرضها العام.

فالتفسير الموضوعي منهج في التعامل مع النص القرآني يعنى بالكشف عن موقف القرآن من قضية ما في ضوء ما يتصل بها من آيات، للكشف الكلي الشامل عن مراد الله تعالى في هذه القضية القرآنية، وهو منهج يساعد على استجلاء نظريات القرآن ومقاصده وهداياته في شتى شؤون التصور والتصرف، والفكر والعمل، وبلوغ كثير من خبايا الوحي وحكم التنزيل، وبيان جوانب الإعجاز في كتاب الله تعالى سواء على مستوى النظم والتركيب، أو على مستوى البناء الفكري والتربوي الكامن في النظام القرآني.

وقد ذكر بعض الباحثين أن التفسير الموضوعي مصطلح حديث الاستعمال لم يعرف إلا في العصر الحديث، بل وعين القرن الرابع عشر الهجري تاريخا لظهوره.⁽³⁾ إلا أن اللبنيات الأولى لهذا اللون من التفسير قد كانت موجودة منذ عصر التنزيل في حياة رسول الله صلى

(1) ينظر دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم زاهر بن عواض الألمعي الطبعة الرابعة: 1428هـ/2007م، الرياض. ص: 11.

(2) مباحث في التفسير الموضوعي مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة: 1421هـ/2000م. ص: 12.

(3) ينظر مباحث في التفسير الموضوعي ص: 17.

الله عليه وسلم، فاتباع الآيات التي تناولت قضية ما والجمع بين دلالاتها وتفسير بعضها لبعض مما أطلق عليه العلماء فيما بعد تفسير القرآن بالقرآن كان معروفا في الصدر الأول لنزول الوحي.⁽¹⁾

وهذا الأسلوب من أساليب التفسير الموضوعي كله يدخل في عموم تفسير القرآن بالقرآن، وقد كان مفسرو السلف ومن أتى بعدهم يستنبطون من خلال جمع الآيات الواردة في موضوع واحد معاني وأحكاما، وينصون على كليات الألفاظ فيه، ويدفعون ما يوهم التعارض بين آياته.⁽²⁾

وما يزال هذا اللون من التفسير مستمرا إلى يومنا هذا، حيث توجهت أنظار الباحثين إلى هدايات القرآن الكريم حول معطيات الحضارة المعاصرة والاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية والتربوية.. وغيرها من الموضوعات، وصاروا يسترشدون بكتاب الله وينظرون في توجيهاته في كل مجال، وتوالت جهود العلماء والدارسين إلى الآن تتعرف الروابط بين سور القرآن وآيه، «وتتبع وشائج العبارات، وتفسر موضوعات متصلة بالكون والحياة والإنسان من خلال القرآن.. وذلك بهدف الكشف عن مقاصد الكتاب العليا وحقائقه الكلية التي يمكن من خلالها التحليق في ضمير الأمة وتصوراتها وأوضاعها، لاقتلاع ما أصاب هذه الأمة من تشويه في العقيدة، وتحريف في الشريعة، والتباس في الدين».⁽³⁾

والمستعرض لتاريخ نشوء علم التفسير والمؤلفات فيه يستطيع أن يلحظ ثلاثة أنواع من التفسير الموضوعي:

(1) ينظر مباحث في التفسير الموضوعي ص: 17.

(2) ينظر المدخل إلى التفسير الموضوعي إبراهيم بن صالح الحميضي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1437هـ ص: 21.

(3) ينظر منهجية البحث في المصطلح القرآني من الدراسة المصطلحية إلى التفسير الموضوعي، جميلة زيان الطبعة الأولى: 2013/2014م، ص: 48.

النوع الأول: وهو المشهور عند دعائه، ويقضي تارة بطرح موضوع من تجارب الفكر البشري ومواقفه، ليكشف موقف القرآن منه ويصوغ نظرية قرآنية حوله،⁽¹⁾ وتارة يقوم على تحديد موضوع ما من لدن الباحث يلحظ تعرض القرآن الكريم له بأساليب متنوعة، فيجمع آياته المتفرقة في سورة، والمتضمنة لعناصره لفظاً وحكماً، ويصوغها في أبواب وفصول متناغمة، ويعرضها بأسلوب جذاب، ونسق جديد يبرز إعجاز القرآن ومقاصده في هداية الناس وإصلاح أحوالهم.⁽²⁾ ويخدم حاجات القراء وأغراض البحث العلمي الموضوعي.

النوع الثاني: وهذا النوع نفسه النوع الأول، إلا أن دائرته أضيق من دائرة سابقة، حيث يقوم على اتخاذ الغرض العام للسورة الواحدة موضوعاً للبحث ومحوراً للعملية التفسيرية اعتماداً على موقع السورة بين السور المكية والمدنية، وسبب أو أسباب نزولها، وخصائصها الأسلوبية والموضوعية، فيبرز قيمها وهداياتها.

النوع الثالث: قائم على تتبع لفظة من كلمات القرآن الكريم وجمع الآيات التي وردت فيها اللفظة أو مشتقاتها، باعتبار اللفظة مصطلحاً قرآنياً، وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها يتم استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها.⁽³⁾ وتذويق شرحها وبيان رباطها، وبسط امتداداتها الموضوعية في القرآن الكريم، وذلك بدراسة سياقها ولحاقها، وائتلافها مع القصد الذي جاء به الوحي بجملة حتى يصير المصطلح موضوعاً متناسقاً متكاملًا، ويسر السبيل إلى تصحيح الفهم وإصلاح واقع الأمة بالقرآن.

وهذا اللون الأخير من التفسير الموضوعي هو الذي نهجته في هذا البحث حيث تناولت قضية وحدة الأمة من خلال الآيات التي وردت فيها مشتقات لفظة الوحدة، إذ تتبع

(1) ينظر التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، تقديم وتعليق: جلال الدين علي الصغير، الدار العالمية، بيروت، ط: 1، 1409 هـ/ 1989 م، ص: 26.

(2) منهجية البحث في المصطلح القرآني، ص: 49.

(3) ينظر مباحث في التفسير الموضوعي ص: 29/23.

الموضوع باللون الأول من ألوان التفسير الموضوعي يطول به البحث؛ لسريان موضوع وحدة الأمة في كل سور القرآن وأحكامه وقيمه، وقد وطأت هذه القضايا بتعريف مصطلحي لوحدة الأمة والذي بنيت على منهج الدراسة المصطلحية في مراحلها الثلاثة الأولى (مرحلة الدراسة الإحصائية، ثم مرحلة الدراسة المعجمية، ثم دراسة نصية تحليلية للآيات القرآنية).





الباب الثاني :

وحدة الأمة الإسلامية: الأهمية والسبل والمقاصد. □



□ وفيه فصلان:



✓ الفصل الأول: أهمية وحدة الأمة الإسلامية. □

✓ الفصل الثاني: سبل تحقيق وحدة الأمة ومقاصدها.



الفصل الأول :

□ أهمية وحدة الأمة الإسلامية.



□ وفيه ثلاثة مباحث:



- ✓ المبحث الأول: وحدة الأمة الإسلامية فريضة شرعية. □
- ✓ المبحث الثاني: وحدة الأمة الإسلامية مقصد شرعي. □
- ✓ المبحث الثالث: وحدة الأمة الإسلامية مطلب حضاري. □

توطئة

بعد التحديد اللغوي التمهيدي لمفهومي «الوحدة» و «الأمة»، والتحديد القرآني التأسيسي لهما، وصياغة التعريف المناسب لوحدة الأمة الإسلامية، مما يعد أساسا نظريا ضروريا لفهم ما سيأتي من فصول البحث ومباحثه، أنتقل في هذا الفصل إلى بيان أهمية وحدة الأمة، وهي من المنصوص الشرعي، والمدرك العقلي، والمعلوم الواقعي الذي لا يختلف فيه اثنان، ولا يتنازعه رأيان.

وقد ساق البحث في قضية أهمية وحدة الأمة من خلال نصوص القرآن المنطوقة والمفهومة إلى ضرورة الحديث عن وجوب وحدة الأمة شرعا، ومقصديتها، وضرورتها الحضارية، وذلك ما سأفصله في ثلاثة مباحث:

أولها: في بيان أن وحدة الأمة الإسلامية فريضة شرعية، دلت عليها النصوص القرآنية دلالة قاطعة لا تحتمل تأويلا ولا يطبق الزائغ عن الحق لها تحريفا.

وثانيها: في بيان أن وحدة الأمة الإسلامية من المقاصد الشرعية الكبرى التي أتت رسالة الإسلام لتحقيقها وترسيخها، وقد دل على هذا المقصد صيغ الدلالة وطرق الكشف عن مقاصد الشرع بجميع أساليبها.

وثالثها: في بيان البعد الحضاري لوحدة الأمة، وأن مقصد الإخراج لهذه الأمة؛ شاهدة على الناس، داعية إلى الخير، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، لن يتحقق لها ما لم تكن أمة موحدة ومتمحدة.

المبحث الأول وحدة الأمة الإسلامية فريضة شرعية.

لقد تضافرت الأدلة القرآنية على طلب الشارع لوحدة المسلمين، وتنوعت أساليبه في الدلالة على وجوب ذلك، ترغيباً فيها، وترهيباً من ضدها، وأمرأ صريحاً بها، وتحذيراً من عواقب التفريط فيها، ففي محكمات الكتاب، وصريح الأحاديث الصحاح نصوص كثيرة يتكون من مجموعها أصل كلي مفاده وجوب وحدة الأمة الإسلامية وضرورتها.

والمأمل لأي الكتاب المبين سيلحظ وجود نسق منهجي دقيق في تقرير وجوب وحدة هذه الأمة وفرضيته، تتجلى معالمه في ما يأتي:

المطلب الأول: الأمر بالاجتماع والحث على التآلف.

إن المتتبع لكلام الله تعالى وسنة رسوله ﷺ سيقف على عدد كثير من النصوص التي تدعو الأمة إلى الأخذ بالأسباب المؤدية إلى الوحدة، سواء على مستوى الشخص أو الأرواح، وسواء على مستوى التجمعات الصغرى أم الكبرى، بل إن الشريعة الإسلامية ترنو بالأمة إلى بلوغ مرتبة «الجسد الواحد»، التي يتماهى من خلالها المسلم مع أخيه، ويستشعر أحاسيسه ومشاعره، وهو ما صرح به النبي ﷺ في الحديث الشريف حيث قال: «مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»⁽¹⁾.

ولعل من أجل المسالك التي رام الشارع الحكيم من خلالها الوصول إلى هذه الوحدة هو أنه أمر المسلمين في كتابه بالاجتماع والوحدة والاعتصام بتصريح لا تلميحاً، واعتبر ذلك تشريعاً وديناً، يلزمهم الوفاء به والاستمسك بمقتضياته، ولم يترك أمره لاختياراتهم ورغباتهم؛ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا

(1) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ح: 2586. ص: 600.

وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ
فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴿آل عمران: 103﴾.

فالآية صريحة في الأمر بالوحدة والدعوة إلى الاجتماع والاعتصام بحبل الله؛ الذي هو الجماعة على قول ابن مسعود رضي الله عنه؛⁽¹⁾ وإلى هذا المعنى أشار الطبري (ت: 310هـ) في تفسيره الآية فقال: «وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهدته إليكم في كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله».⁽²⁾

ومهما يكن الاختلاف في تفسير «حبل الله»⁽³⁾ فإن المتيقن هو ضرورة الاجتماع والاعتصام. والأمر بهما في هذه الآية محمول على الوجوب، وهو ما قطع به أهل التفسير⁽⁴⁾؛ لأن قوله تعالى: ﴿اعْتَصِمُوا﴾، أمر مطلق بالاعتصام مجرد عن القرائن، والأمر المجرد عن القرائن يفيد الوجوب، حسب ما قرره جمهور الأصوليين.⁽⁵⁾

(1) تفسير القرطبي، 240/5. معالم التنزيل في تفسير القرآن لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: 516هـ)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1409هـ - 1989م، 78/2.

(2) تفسير الطبري، 643/5.

(3) قيل في تفسير (حبل الله): "إنه العهد أو القرآن أو الدين أو الطاعة أو إخلاص التوبة أو الجماعة أو إخلاص التوحيد أو الإسلام"، وهي أقوال السلف يقرب بعضها من بعض. (تفسير الطبري، 644/5، وما بعدها. الكشف للزمخشري، 601/1).

(4) ينظر: تفسير الرازي، 178/8. تفسير القرطبي، 251/5. تفسير ابن كثير، 89/2.

(5) ينظر: أصول السرخسي لأبي بكر أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت: 490هـ)، حقق أصوله أبو الوفا الأفعاني نشر لجنة إحياء المعارف النعمانية بالهند، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى: 1414هـ - 1993م. 15/1. الأحكام في أصول الأحكام للآمدي، تعليق عبد الرزاق عفيفي، دار الصميعي المملكة العربية السعودية الرياض، الطبعة الأولى: 1424هـ - 2003م، 183/2.

ومن لطيف ما استفيد من الآية استعمال عبارة «الاعتصام بجبل الله»، وكأنما هو جبل ألقى إلى الناس لإنقاذهم من هوة سحيقة، هي هوة التفرقة والشتات التي بها ذهاب الأمة وزوالها. يقول ابن عاشور (ت: 1393هـ): «والاعتصام: افتعال من عصم، وهو طلب ما يعصم. أي: ما يمنع. والجبل: ما يشد به للارتقاء أو التدلي أو للنجاة من غرق أو نحوه. والكلام تمثيل لهيئة اجتماعهم والتفافهم على دين الله ووصاياه وعهوده بهيئة استمسك جماعة بجبل ألقى إليهم من منقذ لهم من غرق أو سقوط».⁽¹⁾

والأکید أن هذا الأمر الرباني ليس خاصا بأناس بعينهم، وإنما هو أمر لازم لكل المسلمين، والدليل على ذلك أمران:

- أولهما: واو الجمع في قوله: ﴿اعْتَصِمُوا﴾، فظاهره يفيد وجوب اعتصام الجميع.

- ثانيهما: ورود لفظة: «جميعا» وهي حال من فاعل: اعتصموا، فيه تأكيد وتثبيت لهذا العموم والتنصيص عليه، ونفي لاحتمال التخصيص، إذ لفظة «جميع»، هي من الأسماء المؤكدة التي تدل على العموم بذاتها،⁽²⁾ وقد وردت هاهنا في سياق تأكيد وجوب اعتصام الكل مجتمعين، ونفي توهم أن يكون مقصود الأمر اعتصام كل مسلم في حال انفراده؛ وهذا ما يؤكد الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ) فيقول: «وقوله: ﴿جَمِيعاً﴾، حال... إذ ليس المقصود الأمر باعتصام كل مسلم في حال انفراده اعتصاما بهذا الدين، بل المقصود الأمر

== قال صاحب المراقي: "افعل لدى الأكثر للوجوب" ينظر: نثر الورود شرح مراقبي السعود لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت: 1393هـ)، تحقيق علي بن محمد العمران، الناشر مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع، ص: 154. وينظر كذلك: تفسير القرطبي، 240/5. وتفسير البغوي، 78/2.

(1) التحرير والتنوير، 31/4.

(2) شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول للقرافي، إعتناء: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت - لبنان، طبعة: 1424هـ - 2004م، ص: 141.

باعتماد الأمة كلها»⁽¹⁾ فالخطاب عام، ومقتضاه أن يأخذ الجميع بحبل الله، ويتمسك الكل به، ولا يجوز أن ينفصل عنه أحد، ومن شد شد في النار.

وللتأكيد على وجوب توحيد الأمة واجتماعها، ينوع كتاب الله تعالى في الأساليب التي تثبت ذلك، ومنها ما ورد في خاتمة الآية المذكورة؛ حيث امتن الله على عباده، بعد الأمر، بنعمة الأخوة والألفة، وذكرهم بما حصل للأوس والخزرج، حيث ألف بين قلوبهم وجعلهم إخوة متحابين بعد أن كانوا أعداء متطاحنين يقتل بعضهم بعضاً، يقول سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَالِيَكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 103].

فأمره سبحانه بتذكر ذلك الحدث، ووصفه سبحانه إياه بالنعمة، فيه بيان لعظيم أهمية الوحدة والأخوة والتآلف بين المؤمنين، وتذكير لهم بالمحافظة عليها، فلا يفرطوا فيها بالفرق والاختلاف؛ إذ مقتضى شكر فضل الله ونعمه أن تستثمر في وجوه الخير وتضان عن الضياع والإتلاف. والتذليل القرآني بالإشارة إلى النار ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَقَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ بآنفذككم منها﴾ [آل عمران: 103]، فيه تنبيه على أن الفرقة عذاب وهلكة، وفيه تأكيد على وجوب حفظ نعمة الألفة والأخوة.

ويزيد الأمر تثبيتاً، والوجوب تأكيداً، التعبير القرآني الفريد الذي قرن الوحدة بالإيمان، والفرق بالكفر في سياق هذه الآية الكريمة من سورة آل عمران، حيث قال جل جلاله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا قَرِيفاً مِّنَ الَّذِينَ ءَاوَتْوْا أَلْكُتَبَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَالْبَحْرِينِ ۖ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ

(1) التحرير والتنوير، 31/4.

عَلَيْكُمْ ؕ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتَّقْوَى اللَّهِ حَقَّ تُبَاتِيهِ ۚ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١١٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ ﴿[الآيات: 100-103]﴾. فقد نزلت فيما أثاره شاس بن قيس اليهودي، من فتنة بين الأوس والخزرج؛ حيث ذكرهم بيوم بعث، وكان يوما اقتتلتا فيه، فأثار بين القبيلتين حمية الجاهلية وعُبيّة العصبية، حتى كاد القوم يقتتلون، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا قَرِيفًا مِّنَ الَّذِينَ ءَاوَتْوُا أَلَكِتَبَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَالْبَحِيرِ﴾ ﴿[آل عمران: 100]﴾، أي: بعد وحدتكم تتفرون، وبعد أخوتكم تصيرون أعداء، وهذه مقدمة الكفر بعد الإيمان،⁽¹⁾ كما دل عليه سبب النزول.

وبالنظر في سباق الآية ولحاقها، نجد أن المولى جل جلاله قد أمر المؤمنين، بعد تحذيرهم من إضلال الكفار لهم وإثارة الفتنة بينهم، بتقوى الله أولا، ثم أعقب ذلك بالاعتصام بحبل الله، وأردفه بذكر نعمة الله، «والسبب في هذا الترتيب أن فعل الإنسان لا بد أن يكون معللا إما بالرهبة وإما بالرغبة، والرهبة مقدمة على الرغبة، لأن دفع الضرر مقدم على جلب النفع، فقوله تعالى: ﴿إِتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُبَاتِيهِ﴾، إشارة إلى التخويف من عقاب الله تعالى، ثم جعله سببا للأمر بالتمسك بدين الله والاعتصام بحبل الله، ثم أردفه بالرغبة، وهي قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، فكأنه قال: خوف عقاب الله يوجب ذلك، وكثرة نعم الله توجب ذلك، فلم تبق جهة من الجهات الموجبة للفعل إلا وهي حاصلة في وجوب

(1) ينظر: تفسير الطبري، 633/5. وتفسير الرازي، 174/8. وتفسير القرطبي، 235/5، بتصرف.

انقيادكم لأمر الله ووجوب طاعتكم لحكم الله...»⁽¹⁾ والأمر الذي عليه مدار الحديث في هذه الآيات هو الاجتماع والاتحاد والاعتصام الجماعي بجبل الله.

وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]، جاء مناسباً لما قبله وما بعده؛ إذ فيه تأكيد على الاجتماع، دل على ذلك لفظ الأمة، والذي من أجل دلالاته الجماعة، ثم تحديد ما عليه تجتمع هذه الأمة، وهو الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإذا اجتمعت الأمة على هذا المقصد العالي، وهو دلالة الناس على الخير والمعروف، وتحذيرهم من المنكر، بما يفيد التعريف بـ «أل» من الاستغراق والعموم،⁽²⁾ كان ذلك مدعاة لأن تذوب عوامل التفرقة الداخلية، والإحن الشخصية، لما تعلمه الأمة من ضرورة التعاون والاجتماع لبلوغ مقصد الشهود على الناس.



(1) تفسير الرازي، 8/175-176.

(2) كما جاء في: "الإحكام في أصول الأحكام للآمدي" 2/248.

المطلب الثاني: النهي عن الفرقة والتحذير من التشرذم.

إذا كانت كثير من الأحكام الشرعية قد قُرِّرت بصيغة طلب الفعل فقط، فيفهم من تلك الصيغة النهي عن قربان ضدها، أو قُرِّرت بصيغة طلب الترك فقط، فيستفاد منها الأمر بتحصيل ما يناقضها؛ فإن قضية وحدة الأمة قد قررت بالصيغتين معا تصرّحاً لا تلميحاً؛ حيث أمر كتاب الله بفعل كل ما يوصل إليها، ثم نهى عن كل ما يحول دونها.

والمتتبع للقرآن الحكيم سيجد آيات عدة تأمر بالوحدة والاجتماع، وأخرى تنهى عن ضدها من الفرقة والتشرذم والتشتت؛ بل إن بعض الآيات القرآنية تقرر فيها الأمر بالوحدة والنهي عن ضدها دفعة واحدة، كما هو الشأن بالنسبة لآية آل عمران، حيث يقول سبحانه: ﴿وَاغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]. قال القرطبي (ت: 671هـ) رحمه الله: «فإن الله تعالى يأمر بالألفة، وينهى عن الفرقة، فإن الفرقة هلكة، والجماعة نجاة».(1)

فقد أكد الله تعالى الوجوب في الآية بالنهي عن التفرقة، والنهي يقتضي التحريم، كما هو عند جمهور الأصوليين،(2) ودلالة الآية عليه صريحة واضحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾، وهو نهى مطلق عن الافتراق، مجرد عن القرائن الصارفة، والقاعدة الأصولية أن النهي المطلق المجرد عن القرائن يفيد التحريم،(3) والنهي عن الشيء يستلزم الأمر بضده،(4)

(1) تفسير القرطبي، 241/5.

(2) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، 230/2.

(3) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق - كفر بطنا، قدم له: الشيخ خليل الميس والدكتور ولي الدين صالح فرفور، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى: 1419هـ - 1999م، ص: 469.

(4) المستصفي للغزالي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1993م، 270/1-274. قواطع الأدلة في الأصول لأبي المظفر السمعاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1418هـ - 1999م، 233/1.

فدلت الآية بمنطوقها على تحريم التفرقة، واستفيد منها، مفهومها، تأكيد وجوب الوحدة والاجتماع والاعتصام بجبل الله جميعا، مع أن الأمر الأول بالاعتصام كاف في إفادة تحريم التفرقة بدلالة الإشارة.(1)

ومن الآيات البينات التي تؤكد على تجنب الفرقة والشتات قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَبَرَّفُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105].

ورد في سباق هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]، وهو أمر منه سبحانه بأن تكون منا أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وهؤلاء هم أهل الفلاح الذين يقيمون الدين ويحفظ الله بهم سياجه. وحصول هذه الجماعة لا يتحقق إلا إذا تألفت القلوب وتوحدت الصفوف. «ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به، وبما لا يتم إلا به، فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به».(2) فكان ذلك أمرا ضمينا بالاجتماع، ونهيا لازما عن التفرق والنزاع. وقد ناسب ورود قوله تعالى بعدها مباشرة: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَبَرَّفُوا وَاخْتَلَفُوا

(1) دلالة الإشارة: "هي دلالة الكلام على معنى غير مقصود أصالة ولكنه لازم للمعنى الذي سيق الكلام لإفادته أي المعنى المتبادر من ألفاظه وتكون دلالة النص بالإشارة لا بالعبرة على معنى غير مقصود من السياق وليس مرادا به مباشرة، وإنما هو معنى التزامي لازم للحكم الأصلي المفهوم لأول وهلة من النص". (فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت للكنوي، ضبط وتصحيح: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1423هـ - 2002م، 441/1. وينظر الوجيز في أصول الفقه لوهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق - سوريا، الطبعة الثالثة عشر: 1429هـ - 2008م، ص: 165).

(2) تفسير السعدي، ص: 142.

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٥﴾ [آل عمران: 105]؛

حيث «ينهى سبحانه وتعالى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضية في تفرقهم واختلافهم، وتركهم ما أمروا به من الوحدة والاجتماع، مع قيام الحجة عليهم»⁽¹⁾.

فالآية فيها نهي صريح عن التشبه بالأمم الماضية التي ارتضت الفرقة منهجا لها في الحياة، رغم ورود الآيات البينات عليها، وفيها تحذير من تتبع سننها وأثرها؛ نظرا لما يفضي إليه من الخسران المبين في العاجلة والآجلة.

ولتأكيد هذا المعنى وتوضيحه حذر كتاب الله تعالى في آيات أخرى من الانتساب إلى كل الطوائف التي تسير وفق المنهج المذكور، وأكد على البراءة منهم، ومن فكرهم الفاسد، وتدبيرهم السقيم، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا⁽²⁾ دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأنعام: 159].

فالآية تدم كل من فرق دينه، فأخذ ببعضه وترك بعضه، أو فارقه فترك أحكامه وتخلّى عن تعاليمه، وارتد عنه فردا أو جماعة، وكانوا فرقا وطوائف وأحزابا، سواء من أهل الكتاب أم المشركين أم المبتدعين من أهل الإسلام المتبعين كل سبيل. قال ابن كثير (ت: 774هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفا له، فإن الله بعث

(1) تفسير ابن كثير، 91/2.

(2) قرأ حمزة والكسائي: ﴿فارقوا﴾ بإثبات الألف بعد الفاء، ومعنى "فارقوا" أي زابلوا وتركوا، وهذه القراءة رويت عن علي وابن مسعود رضي الله عنهما وقرأ الباقر ﴿فارقوا﴾ بتشديد الراء، من التفرق إلى ملل ونحل، أي صاروا أحزابا وفرقا، والمعنيان متقاربان، لأنهم إذا فرقوا دينهم فقد فارقوه. ينظر: "حجة القراءات" لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (ت: 403هـ)، تحقيق: سعيد الأفغاني. بيروت. مؤسسة الرسالة. الطبعة الخامسة، 1418هـ - 1997م. ص: 278. وينظر: تفسير المنار، 214/8. وفتح القدير للشوكاني، 256/2.

رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق»⁽¹⁾.

وقد صوب الشوكاني (ت: 1250هـ) رحمه الله هذا الرأي واحتج له بقواعد الأصول فقال: «وهذا هو الصواب؛ لأن اللفظ يفيد العموم، فيدخل فيه طوائف أهل الكتاب، وطوائف المشركين وغيرهم، ممن ابتدع من أهل الإسلام»⁽²⁾. والذي أفاد العموم هاهنا هو الاسم الموصول: «الذين»⁽³⁾ حسبما هو مقرر عند أهل الأصول.

وقوله: ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، إعلان لبراءة النبي ﷺ من المتفرقين، فالمراد منه، أي: «أنت منهم بريء وهم منك برآء؛ تقول العرب: إن فعلت كذا، فلست مني ولست منك. أي: كل واحد منا بريء من صاحبه»⁽⁴⁾.

وفيه إشارة إلى وجوب الوحدة وحرمة التفرقة؛ لأن التبري منهم وقطع الصلة بهم تهديد شديد، وهذا من الصيغ الدالة على التحريم⁽⁵⁾.

وفي ورود النكرة في سياق النفي: ﴿لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، إفادة العموم كما هو مقرر عند الأصوليين⁽⁶⁾، فدل على نفي أي نوع من الاتصال بهم، وإعلان البراءة التامة منهم في كل كبير وصغير، أو نقيير أو قطمير، وهذا غاية ما يمكن أن يكون من التبري منهم.

(1) تفسير ابن كثير، 3/377.

(2) فتح القدير للشوكاني، 2/256. فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق خان القنوجي، عني بطبعه وقدم له وراجعته: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، عام النشر: 1412هـ - 1992م، 4/288.

(3) الوجيز في أصول الفقه لوهبة الزحيلي، ص: 195.

(4) تفسير البغوي، 3/210. وينظر: زاد المسير في علم التفسير، 3/159.

(5) الحرام في الشريعة الإسلامية فقهه وضوابطه وتطبيقاته المعاصرة لقطب الريسوني. دار ابن حزم. الطبعة الأولى: 1432هـ - 2011م. ص: 56.

(6) إرشاد الفحول، 1/532.

وفي الآية تحذير من صنيعهم، ووعيد على قبيح فعلهم، «فمن اتبع سنتهم في هذا التفريق فهو أحق ببراءة الرسول ﷺ منه بعد هذا البيان والتحذير». (1)

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، وعيد محض، والقرينة المتقدمة تقتضي أن أمرهم إلى الله فيه وعيد. (2) «فهو مجاز لهم بما تقتضيه مشيئته، والحصار بـ «إنما» هو في حكم التعليل لما قبله والتأكيد له». (3) فهو سبحانه وحده الذي يتولى أمرهم ويحاسبهم على فعلهم ويجازيهم على تفرقهم وينبئهم بما كانوا يفعلون من الأعمال التي تخالف ما شرعه لهم وأوجبه عليهم.

وسياق الآية يفيد أن الوعيد والعذاب متعلق بما أحدثوه من التفرق والاختلاف، واتباع سنن الذين مضوا من قبل فكانوا أحزابا وشيعا. والتعبير بلفظ الإنباء معناه الإخبار بالشديد الخطير، (4) وفيه أن التفرقة ذنب عظيم، وأن ما ينتظرهم من العقاب أشد وأعظم، جزاء وفاقا.

وبالنظر في مقام الآية وسباقها نجد من القرائن ما يخدم هذا الذي دلت عليه من معاني ذم الفرقة والاختلاف، قال صاحب البحر المحيط في معرض تفسيره للآية: «لما ذكر تعالى أن صراطه مستقيم، (5) ونهى عن اتباع السبل، وذكر موسى عليه السلام وما أنزل عليه، وذكر القرآن وأمر باتباعه، وذكر ما ينتظر الكفار مما هو كائن بهم، انتقل إلى ذكر من اتبع السبل

(1) تفسير المنار، 214/8.

(2) المحرر الوجيز، 367/2.

(3) فتح القدير، 256/2.

(4) زهرة التفاسير، 2756/5.

(5) يقصد بذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 154].

فتفرقت به عن سبيل الله، لينبه المؤمنين على الائتلاف على الدين القويم، ولئلا يختلفوا كما اختلف من قبلهم من الأمم بعد أن كانوا متفقين على الشرائع التي بُعث أنبياءهم بها»⁽¹⁾

إن هذا التنوع في الصيغ وترتيب عرضها يفضي بنا إلى معنى جامع يتمثل في التحذير من الفرقة والتفرقة، والتهويل من شأنها، والدعوة اللاحقة إلى تلافي كل الأسباب المؤدية إليها مباشرة أم تبعاً.



(1) البحر المحيط، 260/4.

المطلب الثالث: بيان مآلات التفرق والتشتت.

من عظمة الشارع الحكيم أنه دأب على ربط الأحكام الشرعية بذكر مقاصدها وحكمها، وإيراد النتائج والغايات التي تنتهي إليها، مع أن مقام الاستعلاء لا يلزم بذكر ذلك؛ وذلك ليكون المتلقي لها على بصيرة من تشريع تلك الأحكام، ومطمئناً إلى امتثالها وتنزيلها في الواقع. وقد تواطأ جمع من العلماء على أن أحكام الشريعة كلها مقررة في ضوء هذا البعد المقاصدي والمآلي، يقول ابن القيم: «الشريعة مبناه وأساسها على الحكم، ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل»⁽¹⁾.

إن المتأمل للنصوص القرآنية المحذرة من افتراق المسلمين وتفرقهم، ليجد هذا النفس المقاصدي حاضراً ومتجلياً؛ إذ لم يكتف كتاب الله تعالى بإيراد حكم الفرقة فقط، وإنما بين مقاصد ذلك التحريم، ونص في غير ما موضع، على مآلات حالة التشرذم والشتات والفوضى التي قد تقع فيها الأمة، وذلك ليكون الانتهاء عن تلك الحالة اختياراً لا اضطراراً، ومن باب التعبد لا من باب القهر.

وعموماً يمكن إجمال تلك المآلات التي لأجلها حُرمت الفرقة في القرآن الكريم، في الآتي:

- التفرق موجب للعذاب والعقاب: ويشهد لذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

(1) إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 1411هـ - 1991م، 11/3.

عَظِيمٌ ﴿١٥٠﴾ [آل عمران: 105]؛ فقد اقترن النهي هاهنا بترتيب العذاب والعقاب على

الاختلاف والافتراق، «فكان ذلك زجرا للمؤمنين عن التفرق».(1)

ويلاحظ أن «العذاب» أطلق في الآية، ولم يُحصر في الآخرة فقط، ليعلم أن ذلك يطال المتفرقين في الدنيا والآخرة، قال محمد رشيد رضا (ت: 1354هـ) رَحِمَهُ اللهُ مَبِينَا ذَلِكَ: «والعذاب في هذا الوعيد يشمل خسران الدنيا والآخرة. قال الأستاذ الإمام ما معناه: أما عذاب الدنيا فهو أن المتفرقين المختلفين الذين اتبعوا أهواءهم، وحكموا في دينهم آراءهم، يكون بأسهم بينهم شديداً، فيشقى بعضهم ببعض، ثم يتلون بالأُمم الطامعة في الضعفاء، فنذيقهم الخزي والنكال، وتسلبهم عزة الاستقلال، وأما عذاب الآخرة، فقد بين الله في كتابه أنه أشد من عذاب الدنيا وأبقى».(2)

ومن لطيف ما ورد في كتاب الله في سياق النهي عن الفرقة: تهديد الله تعالى بأسوداد وجوه أناس يوم القيامة؛ حيث قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 106]، وقال سبحانه في بيان علة هذا الوصف: ﴿أَكْبَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: 106]، فيفهم من هذا أن وصف الكفر ما أطلق عليهم إلا لتشبههم باليهود والنصارى في تفرقهم الذي حذرهم القرآن منه، خاصة وأنه «مِنْ عُرِفِ الْقُرْآنُ أَنَّ الْمُتَفَرِّقِينَ فِي الدِّينِ يَعْدُونَ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ مِنَ الَّذِينَ بَرَّفُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الروم: 30-31]. وقال عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ بَرَّفُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً

لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 160]».(3)

(1) تفسير الرازي، 185/8. وينظر تفسير الخازن، 282/1.

(2) تفسير المنار، 51/4. وينظر: تفسير المراغي، 24/4.

(3) تفسير المنار، 54/4.

ويشهد لهذا المعنى أيضا ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿يَرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَبَهِيرِينَ﴾ [آل عمران: 100]، حيث سمي الوحدة إيمانا، وسمى الفرقة كفرا، وهذا كله يزيد تحذيرا من التفرق وتنفيرا من الاختلاف، وحثا على الاتحاد وتحببها في الائتلاف.

وفي آية أخرى يتوعد كتاب الله تعالى من كانت له يد في التفريق والافتراق بالحساب يوم القيامة حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [تفطعوا أمرهم بينهم] ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: 91-92].

فالآية فيها وعيد وتهديد دال على حرمة التقطع والتفرق، حيث قال سبحانه: ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾، «أي: إنهم سيرجعون إلينا ونجازيهم على تفرقهم واختلافهم شيعا»⁽¹⁾ وقد تقرر أصوليا أن: ترتيب الوعيد والعقوبة على الفعل من الصيغ الدالة على التحريم⁽²⁾.

وفي آيات أخرى من سورة «المؤمنون» يقول ربنا سبحانه موضحا حال هؤلاء «الذين تقطعوا أمرهم» فيقول سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا﴾ [تفطعوا أمرهم بينهم زبرا] ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53-54-55].



(1) تفسير المراغي، 70/17.

(2) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، 1307/4.

فـ «التقطع» أصله قطع، واستعمل في السورتين -الأنبياء والمؤمنون- فعلا متعديا بمعنى قطع، بقصد إفادة الشدة في حصول الفعل.⁽¹⁾ والكلام مسوق مساق الدم، ولذلك قد تفيد الفاء مع التعقيب معنى التفرع، أي: فتفرع على ما أمرناهم به من التوحيد أنهم أتوا بعكس المطلوب منهم، فيفيد الكلام زيادة على الدم تعجيبا من حالهم.⁽²⁾

ومما يزيد معنى الدم تذييله بقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ قَرِحُونَ﴾، أي: وهم ليسوا بحال من يفرح؛⁽³⁾ إذ كل فريق مغتبط بما معه، فرح بما هو فيه من الضلال، ظان أنه على الحق والهدى المبين، وهم في الحقيقة عن الصراط ناكبون، ولذلك قال الله تعالى مهددا لهم ومتوعدا: ﴿بَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: «في غيهم وضلالهم».⁽⁴⁾ وصيغة الأمر في الآية للتهديد والوعيد الشديد كما ذكره غير واحد من المفسرين.⁽⁵⁾

«وقد تقرر في الأصول في مبحث الأمر، وفي فن المعاني في مبحث الإنشاء، أن من المعاني التي تأتي لها صيغة افعّل: التهديد».⁽⁶⁾ وفيه دلالة على تحريم التقطع والتنازع والاختلاف؛ إذ من الصيغ الدالة على حكم التحريم التهديد بالعقاب. فاستفيد من ذلك مفهوما أن الوحدة والاجتماع واجب.



(1) التحرير والتنوير، 72/18. وينظر: تفسير الرازي، 106/23، قال رحمه الله: (فتقطعوا) بمعنى المبالغة في شدة اختلافهم.

(2) التحرير والتنوير، 72/18.

(3) التحرير والتنوير، 73/18، بتصرف.

(4) تفسير ابن كثير، 479/5.

(5) ينظر: تفسير الرازي، 106/23. تفسير ابن كثير، 479/5. وأضواء البيان، 869/5.

(6) أضواء البيان، 869/5.

ويزيد الأمر تأكيداً لإيراد النكرة في قوله: حتى حين.⁽¹⁾ وفي التنكير والإبهام ما لا يخفى من التهويل.⁽²⁾ فكان الحين تهديداً لا توقيتاً، كما يقال: سيأتي لك يوم.⁽³⁾

• **الفرقة مفضية إلى الفشل وذهاب القوة:** وقد نص كتاب الله تعالى على هذه الأيلولة صراحة فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فِتْفَشْلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 47]. ولعمري إن هذه الآية تعد من أجل القواعد الحضارية والعمرائية التي سبق كتاب الله تعالى إلى تقريرها والتنبيه عليها. والمتأمل لتاريخ الأمم والشعوب يلحظ بجلاء مصداقيتها وصحتها، وقد صاغها بعض الشعراء في بيت لطيف فقال:

تَأبَى الْقِدَاحُ إِذَا اجْتَمَعْنَ تَكْسُراً *** وَإِذَا افْتَرَقْنَ تَكْسَرَتْ أَفْرَاداً⁽⁴⁾

فقد جاء التنصيص في هذه الآية عن مآل الفرقة والتنازع صريحا، وورد مطلقا عن أي قيد، فدل على أن الفرقة المفضية إلى المآل الممقوت مطلقة، فتشمل أي فرقة، سواء أكانت على مستوى الأفكار أم الأشخاص أو الأرواح.

فقوله تعالى: ﴿فِتْفَشْلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، مفصح بأن علة النهي عن التنازع هو ما يترتب عنه من الفشل وذهاب الريح، لأن ذكر الوصفين: الفشل وذهاب الريح، عقب الحكم مقترنا بالفاء، فاء السببية، يدل كما هو مقرر - في باب مسالك العلة عند الأصوليين - على العلية؛ إذ لو لم يكن هذا ونظيره علة للحكم لكان بعيدا أو لغوا، وتعالى الله عن ذلك. فربط الخطاب القرآني النتيجة بسببها، ورتب المعلول على علته، وفي هذا تأكيد للنهي عن التنازع بذكر مغبة مآله، وسيء آثاره، وبعض مفسده وأضراره؛ ومن ذلك الفشل والضعف والوهن والجن، وذهاب القوة وزوال الدولة.

(1) قيل: "هو حين الموت، وقيل حين المعاناة، وقيل حين العذاب، وقيل المحاسبة، وقيل عذاب القبر والمراد به الحالة التي تقتزن بها الحسرة والندامة، وذلك يحصل إذا عَرَفَهُم الله بطلان ما كانوا عليه وعرفهم سوء منقلبهم... فيحمل على كل ذلك". (تفسير الرازي، 106/23).

(2) البحر المديد، 581/3.

(3) تفسير القرطبي، 54/15.

(4) ديوان الطغرائي، تحقيق علي جواد الطاهر ويحيى الجبوري، مطابع الدوحة الحديثة، قطر، طبعة: 1986م، ص: 137.

قال الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ) رَحِمَهُ اللهُ في تأكيد هذا المعنى: «بسط القرآن القول فيه ببيان سيء آثاره، فجاء التفریع بالفاء في قوله: ﴿بَتَقَبَشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾، فحذرهم أمرين معلوما سوء مغبتهما، وهما: الفشل وذهاب الريح».(1)

ومما يزيد هذا التفسير رجحانا هو أن الآية قد وردت في سياق الحديث عن غزوة بدر الكبرى، وقد قدم الركب بخيلهم ورجلهم قاصدين هذه العصابة المؤمنة لإفنائها وإبادتها، فكان الأمر الإلهي بالثبات وذكر الله؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَفِيتُمْ بِهِةً فَاتَّبِعُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لِّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٦﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46-47].

ولفظ الفئة يعني: «جماعة مترابطة من المقاتلين؛ لأن كل مقاتل يفى لغيره من زملائه»؛(2) فلزم لمواجهة هؤلاء وغلبتهم أن يفى أفراد الجماعة المؤمنة إلى بعضهم البعض؛ لتشكل كتلة قوية وفرقة متينة تقدر على هزم عدوها، وصد خصومها، والتمكين لنفسها. فكان من لوازم الثبات الذي أمر الله به تحقيق وحدة الصف، وتأليف القلوب على مقصد واحد، مع عدم الغفلة عن ذكر الله؛ إذ هو المعين والنصير وييده الأمر والتدبير. وهذه دعوة إلى أهمية الوحدة والألفة والاجتماع والنصرة، أعقبه التصريح بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾، «فكان من تمام البناء لتلك القوة التي يلقي بها المسلمون عدوهم أن يكونوا صفا واحدا، تمسك به مشاعر واحدة، لا يتوزعهم الخلاف، ولا يمزق وحدة مشاعرهم النزاع».(3)

(1) التحرير والتنوير، 31/10.

(2) الخواطر لمحمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، 206/8.

(3) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، 628/5.

ومن أجل أن «يقوم للمسلمين شاهد حسي، يشهد لهم بمفعول هذه الوصية الكريمة التي وصاهم الله بها أفرادا وجماعة، فقد أراهم الله ما حل بالمشركين من بلاء، وما أصيبوا به من خذلان، وأن ذلك لما وقع بينهم من تنازع في الرأي واختلاف في الحساب والتقدير»،⁽¹⁾ فكانت الغزوة شاهدا حيا على مغبة النزاع والافتراق، ودرسا واقعا على أهمية ائتلاف القلوب والاتفاق، وأن ذلك مما يحقق القوة والنصر ويعين على الفوز والظفر، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 48]. فلما كان القصد سيئا، والرأي مختلفا، كانت الهزيمة، رغم كثرة العدد وشدة العدة.

إن هذا المشهد الجهادي درس رباني أفاد الصحب الأبرار، والتابعين الأخيار، ومن تبعهم إلى يوم الدين، بأن الوحدة ضرورة شرعية، وفريضة دينية، لثبات الأمة وتمكينها، والنصر على أعدائها وخصومها، وإعلاء رايها وحفظ بيضتها. فالآية وردت في معرض الغزو والجهاد، ولا يخفى ما يحتاجه ذلك من الوحدة والائتلاف. ثم تضمنت الأمر بطاعة الله ورسوله، وفيه إشارة إلى وحدة المصدر التشريعي. ثم اشتملت على النهي الصريح عن التنازع لما فيه من تمزيق الوحدة وتشتيته. ثم بينت المفاصل المترتبة عن ذلك، وهذا فيه مزيد تأكيد على ضرورة الاجتماع وترك النزاع. كما أومأت إلى الحذر من مشابهة الكفار في بطرهم وريائهم وصددهم عن سبيل الله، وكذا في اختلاف آرائهم وتضارب عزائمهم حال خروجهم للقاء النبي عليه السلام والصحب الكرام. كل ذلك يعد أدلة وقرائن تشهد للحكم بوجوب الوحدة وحرمة الفرقة.

• **الافتراق من أسباب الضلالة وموانع الهداية:** إن من أخطر مآلات الفرقة أن تضطرب على الناس الفهوم، وتختل عندهم الأنظار، فتنبهم حينها الحقائق، ويضعف الرشد المنهجي والفكري، فتصير الأمة أوزاعا لا زمام لها ولا خطام. ولذلك يومئ كتاب الله تعالى

(1) التفسير القرآني للقرآن، 628/2.

إلى هذا المعنى حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: 93]. ففهم من الآية أن الهداية مرتبطة بالجماعة المتألّفة، والأمة الموحدة، وأن الضلالة مرتبطة بالفئة المتفرقة. وهذا ما يشير إليه الإمام الطبري وهو يفسر هذه الآية حيث قال: «ولو شاء ربكم أيها الناس للطف بكم بتوفية من عنده، فصرت جميعاً جماعة واحدة، وأهل ملة واحدة لا تختلفون ولا تفرقون، ولكنه تعالى ذكره خالف بينكم، فجعلكم أهل ملل شتى، بأن وفق هؤلاء للإيمان به، والعمل بطاعته، فكانوا مؤمنين، وخذل هؤلاء فحرّمهم توفيقه فكانوا كافرين».⁽¹⁾

وقد وضع كتاب الله تعالى بأن هذا الافتراق، المفضي إلى الضلال، يكون حاصلًا أحيانًا عن سبق إصرار، وبعد ورود البينات والبراهين، يقول سبحانه: ﴿وَمَا اِخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة: 211]. قال ابن عاشور في تفسيرها: «والمراد بالبينات هنا الدلائل التي من شأنها الصّد عن الاختلاف في مقاصد الشريعة».⁽²⁾ وهذا ما أكده ربنا سبحانه في آية أخرى فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَبَرَّفُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]. يقول أبو زهرة بأن هذه الآية تنص على نتائج الافتراق، وأولها: «العمى عن الحق، مع وضوحه وقيام البينات عليه... وقد ترتب على التفرق وتوزع أهوائهم ومنازعاتهم أن اختلفوا في إدراك الكتاب مع وضوحه».⁽³⁾

(1) تفسير الطبري، 287/17.

(2) التحرير والتنوير، 310/2.

(3) زهرة التفاسير، 1349-1348/3.

إن الأصل في الأفكار والأنظار أن ما وضح دليله وبرهانه ينبغي التوافق حوله، ولا ينبغي التنازع البتة بشأنه، لكن داعي البغي والحقد يمنع من ذلك، فتنطمس الحقائق رغم ظهورها، وتنسخ الآراء رغم وضوحها على كل من سلك هذه السبيل، إلا من رزق الهداية والتوفيق من رب العباد، وهذا ما بينه ربنا سبحانه فقال: ﴿وَمَا تَعْبَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ أَلْعَلُّمٌ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 14]. وقال سبحانه أيضا: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 211]. يقول ابن عاشور في بسط معانيها: «والمعنى أن داعي الاختلاف هو التحاسد، وقصد كل فريق تغليب الآخر، فيحمل الشريعة غير محاملها؛ ليفسد ما حملها عليه الآخر؛ فيفسد كل فريق صواب غيره وأما خطؤه فأمره أظهر»⁽¹⁾.

ولا ينبغي أن يفهم بأن هذا الذي نص عليه كتاب ربنا سبحانه وتعالى خاص بالأمم السابقة، وإنما هو مذكور من أجل الاعتبار به وعدم الوقوع فيه، صحيح أن مضمونه خاص بمن قبلنا، لكنه تشريع لنا، يقول أهل التفسير: «والآية تقتضي تحذير المسلمين من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف في الدين... وفي هذا إيماء إلى أن الله بعث بالإسلام لإرجاع الناس إلى الحق، وإلى التوحيد الذي كانوا عليه، أو لإرجاعهم إلى الحق الذي جاءت الرسل لتحصيله»⁽²⁾.



(1) التحرير والتنوير، 310/2.

(2) التحرير والتنوير، 311/2-312.

المطلب الرابع: الوحدة غاية البعثة.

لعل من نافلة القول التذكير هاهنا بأن الحكمة الإلهية اقتضت بعثة الرسل والأنبياء، بين يدي الساعة مبشرين ومنذرين، من أجل تحقيق جملة من المقاصد والغايات التي تصب كلها في مصلحة الإنسان في العاجلة والآجلة.

والأكيد أن تتبع هذه الحكم والمصالح وإيرادها وبيان تجلياتها وتفصيلها ليس هذا محله، لكن يعني في هذا المقام أن أقرر بأن من أجل المقاصد التي رام الأنبياء والرسل الكرام تحقيقها من خلال دعواتهم ورسالاتهم هو مقصد الوحدة والتآلف، ومنازمة الاختلاف والتفرق، يقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: 11].

فهذه الآية صريحة في أن دين الله تعالى الذي شرعه على السنة رسله ينافي الاختلاف والتفرق؛ إذ أخبر جل جلاله عن وحدة الرسالات التي أرسل بها صفوة الخلق، وأجمل ما أمروا به من جملة هذه الأحكام والتشريعات في إقامة الدين أولا وعدم التفرق فيه ثانيا. قال البغوي (ت: 516) رَحِمَهُ اللهُ مقررًا هذا المعنى: «بعث الله الأنبياء كلهم بإقامة الدين والألفة والجماعة وترك الفرقة والمخالفة»⁽¹⁾.

فكل النبوءات والرسالات تسعى لإقامة مشروع واحد، وهي مجمعة على ذلك، يقول ابن عطية: «إقامة الدين مشروع اتفقت النبوات فيه، وذلك في المعتقدات أو في جملة أمرها»⁽²⁾. وهو مشروع أسهم فيه كل نبي بسهم حتى اكتمل ببعثة نبينا محمد ﷺ، وهذا ما وضعه النبي ﷺ بشكل بليغ في الحديث النبوي حيث يقول: «إن مثلي ومثل الأنبياء من

(1) تفسير البغوي، 187/7. وينظر في هذا المعنى: تفسير ابن كثير، 195/7.

(2) المحرر الوجيز لابن عطية، 29/5.

قبلي، كمثّل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»⁽¹⁾

إن من الغايات العظمى لبعثة الأنبياء وإقامة الدين الواحد هي توحيد الناس وجمعهم على كلمة سواء، وسياستهم إلى طريق التآلف والنأي بهم عن السبل المفرقة والمشتتة، ولا شك في أن أتباعهم ملزمون بالاعتداء بهم في ذلك والاهتداء بهديهم، ﴿وَلْيَكُنِ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ قِبْهُدِيَهُمْ إِفْتِدَةً﴾ [الأنعام: 90].

وقد أوماً كتاب الله تعالى في موضع آخر في سورة الأنبياء إلى هذا الأمر؛ حيث قال في سياق الحديث عن ثلة من رسل الله وأنبيائه، وبعض أخبارهم مع أقوامهم وأممهم: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: 91-92]. ففي هذه الآية إخبار منه سبحانه أن دين الأنبياء والرسل واحد، وملتهم واحدة غير مفرقة، فكلهم على التوحيد مجتمعون، وبوحي الله مستمسكون، ويشهد لهذا المعنى سياق الآية في السورة، حيث كان الحديث عن ثلة من رسل الله وأنبيائه، وبعض أخبارهم مع أقوامهم وأممهم. قال القرطبي (ت: 671هـ) رحمه الله: «لما ذكر الأنبياء قال: هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد»⁽²⁾ ثم قال مخاطباً للناس: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. أي هؤلاء الرسل المذكورون هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتون، وبهديهم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد،

(1) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، ح: 3535، 496/2.

(2) تفسير القرطبي، 283/14.

والرب أيضا واحد، ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ وكان اللائق الاجتماع على هذا الأمر، وعدم التفرق فيه»⁽¹⁾.

وفي هذا الإخبار حث على لزوم الاجتماع ونبذ الفرقة والاختلاف، وبيان ذلك فيما ورد من ذم ما أحدث أتباع الرسل من التفرق الذي عبر عنه بقوله: ﴿وَتَفَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾. فصاروا فرقا وشيعا وأحزابا... طاعة لأنفسهم واتباعا لأهوائهم وميلا مع أمزجتهم.

إن هذه المعاني المذكورة في الآية أنفا يقررها ربنا سبحانه مرة أخرى في سورة «المؤمنون» فيقول سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا﴾ ﴿وَتَفَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: 53-54-55].

فهذه الآيات فيها الإعلام بوحدة دين الأنبياء والرسل، واتفاق ملتهم واجتماعهم على الإسلام، «وهذا من جملة ما خوطب به الأنبياء»⁽²⁾.

بناء على هذا التفسير يمكن القول بأن من أجل وظائف الأنبياء ومقاصد إرسالهم وبعثتهم: توحيد الناس وجمع صفوفهم، سواء على مستوى معتقداتهم وتصوراتهم، أم على مستوى ممارسة الشعائر التي فرضت عليهم، أم على مستوى المعاملات التي تحصل بينهم... وهذه قضايا سيأتي مزيد بيان لها في البحث بحول الله تعالى.



(1) تفسير السعدي، ص: 530.

(2) فتح القدير، 661/3.

المطلب الخامس: الفرقة منهاج حياة غير المسلمين.

لعل من الأمور التي أكد عليها كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ: ضرورة مخالفة المشركين؛ سواء فيما يتعلق بالمعتقدات، أو العبادات، بل وحتى في العادات. أي إن الإسلام له حرص على إبراز سيماء الشخصية المسلمة وتمييزها، وتحقيق استقلاليتها في جوانب شتى، والنأي بها عن كل تجليات التبعية ومظاهرها، في أفق بناء نموذج حضاري له خصائصه التي ينفرد بها.

وقد بين كتاب الله تعالى أن من السمات التي مازت غير المسلمين عبر التاريخ؛ سمة الفرقة والاختلاف، والتنكب عن سبيل الوحدة والاتلاف، وهي سمة مقبلة تذهب أثر الأمم، وتهد حضاراتها وتبيدها، ولذلك حذرنا الله تعالى من الوقوع في شرك ذلك حيث يقول سبحانه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَبَرَّفُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]، فالآية فيها أمر بالاعتصام الجماعي بجبل الله تعالى، ونهي صريح عن التشبه باليهود والنصارى في ذميم صنيعهم وشنيع فعلهم وهو التفرق والاختلاف. يقول محمد الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «فيه من تمثيل حال التفرق في أبشع صوره المعروفة لديهم من مطالعة أحوال اليهود».(1)

ويقول ربنا سبحانه تعالى في آية أخرى مؤكدا هذا الأمر -مع إضافة معاني جديدة-: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: 30-31]. فهذه الآيات تشير إلى ضرورة الوحدة -وأن هذا أصل لا معدى عنه- وتقرير الاستدلال أن التشبه بالمشركين واقتفاء

(1) التحرير والتنوير، 42/4.

آثارهم واتباع سننهم أمر محرم شرعاً؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنْ
الْمُشْرِكِينَ﴾، فدل على أن جنس مخالفتهم وترك مشابعتهم مأمور به شرعاً. وفي كتاب
الله من النهي عن مماثلة الأمم الكافرة وقصصهم التي فيها عبرة لنا بترك ما فعلوه كثير.⁽¹⁾

والنهي في الآية دال على التحريم - وهو نهى مطلق - ثم خص بالذكر فعلاً من
أفعالهم وصفة من صفاتهم «مهجنا لها ومقبحا».⁽²⁾ وتخصيصها بالذكر دليل عناية واهتمام،
وبيان لعظم الخطب وجليل خطرهم، وفي ذلك مزيد تحذير من التفرق والتشتت.

فالمخالفة للمشركين مقصودة، وتعيين فعل التفرق والتقطع بيان لما به تتحقق المخالفة
حقاً. وأفاد بدلالة المفهوم أن المسلمين مأمورون بالائتلاف والاجتماع ونبذ التعصب
والأشياء. ووصف الفعل أنه من أفعال المشركين تأكيداً للحرمة؛ إذ «يؤذن بأنه وصف شنيع؛
إذ ما وصفهم الله به إلا في سياق الذم، فيؤذن ذلك بأن الله يحذر المسلمين من أن يكونوا في
دينهم كما كان المشركون في دينهم».⁽³⁾

فالخطاب يقتضي أن ما كان من فعل المشركين فهو مذموم في دين الله، وإضافة هذا
الوصف إلى النهي عن التشبه بهم ذم له، وما خرج إلا على مخرج الذم الشديد وإلا لم يكن
في تخصيصه بالذكر مزيد فائدة.

وبالنظر في سباق الآية نجد ما يحقق هذه الوحدة، ويؤكد معنى الاجتماع والائتلاف،
إذ الأمر بالإنابة إلى الله وتحقيق التقوى لا يتحقق إلا بامثال الأوامر واجتناب النواهي،
لأنهما وصفان ينافيان مشابهة المشركين. والأمر بإقامة الصلاة فيه إشارة إلى روح الجماعة

(1) ينظر في هذا الباب كتاب: اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية. تحقيق: محمد حامد الفقي،
دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1420هـ - 1999م، ص: 25.

(2) تفسير السعدي، ص: 641.

(3) التحرير والتنوير، 193/8.

والوحدة، فناسب ذلك ما ورد بعدها مباشرة من التحذير من سلوك سبيل المشركين واتباع سننهم وتفريق الشمل وتشتيت الجمع.

وفي لحاق آية النهي قال تعالى منكرًا عليهم متعجبًا من صنيعهم، مبينا خطأ ظنهم ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ بَرِحُونَ﴾، «أي وهم ليسوا بحال من يفرح»⁽¹⁾، إذ كيف يفرح من هم في غيهم يعمهون وفي ضلالهم ثملون وعن منهج الله معرضون.



(1) التحرير والتنوير، 72/18.

المبحث الثاني وحدة الأمة الإسلامية مقصد من مقاصد الشريعة.

من المعلوم قطعاً أن التشريع الإسلامي لا يخلو من إقرار الحقيقة الجامعة التي يجمع عليها كافة العلماء والفقهاء والباحثين والدارسين، وتتفق عليها الملل والفرق والمذاهب، وتقرها مختلف العقول والأعراف والعوائد والقوانين في كل زمان ومكان وهي «أن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل»⁽¹⁾.

فكل شريعة شرعت للناس إنما ترمي أحكامها إلى مقاصد مرادة لمشرعها الحكيم تعالى، إذ ثبت بالأدلة القطعية أن الله لا يفعل الأشياء عبثاً، دل على ذلك صنعه في الخلقة، كما أنبأنا عنه قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ ﴿٣٦﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الدخان: 36 □ 37]. وقوله جل جلاله: ﴿أَبَحْسَبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: 116].

«وما أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الشرائع إلا لإقامة نظام البشر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]»⁽²⁾.

ومما لا يخفى أن وحدة الأمة واجتماعها وألفتها من المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، فهي مقصد شرعي معتبر دلت عليه نصوص الوحي

(1) الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى: 1417هـ - 1997م، 9/2.

(2) مقاصد الشريعة الإسلامية لمحمد الطاهر بن عاشور، تحقيق محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن. الطبعة الثالثة: 1432هـ - 2011م، ص: 179.

كتابا وسنة - وسيأتي بيانه - وإذا تتبعنا ذلك انتظم لنا منها كلي شرعي لا ينازع فيه إلا جاحد أو مكابر، إذ تحقيق الوحدة جاء متواترا في أحكام القرآن والسنة سواء بهذا اللفظ أو ذلك.

فاستقراء النصوص الشرعية وتتبع معانيها الكلية والجزئية يثبت للدارس والباحث أن الشارع قصد إلى الوحدة في كل التشريع، بل في كل الشرائع، إذ قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 11].

قال ابن كثير (ت: 774هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «وصى الله سبحانه وتعالى جميع الأنبياء، عليهم السلام، بالائتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف»⁽¹⁾ وقال «صاحب المنار» (ت: 1354هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «فهذه الآيات وأمثالها نصوص صريحة في أن دين الله تعالى الذي شرعه على السنة رسله ينافي الاختلاف والتفرق»⁽²⁾.

فدل ذلك على مقصدية الوحدة في جميع الرسائل السماوية الموحى بها إلى صفوة الخلق رسل الله، حيث تشترك في الوصية الربانية الجليلة، إقامة الدين وعدم التفرق فيه، وهما أساس الرسائل وأساس المقاصد والغايات، وهي وصية مطلقة شاملة لا يحدها مكان ولا يحصرها زمان.

فالأمر بالوحدة فرض توارثته الدعوات النبوية وتناقلته الرسائل السماوية، وتلك لعمري كافية في الدلالة على اعتبار الوحدة مقصدا شرعيا، وقد تقرر عند علماء الأصول أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ، فكيف به وقد جاء في شرعنا ما يثبتته ويؤكدده، وفيما

(1) تفسير ابن كثير، 195/7.

(2) تفسير القرآن الحكيم، المعروف بتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: 1990م ، 9/3.

يلي بيان تفصيلي لمقصدية الوحدة، أعتمد في ذلك على ما أصله أعلامنا رحمهم الله من طرق للكشف عن مقاصد الشريعة لتجلية الأمر وتبيينه، اعتمادا على تتبع هذه الوحدة من خلال مسالك أوردتها في مطالب كما يلي.



المطلب الأول: مجرد الأمر والنهي الابتدائي التصريحي.

بين الشاطبي (ت: 790هـ) رَحِمَهُ اللهُ تفاصيل هذا المسلك حين أشار إلى أن «الأمر معلوم أنه إنما كان أمراً لاقتضائه الفعل؛ فوقع الفعل عند وجود الأمر به مقصود للشارع، وكذلك النهي معلوم أنه مقتضى لنفي الفعل أو الكف عنه؛ فعدم وقوعه مقصود له، وإيقاعه مخالف لمقصوده، كما أن عدم إيقاع المأمور به مخالف لمقصوده».(1)

وعليه فإن هذا المسلك يتضمن أمراً ابتدائياً تصريحياً، ونهياً ابتدائياً تصريحياً. فإطلاق «الابتدائي» إنما يراد به التحرز من الأمر الذي قصد به غيره، بينما التعبير بـ «التصريحي» يقصد منه استبعاد كل أمر أو نهى ضمني لم يتم التصريح به.

قال الشاطبي (ت: 790هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «وإنما قيد بالتصريحي - يقصد الأمر والنهي - تحرزا من الأمر أو النهي الضمني الذي ليس بمصرح به كالنهي عن أضداد المأمور به الذي تضمنه الأمر، والأمر الذي تضمنه النهي عن الشيء. فإن النهي والأمر هاهنا إن قيل بهما فهما بالقصد الثاني لا بالقصد الأول، إذ مجراهما عند القائل بهما مجرى التأكيد للأمر أو النهي المصرح به».(2)

ومن أمثلة هذا المسلك قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾

[آل عمران: 103].

فصيغة فعل الأمر يعلم منها قصد الشارع إلى وقوع ذاك الفعل، كما أن صيغة النهي يعلم منها قصد الشارع إلى عدم إرادته إيقاع الفعل، فالطلب الإلهي أمراً أو نهياً متضمن للمقصد الشرعي المبتغى من الحكم الذي يقتضيه. وهذا ما قصده الشاطبي (ت: 790هـ) رَحِمَهُ اللهُ: بقوله: «الأمر والنهي يستلزم طلباً وإرادة من الأمر؛ فالأمر يتضمن طلب المأمور به وإرادة إيقاعه، والنهي يتضمن طلباً لترك المنهي عنه وإرادة لعدم إيقاعه، ومع هذا ففعل

(1) الموافقات، 3/134.

(2) الموافقات، 3/135.

المأمور به وترك المنهي عنه يتضمنان أو يستلزمان إرادة، بها يقع الفعل أو الترك أو لا يقع»⁽¹⁾.

أ. الأمر الابتدائي التصريحي.

ففي قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾، أمر ابتدائي تصريحي مقصود بالقصد الأول، فهو دال على قصد الشارع إلى حمل الناس على تحقيق المأمور به وهو الاعتصام الجماعي بحبل الله.

فامتثال الأمر بالاعتصام في الآية مقصود في حد ذاته، إذ الأمر لم يوضع في الأصل اللغوي والوضعي إلا لإفادة الطلب، وحصول الفعل الذي هو الاعتصام هو مقصود الأمر. لذلك فإن كل معنى يتبادر إلى العقل من اللفظ لغة، يمثل - مبدئياً - إرادة المشرع، يجب العمل به، لأنه حجة على ذلك، ولا يجوز صرف هذا المعنى إلى معنى آخر؛ لما فيه من إلغاء إرادة الشارع واستبدال إرادة المجتهد بها، وهو لا يجوز مطلقاً.⁽²⁾

فامتثال ظاهر مدلول الأمر في الآية، وهو وجوب الاعتصام، مقصد شرعي؛ لما بين المقاصد الشرعية وتطبيق ظواهر الأوامر من التلازم المنطقي الذي تفرضه طبيعة اللغة بين صيغة الأمر وإرادة وقوع المأمور به من الأمر، فالأمر ابتداء يقصد وقوع المأمور به كما سبق في كلام الشاطبي رحمه الله.

ب. النهي الابتدائي التصريحي.

ولما كان الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده، فإن الأمر الابتدائي التصريحي المقصود بالقصد الأول مستلزم للنهي الضمني الذي يكون مقصوداً بالقصد الثاني على سبيل التوكيد والتعزيد للقصد الأول.

(1) المصدر نفسه، 369/3.

(2) المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي لفتحي الدريني، مؤسسة الرسالة، دمشق - سوريا، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة: 1434هـ - 2013م، لفتحي الدريني، ص: 47.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّفُوا﴾: نهى تصريحى ابتدائى مقتضى لنفى الفعل، فعدم وقوع التفرق مقصود شرعى، لما يندفع به من المفسد العاجلة والآجلة، فهو بهذا الاعتبار مقصود أصالة، وهو نهى تبعى سيق لتعصيد القصد الأول، وهو الاعتصام، فيكون بذلك مقصودا بالقصد الثانى لا بالقصد الأول، حيث جرى مجرى التأكيد للاجتماع على حبل الله، وذلك بالنهى عن ملاسة هذا الفعل - أى التفرق - فيكون النهى هاهنا وسيلة لتحقيق القصد الأول، فهو من الوسائل لا من المقاصد، أو هو من المقصود الثانى التبعى فيكون مطلوبا من باب ما لا يتم الاجتماع والوحدة إلا به فهو واجب.



المطلب الثاني: الأمر والنهي التصريحي التبعي.

وهو ما كان وسيلة إلى غيره أو تابعا له ويعد من ضمن توابع «مؤكددة للمقصود الأول وباعثة عليه، ومقتضية للدوام فيه سرا وجهرا»⁽¹⁾ بحيث يكون مقصودا بالقصد الثاني لا بالقصد الأول «إذ مجراهما عند القائل بهما مجرى التأكيد للأمر أو النهي المصرح به»⁽²⁾.

أ. الأمر التصريحي التبعي.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: 13].

قد قصر معظم أهل التفسير المتقدمين معنى التعارف في الآية الكريمة على مجرد معرفة أنساب الناس وقبائلهم.

قال الطبري (ت: 310هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «وقوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ يقول: ليعرف بعضكم بعضا في النسب. يقول تعالى ذكره: إنما جعلنا هذه الشعوب والقبائل لكم أيها الناس، ليعرف بعضكم بعضا في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك»⁽³⁾.

وقال ابن كثير (ت: 774هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «أي ليحصل التعارف بينهم، كل يرجع إلى قبيلته»⁽⁴⁾ فيعرف نسب فلان وقبيلة علان، ويعلم ما بينهم من القرابة والنسب، فهذه علة ذكرها الله تعالى لخلق الخلق وجعلهم شعوبا وقبائل، فاتخاذ هذا الاختلاف في النسب والشعوب والقبائل لغير التعارف مخالف لقصد الشارع؛ إذ دلالة النص القرآني على العلية

(1) الموافقات، 3/140.

(2) المصدر نفسه، 3/150.

(3) تفسير الطبري، 21/386.

(4) تفسير ابن كثير، 7/385.

ظاهرة، فتصريح الشارع بصيغة من الصيغ الموضوعة للتعليل - وإن احتملت غيره⁽¹⁾ ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ دال على أن ما في علة التعارف من الحكمة مقصد من مقاصد الشارع.

قال القرطبي (ت: 671هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنساباً وأصهاراً وقبائل وشعوباً، وخلق لهم منها التعارف، وجعل لهم بها التواصل، للحكمة التي قدرها وهو أعلم بها»⁽²⁾.

ولا أنسب من حكمة تحقيق الألفة والتعاون والوحدة والاجتماع، ونبد الفرقة والتنافر والشقاق والنزاع. قال سيد قطب (ت: 1385هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوباً وقبائل، إنها ليست التناحر والخصام، وإنما هي التعارف والوئام»⁽³⁾.

فَعِلَّةُ تنوع الألسنة والألوان والقبائل والأجناس علة التعارف والتعاون وتحقيق الألفة والوحدة، ويشهد لهذا المقصد السياق اللغوي الخاص للخطاب،⁽⁴⁾ إذ سبقت الآيات بأوامر ونواه مقصودة، وخادمة لمقصد الوحدة والألفة، بدءاً من الأمر بالتثبت فيما ينقل من الأخبار والأنباء والإصلاح بين الطوائف المقتتلة، وتشريع قتال الفئة الباغية حتى تفيء إلى أمر الله، وإصلاح ذات البين والنهي عن السخرية واللمز والتنازع بالألقاب وسوء الظن والتجسس والغيبة، فهذه الأحكام مما لا يختلف اثنان في كونها محققة للألفة والمحبة موحدة للصف والجماعة، «جمع الله ذلك كله في هذه الموعظة الحكيمة التي تدل على النداء عليهم بأنهم عمدوا إلى هذا التشعيب الذي وضعته الحكمة الإلهية فاستعملوه في فاسد لوازمه وأهملوا صالح ما جعل له بقوله: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾»⁽⁵⁾.

(1) تحتل اللام أن تكون للعاقبة لا للعلية، إلا أن دلالتها على العلية في الآية أظهر والسياق شاهد على ذلك.

(2) تفسير القرطبي، 413/19.

(3) في ظلال القرآن، 3348/6. وينظر في هذا المعنى نفسه: التحرير والتنوير، 261/26.

(4) يقصد بالسياق اللغوي الخاص للخطاب: السابق واللاحق له.

(5) التحرير والتنوير، 261/26.

وختمت الآيات في هذا السياق بخطاب موجه إلى بني الإنسان عموماً وإلى المسلمين خصوصاً، يتضمن الإشارة إلى أن «الإنسانية» رغم ما فيها من اختلاف في الأجناس والألوان والأديان، تعتبر وحدة مترابطة فيما بينها، فلا بد للمسلمين إذن من التعارف مع غيرهم، ومن التعاون مع كل من ينجح إلى التعاون معهم على ما فيه خير الإنسانية عموماً، وخير الإسلام خصوصاً.⁽¹⁾

إن التذكير بأصل الخلقة الواحدة تذكير بأخوة الإنسانية وفيه من الترغيب في الألفة والمحبة والوحدة ما لا تخطئه عين متدبر. فإن كان ذلك بين بني البشر أجمعين من باب الأخوة الإنسانية لأب واحد وأم واحدة، فإنه بين أبناء الأمة الإسلامية أكد وأوجب.

ب. النهي التصريحي التبعي: ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَبَرَّفُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105].

فالآية نهى عن مشابهة أهل الكتاب -الذين تفرقوا على أكثر من سبعين فرقة- وعن متابعتهم في نفس التفرق والاختلاف، فدل على أن جنس مخالفتهم وترك مشابهتهم مقصود للشارع.

قال ابن تيمية (ت: 728هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «إن الأمر بموافقة قوم أو بمخالفتهم: قد يكون لأن نفس قصد موافقتهم، أو نفس موافقتهم مصلحة، وكذلك نفس قصد مخالفتهم أو نفس مخالفتهم مصلحة، بمعنى: أن ذلك الفعل يتضمن مصلحة للعبد أو مفسدة...».⁽²⁾ معنى كلامه رَحِمَهُ اللهُ: أن مجرد الموافقة لأهل الكتاب في فعل ما منهي عنه، وإن لم تنضر بموافقتنا لهم في هذا الفعل. فدل ذلك على أن مخالفتهم مقصد شرعي. «وإن كان ذلك الفعل الذي

(1) التيسير في أحاديث التفسير لمحمد المكي الناصري، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1405هـ - 1985م، 6/65.

(2) اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم، ص: 25.

حصلت به الموافقة أو المخالفة، لو تجرد عن الموافقة والمخالفة: لم يكن فيه تلك المصلحة أو المفسدة»⁽¹⁾.

وقد يكون الأمر بالمخالفة، لأن ذلك الفعل الذي قد يوافقون فيه متضمن لمفسدة أو مفسد، فتكون المخالفة مقصودة لدرء هذه المفسدة، وتحقيق ما يقابلها من المصلحة، وهي هاهنا مصلحة الاجتماع والائتلاف والوحدة، فموافقة أهل الكتاب في هذا الوصف - ﴿تَبَرَّفُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ - مدعاة لتحقيق المفسدة⁽²⁾ ومخالفتهم دليل على تحقق المصلحة.

وهذا النهي في الآية الكريمة نهى تصريحي تبعي لا ابتدائي، مقصود بالقصد الثاني لا بالقصد الأول، سيق في معرض تأكيد وجوب الاعتصام وتحقيق القصد الأول - وهو الاجتماع على حبل الله - ولأن النهي عن الشيء يستلزم الأمر بأحد أضداده، فإن النهي التبعي التصريحي المقصود بالقصد الثاني مستلزم للأمر الضمني الابتدائي المقصود بالقصد الأصلي على سبيل الإثبات والتقرير والتأصيل.

وعلة كون النهي في هذه الآية نهيا تبعا تصريحا مقصودا بالقصد الثاني، لأن شرط النهي حتى يكون مقصودا للشارع ابتداء ألا يكون وسيلة إلى غيره أو تابعا له، كما ذكر الشاطبي رحمه الله⁽³⁾.



(1) المصدر نفسه، ص: 25.

(2) من مفسدات الفرق أن تصاب الأمة بالضعف والوهن والفشل، وذهاب الريح، فتتداعى عليها الأمم الكافرة كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فتستباح بيضتها وتنتهك حرمتها، وتسلب مقدساتها، وتزول هيبتها، وهذا واقع تشهد به الأمة لا ينكره أحد.

(3) الموافقات، 3/134-135، بتصرف.

المطلب الثالث: اعتبار علل الأمر والنهي.

والعلة ذات الصلة بهذا المسلك هي الإيماء والتنبيه، بحيث تكون دلالة الإيماء مصرحة بالمفاسد الواقعة بعد النهي، ويمكن رصد هذا المسلك من خلال الأمثلة الآتية:

● المثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فِتْنَشَلُوا وَتَذْهَبَ

رِيحُكُمْ...﴾ [الأنفال: 47]. فالله سبحانه وتعالى فرّع الفشل وذهاب الريح على التنازع بالفاء،⁽¹⁾ وهذا يفيد بدلالة الإيماء والتنبيه كون التنازع علة ذلك. فوضع الفاء في هذا السياق يشعر أن الذي تقدمها سبب في الحدث الذي تلاها، حيث رتب على حدث التنازع حدثاً آخر وهو الفشل وذهاب الريح، والعلاقة بين الحدين واضحة الدلالة على العلية، إذ «علاقة العلية مدرك عقلي صرف يحصل في الذهن عند إدراك التعاقب بين حدثين متناسبين تناسباً مستقرى بالتجربة والتكرار».⁽²⁾

(1) دلالة الفاء على العلية لا ترقى إلى درجة القطع، كما في دلالتها على علة القطع في السرقة فإنها ليست دلالة صريحة، إذ الفاء لا تدل على العلية بالوضع اللغوي، بل هي تشعر بما فقط في سياق خاص حدده علماء اللغة العربية بالاستقراء من بين أمور أخرى تدل الفاء عليها، ودلالتها على العلية أو السببية تكون حال كون الفاء عاطفة لحدث على آخر، مثل قوله تعالى: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ بِقَفْصِي عَٰلِيهِ﴾ [القصص: 14]، فوضع الفاء في هذا السياق يشعر أن الذي تقدمها سبب الحدث الذي تلاها، لكن هذا الإشعار بالعلة هو مجرد أمر غالب، فقد تأتي بهذا الوضع لكن دلالتها هي مجرد الترتيب، كما في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِجَآءٍ يَّجْعَلُ سَمِيرًا﴾ [الذاريات: 26]. فالفاء هنا لم تدل على العلية، وإنما على مجرد ترتيب الحدين، فبالاستقراء يثبت أن الفاء لا تفيد العلية بلفظها، فلا يكفي أن يعطف حدث على حدث، حتى يفهم من العطف أن الحدث الأول علة للثاني، لذلك فإن العلاقة بين الحدين هي التي توجه الفاء للتنبيه على العلة متى كان الحدث الأول صالحاً لأن يكون علة للحدث الثاني.

ينظر: "ضوابط اعتبار المقاصد في مجال الاجتهاد وأثرها الفقهي" لعبد القادر بن حرز الله، مكتبة الرشد، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1428هـ - 2007م، ص: 103-104.

(2) ضوابط اعتبار المقاصد، ص: 104.

ومن استقرأ الحوادث والوقائع التاريخية، أدرك العلاقة المطردة بين الفشل وذهاب القوة والدولة وبين التنازع والافتراق والتمزق، ومدى التناسب بينهما وأن هذا سبب ذاك، وذاك نتيجة حتمية لهذا، وهو أظهر وأبين من أن يحتاج إلى إقامة حجج وبراهين.

فالعلة المنصوصة إيماء في الآية وهي التنازع، تفضي إلى التعريف بمقصد الحكم الشرعي الذي اقترن بها وهو النهي عن التنازع، لما يترتب عنه من مفسد صرحت الآية منها بالفشل وذهاب الريح، مما يؤكد بدلالة القصد التبعي الضمني الدعوة إلى الالتحام والائتلاف والاتفاق. باعتبار مجرد النهي الابتدائي التصريحي دال بذاته على قصد الانتهاء عن المنهي عنه، وإيقاعه مخالف لمقصود الشارع، فالنهي بظاهره يفيد قصد الشارع إلى عدم إيقاع المنهي عنه، وذلك أن النهي يستلزم أمرين:

الأول: الطلب: طلب ترك المنهي عنه.

الثاني: الإرادة: (1) إرادة عدم إيقاع المنهي عنه. (2) والمقصود هنا في الأوامر والنواهي النوع الثاني من الإرادة.

وإرادة الشارع للشيء دليل مقصديته، فأفاد أن النهي عن التنازع مقصود أصالة للشرع، ومما يزيد كونه مقصدا للشارع ومصلحة متغاية بيان مفسده، إذ «التصريح بالمفسد مع النهي من طرق الكشف عن المقاصد». (3)

(1) بوصفها صفة لله تعالى على نوعين: الإرادة الخلقية القدريّة، وهي التي لا يتخلف عنها مراد، فما أراد الله تعالى كونه كان، وما أراد أن لا يكون فلا سبيل إلى كونه، والإرادة الأمرية التشريعية المتعلقة بطلب إيقاع المأمور به وعدم إيقاع المنهي عنه، ومعناها أن الله تعالى يحب فعل ما أمر به ويرضاه، ويجب أن يفعل المأمور به ويرضاه منه من حيث هو مأمور به، وكذلك النهي يحب ترك المنهي عنه ويرضاه. (ينظر: الموافقات، 90/3).

(2) الموافقات، 90/3.

(3) مقاصد الشريعة الإسلامية تأصيلا وتفعيلا لمحمد بكر إسماعيل حبيب، دعوة الحق، العدد: 213، العام: 1427هـ. ص: 158.

وقد ذكرت الآية بعض مفسدات التنازع من الفشل والضعف وذهاب القوة وزوال الدولة، وفي ذلك تصريح بعلة النهي عن التنازع وهي الضعف والفشل، مما يؤدي إلى هوان الأمة وذهاب هيبتها، وهذا يدل على أن الشرع قاصد إلى دفع كل ما ينتج عن التنازع من أضرار وقبائح ومفسدات، ولن يتأتى ذلك إلا بتحقيق الألفة والجماعة والائتلاف، وهذا يخدم مقصد الوحدة.

فالآية دالة بدلالة التنصيص على العلة أولاً، ودالة بدلالة التصريح بالمفسدات عقب النهي، ودالة بدلالة الإيماء والتنبيه على مقصدية الوحدة.

فالقصد الأصلي التصريحي الابتدائي هو النهي عن التنازع، والقصد الضمني التبعي هو تحقيق الالتحام والتوحد والترابط والاجتماع، فيكون من هذا الباب مقصداً ضمناً، وهو أيضاً وسيلة لتحقيق القوة وقيام الدولة.

• **المثال الثاني:** قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيَمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: 211]. فقد روى الطبري (ت: 310هـ) رحمه الله عن ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد وقتادة أن المراد من الآية أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق والهدى والتوحيد فاختلفوا،⁽¹⁾ وهو قول أكثر المحققين كما قاله أبو جعفر الرازي، عن أبي العالية، ويدل عليه ما نقل عن ابن مسعود وأبي بن كعب أنهما كانا يقرآنها: ((كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)).⁽²⁾

(1) تفسير الطبري، 621/3، بتصرف. وينظر: التحرير والتنوير، 300/2.

(2) تفسير ابن كثير، 569/1. وينظر: تفسير الرازي، 12/6.

وهذا مما لا يقال بمجرد الرأي بل هو في حكم المرفوع. «ويؤيد هذا التقدير قوله في آية سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾، لأن الظاهر اتحاد غرض الآيتين»⁽¹⁾ وهذا من تفسير القرآن بالقرآن. ويؤكد هذا المعنى لحاق الآية بعده حيث يقول سبحانه: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: 211]، فهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام إنما بعثوا حين الاختلاف، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: 19].

«فتفريع الخبر ببعثة النبيين على الجملة السابقة، وتعليل البعث بقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، انتظم من ذلك كلام من بليغ الإيجاز، وهو أن الناس كانوا أمة واحدة فجاءتهم الرسل بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ليدوموا على الحق خشية انصرافهم عنه إذا ابتدأ الاختلاف يظهر، وأيدهم الله بالكتب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فلا جرم أن يكون مجيء الرسل لأجل إبطال اختلاف حدث»⁽²⁾.

والذي يعنينا من هذه الآية هو دلالة الفاء على السببية، ﴿فبعث﴾، ودلالة اللام على التعليل: ﴿لِيَحْكُمَ﴾، فقد بينت الآية الكريمة أن أجل مقصد لبعثة الرسل هو ما أحدثه الناس من الاختلاف الذي يؤدي إلى الفرقة والشتات، ولذلك كان وضع الفاء هنا ظاهر الدلالة على أن الاختلاف المقدر في الآية سبب في الحدث الذي تلا، وهو بعثة النبيين، والعلاقة بين الحدثين مدركة عقلا وتجربة، وهي المناسبة التي اشترطها الأصوليون. فبين

(1) التحرير والتنوير، 301/2.

(2) المرجع نفسه، 300/2-301.

وصف الاختلاف الذي أصاب الناس وخبر بعثة النبيين مُلاءمة، بحيث تكون البعثة حسما لأسباب الاختلاف والفرقة، فأفاد بدلالة المفهوم مقصدية الوحدة.

وقوله تعالى في سياق الآية نفسها: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ

بَيْنَ النَّاسِ فِيْمَا اِخْتَلَفُوا فِيْهِ﴾ [البقرة: 211]، صريح في أن المقصد من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو الحكم بين الناس فيما وقع فيه الخلاف رفعا له ودفعاً، لما قد يترتب عنه من مفساد، وتحقيقاً لمصلحة الألفة والوحدة، وهذا مسلك النص في القرآن الكريم على العلل، ودلالة النص على العلية في رفع الاختلاف ظاهرة.⁽¹⁾ ودلالته على مقصدية الوحدة ضمنية.

• **المثال الثالث:** قوله تعالى: ﴿بِإِذْنِ تَنْزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 58].

فقد أمر الله عز وجل في هذه الآية الكريمة برد الأمر المتنازع فيه إلى الله والرسول، أي الرد إلى كتاب الله وسنة حبيبه ﷺ، وقد جاء الأمر بصيغة تدل على الوجوب مقترنا بفاء العلية والتي تفيد بدلالة الإيماء والتنبيه - اقتران الحكم بوصف لو لم يكن هو أو نظيره للتعليل لكان بعيدا وفي غير موضعه - كون رفع الخلاف ودفع التنازع مقصد شرعي، إذ

(1) قد تكون دلالة النص على العلية قاطعة بأن يقال لعله هذا أو لأجل كذا أو كي، وقد تكون دلالة العلية ظاهرة وهي كل ما ورد مرتبا على حرف من الحروف التي تفيد التعليل مثل: اللام، إن، الباء، من، الفاء، الكاف، حتى. والقاطع هو الذي لا يحتمل إلا العلية، أما الظاهر فهو الذي يحتمل غير العلية احتمالا مرجوحا، لكنه لما كان احتمالا مرجوحا لا دليل عليه، فإنه لا يؤثر في كونه نصا على العلة.

(ينظر: مقاصد الشريعة تأصيلا وتفصيلا. ص: 168. وطرق الكشف عن مقاصد الشارع لنعمان جفيم، دار النفائس - الأردن. الطبعة الأولى: 1422هـ - 2002م، ص: 166).

ترتيب الحكم على الوصف من طرق الكشف على المقاصد.⁽¹⁾ فعلم أن علة الأمر بالرد إلى الله والرسول في الآية هو تحقيق مقصد الألفة والوحدة برفع الخلاف ودرء النزاع.

فدلت الآية على عليية الوصف - التنازع في الشيء - بقرينة الفاء، إذ في الآية تنبيه وإشارة إلى كون مراد الله تعالى من خطابه القرآني هاهنا ومن تشريع حكم الرد إلى الله ورسوله هو تحقيق مقصد درء التنازع، وأداة التنبيه - وهي الفاء - هي القرينة الدالة عليه، فالشرع قاصد إلى دفع كل أنواع الصراع والنزاع، وذلك بتوفير وسائل الألفة والاجتماع.

«ولفظ «شيء» في الآية نكرة متوغلة في الإبهام فهو في حيز الشرط يفيد العموم، أي في كل شيء».⁽²⁾ فيصدق على كل نزاع أو خصومة كلامية أو فقهية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو حقوقية... «وعموم لفظ شيء في سياق الشرط يقتضي عموم الأمر بالرد إلى الله والرسول؛ وعموم أحوال التنازع، تبعا لعموم الأشياء المتنازع فيها».⁽³⁾

فما اشتمل عليه الأمر من علة هو الدال على المقصد الشرعي، فإذا عُلِمَت العلة فُهِم المقصد الشرعي، فينشرح صدر المكلف أكثر للامثال، وأيضا يفهم مقصد تعدي الحكم إلى غير المنصوص عليه، والمشارك معه في نفس العلة،⁽⁴⁾ وقد أغنى عنه في هذا النص العموم الذي دلت عليه النكرة في سياق الشرط.

وبالنظر في سياق الآية وما أعقب الله به الأمر بالرجوع إلى الكتاب والسنة درءا للخلاف والتنازع من قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ «تحريض وتحذير معا، لأن الإيمان بالله واليوم الآخر وازعان يزعان عن مخالفة الشرع، والتعريض

(1) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، 3/320.

(2) التحرير والتنوير، 5/99.

(3) المصدر نفسه، 5/100.

(4) مقاصد الشريعة تأصيلا وتفعيلا، ص: 171.

بمصالح الأمة للتلاشي، وعن الأخذ بالحظوظ العاجلة مع العلم بأنها لا ترضي الله وتضر الأمة». (1)

وليس أضر على الأمة من تنازع أهلها ولا أقوض لمصالحها من تشتت أفرادها، وداء ذلك وعلته اتباع الهوى وحظوظ النفس العاجلة، وهذا ما حذر منه المولى في غير ما آية من كتابه، وقطع دابره بصدق الرجوع إلى وحيه والاحتكام إلى شرعه؛ كتابه وسنة نبيه ﷺ، وسيأتي تفصيل ذلك بأدلته في الباب الثاني.

ثم أعقب ذلك بأسلوب الترغيب والتحبيب، فقال جل شأنه: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾، أي ذلك الرد للشيء المتنازع فيه إلى الله ورسوله خير لكم في نفسه... وأحسن تأويلا أي مآلا وعاقبة لأنه يقطع عرق التنازع، ويسد ذرائع الفتن والمفاسد. (2)

والتعبير بالخير والأحسن من الألفاظ التي يعبر بها عن المصالح المقصودة للشارع. قال العز بن عبد السلام (ت: 660هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «ويعبر عن المصالح والمفاسد بالخير والشر، والنفع والضرر، والحسنات والسيئات، لأن المصالح كلها خيور نافعات حسنات، والمفاسد بأسرها شرور مضرات سيئات. وقد غلب في القرآن استعمال الحسنات في المصالح، والسيئات في المفاسد». (3)

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «ويعبر عن المصالح والمفاسد بالمحسوب والمكروه، والحسنات والسيئات، والعرف والنكر، والخير والشر، والنفع والضرر، والحسن والقيبح». (4)

(1) التحرير والتنوير، 101/5.

(2) تفسير المنار، 192/5-193.

(3) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام، تحقيق: نزيه كمال حماد، عثمان جمعة ضميرية، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى: 1421هـ - 2000م، 7/1.

(4) الفوائد في اختصار المقاصد أو القواعد الصغرى للعز بن عبد السلام، تحقيق: إياد خالد الطباع، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق - سورية. الطبعة الأولى: 1416هـ - 1996م، ص: 38.

المطلب الرابع: وصف الشيء بالخير والحسن.

فقد يورد الشارع أمرا ثم يذكر بعده ما يترتب عنه من المزايا، وما يؤول إليه من النفع والخير. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 103].

يأمر المولى جل جلاله عباده المؤمنين بتذكر نعمته عليهم؛ نعمة تأليف القلوب ورأب الصدوع وتجاوز الصراعات، والتعالي عن كل الأمجاد الزائفة والمفاخر الزائلة والعصبيات الفارغة التي كانت سبب التطاحن والتنازع.

قال ابن كثير (ت: 774هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، وإحن وذحول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم»⁽¹⁾ فمن الله عليهم بنعمة الإسلام الذي به تمت الهداية وتحقق التأليف القلبي، وهذه نعمة أخرى من ثمرات نعمة الرسالة والوحي.

ووصفها بالنعمة كاف في الدلالة على مقصدية تحقيقها والحفاظ عليها، إذ مقتضى الإنعام من رب الأنام أن يحرص العبد على حفظ النعم بشكرها وضمنان استقرارها واستمرارها، ويدل على كون الشارع قاصدا للألفة والوحدة أداة التنبيه في الآية وهي قرينة الفاء ﴿فَأَلَّفَ﴾، فهي دالة على عليية الوصف، وكونه معنى من المعاني وحكمة من الحكم المقصودة للشارع من خطابه وإخباره. أي إن وصف العداوة الذي ذكرته الآية واقتران ما بعده بالفاء - فألف - مفيد إيماء وتنبيه أن الشرع قصد إلى رفع هذا الصراع ودفع النزاع.



(1) تفسير ابن كثير، 90/2.

وبالنظر إلى القرائن المصاحبة للسياق،⁽¹⁾ والتي تؤخذ بعين الاعتبار في تحديد مقاصد الشارع وبيان دلالة الأمر والنهي،⁽²⁾ فإن المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ رَءَدَاءَ فُالِّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ﴾، المحافظة على نعمة التأليف هذه والإدانة لها، وسبيل معرفة ذلك سباق الآية لما فيه من الأمر بالاعتصام الجمعي بجبل الله، وكذا لحاقها حيث النهي عن التشبه بمن تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات. ناهيك عن السياق العام المتمثل في النصوص القرآنية الأخرى التي لها علاقة بما ورد في هذا النص مع ورودها في مواضع مختلفة من القرآن الكريم.



(1) سياق الخطاب على نوعين:

■ السياق اللغوي أو القرائن المقالية: الجمل المكونة والسابقة واللاحقة لنص الخطاب المراد تفسيره — استخلاص المقصود منه — فالنص القرآني أو الحديث النبوي، لا يمكن — عادة — أخذه مبتورا عن النصوص الأخرى، سواء النصوص الواردة في السياق اللغوي بمعناه الخاص، أي الجمل السابقة واللاحقة له، أو بمعناه العام: أي النصوص الأخرى التي لها علاقة ما بهذا النص مع ورودها في أزمنة ومواقع مختلفة عما ورد فيه ذلك النص، حيث يكون استحضار تلك النصوص معينا على فهم هذا النص، إما لكونها مبينة له، أو مكملة لمعناه، أو مخصصة لعمومه، أو مقيدة لإطلاقه.

■ السياق الاجتماعي: وهو الذي يسمى بالمقام، وتدخل فيه أسباب النزول، وأسباب ورود الحديث، والظروف النفسية والاجتماعية السائدة وقت ورود النص الشرعي. (ينظر: طرق الكشف عن مقاصد الشرع لعثمان جغيم، ص: 97 - 102).

(2) قال الشاطبي رحمه الله: "إن الأوامر والنواهي يفهم منها القصد الشرعي بحسب الاستقراء، وما يقتزن بها من القرائن الحالية أو المقالية الدالة على أعيان المصالح في المأمورات، والمفاسد في المنهيات". (الموافقات، 112/3).

المطلب الخامس: المناسبة.

إن من المسالك التي تصلح مستقلة للكشف عن العلة ومن ثم عن المقاصد الشرعية مسلك المناسبة.⁽¹⁾ وما دام المناسب هو الوصف الظاهر الذي يترتب على شرع الحكم عنده مصلحة، وتحقيق المصلحة مقصد من المقاصد الأساسية للشارع، فإن المناسب يكون طريقاً إلى التعرف على المقاصد الشرعية.⁽²⁾ وأعلى أنواعه وأقواها المناسب المؤثر: وهو ما دل النص والإجماع على مناسبته وصلاحيته للعلة وما يثبت بهذا الطريق يعد من المقاصد الثابتة بالنص والإجماع.⁽³⁾ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوَفِّعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُوْنَ﴾ [المائدة: 93].

فالآية الكريمة دلت على أن تجنب العلاقات بين أفراد المجتمع أسباب البغضاء والعداوة من⁽⁴⁾ المقاصد الشرعية المرعية في تحريم الخمر والميسر. والنص ظاهر في الدلالة على علل تحريم الخمر والميسر وهي ما فيهما من المفساد الاجتماعية من عداوة وبغضاء مفضيتين إلى تقطيع العلاقات، وتمزيق الجماعات وتشتيت الجيران والخلان والقربات، والسباب والشتام، والهرج والخصام. وورود لفظ «إِنَّمَا» صريح في الدلالة على العلية

(1) المناسبة: هي أن يكون بين الوصف والحكم ملائمة بحيث يترتب على تشريع الحكم عندها تحقيق مصلحة مقصودة للشارع من جلب منفعة أو دفع مفسدة. (ينظر: مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، لمحمد سعد اليوبي، دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1429هـ. ص: 140).

(2) طرق الكشف عن مقاصد الشارع" ص: 163.

(3) المرجع نفسه، بتصرف. ص: 164.

(4) "من" للتبعية إذ نصت الآية على مقاصد أخرى دينية وهي استدامة الذكر والحفاظة على الصلاة. وقد ذكر أهل التفسير أن الآية دلت على نوعين من المفسدة:

- ما يتعلق بالدنيا: العداوة والبغضاء.

- وما يتعلق بالدين: الصد عن ذكر الله وعن الصلاة.

(ينظر: الباب في علوم الكتاب، 507/7. وينظر: البحر المحيط، 17/4).

ظاهر في بيان أن المقصد الشرعي من تحريمهما - الخمر والميسر - هو حفظ رابطة الأخوة وآصرة الألفة.

قال الرازي (ت: 604هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «إن الخمر والميسر سببان عظيمان في إثارة العداوة والبغضاء بين الناس، ولا شك أن شدة العداوة والبغضاء تفضي إلى أحوال مذمومة من الهرج والمرج والفتن، وكل ذلك مضاد لمصالح العالم»⁽¹⁾. إذ مصلحة العالم قائمة على أساس التعارف والتعاون والتآلف، وعمارة الأرض بالنفع والخير والصلاح، وتحقيق الألفة والمحبة وتحصيل سبل الوحدة والاجتماع، فما هلك من هلك إلا باختلاف.

قال الثعالبي (ت: 875هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «ولا تحسن عاقبة قوم متباغضين، ولذلك قال ﷺ: «ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا»⁽²⁾ وباجتماع النفوس والكلمة يحمى الدين، ويجاهد العدو، والبغضاء تنقض عرى الدين، وتهدم عماد الحماية»⁽³⁾.

ومن لطيف ما في الآية الكريمة أن ذكرت محرمات أربع: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْوَاجُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [المائدة: 92]، واقتصرت بعد ذلك على بيان مفسد الخمر والميسر دون بيان ما في الأصنام والاستقسام بالأزلام من المفسد العظيمة الجليلة، وفي ذلك - والله أعلم - إشارة للتركيز على هذه المفسد الاجتماعية لما لها من كبير خطر على وحدة المجتمع وتماسك الأمة، إذ لا يستقيم أمر أمة بين أفرادها البغضاء، صنف إلى ذلك أن الآية بدأت التعليل بالمفسد الاجتماعية: العداوة والبغضاء، قبل المفسد التعبدية: الصد عن ذكر الله والصلاة، وفيه تقديم لحقوق العباد على حق رب العباد، وتلكم قرينة

(1) تفسير الرازي، 85/12-86.

(2) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير، ح: 6064، 173/4.

(3) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى: 1418 هـ - 1997م، 419/2.

تزيد تأكيداً لشناعة المقصد الشيطاني بإشعال نار الفتنة والفرقة، وتثبيت للمقصد الرباني
القرآني بتمتين أواصر المحبة والألفة والوحدة.



المطلب السادس: القصد التبعية الضمني.

وقيد هذا القصد بالتبعية في مقابل الأصلي بحيث يكون «المعنى التبعية راجعا إلى المعنى الأصلي، ويلزم من هذا ألا يكون في المعنى التبعية زيادة على المعنى الأصلي، وهو المطلوب»،⁽¹⁾ كما قيد كذلك بالضمني في مقابل التصريحي، إذ إن هذا المقصد «ليس بمصرح به؛ كالنهي عن أضداد المأمور به»⁽²⁾ ومن أمثلة هذا المقصد الدالة على الوحدة ما يلي:

• **المثال الأول:** قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 64].

فقد علق الشوكاني على هذه الآية قائلا: «هذا خطاب لرسول الله ﷺ، والمراد بالكتاب: القرآن، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي ما أنزلناه عليك لحال من الأحوال ولا لعل من العلل إلا لعل التبيين لهم، أي للناس الذي اختلفوا فيه من التوحيد، وأحوال البعث، وسائر الأحكام الشرعية».⁽³⁾

فعلة إنزال القرآن بالحصص والقصر الذي دلت عليه الآية هو بيان الحق فيما اختلف فيه من أمور الأحكام الاعتقادية أو العملية، وهذا ما أفادته الآية مقصدا صريحا من التنزيل وهو وظيفة الرسول بالقول والفعل والإقرار، حتى يسهل على الناس معرفة وجه الحق والصواب فيما خفي من القضايا والتبس من المسائل، والحكمة من وراء ذلك رفع الشقاق، ودفع الخلاف والفصل في كل نزاع وخصام، «إذ القرآن فيصل ما بين الحق والباطل وحكم ما بين الخير والشر... فما استقام على ميزانه فهو الحق والخير، وما انحرف عنه فهو الباطل والضلال... فعلى هديه يجتمع أهل الكتاب على كلمة سواء منه، فيما اختلفوا فيه، وإليه

(1) الموافقات، 2 / 160.

(2) الموافقات، 3 / 135.

(3) فتح القدير، 3 / 240.

يحتكم أهل الهدى فيقضي بينهم بما يرفع الخصام والشقاق فيما كان سببا في خصامهم وشقاقهم...»⁽¹⁾.

فالتصريح بأن التبيين لما اختلف فيه هو علة إنزال الكتاب دليل على أن هذه العلة مقصد من مقاصد الشريعة، وتنطوي على حكمة ظاهرة المناسبة وهي تحقيق الاجتماع والوحدة ودرء الاختلاف والفرقة، ويشهد لهذا المقصد ما سبق من النصوص القرآنية الصريحة.

وقد أشار إلى هذا المعنى من أهل التفسير كل من سيد قطب (ت: 1385هـ) رَحِمَهُ اللهُ فِي ظلاله حيث قال: «فوظيفة الكتاب الأخير والرسالة الأخيرة هي الفصل فيما شجر من خلاف بين أصحاب الكتب السابقة وطوائفهم»⁽²⁾. ومحمد المكي الناصري (ت: 1414هـ) رَحِمَهُ اللهُ حيث قال: «وتناول كتاب الله تحديد جملة من الأهداف التي توختها الحكمة الإلهية، من الرسالة المحمدية التي هي خاتمة الرسالات، وهذه الأهداف المشار هنا ثلاثة أمور: الأمر الأول: وضع حد للخلاف والنزاع القائم بين أتباع الأديان السالفة...»⁽³⁾.

فقطع دابر الخلاف وجمع الناس على كلمة التوحيد وتعريفهم بالحقيقة الدينية الأصلية على وجهها الكامل الصحيح بما يحقق وحدة الصف ويخدمها مقصد ظاهر. قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْۚ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 63].

(1) التفسير القرآني للقرآن، 3/316. هذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في سورة النساء: 58: ﴿فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَىٰ ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَاوِيلًا﴾. والآية الكريمة في سورة الشورى: 8: ﴿وَمَا اِخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَىٰ ٱللَّهِ﴾.

(2) في ظلال القرآن، 4/2180.

(3) التيسير في أحاديث التفسير، 3/334.

• **المثال الثاني:** قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ دَخُلُوا فِي السَّلَامِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: 206].

إن تحقيق السلم والتعايش بين الناس، وترسيخ الشعور بضرورته والوعي بالزاميته والحرص على تجليه في واقع حياة الناس من المقاصد الشرعية العامة التي نصت عليها الشريعة السمحة، وذلك ما يخدم مقصد الألفة والاجتماع والائتلاف، ولذلك ورد الأمر في هذه الآية الكريمة بما يرسى أسس الأمن والوئام والوفاق ويضع دعائم الاجتماع والاتفاق، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ دَخُلُوا فِي السَّلَامِ كَآفَّةً﴾.

ومن معاني السلم المذكور في الآية معنى الاتفاق والائتلاف كما أشار إليه الرازي (ت: 604هـ) رَحِمَهُ اللهُ في إيرادهِ للمعاني المقصودة في الآية فقال: «... وخامسها: أن يكون السلم المذكور في الآية معناه الصلح وترك المحاربة والمنازعة، والتقدير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۖ دَخُلُوا فِي السَّلَامِ كَآفَّةً﴾؛ أي كونوا موافقين ومجمعين في نصرته الدين واحتمال البلوى فيه، ولا تتبعوا خطوات الشيطان بأن يحملكم على طلب الدنيا والمنازعة مع الناس».(1)

وهذه حقيقة السلم كما ذكرها بعض أهل العلم، فبعد أن اتصف المسلمون بالإيمان أمرهم المولى جل جلاله بأن لا يكون بعضهم حرباً لبعض كما كانوا عليه في الجاهلية، ويتناسوا ما كان بين قبائلهم من العداوات.

وتبعاً لاختيار حمل السلم في الآية على الإسلام يؤول الدخول في السلم المأمور به أن يكون اتصاف المسلمين فيما بينهم بالمسالة دائماً، ورفع المشادة والتلاحي بين أفرادهم كما كان في الجاهلية.

(1) تفسير الرازي، 225/5.

قال محمد الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «فتكون الآية تكملة للأحكام المتعلقة بإصلاح أحوال كانت في الجاهلية، وبها تكون الآية أصلاً في كون السلم أصلاً للإسلام وهو رفع التهاجر وكما قال الشاطبي: أي التقاتل وما يفضي إليه»⁽¹⁾. ودرء الفساد كما دل عليه سباق الآية،

وهذا ما يؤول بالأمة إلى المسالمة والوفاق والإخاء والاتفاق، ويحقق مقصد التعارف والتعاون الذي ورد التعليل به والحث عليه في محكم التنزيل.⁽²⁾

فالأمر في الآية بالدخول في السلم كافة دال على قصد الشارع إلى المسالمة الجامعة والوحدة المترابطة والأخوة المتراسة، وسياق التحذير بعد من اتباع خطوات الشيطان معضد للمعنى والمقصد، إذ التحريش بين المسلمين وإيقاع العداوة والبغضاء مقصد للشيطان دلت عليه نصوص الشريعة بما لا تخطئه عين قارئ. قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: 53]، وقال جل جلاله في معرض اعتذار يوسف لما صدر من إخوته: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: 100]، وبه علل الشرع الحكيم تحريم الخمر والميسر فقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوفَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: 93]، فكان المعنى المقصود من آية السلم هو الأمر بالمسالمة التامة والحذر من

(1) التحرير والتنوير، 278/2.

(2) أقصد بالتعليل به قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13]. وبالحث عليه قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 3].

اتباع خطوات الشيطان ومن أشدها بعد إفساد عقيدة التوحيد، إفساد وحدة الجماعة⁽¹⁾ وتفكيك آصرة الألفة، والحيلولة دون تحقيق مقصد الشريعة في بث الأخوة الإسلامية والإنسانية وقوله تعالى عقب الآية: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، تعليل لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، إذ عداوته لأهل الإيمان قائمة، وحرصه على الإيقاع بينهم سنته الدائمة.

(1) دل عليه ما جاء بعد: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: 213].

المبحث الثالث وحدة الأمة الإسلامية مطلب حضاري

يختلف تحديد مفهوم الحضارة بحسب العقائد والثقافات التي تشكله، فلكل حضارة منشؤها ومعينها الذي عنه تصدر ومنه تتبلور، ولعل هذا ما جعل البوطي (ت: 1434هـ) رَحِمَهُ اللهُ يَقْطَعُ أنه لم يقف على تعريف علمي دقيق لها، على الرغم من كثرة ما ظهر من كتابات مختلفة عنها.⁽¹⁾ وإن تأصيل هذا المفهوم يستلزم الرجوع إلى المعنى اللغوي والقرآني حتى لا يتأثر بالفكر الغربي الذي له ظروفه وخصوصياته، خاصة أن المصطلح له تداوله وحضوره البارز في الحقول الفكرية والفلسفية الغربية...

ويتضح بعد النظر في كتب المعاجم اللغوية أن مادة «ح ض ر» لا تخرج عن معاني الإيراد والورود والمشاهدة والشهود. قال ابن فارس: «الحاء والضاد والراء إيراد الشيء، ووروده ومشاهدته. وقد يجيء ما يبعد عن هذا، وإن كان الأصل واحداً، فالحضر خلاف البدو».⁽²⁾

والحضور نقيض المغيب والغيبة، حضر يحضر حضوراً وحضارة... وكلمته بحضور فلان وبمحضر منه أي: بمشهد منه.⁽³⁾

وهذا المعنى اللغوي نجده حاضراً في آيات الكتاب الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ أَفْئِسَّةٌ﴾ [النساء: 8]. حضر القسم: شهدها.⁽⁴⁾ وقوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ

(1) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم لمحمد سعيد رمضان البوطي، الناشر: دار الفكر المعاصر، طبعة: 1401هـ - 1981م، ص: 19.

(2) مقاييس اللغة، 2/75-76. وينظر: تاج اللغة وصحاح العربية، 2/632.

(3) لسان العرب، 4/196.

(4) معجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للبحوث وإحياء التراث، القاهرة - مصر. طبعة: 1409هـ - 1988م، ص: 299.

رَبِّ أَنْ يَخْضُرُوا ﴿[المؤمنون: 99]، أي: يشهدوني⁽¹⁾ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخْضَرًّا﴾ [آل عمران: 30]، أي: ظاهرا ثابتا واضحا⁽²⁾ ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْفَيْتَمَةِ مِنَ الْمُخْضَرِينَ﴾ [القصص: 61]،⁽³⁾ أي الحاضرين. وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: 49]، ماثلا غير غائب⁽⁴⁾، فدلّت الكلمة على معنى: الحضور والظهور والشهود والشهادة.

وهذا الشهود والحضور الذي دلت عليه المعاجم اللغوية وورد في بعض الاستعمالات القرآنية،⁽⁵⁾ هو الذي عنيته بكون وحدة الأمة ضرورة حضارية. أي إن الأمة الإسلامية مدعوة شرعا مأمورة نصا بأن تكون أمة شاهدة على الناس، ظاهرة على الأمم، حاضرة حضورا فعليا، إذ إليها وكلت مهمة إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وبها أنيطت وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحقيقا لوصف الخيرية، إذ أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وعليها المعول في تحقيق فعالية استخلاف الله للبشرية في هذا الكون.

وهذا الشهود الحضاري للأمة الإسلامية لا ينحصر في البعد المادي فقط المتمثل في إعمار الأرض بالصناعات والبنائات واستصلاحها بالزراعات واستخراج الثروات وتطوير العلوم وإنتاج الآلات، بل يتعدى ذلك إلى الحضور المعنوي بكل ما تحمله الرسالة الإسلامية من قيم وأخلاق ومبادئ وآداب تشكل مجموعها منظومة تربوية كفيلة بإخراج الأمة من ظلمات التيه والفساد، والتفسخ والانحلال، والشهوانية البهيمية، إلى نور الهدى والصلاح،

(1) تفسير الماوردي، 4/66.

(2) زهرة التفاسير، 3/1181.

(3) ينظر معجم ألفاظ القرآن الكريم، ص: 299.

(4) تنظر هذه المعاني في معجم ألفاظ القرآن الكريم، ص: 299.

(5) لا نجد في القرآن مفهوما محددا للحضارة بصورة ما، وإنما يمكن استفادة المفهوم وعناصره من مفاهيم أخرى كالاستخلاف والإعمار وال عمران والشهود. .

والتآلف والإعتدال والإنسانية الراقية، فتجمع بين العبادة والعمارة، وبين نهوض الأمة وحفظ الملة، وبين السعي في الأرض والإعداد ليوم العرض...

فالأمة الإسلامية أمة مسؤولة، حملت على عاتقها إنقاذ البشرية من الجاهلية العمياء لترسو سفينتها على محجة الشريعة الغراء، وهي بذلك ملزمة بإثبات ذاتيتها حضوراً، لتأخذ بيد البشرية جمعاء إلى تحقيق مقصد التعبد لرب الأرض والسما، خاصة والعالم يشهد طغياناً مادياً لحضارة شَيَّت كل قيمة ومعنى، حتى انطلق في الأفق سديم لا يراعي في الإنسان إنسانيته بقدر ما ينظر إلى تحقيق منافع ومصالح دنيوية.

ولا يتأتى لها ذلك ما لم تتحقق بوحدة ناظمة وألفة رابطة، بحيث تنهض بالمهمة الأساس التي كلفت بها في الحياة الدنيوية، والتي هي تحقيق جامعة إنسانية فعالة في سبيل النهوض بعمارة الأرض، العمارة الشاملة لكل ما تتسع له كلمة العمارة من المعاني المادية والمعنوية؛ وهذا ما سأعمل على تجليته في المطالب التالية.



المطلب الأول: الوحدة أساس العمران الحضاري.

إن من المهام الأساسية التي تحملتها الأمة الإسلامية باعتبارها أمة أخرجت للناس، مهمة عمارة الأرض وإنشاء حضارة شاملة تنهض بها لتكون قائدة لغيرها، فاعلة فيمن حولها، نافعة لقريبها وغريمها، إذ هي حضارة معينها الوحي الرباني والمنهج القرآني تحكمها قيم الرسالة وأخلاق الشريعة. وهي مهمة لا يمكن تحقيقها إذا كنا مختلفين متفرقين، لما تحدته الفرقة من تعطيل لمسيرة الأمة عن بلوغ غاياتها المثلى، ومقاصدها العظمى، فتثبت كيانها، وتفرض ذاتها، خاصة ونحن نعيش عصر التكتلات الكبرى على جميع الأصعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية.

فلا أمل للأمة في تحقيق الشهود العمراني إلا بتبني خيار الوحدة باعتباره ضرورة استراتيجية وحضارية، ولا أدل على ذلك من خطاب المولى جل جلاله: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَلْقَوْمِ إِعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَعْبِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: 61].

قال الجصاص (ت: 370هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «وقوله: واستعمركم فيها يعني: أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه، وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة، والغراس والأبنية»⁽¹⁾.

وقال بعض علماء الشافعية: «الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله على الوجوب»⁽²⁾ ولا يتم واجب العمارة للأرض إلا بتحقيق الاجتماع والتعاون والوحدة، إذ

(1) أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، طبعة: 1412هـ - 1992م، 378/4.

(2) أحكام القرآن لابن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، 1424هـ - 2003م، 18/3.

الواقع يشهد بما تعرفه الدول المتصارعة والأمم المتناحرة من خراب للأراضي، ودمار للبنيات، وتعطيل للصناعات وهدم للمنشآت... فأني لها أن تقيم حضارة أو تبني عمارة.

والآية القرآنية وإن كانت في معرض خطاب سيدنا صالح عليه السلام لقومه ثمود إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وسياق الآية فيه ما يلمح إلى الأخذ بأسباب الوحدة، ورأس الأمر في ذلك توحيد الله بالعبودية، ونفي الآلهة والشركاء عنه، ثم التذكير بوحدة الأصل الإنساني، إذ نسبهم إلى الأرض حيث منها خلق أبوهم آدم، فباجتماع الأمة على التوحيد وتحقيق الأخوة الدينية، وكذا ترسيخ مبدأ الأخوة الإنسانية، تتوحد الجهود وتتكاثف الطاقات وتتقارب التصورات وتلتئم الأيدي العاملة والمؤسسات الفاعلة، فتنهض بالمشاريع الهادفة والمنجزات النافعة. قال البوطي (ت: 1434هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «إن المنجزات الحضارية إنما هي دائما نتيجة جهود متناسقة مشتركة، ولم تكن في وقت من الأوقات ثمرات لجهود فردية أو جماعية متشاكسة، ... إن الدخول في أي مشروع إنتاجي، مهما كان نوعه، ومهما بلغ اتساعه، إنما يعتمد قبل كل شيء على رصيد من التفاعل والتعاون بين الأطراف والفئات كلها، فلا يمكن له أن يأتي بأي نتيجة إيجابية ذات قيمة، إذا ما كانت دعامة ذلك المشروع مكونة من جهود طرف واحد»⁽¹⁾.



(1) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم لمحمد سعيد رمضان البوطي، ص: 171.

المطلب الثاني: الوحدة ضرورة لتحقيق التدافع الحضاري.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: 251]، وقال جل جلاله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَفَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 38]. تخبر الآيتان عن سنة التدافع الحتمية التي لا يمكن إلغاؤها أو تجاهلها، إذ هي سنة مطردة على مر العصور والدهور، وإنه لمن الضروري في ظل هذا التقارب العالمي والتزاحم الحضاري أن تسعى الأمة الإسلامية لتعزيز موقعها وتحقيق ريادتها وتأكيد ذاتها أمام الحضارات الأخرى حتى لا تكون عرضة للفناء أمام سطوة «الحضارة الغربية ذات النزعة العدوانية والرؤية التصارعية»⁽¹⁾ الإبادية.

فلن يتأتى حفظ الدين من الزوال، وحفظ الدنيا من الفساد إلا بأهلية الأمة لمداغة الآخر، إذ استمرار غلبة الكفار تعطيل للمنافع وإبطال للمصالح وتعميم للفساد وصرع للإنسان وقضاء عليه، وهدم لأماكن الطاعة ومحاضن الصلوات والعبادات - التي تشكل مراكز تجمع المسلمين وتعارفهم وحشد قواهم وتآليف قلوبهم وتوحيد صفوفهم -، وافتتان للناس بالدنيا وغفلة عن الذكر، ولا أفسد للأرض من خرابها بمنع ذكر الله فيها، لما يحتاجه الناس من عبادة وقيم وأخلاق تسوس معاملاتهم، وتحكم تصرفاتهم، وتقوم علاقاتهم، وتكبح جماح رغباتهم ونزغاتهم. قال الزمخشري: «لولا أن الله يدفع بعض الناس ببعض، وكيف بهم فسادهم لغلب المفسدون، وفسدت الأرض، وبطلت منافعها، وتعطلت مصالحها من الحرث والنسل وسائر ما يعمر الأرض»⁽²⁾. ولن يتحقق هذا التدافع إلا بوجود أمة موحدة متماسكة قوية فعالة، لها موقعها فيما يدور حولها من أحداث ووقائع،

(1) السنن الاجتماعية ومنطق التدافع والتعارف الحضاري لأبي عبيد صالح الأزدهار، دار الكلمة، طبعة سنة: 2014م، ص: 104. بتصرف.

(2) البحر المحيط في التفسير، 279/2.

قادرة على الإبداع والعطاء، والتوعية والارتقاء، وبيان حقيقة الوجود وغاية الخلق، فتفعل وتنفع، وتؤثر وتتأثر، لتتشكل في النهاية وقد طبعت بطابع القوة والتماسك والقدرة على تحقيق التوازن الحضاري والتدافع الإنساني بما يضمن التعايش والتساكن، والتعارف والتضامن، بناء لمستقبل يسوده السلم والإخاء والود والعطاء.

وقد أتى الحديث عن المدافعة في الآية في سياق المقاتلة التي تحتاج إلى التصاف، وإقامة علاقة كالبنیان المرصوص، وتوحيد القيادة والإمارة، قال جل جلاله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُفْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَبًا كَانَتْهُمْ بُنْيَ مَرَّصُونَ﴾ [الصف: 4]. لأن هذا البناء المتآلف «تعاون لبناته وتماسك وتؤدي كل لبنة فيه دورها وتسد ثغراتها، وتمنع البناء من الانهيار».(1)

وفي ذلك إشارة إلى حاجة الأمة في سياق سنة التدافع إلى الالتحام والالتئام نصرة للحق وردا للظلم وإثباتا لعقيدة التوحيد، ثم أعقبت الآية بما يلزم الأمة إن مكن لها في الأرض من إقامة شعائر تخدم مقصد الوحدة وتنغياه من إقامة الصلاة التي بها اجتماع الناس في المساجد وتحقيق التواصل والتعارف والتقارب، وإيتاء الزكاة وما تثمره هذه العبادة من غرس لقيم المحبة والود بين قلوب العباد، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وهي مهمة جماعية تنهض بها أمة مجتمعة متحدة كما نصت على ذلك الآيات.

والتدافع في الآية ليس قاصرا على المجال الحربي العسكري، بل يتعداه ليشمل كل مجالات المنافسة والمدافعة الفكرية والثقافية والاقتصادية والعلمية، بما يحقق للأمة الإسلامية سؤدها وريادتها وقيادتها للأمم الأخرى، دون صرع لها أو إلغاء لكيونتها وخصوصيتها، وذلك مقتضى الامتثال لأمر الله في إعداد القوة مطلقا ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 61]، دون تقييد بوصف أو نوع، والتعقيب القرآني مشير إلى هذا المعنى دال

(1) في ظلال القرآن، 3555/6، بتصرف.

عليه، حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، إشارة إلى صفتي القوة والعزة وهما صفتان للرب جل جلاله تحتاج الأمة إلى أن تتحقق وتتخلق بهما، ورب العزة قادر على إعزاز دينه ونصره بقدرته وقوته وقهره، فيقطع دابر المفسدين، إلا أنه أراد أن تسير الأمور وفق أسبابها الطبيعية وسننها الكونية التي جعلها سبحانه، فتعد الأمة عدتها، وتقوي شوكتها، وتجمع شتاتها، وتلم شعثها، وتحقق وحدتها، ساعية إلى التأثير في المحيط الاجتماعي والمحلي والعالمي، على تنوع ثقافته وتشعب دياناته.

المطلب الثالث: الوحدة ضرورة لتحقيق الشهود على الناس.

إن إحياء وحدة الأمة الإسلامية يمثل المنطلق الأساس للشهود الحضاري في العصر الراهن، تلك الوحدة التي مزقتها المنازعات السياسية والخلافات المذهبية والاختلالات الفكرية والتوجهات الإيديولوجية في القرن الحالي، وذلك ما حال دون قيادة الأمة للعالم حضارة وثقافة، فكرا وسياسة... وصارت السطوة والوصاية لأمم الكفر بما أحرزته من سبق مادي وعلمي وتكنولوجي وحربي وعسكري واقتصادي... فاستباحث بيضة المسلمين، وجعلت من موارد الخير ومصادر الطاقة عند دول الإسلام قصعة تتداعى عليها كلما احتاجت لأن تزيد احتياطاتها، أو تدخر لمستقبلها. فأضحت المهمة جليلة لتنهض الأمة الوسط بمقصد الشهود على الناس، وتصحيح مسار الأحادية في مفهوم الحضارة، ليعم المفهوم الإسلامي لها والقائم على: «أنه لا يجوز اختزال الحضارة في إرضاء الاهتمامات المادية فقط، أو الروحية فقط، أو العقلية فقط، بل لا بد أن يكون هناك توازن بين كل هذه الاهتمامات والمتطلبات».(1)

ولن يكون ذلك إلا بظهور الأمة الإسلامية التي وصفها ربها بالوسطية: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 142]. وهو الوصف الذي به يتحقق التميز الحضاري والشهود الإنساني، فتسود القيم الأخلاقية والحضارة الإنسانية في مقابل الحضارة الشيئية البحتة الأحادية الجانب، التي تخل بقيمة التوازن والتوسط وتؤول إلى الفناء والإفناء.

وفي هذا الإطار، -وبهذه الرؤية لشهود الأمة الإسلامية- ينبغي أن تسعى إلى عمل حضاري متناسق، وإلى ارتقاء وتطور في ميادين البناء الحضاري لتكون أمة حاضرة

(1) الحضارة فريضة إسلامية لمحمود حمدي زقزوق. ملحق بمجلة الأزهر تصدر عن مجلة البحوث الإسلامية، رجب: 1438هـ - أبريل: 2017م. ص: 28.

بخصوصياتها، ملتزمة بثوابتها، منفتحة على العصر تستلهم من مستجداته وإبداعاته وإنجازاته ما يتوافق ومقصد الخالق من الخلق، فترتقي الأمة في مدارج الصعود الحضاري، ولن يكون ذلك وكل قوم بما لديهم فرحون. إذ الوحدة أهم مرتكز للحياة والانبعث من مرقد الفرقة وغيابات الشتات، والآية الكريمة تحمل في طياتها وسياقها ما يشهد لهذا الأمر، فقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 142]، أتى بعد الحديث عن وحدة العبودية في وصية يعقوب لبيه، وبيان وحدة الإيمان والتصديق عند أنبياء الله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والنبئين من بعدهم دون تفريق بينهم، وكلها آيات حافلة بإقرار عقيدة التوحيد الحق، والتشبيث بها اعتقادا وعملا، وفي ذلك إشارة إلى ما ينبغي للأمة أن تتمسك به اتباعا لأمر نبيها وإتماما لرسالة الأنبياء والمرسلين جميعا في أفراد الواحد بالوحدانية، وهذا عامل من عوامل الاتحاد بين أفراد الأمة ظاهر، فجاء التصريح بوصف الجماعة المؤمنة برسالة محمد ﷺ بالأمة: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ وفيها من معاني الاجتماع والجماعة والوحدة ما سبق بيانه، ثم أعقب ذلك بالحديث عن القبلية التي وليها رسول الله ﷺ، وهي مظهر جلي من مظاهر توحيد المسلمين واتفاق وجهتهم حسا ومعنى. وعلى هذا النسق تمضي الآيات في عرض هذه الحقيقة (الوحدة)، محوطة بمثل هذه الأساليب وهذه الاستطرادات المتعلقة بها.

وتتأكد ضرورة هذا البعد الجماعي لتحقيق الشهود على الناس الجماعي بالنظر في سياق آيات سورة الحج حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ

إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّيْكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» [الحج: 77-78]. إذ يتضح جلياً ما أحيطت به آية الشهادة على الناس من الأحكام والأوامر، فالأمر بالركوع والسجود - الصلاة - أمر بإقامة الجماعة وشهودها وحضورها، والدعوة إلى عبادة الله دعوة إلى اجتماع القلوب على المعبود سبحانه. والحث على فعل الخير حث على ما به يتحقق نفع الخلائق والبلاد، وصلاح الأرواح والأجساد، وهو مدعاة لترسيخ قيم المحبة والمودة بين العباد، والأمر بالجهاد أمر باجتماع الصفوف واتحاد الجنود، والإخبار بأن الملة المحمدية هي ملة نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام تذكير بالعمق التاريخي لدعوة التوحيد، وربط لأواصر الأجيال وأتباع الأنبياء، ووحدة التسمية بالمسلمين من قبل، وفي هذا تنبيه على التمسك بما يؤلف ويجمع، وتجنب ما من شأنه أن يفرق ويقطع، كل ذلك ليكون الرسول شهيداً على هذه الأمة بأن بلغهم وأبلغهم، وتكون الأمة شاهدة على الأمم السابقة بما أوحى الله إليها في محكم التنزيل، وتكون شاهدة حاضرة حاملة لرسالة البلاغ ومهمة الإبلاغ اقتداءً بنبيها ﷺ. ثم أعقبت الآيات بأوامر تزيد قضية الوحدة تأكيداً وترسيخاً، فإقامة الصلاة دعوة للجماعة والوحدة وإيتاء الزكاة من مقصده التزكية والألفة، والاعتصام بالله اعتصام بكتابه ومنهج وحيه وقرآنه، وهو سبيل التماسك والتشابك كأصابع اليد الواحدة والجسد الواحد...

فالأمة الإسلامية هي الأمة الشاهدة على الأمم بما من الله به عليها من دعوة التوحيد ورسالة الإسلام وتشريع الأحكام وتربية الأنام على نهج قويم وصراط مستقيم. يقول سيد قطب (ت: 1385هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «فالرسول عليه الصلاة والسلام يشهد على هذه الأمة، ويحدد منهجها واتجاهها، ويقرر صوابها وخطأها، وهي تشهد على الناس بمثل هذا، فهي القوامة على البشرية بعد نبيها، وهي الوصية على الناس، بموازين شريعتها وتربيتها،

وفكرتها في الكون والحياة، ولن تكون كذلك إلا وهي أمانة على منهجها العريق، المتصل
الوشائج، المختار من الله تعالى»⁽¹⁾.

وهذا الأمر يقتضي الاحتشاد له والاستعداد، لذلك جاءت الآية بالعدة اللازمة للأمة
لتتأهل للقيام بالشهادة تنفيذا للوصية الإلهية: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، فأمر
سبحانه بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله...

وفي هذه الأوامر من دلالات الجماعة والاجتماع والألفة والالتزام بمنهج الله ما لا
تخطئه عين متبصر، إذ «إن الشهادة على الناس في حقيقتها إظهار للحق وتبيينه وتبليغه
للناس»⁽²⁾ والأمة الإسلامية هي المنوط بها بيان معالم طريق النجاة والصراط المستقيم،
والوعي بذاتها والشهود على نفسها والوعي بالآخرين والشهود عليهم بدعوتهم وبيان الحق
لهم، وهي أمة المنهج الوسط الذي جمع بين الدين والدنيا. وزاوج بين العقل والعاطفة،
ووفق بين البدن والروح، وألف بين العمارة والعبادة في شمول يجعل الأمة مؤهلة لتحمل
الشهادة على الناس، وهذه مهمة «النكوص عن تحملها والقيود عن أدائها يترتب عليه
مسؤوليات جسام، ويكون سبيلا لإشاعة الفساد في الأرض، والخراب الحضاري، وظهور
الآلهة المزيفة، والأنبياء الكذبة، وعودة أصول الشر الكامن في تسلط الإنسان على الإنسان،
 وإهدار إنسانية الإنسان وكرامته، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِغُضُوبِهِمْ أُولَئِكَ بَعْضُ
الَّذِينَ يَفْعَلُونَ تَكْثِيرًا فِي الْأَرْضِ وَفَسَادًا كَبِيرًا﴾ [الأنفال: 74].⁽³⁾

فنبهت الآية إلى التضامن التام بين أعداء الإسلام، وحذرت من مخالفة هذا الأمر
بتشتيت الألفة وتقطيع الجماعة، وموالاته الكفار بدلا من موالاته أهل الإيمان، لما ينتج عن

(1) في ظلال القرآن، 5/632.

(2) التحرير والتنوير، 21/2.

(3) نحن والحضارة والشهود نعمان عبد الرزاق السامرائي. "كتاب الأمة" سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية، قطر العدد: 81، محرم: 1422هـ، الطبعة الأولى: ص: 13.

ذلك من التخاذل عن إعزاز الملة وحماية الدولة، وحفظ الهيبة، وإعلاء الكلمة... فتقوم الفتنة في أطراف الأرض بتسلط قوى الكفر والشر فيسود الفساد والعدوان ويعم البغي والطغيان في جميع أطراف البلاد. قال محمد المكي الناصري (ت: 1414هـ) رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره للآية: «إنكم أيها المسلمون إن ضيعتم الألفة التي عقدتها بينكم، وانقسمتم على أنفسكم، وواليتم أعداء الإسلام بدلا من موالاته بعضكم، وإن أهملتكم إعداد القوة اللازمة لحفظ كيانتكم والعمل المتواصل لتدعيم سلطانكم، وإن تحاذلتم عن إعزاز ملتكم وحماية دولتكم، وإن تهاونتم في السعي إلى فرض هيبتكم وإعلاء كلمتكم... تقم فتنة في أطراف العالم، وفي طليعة العالم الإسلامي وذلك لتسلط قوات الشر والعدوان في كل مكان، ولفقدان التوازن بين القوات المتطاحنة في الميدان، وهكذا يسود البغي والفساد في جميع أطراف البلاد».(1)



(1) التيسير في أحاديث التفسير، 2/350.

المطلب الرابع: الوحدة أهم وسائل الشهود الحضاري.

يقول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]. فلا بد أن تعي الأمة دورها الرسالي، وتدرك يقينا أن الخيرية منوطة بها، والشهادة على الناس أمانة في عنقها، لترتفع همم أفرادها وهيئاتها ومؤسساتها ليكونوا في مستوى المهام الجسام العظام التي رشحهم لها رب العزة سبحانه. قال طه جابر العلواني (ت: 1437هـ) رَحِمَهُ اللهُ «فهي دعوة لتحقيق غايات إنسانية مشتركة بين بني البشر جميعا تتلخص في إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».(1)

فالآية دالة على أن خيرية هذه الأمة تتمثل في أن الله تعالى أخرجها للناس لتخرجهم من الظلمات إلى النور ومن التيه إلى الرشاد، ومن الضلال إلى الهدى، فهي أمة رسالية قاصدة نفع الناس مبتغية إيصال الخير لهم، حريصة على استيعاب الآخرين بحضاراتهم المختلفة، وأنساقهم الثقافية المتنوعة، وألستهم المتباينة لإرشادهم إلى ما به نجاتهم وهدايتهم إلى ما يحقق صلاحهم، قال أبو السعود (ت: 982هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «أي كنتم خير الناس للناس، فهو صريح في أن الخيرية بمعنى النفع للناس، وإن فهم ذلك من الإخراج لهم أيضا، أي أخرجت لأجلهم ومصلحتهم».(2)

وهو المعنى الذي استنبطه الخطيب (ت: 1390هـ) رَحِمَهُ اللهُ فقال: «من رسالة هذه الأمة أن لا تحتجز الخير لنفسها، ولا تستأثر به حين يقع بيدها، بل تجعل منه نصيبا تبر به الإنسانية كلها».(3) وهذا يتطلب أن تكون الأمة الإسلامية موحدة لتتمكن من القيام بهذا

(1) من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف، ص: 247.

(2) تفسير أبي السعود، 70/2.

(3) التفسير القرآني للقرآن، 548/4.

الواجب البلاغي الحضاري، لأن المخاطب بالدعوة - أمة الدعوة - أول ما ترقبه عينه حال الداعي له، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الدال على الخير، فمهما كان حال الأمة الداعية - أمة الاستجابة - حالاً تسر الناظرين بما يجمع بين أفرادها من وشائج الحب والألفة والأخوة والمودة، كلما كان ذلك مدعاة للتأثير وعدم التنفير، والترغيب وعدم الترهيب، ناهيك عما توفره الوحدة من تمكين وحضور وقوة وظهور يكونان جسراً تعبر عليه القيم الإنسانية والخيرية لهذه الأمة لتصل إلى الآخرين ممن شملهم خطاب الوحي في غير ما آية ب: يا أيها الناس.

إن الدعوة التي تتحمل الأمة الإسلامية واجب إبلاغها لا تخص في مخاطبة بها قطاعاً من الناس دون غيرهم، بل هي دعوة لا يحجب امتدادها بعد مكان ولا عجمة لسان ولا غربة زمان، وإن وتيرة التوحد والتكتل والتكامل التي تعرفها أمة الكفر والتي تجري على قدم وساق، رغم اختلاف القوميات واللغات والثقافات والجنسيات... لإيجاد قرية كونية واحدة، ونظام عالمي واحد، وثقافة واحدة وحضارة واحدة لأدعى سبب لأن تتوحد الأمة الإسلامية لتضمن لنفسها البقاء أولاً، ولتمد أذرعها للعالم أجمع، وتحتضن البشرية جمعاء بشكل إيجابي خيري نفاع، إذ «الإسلام قد جعل من نفسه محور جذب لا محور تناذب وطردها المركزية الغربية المعاصرة، وجعل من الأمة المخرجة قطب تأليف واستيعاب تقدم نفسها للناس نموذجاً دون أن تفرض عليهم الانضمام إليها، أو تبني دينها وقيمها»⁽¹⁾.

والناظر في سياق الآيات الواردة في وصف الأمة بالخيرية، يبصر جلياً ما استهل به المقطع القرآني من أمر بالاعتصام بحبل الله، والاجتماع عليه، ونهي عن التفرق والتمزق، وتذكير بنعمة التأليف والتوليف بين القلوب المتشاحنة والأنفس المتناحرة قال تعالى:

﴿وَاغْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى

(1) من أدب الاختلاف إلى نبذ الخلاف، ص: 247.

شَقَا حُفْرَةَ مِّنَ النَّارِ فَأَنْفَذَكُمْ مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿آل عمران: 103﴾، فأتبعه بالحث على تشكل أمة داعية إلى الخير آمرة
بالمعروف ناهية عن المنكر ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿آل عمران: 104﴾ «وذلك
مما لا يتم إلا إذا كان الأمر بالمعروف قادرا على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمعتدين،
ولا تحصل القدرة إلا إذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل الحق والدين»،⁽¹⁾ فناسب أن حذر
المولى جل جلاله بعده مباشرة من اتباع أهل الكتاب فيما خالفوا فيه أمر المولى فتفرقوا
واختلفوا وأعرضوا عن الحق الذي بعث به الأنبياء ليجتمعوا عليه، قال تعالى: ﴿وَلَا
تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَبَرَّفُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿آل عمران: 105﴾. إذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقوم به أمة
قوية، وذهاب الوحدة ذهاب للقوة والشوكة، فالآية «كالدليل على أنه يجب أن تكون وجهة
الأمة الداعية الآمرة الناهية واحدة، لأن الذين سبقوهم ما أفلحوا لعدم وحدتهم، كأنه
يقول: لا يمكن أن تتكون فيكم أمة للدعوة والأمر والنهي إلا إذا اجتمعت على مقصد
واحد، فالترتيب في الآيات طبيعي، إذ من البديهي أن المتفقين في المقصد لا يختلفون اختلافا
ضارا ينافيه». ⁽²⁾

والمعنى أن الأمة لن تتأهل لهذه المهمة العظيمة الجليلة إلا بأن تلم شعثها وتجمع
شملمها وتوحد صفها، وتحدد قصدها السامي العالي الذي به استحققت الخيرية ففضلت على

(1) تفسير الرازي، 8/184.

(2) تفسير المنار، 4/48.

الأُمم وسادت أعالي القمم، وهو «دعوة سائر الأُمم إلى الخير وأن يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى».(1)

وهذه الوظيفة العالية والمهمة السامية سياج يقي وحدة الأمة ويضمن دوامها وبقاءها واستمرارها، قال محمد رشيد رضا (ت: 1354هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «فالواجب دعوة الناس إلى الإسلام أولاً، فإن هم أجابوا أمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر، قال: وأما كون هذا حفاظاً للوحدة ومانعاً من الفرقة فهو أن الأمة إذا اجتمعت على هذا المقصد العالي الشريف وهو أن تكون مهيمنة على الأُمم كلها ومربية لها ومهذبة لنفوسها، فلا شك أن جميع الأهواء الشخصية تتلاشى من بينهم، فإذا عرض الحسد والبغى لأحد من أفرادهم تذكروا وظيفتهم العالية الشريفة التي لا تتم إلا بالتعاون والاجتماع، فأزالت الذكرى ما عرض، وشفّت النفوس قبل تمكن المرض».(2)

وخلاصة القول في قضية أهمية وحدة الأمة الإسلامية أجملها في النقاط الآتية:

أ- إن وجوب وحدة الأمة الإسلامية مما تضافرت نصوص الوحي على تأكيده، وتنوعت أساليب الخطاب القرآني في الدلالة عليه؛ أمراً به، وترغيباً فيه، وترهيباً من الفرقة، وتحذيراً من نزغات الشيطان ومكايد جنده ممن يسعون إلى شتات الأمة وتمزيق لحمتها، ومع التدليل والتفصيل القرآني، تأتي مواطن التعليل بذكر بعض مقاصد الوحدة وثمراتها وحسن مآلاتها، وكذا التذكير بمفاسد الفرقة وتبيين وخيم عواقبها وأضرارها.

ب- إن وحدة الأمة الإسلامية من أجل مقاصد الشريعة الإسلامية، فكما أن غاية البعثة والرسالات توحيد الله تعالى، فمن مقاصد هذا التوحيد؛ توحيد الأمة وتأليف صفها، وهذه الوحدة من المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، وهي مقصد شرعي معتبر دلت عليه نصوص القرآن الكريم دلالة قاطعة، بل قد ورد الحث

(1) المصدر نفسه، 28/4.

(2) تفسير المنار، 28/4.

على الوحدة في الشرائع كلها؛ وصية واحدة وصى الله بها جميع أنبيائه ورسله أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه، فالوحدة مقصد كلي عام ومشترك بين الرسائل السماوية، وهو أسّ الغايات، وأصول الشريعة وتفصيلها دالة عليه لمن تدبر أحكامها وفقه قيمها.

ج- إن وحدة الأمة الإسلامية ذات أبعاد ومقاصد حضارية وعمرانية، إنسانية وعالمية، فالأمة الإسلامية أمة مسؤولة، حُمِلت أمانة هذا الدين، وحملت على عاتقها إنقاذ البشرية من الجاهلية العمياء، وهي أمة ابتعثها الله لتخرج العباد من عبادة العباد والهوى والشیطان إلى عبادة رب العباد، ولتحرر الإنسانية من أسر المادية والمتع البهيمية لتتذوق حلاوة الإيمان والطاعة... وهذه مقاصد جليلة لن تبلغها ما لم تجمع أفرادها وحدة ناظمة وألفة رابطة، وهذا ما يحقق لها تميزا حضاريا وشهودا إنسانيا، فيسود نظام الإسلام وقيمه الإنسانية والأخلاقية، وتبلغ الأمة مقصد إخراجها للناس داعية إلى الخير آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر.

وبعد هذا الفصل التعريفي بأهمية وحدة الأمة، يحسن الحديث عن وسائل تحقيق هذه الوحدة، ومقاصد الشرع الحكيم في الحث عليها والعناية بها، وهو ما سأتناوله بالدراسة في الفصل الثاني من هذا الباب.

الفصل الثاني :

سبل وحدة الأمة الإسلامية

☐ ومقاصدها.



☐ وفيه مبحثان:



✓ المبحث الأول: سبل تحقيق وحدة الأمة. ☐

✓ المبحث الثاني: مقاصد وحدة الأمة. ☐

توطئة

من باب التكميل لما سبق بيانه في الفصل الأول من أهمية وحدة الأمة، يأتي هذا الفصل التالي ليجلي السبل التي دلنا عليها الشارع الحكيم لتحقيق تلكم الوحدة، وهذا من رحمة الشريعة؛ أن شرعت الأحكام وأمرت بالتكاليف، ودلت المكلفين على أيسر ما يعينهم على تحقيق ذلك وبلوغه، ومن حكمتها وإحسانها أيضا أن جعلت لما كلفت به وشرعت من الأحكام مقاصد وغايات، وهذا في عموم التشريع وتفاصيل أحكامه، ووحدة الأمة باعتبارها واجبا شرعيا ومقصدا قرآنيا، قد بينت الشريعة من الوسائل والسبل ما يوفق الأمة لتحقيق هذا الفرض وإقامة هذا الواجب؛ رحمة منه سبحانه ونعمة، كما بينت بعض مقاصد هذا الفرض وبعض ثمراته وغاياته، وهو مما يزيد الأمة حرصا على حفظ جماعتها وألفتها، ورعاية وحدتها. وهو ما سأبين بعض معانيه في مباحث هذا الفصل بتوفيق الله.

المبحث الأول سبل وحدة الأمة الإسلامية

المطلب الأول: الدعوة إلى الله.

إن الأمة الإسلامية هي الأمة الواحدة والوحيدة التي تدين بدين عالمي واحد هو الإسلام، وهذه الأمة منوط بها الانطلاق نحو دعوة غيرها من الأمم على اختلاف نحلها ومللها ومذاهبها، فالمسلم يستشعر عالمية رسالته، وهو الإنسان الذي يكسر أسر الانتماء المحدود بمحدود اللغة والأرض والعرق والجنس والهوية، ويسعى ليصهر ذلك كله في بوتقة الأمة الواحدة، ووسيلة ذلك الدعوة إلى الله، ودلالة الناس على منهج الله، وإرشادهم إلى شرعه ودينه، وتبليغهم رسالته، وتلكم وسيلة وغاية، وذريعة ومقصد، تتحقق بفضل الله وعونه إذا كان الدعاة إليها والعاملون لها يشكلون جبهة قوية متماسكة، قادرة على البلاغ، يجد الفرد فيها أعوانا، ويلقى في طريقه إليها إخوانا وخلانا.

وقد نطق القرآن الكريم بما دل على أن الدعوة تحتاج إلى سند وأزر، فقال سبحانه حكاية لقول موسى عليه السلام حين أرسله ربه إلى فرعون وملئه داعيا مبلغا، وقد آتاه الآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة، ⁽¹⁾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يُفْتُلُونِ﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: 33-34]. ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي﴾ يَفْفَهُوا فَوَلِي ﴿وَاجْعَلْ لِّي

(1) قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلِيَّ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسِّي أَفِيلٌ وَلَا تَخَفِ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ أَسْلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَنَتِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ مُرْعَوٍ وَمِلَإِيَّةٍ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيفِينَ﴾ [القصص: 31-32].

وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِهِ ﴿٢٨﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٢٩﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣٠﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣١﴾
[طه: 25-31].

قال ابن كثير: «أي: وزيرا ومعينا ومقويا لأمري، يصدقني فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل، لأن خبر اثنين أنجع في النفوس من خبر واحد»،⁽¹⁾ ولأن الرسالة تكليف ضخمة شاق متعدد الجوانب والتبعات، متشعب المهام والمسؤوليات، يحتاج صاحبه إلى سند ومعين، وولي ونصير، قيض الله لأنبيائه ورسله أعوانا على الخير، وأنصارا على الدعوة، فشد عضد موسى بأخيه هارون، وأجاب دعوته، ولبى طلبته وأشركه في أمره وشأنه. قال جل جلاله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلَ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: 35]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ فَذُوتِ سَوْأَكَ يَلْمُوسَى﴾ [طه: 35].

وهيا الله لنبيه عيسى عليه السلام حواريين يؤازرونه في دعوته، وينصرونه في مسيرته، قال الله تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنِ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [الصف: 14]، ونصرة الله إنما هي نصر دينه، ونصر دينه لا يكون إلا بالمعونة على إقامته ونشره والدعوة إليه، والأخذ على يد من يريد صده وإطفاء نوره، وتحقيق ذلك لازمه تحقيق أمة مجتمعة على الحق مؤمنة به داعية إليه مدافعة عنه، منها يشع نور الهدى وضياء الرشاد في دروب الضلالة والغواية.

وهذه الأزرية لدعوة الحق بالثلة المؤمنة الصادقة المؤتلفة وردت الإشارة إليها في مواطن أخرى، كما في قوله تعالى عن رسول هذه الأمة وإمام الأنبياء والرسول: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرِيَهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ

(1) تفسير ابن كثير، 236/6.

وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ، فَنَارَزَهِ، فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْفِهِ، يُعْجَبُ
الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا ﴿[الفتح: 29]﴾. (1)

فهذه المعية - والذين معه - هي بين أهل الإيمان قائمة على الرحمة واللين مما يولد
التلاحم والتلاؤم، وبند الفرقة والتشاحن، وهي مع أهل الكفر من البغاة المعتدين، والطغاة
الظالمين قائمة على الشدة والرغبة والعزة والرجفة، (2) قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

لقد جعل الله لأنبيائه أنصارا يؤمنون بهم، ويعتقدون فيما أنزل إليهم، ويحملون لواء
الدعوة إلى هديهم، والذود عن دينهم، متحلين بقيم الإسلام، معتزين بمبادئ الدين، يشكل
بعضهم لبعض سندا ومستندا، ودعامة ومرتكزا، ينأى كل فرد منهم عن أذية أخيه المسلم
تحصينا له، وتمتينا لرابطة المحبة والأخوة معه، وتقوية له لأداء المنوط بهم، وضمانا لأن يجد
كل واحد منهم عوناً وعدة في طريق الدعوة.

(1) قال محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله: "ومعنى هذا التمثيل تشبيه حال بدء المسلمين ونمائهم حتى كثروا وذلك يتضمن
تشبيه بدء دين الإسلام ضعيفا وتقويه يوما فيوما حتى استحکم أمره وتغلب على أعدائه. وهذا التمثيل قابل لاعتبار تجزئة
التشبيه في أجزائه بأن يشبه محمد صلى الله عليه وسلم بالزارع كما مثل عيسى عليه السلام في الإنجيل، ويشبه المؤمنون
الأولون بحبات الزرع التي يبذرهما في الأرض مثل: أبي بكر وخديجة وعلي وبلال وعمار، والشطء: من أيدوا المسلمين فإن
النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى الله وحده وانضم إليه نفر قليل ثم قواه الله بمن ضامن معه". (التحرير والتنوير، 209/26-
210).

(2) المسلمون أشداء مع المحاربين لا يلبنون لأنهم يحاربون دين الله، فلا ملاينة ولا رحمة في ذلك، إلا ما كان من أخلاقيات
الجهاد وآدابه مما دلت عليه النصوص الشرعية، أما من كان بينه وبين المسلمين صلح أو عهد أو سلم، فهم على أصلهم من
كونهم أهل دعوة نرجو إيمانهم ورجوعهم إلى الحق، ومعاملتهم بالبر والقسط أمر لازم، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَيْكُمُ اللَّهُ عَنِ
الَّذِينَ لَمْ يَفْتَرُوا عَلَيْكُمْ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: 8].

فمقام الدعوة إلى الله مقام يحتاج فيه الداعي إلى قوة تسنده، وتشد عضده: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: 35] وكلما زاد الجمع اشتد الأثر والوقع. فقد يكون المرسل إليهم من أهل العتو والطغيان والتجبر فيحتاج الأمر إلى دعوة جماعية، وجماعة رسالية، تقوم بهم الحجة ويصدق بعضهم بعضا، كما هو الحال في أهل القرية التي كذبت رسولين فزيد ثالث، قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٢﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ ابْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يس: 12-13]، وانضم إلى الثلاثة رجل من أقصى المدينة أتى ساعيا داعيا ﴿وَجَاءَ مِنْ أَفْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَفْقَوْمُ ابْتِغُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤﴾ ابْتِغُوا مَنِ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس: 19-20]، وفي ذلك ما فيه من تقوية الحق ونصرته وحسن الدعوة إليه. فكيف إذا استشعر كل فرد هذه المسؤولية، فكانت الدعوة همه وغايته؛ لتوحدت إذا المقاصد ولتحققت الغايات والمراشد.

إن اجتماع الأفراد بصورة متحدة متفقة يكون ضروريا كلما كانت مهمة الدعوة جسيمة، وجلي في هذا العصر ما تواجهه الأمة الإسلامية من تحديات على مختلف الأصعدة التربوية والتعليمية والاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية والاقتصادية، وما تعانيه من تكتلات للقوى المعادية لا يغني معها جهد فردي وعمل انفرادي ودعوة آحادية،⁽¹⁾ وهذا المعنى يتعزز بالآيات الكثيرة التي ورد الخطاب القرآني فيها بصيغة الخطاب الجماعي دلالة

(1) لا يعني هذا أن الجهد الفردي والدعوة الفردية لا تثمر نتائج إيجابية، إلا أن هذه الجهود لا ترقى لوحدها إلى مستوى ما تحتاجه الأمة من قوة ومنعة تضمن مناعتها، وتحفظ سلامتها، وتحقق آمالها، وتبلغ رسالتها.

منه على أهمية الاجتماع في كل تلكم الأحكام،⁽¹⁾ ومن جملتها أمر الدعوة إلى الخير
العلام.

إن الدعوة ليست محصورة في حيز ضيق أو مجال معين، بل هي ميدان رحب تتعدد
وسائلها وتتنوع أساليبها وتختلف مجالاتها، فلا بد من جهود متكاثرة ومجهودات متكاثرة
لترقى إلى مستوى متطلبات الواقع وحاجيات الناس، وتقدر على تحقيق التوازن والتدافع
السني الكوني، فالداعية مهما تعددت مواهبه تكون قاصرة عن الإتيان في كل مجال،
والإبداع في كل سجال، فذاك يتقن الخطابة ويحسنها، وهذا يستطيع الكتابة ويحيدها، وذلك
ينشر العلم ويعلمه، وذاك يعنى بالعمل السياسي والانخراط الحزبي، وآخر يبدع في العمل
الاجتماعي الإحساني، وذاك يهتم بالدعوة والتبليغ وأولئك لهم في الإعلام باع، وفي إتقان
الموضوعات والملفات ذراع... فيستفرغ كل وسعه ويكمل أخاه وصاحبه، وكل ميسر لما
خلق له. قال طه جابر العلواني رَحِمَهُ اللهُ: «إن اكتشاف صيغة العمل الجماعي في إطار
"وحدة الأمة" صار ضالة المسلم... وبه تتحقق حالة الانتماء إلى الأمة كلها ويحال بينها وبين
عوامل الفرقة أن تمزق وحدتها».⁽²⁾

إن التعاون في سبيل الدعوة، واستثمار الإمكانيات، والإفادة من التجارب، وتبادل
الخبرات، يحقق من الأهداف والغايات ما لا تستطيع بلوغه جهود الأفراد والآحاد متناثرة
متغايرة حتى وإن كانت متكاثرة، وقد قال جل جلاله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ
وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 3]، ولا ريب أن الدعوة إلى الله من أحسن

(1) إن صيغ الخطاب الجماعي في القرآن أكثر من أن تحصى في هذا البحث، والقارئ للقرآن المتدبر له يقف على تلكم
الآيات التي قد لا تخلو منها صفحة من صفحات المصحف، وتثيلاً أذكر الأمر بالجهاد والقتال والأمر بالمعروف والإيمان
والاتفاق وإقامة العبادات...

(2) الأزمة الفكرية ومناهج التغيير الآفاق والمنطلقات لطله جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، طبعة: 1401هـ -
1981م، ص: 136.

البر، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33]. فحمل راية البر والتقوى والدعوة إلى الخير بصورة جماعية موحدة مما يهون الأمر وييسره، وتكون به قوة يسري مفعولها، ويظهر تأثيرها، وهذه أمور مشهودة معلومة. فلا يخفى على ناظر إلى الساحة الدعوية ما حققته كثير من الجماعات الإسلامية من هداية وإصلاح بفضل جهود متكاتفة ودعوة جماعية، فكان لها ضغطها الاجتماعي، الذي مكنها من مدافعة طوفان الانحراف الذي عجت به بلدان إسلامية عدة، بل كان لدعوة هؤلاء تأثير حتى على القوى السياسية الكبرى وبلغت في بعض البلاد العربية إلى مراكز القرار كما شهدت به انتخابات ما بعد الحراك العربي لولا مؤامرات عسكرية وتدخلات أجنبية.



المطلب الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [النوبة: 72]، فالمؤمنون أمة متناصرة متعاضة متآخية، تتكاتف جهودها وتتكامل قواها نصرة لقضيتها ورسالتها ومقصد إخراجها، وهو الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وهو أمر يحتاج إلى ولاية وتعاون، ونصرة وتضامن.

قال سيد قطب (ت: 1385هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة. طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون. ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفا واحدا، لا تدخل بينها عوامل الفرقة. وحيثما وجدت الفرقة في الجماعة المؤمنة فثمة ولا بد عنصر غريب عن طبيعتها، وعن عقيدتها، هو الذي يدخل بالفرقة. ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها. السمة التي يقررها العليم الخبير!». (1)

فهم أولياء بعض يتناصرون ويتآزرون، ويتوجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإعلاء كلمة الله. وقد أعقب النص القرآني هذا الوصف لهم بالولاية لبعض، بإقامة الصلاة، وهي الركن الذي به تقوية الصلة مع الله، وتحقيق روابط التعارف والتآلف مع عمار بيوت الله، ثم فرض الزكاة وهي الفريضة التي تربط أفراد المجتمع المسلم، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتراحم، ثم تلا ذلك قوله سبحانه: ﴿وَيُطِيعُونَ

(1) في ظلال القرآن، 3/1675.

اللَّهُ وَرَسُولَهُ ﴿١﴾ «فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله، ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله... وبذلك يوحّدون نهجهم ويوحّدون هدفهم، ويوحّدون طريقهم، فلا تتفرّق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم»⁽¹⁾.

فهذه أحكام وأوصاف تحمل في دلالاتها ومقاصدها روح الاجتماع والاتفاق والائتلاف، وهي بذلك عوامل مساعدة على إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دلت عليها لواحق النص القرآني دلالة كافية لمن تدبر وتأمل.

هذه الجماعة المؤتلفة المتفقة بهذا الوصف القرآني لما يقوم بينها من تواص بالحق، وتناه عن الباطل، وتراحم مادي ومعنوي، وتعارف قبائلي وإنساني، تشكل بنية اجتماعية متماسكة متناصرة هي من تستحق رحمة الله، وبذلك جاء الخبر في خاتمة الآية: ﴿وَأُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 72]. وقد قال جل جلاله مثبتا استحقاق رحمته لمن نأى عن الاختلاف وأسبابه والتنازع وعلاته: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: 118].

وقبل آيات الولاية بين أهل الإيمان بآيات قليلة، وردت آية تتحدث عن المنافقين والمنافقات كيف يجتمعون على الإفساد ويتعاونون على الشر وإشاعة المنكر والفساد، فقال سبحانه: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: 67]، فكما أن المنافقين والمنافقات، والفاسقين والفاسقات، والفاسدين والفاسدات، يجتمعون على إفساد المجتمع ونشر الرذائل والمنكرات فيه، فيجب على الصالحين والصالحات، والعابدين والعبادات، والخيرين والخيرات، والصادقين

(1) في ظلال القرآن، 3/1675-1676.

والصادقات، أن تجتمع جهودهم في تنظيم يحقق رسالة الإصلاح والدعوة والصلاح بإشاعة الخير والأمر به، ومحاصرة المنكر والنهي عنه. والسياق القرآني في غاية الإيجاء بذلك، مفهومنا من ثنايا الحديث عن المنافقين نشرًا لأوصافهم وإخبارًا عن أفعالهم، وإعلامًا بتصرفاتهم، ومنطوقًا في أثناء الكلام عن المؤمنين والمؤمنات على اختلاف صفاتهم ودرجاتهم.

ويؤكد هذا المعنى حضور لفظ الأمة - بدلالته على الجماعة - في مقامات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ رِجَالٌ مُدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 105]، وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: 110]، وقوله سبحانه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٢٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 113-114].

فدلالة الاقتران بين فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين لفظ الأمة تنبيه وإيماء إلى أن هذا الأمر يحتاج فيه المسلمون إلى تشكيل جماعة وأمة، ويتأكد هذا المعنى بتكرار الارتباط في الآيات الثلاث بين مصطلح الأمة وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فوجود الأمة وجود دعوي، وإخراجها إنما كان لتحقيق هذا الفرض والاضطلاع بهذه المهمة، لأنها أمة رسالية وجماعة تبليغية، وهذا ما يعلل الاقتران بين الأمرين □ فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبين الأمة □ في النصوص القرآنية، والتنقيص في بعض

الآيات على ركن الإيمان بالله وبصيغة الجمع ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ مثبت لهذا المعنى مؤكداً لهذا القصد، إذ وجود الأمة وحفظ كينونتها وضمان استمراريتها رهين بإقامة هذه الفريضة، وإلا اندثرت معالم الدين وتلاشت مبادئ الشريعة، وانسلخت القلوب عن آيات الله، وصار الناس إلى أهواء تتوزعهم، وشهوات تتخطفهم، وشبهات تضلهم، وتلك بداية الزوال، ومطلع الزيغ واليه والضللال، ويزيد من تأكيد هذا المعنى وذاك الاتصال بين الأمة وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صيغ التعبير الدالة على الجمع والجماعة كما في قوله سبحانه: ﴿التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّابِقُونَ السَّاجِدُونَ الْفَائِزُونَ الْمُضَيَّقُونَ الْبَائِسُونَ الْهَارُونَ الْمُطَوَّاتُونَ الْمُرْتَجُونَ الْمُكَرَّمُونَ الْمُغَيَّرُونَ الْمُتَوَدِّعُونَ﴾ [التوبة: 113]. وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَخَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ غَلْفَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَّبِعُوهَا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 123].

ولا يخفى ما في صيغة ﴿الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُ...﴾ ولفظ ﴿الَّذِينَ﴾ من الدلالة على الجمع والجماعة، وما يفيد لفظ الطائفة من معنى الجماعة من الناس،⁽¹⁾ فالصيغة اللغوية والسياق القرآني دالان على أن الأمر والنهي والدعوة والإنذار تقوم به الجماعة والطائفة وتتصدى له، وإن كان واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه.

(1) لسان العرب، 226/9.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منبعه امتثال أمر الله، وتفعيل مبدأ حب الخير للغير، وهما وسيلة تحقيق الوحدة، والحرص على لبنات المجتمع وبنیان الأمة من أن يتهاوى أو يتلاشى، والإبقاء على السفينة حتى ترسو بأهلها وتنجو بركابها وتبلغ بهم بر الأمان.

المطلب الثالث: درء الفتنة والشقاق.

إن تشقيق الأمة والتغريب باجتماع كلمتها مقصد شيطاني ومبتغى إبليسي، حذر منه القرآن الكريم كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا أَلَيْسَ هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: 53]. فالشيطان حريص على الإفساد بين المسلمين، مطلق للسمع، متربص بالجمع، ملتمس للسقطات، متصيد للعثرات، مقتنص للفلتات من العبارات التي يستطيع أن يهيج من خلالها نيران العداوة، ويزرع بذور الفتنة، وينثر حبات الشر، فينزاع عن المؤمنين رداء الأخوة وثياب الألفة وغطاء المحبة، ويكشف عوراتهم لأعدائهم بما يحدثه من شر ووقية، وضرر وخصومة، وحرب ومقاتلة. وفي قصة يوسف وإخوته شاهد حق، ولذلك حذر المولى جل جلاله من كيد، وسوء تدبيره، ومغبة تخطيطه، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6]. فحرصا منه سبحانه على حفظ سياج الأخوة والألفة، وحصن المودة والمحبة من أن تخترقه الآفات وتعتوره العلل، ورد هذا التحذير والتنفير، وبيان سوء المآل والمصير. فكانت الأساليب الخطائية القرآنية في الآية من سورة آل عمران كلها تأكيداً لهذه الوحدة وبياناً لكون الألفة سبيلاً لحفظ اللحمة، والوقاية من أسباب التفرق والنزاع، قال جل جلاله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 103].

فالاقتران بين هذه الأمور - الأمر بالاعتصام بحبل الله والنهي عن التفرق والتذكير بنعمة التأليف بين القلوب - له اعتباره في هذا المقام، وله دلالة في هذا السياق القرآني.

وقد ورد تفريق الجمع وتشيت الشمل في معرض الذم بيانا لكيد أعداء الحق وخصوم الهدى والإيمان، كما في قوله تعالى في سورة التوبة، وصفا لممارسة نفاقية في مظهر تعبدى قصد من ورائها الكيد بالجماعة المؤمنة والنيل من وحدتها؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيفًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِّنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفُوا إِنَّا لَآرِدُنَا إِلَّا بِالْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 108]، فلما كان القصد من إنشاء البيت واتخاذ المسجد مناف لقصد الشارع، بل مناقض له، ذم الشرع هذا الصنيع وفضح فاعليه فيما زعموه من ابتغاء الصلاح والرفق بذوي الأعداء.

كما حكى الله من خبر الخطة الفرعونية ما يثبت هذا المعنى ويشير إليه، إذ لما أحس الطاغية بخطر أمة اليهود على عرشه وملكه، وكانوا جماعة كبيرة ولم يستطع طردهم، لجأ إلى وسيلة إضعافهم وطريقة إفشالهم بتفرقة أمتهم وتمزيق ألفتهم، تحريشا وتحجيشا لبعضهم على بعض. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 3].

قال ابن عاشور: «جعل أهل بلاد القبط فرقا ذات نزاعات تتشيع كل فرقة إليه، وتعادي الفرقة الأخرى ليتم لهم ضرب بعضهم ببعض، وقد أغرى بينهم العداوة ليأمن تألبهم عليه»⁽¹⁾. فلما أمكن من ضعفهم، وتيقن من شتاتهم وفرقتهم، وجعل بأسهم بينهم، كان منه ما كان من استضعافهم، وتذبيح أبنائهم واستحياء نساءهم.

(1) التحرير والتنوير، 67/20. سار كثير من الطغاة هذه السيرة، فتمكينا لعرشه وتثبيتا لكرسيه يقسم البلاد على أسس حزبية أو عرقية أو عصبية أو جغرافية، ويوقع التنافس بين أهلها ليشغلوا ببعضهم وينهمكوا في خلافاتهم.

فالنزاع بين الأولياء والأصفياء مطلب الأعداء، وبث الفرقة وسيلة قديمة من وسائل سيطرة الجبابرة والظالمين، يسعون إلى نشر ما يحدث الشقاق والكراهية، ويثبون ما يثير النعرات والعصبية، ويزرعون الضغائن والأحقاد بتقديم هؤلاء وتأخير أولئك، وإكرام هؤلاء وإهانة أولئك، والإغداق على هؤلاء دون أولئك، بلا حق سوى حميات الجاهلية حتى يعيش أقوامهم أو مستعمراتهم في جو من الفرقة والاختلاف، لا يجمعهم ائتلاف ولا وئام، ولا يَصْفُهُمْ اتفاق ولا التئام، كل يرقب مصلحته الشخصية ولو على حساب إخوانه وبني عشيرته وقبيلته ودولته.

إن التنبيه القرآني واضح على هذا المخطط العدائي والمؤامرة الكيدية لمن قصد أمة موحدة قوية متماسكة، ورام زلزلة صلابتها وتفتيت مكانتها وتشظية كتلتها، ولذلك أخبر القرآن عن مخططات حركة النفاق وتنظيم الشقاق؛ ففي غزوة تبوك مثلاً، لما عسكر رسول الله ﷺ على ثنية الوداع، وعسكر عبد الله بن أبيّ في ضاحية بالمدينة متخلفاً بمن معه من المنافقين وأهل الريب، نزل القرآن يصف صنيعهم، ويحكي قولهم، ويفضح دسائسهم، ويخبر عن أحوالهم النفسية، ويكشف حقيقة نياتهم وحيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد⁽¹⁾ وبث الضعف والفتنة والفرقة في الصف، وإيذاء رسول الله ﷺ والخلص من المؤمنين؛ قال تعالى: ﴿بَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْهَرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ

==وعلى هذا النهج تسير الدول الغاشمة والأمم الظالمة المستعمرة، إذا استولت على غيرها من الدول سعت فيها حثيثاً بالتقسيم والتقطيع إلى أمم وطوائف على أسس عنصرية تلهب نار العداء وأجاج الخصام.

(1) وأخذ أقوام يقولون لبعضهم: "لا تنفروا في الحر". وجاء آخر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ائذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدّ عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه رسول الله وأذن له فيما أراد". قال جل جلاله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِذْنٌ لِي وَلَا تَفْتِنَنِي إِلَّا فِي الْهَيْئَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 49]. ينظر: فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة

الراشدة لمحمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ودار الفكر، دمشق، سورية. الطبعة الحادية عشر:

1412هـ - 1991م. ص: 295.

حَرَّاءٌ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ [التوبة: 81]. «ويصاحب هذا الكشف تحذير الخلصاء من المؤمنين من كيد المنافقين، وتحديد العلاقات بين هؤلاء وهؤلاء، والمفاصلة بين الفريقين وتمييز كل منهما بصفاته وأعماله». (1)

والم تأمل في سورة التوبة يرى اهتماما كبيرا بهذه الفئة المفرقة لصف المؤمنين وجموع الموحدين وذكر لسيماهم، وتفصيلا لتدليسهم وتلبسهم، وفضحا لأكاذيبهم وخططاتهم. (2)

وذلك لأن المسلمين لا يُؤْتَوْنَ في أغلب ما يصيبهم من نكبات وما ينزل بهم من مدلهمات إلا من قبلهم، فلا يتسنى لعدوهم أن ينال منهم إلا من خلال ثغرات النفاق ومنافذ المنافقين، ولا ينخدع أهل الإسلام بأحد انخداعهم بالمنافقين، ولا تصيبهم بليات الضعف والخبال والتمزق إلا من جهتهم. وقد صدق الله إذ يقول سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَافَكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلِيتَةً وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 47]. قال البغوي في تفسير قوله: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَافَكُمْ﴾: «أسرعوا وسطكم بإيقاع العداوة والبغضاء بينكم بالنميمة ونقل الحديث من البعض إلى البعض». (3)

قال القرطبي: «الخبال: الفساد والنميمة، وإيقاع الاختلاف والأراجيف... والخلل: الفرجة بين الشيئين، والجمع: الخلال: أي الفرج التي تكون بين الصفوف، أي: لأوضعوا خلالكم بالنميمة وإفساد ذات البين». (4)

(1) في ظلال القرآن، 1/1567.

(2) تنظر الآيات من: 42 إلى 90.

(3) تفسير البغوي، 4/56.

(4) تفسير القرطبي، 10/230.

فهذه مفاصد كانت ستترتب عن خروج هؤلاء المنافقين مع المؤمنين وهي: إحداث الفوضى والاضطراب في صفوف الصفوة المجاهدة، وإشاعة الوشايات والنمائم الكاذبة، وقذف شرارت الشر والضرر، والتشكيك في وعد رب العالمين، وكلها وسائل لتفريق الكلمة وإحداث الشقاق والنزاع وتثبيط العزائم القوية. فهم حريصون على السعي بالفتنة بين المؤمنين، وتفريق جماعتهم، وإلقاء العداوة بينهم، وإضعاف قوتهم. فكان من نعمة الله أن ثبط هؤلاء المنافقين عن الخروج مع الجيش عناية منه سبحانه بالجماعة المؤمنة المتحدة في عقيدتها، الموحدة في مقصدها وغايتها، إذ مكن الخطر فيهم أنهم يحاربون الإسلام باسمه، ويكيدون له بسلاحه، ويخربون بيته من داخله، ويهدون بنيانه من أساسه. تلك الركيزة الأساس التي يعتمد عليها أهل النفاق لبسط نفوذهم، وتدعيم قوتهم، لإدراكهم أن قوة الأمة في وحدتها واتفاق صفها، ولقناعتهم أن الفرقة والشقاق سبيل التمكين للكفر والنفاق، لذلك كانوا دائما متربصين بأهل الإيمان، مترصدين لمقاتلتهم ونقاط إفشالهم، وأول ذلك شق اجتماعهم.

وشواهد السيرة التي ذكرها القرآن الكريم وخلد أحداثها ليتعظ بها من سار على منهج الأنبياء كثيرة، ففي غزوة أحد انسحب عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الجيش، معللا بعدم وجود قتال، ولكن النية المبيتة كانت إضعاف روح الجيش القتالية في بداية المعركة، وتجزئة قوتهم بإيقاع الفرقة بينهم والله أعلم بما يبيتون.⁽¹⁾ قال تعالى: ﴿وَفِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَلْتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ إِذْبَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ فِتْنًا لَا تَبْعَنَكُمُ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ

(1) قال ابن إسحاق: "حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد، انخزل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، أخو بني سلمة، يقول: يا قوم، أذكركم الله ألا تخلوا قومكم ونبيلكم عند ما حضر من عدوهم، =فقالوا: لو نعلم أنكم تقتلون لما أسلمناكم، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال. قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم، قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه". (سيرة ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان. 64/3).

مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧٧﴾ [آل عمران: 167]، فانشقاق المنافقين عن جيش المسلمين في أخرج اللحظات والمواقف وأكثرها خطورة ووعورة، محاولة للتخطيط والتنسيق مع اليهود لزعزعة قوة المسلمين، وجعل الضعف والوهن يدبان إلى نفوسهم، وهذا الموقف المتخاذل والمكر المتداول، هو الذي كان منهم أيضا في غزوة الخندق حيث نكصوا عن المشاركة في حفر الخندق، ولم ينضبطوا في صف المسلمين وسعوا إلى نشر التخاذل بين المجاهدين، قال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّفِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا فَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 18]. (1)

قال الطبري: «قد يعلم الله الذين يعوقون الناس منكم عن رسول الله ﷺ، فيصدونهم عنه، وعن شهود الحرب معه؛ نفاقا منهم وتحذيرا عن الإسلام وأهله». (2) فالتعويق عن سبيل الله، والتثبيط عن الجهاد وإعلاء كلمة الله، وتوهين الجماعة المؤمنة بالله وتفريق معسكرها، غاية لأعداء الله، ومقصد لخصوم دين الله.

لقد كان من نعمة الله أن ثبط هؤلاء المنافقين عن الخروج مع الجيش -كما في غزوة تبوك-. عناية منه سبحانه بالجماعة المؤمنة المتحدة في عقيدتها الموحدة في مقصدها وغايتها كي لا تتسرب إليها عوامل الشقاق ومخططات النفاق، فعلى أهل الإسلام أن يتيقظوا لهذا الأمر حتى آخر الدهر -فهى سنة ماضية- فيستبعدوا في المواقف الحاسمة والمواقع الفاصلة؛

(1) روى ابن هشام في سيرته موقف المنافقين من العمل في الخندق فقال: "فلما سمع بهم - أي بالأحزاب - رسول الله ﷺ، وما أجمعوا له من الأمر، ضرب الخندق على المدينة، فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيبا للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا، وأبطأ عن رسول الله وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورون بالضعيف من العمل، ويتسللون إلى أهلهم بغير علم من رسول الله ﷺ، ولا إذن. وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النابذة، من الحاجة التي لا بد له منها، يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللحوق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله، رغبة في الخير واحتسابا له". (سيرة ابن هشام، 216/3).

(2) تفسير الطبري، 50/19.

المنافقين والمرجفين والمتخاذلين لأن وجودهم آئذ لن يزيدهم عددا ولا مددا، بل ينعكس عليهم ضعفا ووهنا، وتخاذلا وتفرقا، إذ «القلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش؛ ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم، بل ل زادوهم اضطرابا وفوضى. ولأسرعوا بينهم بالوقعة والفتنة والتفرقة والتخذيل». (1)



(1) في ظلال القرآن، 10/1663.

المبحث الثاني مقاصد وحدة الأمة.

المطلب الأول: تحقيق القوة.

كل من يحاول استقصاء مصطلح الفشل في القرآن الكريم، وتتبع مظاهره في تاريخ المسلمين، سيلاحظ أن أولى أسبابه وأعظم علته ما وقع في الأمة الإسلامية من تنازع؛ إن في الرأي أو الأمر أو طاعة ولي الأمر؛ لذلك أولت نصوص القرآن هذا الأمر عناية بالغة، وحددت هذه الأسباب ونصت عليها، وقِيّمت بعض التصرفات والمواقف التي صدرت من خيرة القرون ليعتبر بذلك من يأتي بعدهم ممن هو دونهم، بل إن حقيقة الفشل ومظاهره لا يمكن تصورهما إلا باعتبارها انعكاساً طبيعياً لظاهرة التنازع باتباع الأهواء وغلبة البغي والظلم.

ولذلك كان من وسائل تحقيق الوحدة نبذ التنازع لما يفضي إليه من نتائج سلبية، ويؤدي إليه من عواقب سيئة، وعلى رأسها فشل الأمة الإسلامية، وذهاب قوتها، وخور طاقتها، وقد دل على ذلك شاهد حق وواقعة صدق نقلها القرآن الكريم بيانا لأثر المخالفة والاختلاف في صفوف الأمة وجندها، والتنازع في معسكرها، بما حل بالمسلمين في غزوة أحد، بعد أن رأوا من النصر ما يسرهم، وكانت الدولة والغلبة لهم، فتنازع الرماة الذين أمرهم الرسول ﷺ ألا يفارقوا مكانهم، وغادر كثير منهم موطنه ظناً منهم أن المعركة قد أوشكت على الانتهاء بانتصارهم وفوزهم، فسعوا نحو الغنائم. وقد وصف الله عز وجل هذه المخالفة عن الخطة العسكرية تحت مطارق الطمع في عرض الدنيا الزائل، وما آلت إليه المواجهة بسبب ذلك الخلل في الصف، والغش في الهدف والقصد، فضعف فريق من الرماة أمام إغراء الحياة وزينتها، ووقع النزاع بينهم وبين من يرون الطاعة المطلقة لأمر النبي ﷺ بلا اجتهاد ولا تأويل، فتوزعت القلوب ولم يعد الصف وحدة كما يحبه الله تعالى، وكما أخبر عنه في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ

مَرْصُوصٌ ﴿١٥٢﴾ [الصف: 4]. ولم يعد الهدف موحداً، بل شابهته الشوائب والمطامع، وداخلته المصالح الشخصية والمنافع الآنية، فانكشف الدرع الذي كان واقياً لظهور المسلمين، قال تعالى في تصوير هذه الأحداث: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ هَلْ يَنْصَرُّ مِنْكُمْ مَنْ يَرْجُو الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَاقَبَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 152].

قال الرازي: «المراد من التنازع أنه عليه الصلاة والسلام أمر الرماة بأن لا يبرحوا عن مكانهم البتة، وجعل أميرهم عبد الله بن جبير؛ فلما ظهر المشركون أقبل الرماة عليهم بالرمي الكثير حتى انهزم المشركون، ثم إن الرماة رأوا نساء المشركين صعدن الجبل وكشفن عن سوقهن بحيث بدت خلاخيلهن، فقالوا الغنيمة الغنيمة، فقال عبد الله: عهد الرسول إلينا أن لا نبرح عن هذا المكان فأبوا عليه وذهبوا إلى طلب الغنيمة، وبقي عبد الله مع طائفة قليلة دون العشرة إلى أن قتلهم المشركون فهذا هو التنازع»⁽¹⁾.

وحاصل معنى الآية: أنه بعد أن صدقكم الله وعده فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حس واستئصال، صرفكم عنهم بفسلكم وتنازعكم وعصيانكم، وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم ويمحصكم⁽²⁾. فلم يستحقوا دوام النعمة والعناية، واستمرار التأييد والتسديد، لمخالفتهم سنن الله تعالى في استحقاق النصر الذي وعد به أهل الثبات والصبر.

إن الرماة انقسموا فريقين كما نصت الآية، وبذلك تفرقت القلوب فلم يعد الصف وحدة، ولم يعد الهدف واحداً، فانقلب الكرُّ فرأى، والنصر هزيمة، ووجد العدو ثغرة يحقق بها مأربه دون كبير جهد أو عناء.

(1) تفسير الرازي، 38/9.

(2) ينظر: تفسير ابن كثير، 133/2. وينظر: تفسير المنار، 183/4.

وقد ختم هذا المشهد القرآني بوضع اليد على سبب المتاعب التي لقيها المسلمون يوم أحد، وذلك بغية تنبيه الجيل الإسلامي الأول إلى تجنب عوامل الهزيمة وأسبابها، بالنسبة لما ينتظره من جهاد طويل في سبيل الله، ثم تنبيه كل الأجيال الإسلامية اللاحقة إلى نفس العوامل والأسباب حتى تتجنبها، ولا تبلى بها ولا بنتائجها الحتمية.

«وهذه الأسباب يلخصها كتاب الله في أربعة أشياء:

1. الفشل الذي يصيب بعض ضعفاء النفوس فيجرون الهزيمة على من معهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ﴾.
2. التنازع بين المحاربين وعدم الاتفاق فيما بينهم ﴿وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.
3. عصيان المحاربين لأوامر القيادة العليا وعدم تنفيذهم لتلك الأوامر تنفيذا حرفيا ﴿وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْيَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾.
4. اختلاف الوجهة وعدم الاتحاد في الهدف: ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يَّרِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يَّרِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

هذه الأسباب الأربعة التي حددها كتاب الله أوضح تحديد هي الأسباب المباشرة في كل هزيمة لحقت المسلمين، في يوم أحد أولا، وفي كل الغزوات والفتوحات التي أخل فيها المسلمون بشروط النصر وأسبابه»⁽¹⁾ وقد رتبت في هذه الآية حسب ترتيبها في الحصول كما ذكره ابن عاشور «إذ كان الفشل وهو ضجر بعض الرماة من ملازمة موقفهم للطمع في الغنيمة قد حصل أولا، فنشأ عنه التنازع بينهم في ملازمة الموقف وفي اللحاق بالجيش للغنيمة، ونشأ عن التنازع تصميم معظمهم على مفارقة الموقف الذي أمرهم الرسول ﷺ بملازمته وعدم الانصراف منه، وهذا هو الأصل في ترتيب الأخبار في صناعة الإنشاء ما لم

(1) التيسير في أحاديث التفسير، 1/269-270.

يقتض الحال العدول عنه»⁽¹⁾ قال أبو زهرة: «وهذا يفيد أن الترتيب النفسي يتفق مع الترتيب في الذكر، وذلك لأن الفشل ومعناه العجز النفسي عن الصبر والاحتمال ترتب عليه التنازع وعصيان الرسول»⁽²⁾.

والناظر في هذه الأسباب التي ذكرها المولى جل جلاله يجد أن الثلاثة الأخيرة منها كلها تؤول إلى عدم الاتفاق والوحدة، وسلوك مسلك المنازعة التي فرقت جمع المرابطين وهزت صف المقاتلين، فأعقب ذلك فشل ذريع كان من مستلزماته البدهية الهزيمة النكراء. فالاختلاف الأول ما كان بين المحاربين المرابطين في أعلى الجبل، وتلك منازعة في صفوف الجيش ناتجة عن مكامن نفسية أفصح عنها القرآن الكريم. والاختلاف الثاني مخالفة أمير الرماة عبد الله بن جبير رضي الله عنه الذي وكل إليه رئاسة هذه الفرقة، والثالث ما كان من مخالفة أمر رسول الله ﷺ فيما أمر به.

وذهب بعض أهل التفسير إلى أن الآية فيها تقديم وتأخير، وأن المعنى أن التنازع كان سببا للفشل والضعف ومدعاة للانقسام والانهزام، وسبيلا للمخالفة والعصيان، قال الفراء (ت: 206هـ) رحمته الله: «فيه تقديم وتأخير، معناه: حتى إذا تنازعتم في الأمر، فشلتكم وعصيتكم»⁽³⁾ فيكون الترتيب أن الأمر بدأ رغبة داخلية في النفوس تشوقت إلى الدنيا وتشوقت إلى جمع الغنائم وتلهفت إلى المسارعة إليها والمسابقة لحيازتها، ووقع الخلاف بين المسلمين جراء ذلك، فأعقبه عصيان طائفة لأمر رسول الله ﷺ بعد الجدل والنقاش، فتركوا مواقعهم من بعد ما أراهم الله ما يحبون من النصر، وصار الجمع بين راغب في متابعة القتال والثبات في الموقع الذي وكل إليه من رسول الله ﷺ، وراغب في ترك موقعه والإسراع إلى جمع الغنائم، فتفرقت كلمتهم وتوزعت وحدتهم، وتمزق صفهم، فدب إليهم الضعف

(1) التحرير والتنوير، 4/128.

(2) زهرة التفاسير، 3/1453.

(3) زاد المسير في علم التفسير، 1/476. والواو زائدة كقوله تعالى: ﴿قَلَمًا أَسْلَمًا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ ١٢ وَتَدَيَّنَتْهُ

[الصفات: 103-104]، معناه: ناديناه.

ووقعت الهزيمة. فهذه تراكمات سببية أدت إلى الفشل باعتبارها أسبابا متتابعة لحصوله، أما السبب المباشر فهو التنازع في الأمر ولذلك كان ترتيبه بعد ذكر الفشل مباشرة.

قال عبد الرحمن حبنكة الميداني (ت: 1425هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «الترتيب الذي جرى في الواقع كما يلي: إرادة الدنيا، فمعصية، فتنازع ففشل، ولكن لم انعكس هذا الترتيب في البيان القرآني؟ الذي يظهر لي أن الغرض الدلالة على أن ظهور المسلمين على عدوهم قد استمر حتى حل بهم الفشل، ولم تتحول رياح النصر عنهم إلى عدوهم عند المعصية والتنازع في الأمر، بل أخذ الأمر يتسلسل على مراحل، ولو انعكس الترتيب في النص لأوهم أن ظهور المسلمين على عدوهم قد توقف منذ لحظة معصية الرماة، وهذا خلاف الواقع، وخلاف سنة الله في الأحداث. والنص يهدف إلى الإعلام بأن توقف النصر وتحول رياحه قد حصل بعد حصول الفشل، فالدقة في التعبير تقتضي أن يكون البيان دالا على أن حركة الظهور على العدو قد توقفت عند حصول الفشل»⁽¹⁾ وسواء فسرت الآيات على الترتيب الذكري أم على الترتيب العكسي فالنتيجة حتمية وواحدة، وهي أن التنازع كان سبب الهزيمة والتولي وعلة الافتراق والتخلي عن ساحة المrapطة وميدان القتال.

وقد يشهد لهذا المعنى - كون التنازع سبب الهزيمة والضعف والفشل - قوله تعالى في نص سابق في النزول لهذا النص أبان فيه المولى جل جلاله للمؤمنين أن التنازع يؤدي إلى الفشل وذلك في سورة الأنفال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 47]. فجعل التنازع سبب الهوان والهزيمة، وفاء السببية دالة عليه.

وقد كان هذا البيان القرآني في غزوة بدر بمثابة التوطئة الإنذارية التي كان على المسلمين في أحد أن يضعوها نصب أعينهم حتى لا يتنازعوا فيفشلوا؛ قال الطاهر بن عاشور

(1) ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ لعبد الرحمن حبنكة الميداني. دار القلم دمشق الطبعة الأولى: 1414هـ - 1993م. 325/1.

مبيناً أخطار التنازع ووخيم عواقبه: «وإنما كان التنازع مفضياً إلى الفشل لأنه يثير التغاضب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضاً، وتوقع عدم إلقاء النصر عند مآزق القتال، فيصرف الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكن منهم العدو».(1)

ولما كان التنازع آيلاً بأصحابه إلى تلکم المضار والمفاسد، هياً الله تعالى أسباب الوحدة وعدم التنازع للمسلمين في غزوة بدر فكان النصر حليفهم وفي ذلك قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: 44].

قال الرازي: «... والمعنى: لا اضطرب أمركم واختلفت كلمتكم ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾، أي سلمكم من المخالفة فيما بينكم».(2) ومن النزاع في الإقدام والإحجام، وتفرق الآراء في أمر القتال، فسخر الله لهذا النصر أسبابه وقدرها تقديراً، ومن جملة تلکم الأسباب: تحقيق الوفاق، ودرء الشقاق، وسد ذرائع النزاع والافتراق. وتلك عناية ربانية، تجعل الأحداث مرتبة على أسبابها، ومدبرة بحسابها، ووراء كل سبب تدبير من العزيز الحكيم.(3)

(1) التحرير والتنوير، 31/10. قد لا يكون التنازع الذي وقع بين الرماة بلغ بهم مبلغ ما ذكره ابن عاشور من التغاضب وإزالة التعاون بينهم، والتربص ببعضهم... إلا أنه، باتفاق أهل التفسير والسير، كان سبباً في النكبة بعد الفرجة، والنكسة بعد النصر، ففتح في جيش المسلمين ثغرة نفذت من خلالها الهزيمة وتسربت مياه الفشل والضعف فأغرقت الأسطول الحربي في مرارة الترح وألم القرع.

(2) تفسير الرازي، 175/15. "وقيل: سلم الله لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم، وقيل سلمهم من الهزيمة يوم بدر، والأظهر أن المراد، ولكن الله سلمكم من التنازع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾". المصدر نفسه 175/15.

(3) وعلى مستوى الواقع فالتاريخ الإسلامي يشهد أن الله عز وجل قد صدق وعده بالنصر مع الذين صدقوا في نصره، وواجهوا عدوهم أمة واحدة، وقيادة واحدة، وقوة واحدة، لا فرقة ولا منازعة، ولا اختلاف ولا محاصمة، فنصرهم في بدر، وعلى الأحزاب في الخندق، وفي حنين، وفي حروب الردة، وعلى جحافل فارس حتى أسلمت، وعلى حشود الرومان حتى

وفي هذه الوقائع والأحداث تنبيه وتوجيه إلى ضرورة الاتحاد ولزوم الوحدة والاتفاق والائتلاف، وعدم شق عصا الطاعة، وهذا أمر واجب بالعموم، وقد سبقت فيه النصوص القرآنية، وهو أمر لازم على وجه الخصوص في حالة الحرب وساحة الجهاد، ودليله مفهوم المخالفة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَفِيتُمْ وِيعَةً فَاثْبُتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٦﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: 46-47].

والشاهد لا تخطئه العين: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فإن الاختلاف والتنازع مدعاة للفشل، وهو الخيبة والنكول عن إِمضاء الأمر، فاستفيد منه أن حفظ القوة ودرء الضعف وعوامل الفشل يتحققان بالوحدة والاجتماع، والطاعة والاتباع. وما وقعت فيه الأمة الآن من تسلط الأعداء عليها سببه الأساس هو عدم وحدتها، وتنازعها وتناحرها، فإذا أرادت الخلاص من ذلك فلا بد من العودة إلى الوحدة، لأنها سبب العزة؛ وبها يعتز الحق ويعلو في العالمين، وبالقوة يحفظ الحق وأهله من هجمات المفسدين وكيد الكائدين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَبًا كَانَهُمْ بُنَيَّ مَرْضُوصٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الصف: 4]. فالتفرقة والتنازع يضعفان شوكة الأمة، ويجعلانها أمة هزيلة مهانة بين الأمم الأخرى.



=حررت الشام ومصر، وعلى وحوش التتار في عين جالوت، وعلى الصليبية الحاقدة في حطين... كل ذلك وغيره قد سجله التاريخ وحفظه، مع ما كان عليه عدد المسلمين من قلة العدد والعتاد، لكنهم حققوا أسباب النصر والتأييد فتوحدت كلمتهم، وتفرد قصدهم، فحقق الله موعوده لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٠٠﴾﴾ [آل عمران: 9].

المطلب الثاني: إرهاب الأعداء.

إن الحفاظ على وحدة الأمة وائتلافها، واتحاد صفها واتفاقها هو سبيل المنعة والقوة، وطريق الظفر والنصر، ودرب التمكين والعزة، ولقد سجل التاريخ لهذه الأمة مكانة مرموقة، ومنزلة سامقة يوم أن حفظت لحمتها، وصانت ألفتها وجماعتها، فظهرت على أعدائها، واستعصت على خصومها، ورعت قيادتها للإنسانية وريادتها للبشرية، فكانت صاحبة هيبة ومهابة في عيون أعدائها، ذات رهبة في قلوب خصومها، وذات تأثير في واقع العالم وتحركات قوى الكفر والطغيان فيه، يحسب لها ألف حساب، تحدد مصير أبنائها وشعوبها، وتقرر ما به صلاحهم ونهضتهم، وتستقل بتدبير أمورها وسياساتها بعيدا عن أي ضغط أو إكراه، أو فرض أو استكراه. وقد كان لها ذلك يوم أعدت العدة، وأظهرت العزة، وامثلت أمر المولى جل جلاله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ...﴾ [الأنفال: 61].

وهو أمر بإعداد شامل لكل أنواع القوة الممكنة والمتيسرة، لأن كلمة «قوة» أتت نكرة في سياق الإثبات فتعم كل قوة، وفي كل وقت بحسبه وإمكانياته، ولو بقينا على الرمح والنبل والسيف مع ما بلغه العدو من أسلحة مدمرة وفتاكة لما أغنت عنا شيئا، فقوة العدو لا تدفع إلا بمثلها أو أشد منها، ولهذا قال جل جلاله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ولم يحدد، قال الشاطبي رحمته الله: «كل خصلة أمر بها أو نهى عنها مطلقا من غير تحديد ولا تقدير فليس الأمر أو النهي فيها على وزان واحد في كل فرد من أفرادها»،⁽¹⁾ بل تنزل حسب المناطات وبحسب كل مقام، والمقام في هذا العصر يستوجب إعداد أقصى ما يمكن إعداداه من قوة على تنوعها، لما يشهده العالم من تسابق الدول الكبرى إلى امتلاك كل

(1) الموافقات للشاطبي، المجلد: 2، 102/3.

ما تستطيعه من عناصر القوة، وتطوير منتجاتها الحربية، وبالمقابل تحرص على محاصرة كل دولة إسلامية تتوق إلى حيازة شيء من ذلك، أو تتطلع إليه، وتصادر حقوقها في البحث والتطور والنهوض بإمكاناتها العلمية خاصة في مجال التسليح. فتشمل قوة العقيدة والإيمان، وقوة الفكر والعلم، وقوة السلاح والعتاد، وقوة العزيمة والشكيمة، وقوة الألفة والمحبة، وقوة الصف والاتحاد، فهو أمر «بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها»،⁽¹⁾ «من كل ما يتقوى به في الحرب كائنا ما كان»،⁽²⁾ «إلى أقصى حدود الطاقة بحيث لا يقعد المسلمون عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتهم»،⁽³⁾ تمكيننا للأمة، وتحقيقا للعة، وإعلاء للشرعة، وإظهارا للملة، واستتبابا للأمر. ولن يتحقق ذلك مع الخلاف والنزاع، والتفرق والانقسام باتفاق العقلاء.

فالغرض من إعداد القوة إرهاب الأعداء وقذف الرعب في قلوبهم كما صرحت به الآية الكريمة⁽⁴⁾ ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ فيعلم أن الأمة الإسلامية تملك من القوة ما تدافع به عن نفسها، وترد كل عدوان عليها، وتذود عن حياضها ومقدساتها، ومما يعين على تحقيق ذلك: تراص الصف وجمع الكلمة في ساحة السلم عموما، وفي حومة

(1) في ظلال القرآن، 1543/3. قال محمد رشيد رضا رحمه الله: "على أن لفظ الآية أدل على العموم لأنه أمر بالمستطاع موجه إلى الأمة في كل زمان ومكان، كسائر خطابات التشريع حتى ما كان منها واردا في سبب معين، ومن قواعد الأصول أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالواجب على المسلمين في هذا العصر بنص القرآن صنع المدافع بأنواعها والبنادق والدبابات والطائرات والمناطيد وإنشاء السفن الحربية بأنواعها... ويجب عليهم تعلم الفنون والصناعات التي يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب بدليل: ما لا يتم الواجب المطلق إلا به فهو واجب". (تفسير المنار، 70/10).

(2) تفسير أبي السعود، 32/4.

(3) في ظلال القرآن، 1544/3.

(4) أشار سيد قطب رحمه الله إلى مقاصد تحقيق هذه القوة وإعدادها فقال: "وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة: أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها، فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا لذلك بعد اعتناقها، والأمر الثاني: أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على دار الإسلام التي تحميها تلك القوة. والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء ألا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها، والرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية". (في ظلال القرآن، 1543/3).

الوغي خصوصاً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَبًا كَأَنَّهُمْ بُنَيَّنٌ مَّرْضُوصٌ﴾ [الصف: 4]، لا فرجة ولا خلل، ولا خلاف ولا جدل «فاتقاء الفشل والهزيمة والخذلان في القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها، وإتقان آلاتها وأسلحتها، التي ارتقت في هذا العصر ارتقاء عجيبيًا، وهو المشار إليه في الآية: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60]، كما يتوقف على أسباب القوة المعنوية من اجتماع الكلمة واتحاد الأمة والصبر والثبات والتوكل على الله واحتساب الأجر عنده»، (1) كما ذكر ذلك ربنا سبحانه في سورة الأنفال حيث قال جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَفِيتُمْ بِهِ فَاثْبُتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٤٦] وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46-47]. فضمان البقاء، واستمرار الوجود الإسلامي والأمة الإسلامية لا بد له من قوة رادعة، وأمة مانعة وممانعة. قال ابن القيم (ت: 751هـ) رَحِمَهُ اللهُ مستنبطاً أسباب النصر من الآيتين الكريميتين: «... الرابع: اتفاق الكلمة، وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن، وهو جند يقوي به المتنازعون عدوهم عليهم؛ فإنهم في اجتماعهم كالحِزْمَةٍ من السهام لا يستطيع أحد كسرهما، فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرهما كلها». (2)

وسياق الآيات من سورة الأنفال مرشد إلى هذا المعنى دال عليه، إذ جعل الله التأليف بين القلوب قرين النصر، ومنة منه سبحانه لا تبلغها جهود المجتهدين ومساعي الباذلين. قال جل جلاله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ

(1) تفسير المنار، 1/125.

(2) الفروسية الحمديّة لابن القيم، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد — مكة المكرمة، الطبعة الأولى: 1428هـ. ص: 473.

بِنَصْرِهِ ۖ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْقَضْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٤﴾ [الأنفال: 63-64]. فجعل التأييد له بنصر منه سبحانه، وأيده بالزمرة المؤمنة الصادقة التي شكلت قوة موحدة بعد أن كانت قلوبهم شتى وبأسهم بينهم شديداً، فاستحال ذلك إلى رباط وثيق، وارتباط عميق، واتحاد رفيق، تكسوه غشاوة التعاطف والتناصر، والتعاون والتظافر.

قال الرازي: «التأييد ليس إلا من الله لكنه على قسمين: أحدهما: يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة. والثاني: ما يحصل بواسطة أسباب معلومة معتادة. فالأول هو المراد من قوله: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ﴾ والثاني هو المراد من قوله: ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾...»⁽¹⁾ فبين اللحاق من الآية ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ ما به كان التأييد والنصر والظفر من المحبة والتأليف، والجمع والتوليف.

وقد تكرر هذا المعنى نفسه في قوله تعالى من السورة نفسها، والآية بعدها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 65]، وفي هذا التأكيد على التأييد بالمؤمنين واقتارانه بالتأييد الرباني إشارة إلى أهمية الجماعة والأخوة المؤمنة في تحقيق النصر.⁽²⁾

قال أبو زهرة (ت: 1394هـ) رحمه الله: «المؤمنون اجتمعوا ولم يختلفوا، واعتزموا ولم يترددوا، وانتظموا في صفوف كالبنيان... وما ذلك كله إلا بفضل من الله العزيز الحكيم، وإن من أعظم أسباب النصر بعد تأييد الله تأليف القلوب».⁽³⁾

(1) تفسير الرازي، 15/195.

(2) هذا من باب التنبيه على الأخذ بالأسباب المحسوسة وإلا فإن الله قادر على نصر نبيه دون حاجة إلى تأييد من أحد.

(3) زهرة التفاسير، 6/3180.

وقد ختم الله سبحانه الآية الكريمة بقوله: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو عزيز يخلق العزة وأسبابها، عالم يجمع القلوب بحكمته وتدبيره، وهو الذي أحاط بكل شيء علما. «وفيه إشارة إلى أمرين:

-أولهما: أن ائتلاف القلوب والتحاب والتواد، والبعد عن التباغض والتناز هما عماد العزة، والتدبير الحكيم.
-وثانيهما: إنه لا غالب ولا سلطان إلا بالتآلف، وأن يصير المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا»⁽¹⁾.

فيتين من خلال هذه الآيات عظم شأن تأليف القلوب، وأثره في ترابط المسلمين، وتحقيق وحدتهم، وتمكين عزتهم، وفرض هيبتهم، وتقوية آصرتهم، وإرهاب عدوهم، والنصر والظفر عليهم.

فتوحيد الصف والكلمة مقصد أصيل عند لقاء العدو، وأساس لضمان تماسك الجيش وتقدمه، معين على الثبات، في حين أن التنازع مهدر للطاقة، مقوض لبنية الجماعة، مذهب للحماسة، مبدد للقوة، عاصف بالدولة، مزيل لروح البسالة والإقبال، خائق لنفس الشجاعة والإقدام.

إن الوحدة الإسلامية سياق لا تستغني عنه الأمة، وهذا ما تشهد له وقائع التاريخ وحوادثه في الماضي والحاضر، وذلك لتحمي مكتسباتها، وتصون بيضتها، وتؤمن شعوبها من أي سوء أو خطر، أو مكر أو ضرر، فكلما اتحدت قويت، وكانت مهيبة، ترهب الأعداء من أن يخاطروا ضدها وأن يغامروا بغزوها.

والذي ينبغي ألا يغفل عنه أن القوة العسكرية والمادية وحدها لا تكفي لتحقيق الوجود الإسلامي وبلوغ مقصد الإرهاب للأعداء، إذ لابد معها من وجود وحدة إسلامية

(1) المصدر نفسه، 3182/6.

وأمة مجتمعة، فهي التي تشكل مقومات القوة الحقيقية القادرة على ردع العدو وإرهابه، ولا أدل على ذلك من أن أمريكا وهي أكبر قوة عسكرية في الوقت الراهن تسعى جاهدة في كل تدخل عسكري في بلاد من بلاد الإسلام إلى تكوين تحالفات غربية، تدعم بها طغيانها، وتهاجم من خالف سياساتها، وتوحد قصدها وعدوها، لعلمها بقوة الاتحاد، وسطوة الاجتماع، وهو منهج فرعوني يسلكه الطغاة على مر العصور لكأنما قد تواصلوا به. قال تعالى في شأن فرعون وهو يواجه دعوة الحق التي جاء بها موسى: ﴿بَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: 59]، لعلمه لما في جمع الأحلاف ورص الصفوف من القوة والرهبة للخصوم، ويتأكد هذا المعنى في السورة نفسها حيث يقول الله عز وجل حاكيا فعله واصفا كيده: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَبَآءً﴾ [طه: 63]، فاستثار الهمم ودعا إلى الترابط والتجمع والتناصر. ويشهد لهذا المعنى ما ورد في مواضع أخرى من ذكر قصة موسى وفرعون وتنصيب القرآن على هذا الحشد الفرعوني، والجمع الطاغوتي، في مواجهة الحق والوحي والرسالة. قال تعالى: ﴿بِأَرْيَاهُ آيَاتِهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [٢٠] ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ [٢١] ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ [٢٢] ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ [٢٣] ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [٢٤] [النازعات: 20-24]. وقال جل جلاله: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ﴾ [١١] ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَجِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: 111] ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيفَتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: 37]، وهذا الجمع والحشر والحشد والتحميس والتحفيز والتشجيع لقوى الباطل قد كان له وقعه حقيقة فيما ذكره القرآن على نبي الله موسى الكليم عليه السلام، قال جل جلاله ﴿بِأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: 66]. فالتعبير القرآني يخبر عن حقيقة نفسية تتوافق والجليلة البشرية أن الكثرة الكاثرة تخيف القلة القليلة. لولا تثبيت الله لنبيه، وتذكيره بقوته وعنايته به ﴿فُلْنَا لَا تَخَفِ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [٢٥]

[طه: 67]، وهذا الجمع العدواني والحشد الطغياني تكرر مع أنبياء الله في مواقف عدة، منها ما ذكره ربنا في شأن أمة نبينا: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: 173].

إن مشاهدة كثير من بلاد الإسلام اليوم ترزح تحت وطأة الاحتلال الأجنبي، وملاحظة المشاركة الجادة والفعلية لكافة الأعداء في الحرب الدائرة بين أمي الكفر والإسلام، يعمق حاجة الأمة أن ترعى الألفة، وتحفظ الوحدة، وتصون كل ما يدعمها ويشحذها، لأن أعداء الإسلام إذا علموا أن أتباعه على قلب رجل واحد، من قتل واحدا منهم فكأنما قتلهم جميعا، وأن دماءهم تتكافأ، ويسعى بذمتهم أدناهم، خافوا بأسهم، وهابوا سطوتهم ولم يجروا على مهاجمتهم... فيعيش أتباع الإسلام آمنين مطمئنين في ديارهم، ويستطيعون تبليغ رسالة الله إلى خلقه، دون خوف ولا وجل، وإلجام المتربصين بدين الله سواء كانوا أعداء خارجيين أم كانوا عملاء داخليين.

وقد وصف القرآن في معرض الذم حال الكفار والمنافقين من أهل الكتاب وهم يقاتلون أهل الإسلام، فذكر من جنبهم وخورهم، ومن شدة بأسهم فيما بينهم، واختلاف قلوبهم، فقال سبحانه: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [١٣] لَا يَفْقَهُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي فُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدِرٍ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: 13]. فظاهر حالهم اجتماع واتفاق، وهم في قرارة أنفسهم وسرائر قلوبهم مختلفون متنافرون متباغضون، وهذا حث للمسلمين على قتالهم وتشجيع لهم على مواجهتهم، وتحذير من سلوك مثل سبيلهم، والوقوع في مثل اختلافهم وفرقتهم. قال ابن عاشور: «وفي الآية تربية للمسلمين ليحذروا من التخالف والتدابير ويعلموا أن الأمة لا

تكون ذات بأس على أعدائها إلا إذا كانت متفقة الضمائر، يرون رأيا متماثلا في أصول مصالحها المشتركة، وإن اختلفت في خصوصياتها التي لا تنقض أصول مصالحها ولا تفرق جامعتهما، وأنه لا يكفي في الاتحاد توافق الأقوال ولا التوافق على الأغراض إلا أن تكون الضمائر خالصة من الإحن والعداوات»⁽¹⁾.

فاجتماع الأمة هو ما يحقق الهيبة في صدور الذين كفروا، ويقذف الرعب في قلوبهم فلا يصمدون في مواجهتها ولا يثبتون عند لقاءها، وقد أشار حبنكة الميداني رَحِمَهُ اللهُ إِلَى هذا الملحظ الدقيق في استنباط عميق حين حديثه عن الآية: ﴿لَا يَفْتَلُونَكُمْ جَمِيعاً﴾ فقال: «وكلمة «جميعا» في النص هنا حال بمعنى «مجمعين» أو «مجموعين» وهذه الحال تصلح لأن تكون حالا من فاعل يقاتلونكم وهو ضمير الرفع، أو من المفعول به، وهو ضمير النصب. أي لا يقاتلونكم حالة كونهم مجتمعين لقتالكم، أو حالة كونكم مجتمعين لقتالهم. وأرجح الاحتمال الثاني: أي حالة كونكم مجتمعين لقتالهم، لأنني أرى أن المؤمنين إذا كانوا متفرقين أو لم يجتمعوا جميعا بمعظم قواتهم لقتال اليهود، فإن اليهود لا يرهبونهم حينئذ فيقاتلونهم دون أن يكونوا في قرى محصنة أو من وراء جدر، فينبغي أن نفهم النص على ما يطابق الواقع»⁽²⁾.

والسباق القرآني للآية مساعد على هذا المعنى، حامل عليه، مرشد إليه قال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: 13]. فما حقق المؤمنون وحدة القلوب واجتماعها على الله، وصدق قصدها ورغبتها فيما عند الله إلا وانكشف أمامها معسكر النفاق والكفر، فتفسخ بنيانه، وانهارت لبناته، وتشتت جموعه، وولت أدبارها.

إن الاتحاد والتوحد شيء مركزي محوري لضمان القوة أولا، ولإرهاب العدو ثانيا، ولرد العدوان ثالثا، ولتنويع الأمة بالنصر إذا اضطرت إلى خوض المعارك رابعا، وفرض

(1) التحرير والتنوير، 106/28.

(2) ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، 716/2.

السيطرة وتحقيق القوة والشدة أمر مطلوب مرغوب، وقد قال الله في وصف أصحاب النبي ﷺ مدحا وثناء: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29]. فالمؤمنون «يُظهرون لمن خالف دينهم الشدة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة»⁽¹⁾. وهذه الشدة والصلابة والقوة لا يقصد من ورائها العدوان والطغيان، بقدر ما هي شدة تفرض هيبة يبتغى منها التمكين للدعوة والدين، وتحقيق عزة المسلمين، وهذا نظير قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الآية: 56].

قال الألوسي (ت: 1270 هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «ومعنى كونهم ﴿أَعِزَّةً عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أنهم أشداء متغلبون عليهم»⁽²⁾. ولا يتحقق ذلك إلا بتراحم أهل الإيمان وتوافق أهل الإحسان ممن آمن بالرحمن واتبع النبي العدنان ﷺ. فتراحم أفراد الأمة وتناصرهم وموالاتهم لبعضهم لبعض يكسبهم من المنعة والقوة ما يعرفه العقلاء، ويصرح به الأعداء، وقد حكي القرآن الكريم مقولة قوم شعيب عليه السلام: ﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: 91]. فهم لم يستطيعوا الوصول إلى شعيب بالأذى خوفا من قبيلته واعتبارا لعشيرته، وإن كانوا على غير ملتته، فبالأحرى إذا كانت النصرة للدين والولاء على الدين؛ إذا لكانت القوة أعظم. لقد كان لشعيب عليه السلام عصبة تؤويه، وقوة مادية تحميه، فتخرج القوم عن البطش به والجرأة عليه، وفي ذلك تلميح إلى فضل العصبة والجماعة تكون مع الداعية وتنتصر له، فيجعل الله له هيبة في قلوب أعدائه وخصوم دعوته.

(1) تفسير أبي السعود، 114/8.

(2) تفسير الألوسي، 164/6.

ونلاحظ هذا المعنى الدقيق في قوله تعالى حكاية لقصة صالح عليه السلام مع قومه: ﴿قَالُوا تَفَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلَكَ أَهْلِيهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: 51]، فهم يخشون من عشيرة صالح وقرابته وأوليائه، ولو فكروا في الإساءة إليه كان تدبيرهم سرا، وأعدوا الحلف بالكذب تبرئة لذمهم «وهذا يدل على أنهم لا يقدرّون أن يقتلوه علنا، لنصرة أوليائه له، وإنكارهم شهود مهلك أهله دليل على خوفهم من أوليائه»⁽¹⁾. وهذا لوط عليه السلام يحكي القرآن من خبره حين أتاه رسل الله ضيفانا في صور شباب جُرِدْ مُرْدٍ غَايَةٍ فِي الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ، فسيء بهم وضاق ذرعا لما يعلم من سوء فعلة قومه، ومن جرأتهم عليهم، ورغبتهم فيهم، فما كان منه عليه السلام إلا أن قال متأسفا متحسرا: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ -اَوْتَىٰ إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 79].

قال الطبري: «﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾: بأنصار تنصرني عليكم وأعوان تعيني، ﴿أَوْ -اَوْتَىٰ إِلَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ﴾ يقول: أو أنضم إلى عشيرة مانعة تمنعني منكم لحلت بينكم

(1) والظاهر أن هذه النصرة عصبية نسبية لا تمت إلى الدين بصلة، وأن أوليائه ليسوا مسلمين. أضواء البيان، 452/6-453.

فكيف إذا كانت النصرة والولاية مبنية على عقيدة إيمانية وأخوة دينية، وألفة ربانية رحمانية أساسها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، فيتم الاجتماع على أساس الدين وذلك ما يحمل أصحاب الملة الواحدة على التناصر والألفة تدنبا، بعد أن كان ذلك فطرة وجبلة بمقتضى النسب والدم، فيقوم الإسلام مقام القبلية في تحريك التعاطف للنصرة والتضامن، ورفض الضيم عن أفراد الملة الواحدة، فيصبح الدين رحما جديدة ينصهر في =بوتقته كل فرد آمن به، فتلتقي الشعوب والقبائل على أساس يرتقي فوق الإقليمية والعرقية والمذهبية ويتحقق بهذا الرابط: "ألفة جامعة تنعطف القلوب عليها ويندفع المكروه بها". (أدب الدنيا والدين للماوردي، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، الناشر: دار اقرأ، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة: 1405هـ - 1985م، ص: 161).

وبين ما جئتم تريدونه مني في أضيافي»⁽¹⁾ وفي ذلك دلالة على أنه لا غنى عن الجماعة الناصرة والقوة الرادعة المؤيدة لرسالة الحق التي جاء بها رسل الله.

وخلاصة القول في هذا الفصل أجمالها في النقاط التالية:

أولاً: إن الشريعة الإسلامية لم تكن فقط ببيان فرضية وحدة الأمة، ومقصديتها، وأبعادها الحضارية، بل قد تطرقت لوسائل تحقيق هذه الوحدة وسبل بلوغها، ومن أساسيات هذه الوسائل والسبل؛ أمر الدعوة إلى الله أولاً، فهو وسيلة لتوحيد الأمة، وهو غاية في الآن نفسه من غايات ومقاصد وحدة الأمة، فبالدعوة إلى هذا الدين يتوحد صف الناس، ويجتمع شملهم، وتوحيد صفهم سبيل ناجحة لتحقيق ثمرات يانعة في مجال الدعوة إلى الله.

ومن الدعوة إلى الله تعالى؛ قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تطابقت النصوص القرآنية على وجوبها، وعدتها وصفاً من أوصاف المؤمنين، فهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهذا الوصف دليل خيريتهم، ومقصد إخراجهم، كما نصت عليه الآية 110 من سورة آل عمران.

ثانياً: من سبل تحقيق وحدة الأمة ما نبهت عليه النصوص القرآنية وحذرت منه حيث ذكرت بعبادة الشيطان للإنسان، وكشفت عن تحريشه ونزغه بين الناس، وفضحت الآيات مخططات جنده ومعسكره النفاقي الذي سعى حثيثاً في صفوف الأمة تمزيقاً وتقطيعاً، وتوهيناً وتحذيراً، وذلك في مواقع عدة من سيرة نبي هذه الأمة ﷺ، لتكون تلك المواقف والحوادث عظة وتذكرة لهذه الأمة، تعرف الشر لا للشر لكن لتوقيه، وسد منافذه، والحذر من تلبيس أهله وتدليسهم. وفي التفطن لذلك إحياء لروح الألفة والجماعة، وحفظ لسياج الوحدة والأمة.

ثالثاً: كما أن وحدة الأمة مقصد شرعي فإن لهذا المقصد مقاصد، ومن أجل مقاصده ما أومأت إليه الآيات القرآنية من تشكيل أمة قوية، ترهب العدو، وترد العدوان، وتتوج

(1) تفسير الطبري، 508/12.

بالنصر إذا اضطرت إلى خوض المعارك. وهذه القوة المرجوة للأمة، والمطلوبة شرعا، ليست قوة تؤم بها الاعتداء والطغيان على الخلائق، بل هي قوة تجعل للأمة هيبة ورهبة في قلوب من قد يطمع في خيراتها ومقدراتها، أو يرنو إلى قتالها واحتلال أراضيها وانتهاك مقدساتها. وهي قوة تؤهلها لأداء المنوط بها من إخراج البشرية من الظلمات إلى نور الهدى ودين الله العظيم.

ولمزيد بيان لأهمية الوحدة وعناية الشارع بها، فقد نبهت النصوص القرآنية على قضايا أخرى تعد ركائز أساسية لقيام وحدة متماسكة وأمة مترابطة، وهذه القضايا هي مقومات وحدة الأمة ومعوقاتهما، وهي فصول الباب التالي من أبواب هذه الأطروحة.

الباب الثالث :

مقومات الوحدة ومعوقاتهما.

☐ وفيه فصلان:



✓ الفصل الأول: مقومات وحدة الأمة. ☐

✓ الفصل الثاني: معوقات وحدة الأمة. ☐





الفصل الأول :

□ مقومات وحدة الأمة.



□ وفيه أربعة مباحث:



✓ المبحث الأول: وحدة الخلق. □

✓ المبحث الثاني: وحدة التصور العقدي. □

✓ المبحث الثالث: وحدة المرجعية التشريعية. □

✓ المبحث الرابع: وحدة الشعائر التعبدية. □



توطئة

اقتضت سنة الله تعالى أن يجعل لكل شيء سببا أو أسبابا، ولكل أمر فرائض وأركاناً، بها قوامه وعليها قيامه، وهذا من حكمة العليم البصير، ومن تدبير اللطيف الخبير، وقد جعل الله عز وجل لإقامة هذا الفرض العظيم والركن الجسيم - وحدة الأمة الإسلامية - مقومات وأسساً لا غناء للأمة عنها إذا أرادت أن تحقق أمة قوية لها وجود فعلي، وحضور نوعي بين الأمم الأخرى، وهذه المقومات قد تتكامل في تشريع الله لها، وتنوير الخلق بها مع وسائل الوحدة ومقاصدها، ولذلك كان تناولها في هذا الفصل الأول من هذا الباب قريبة العهد بأخواتها - الأهمية والسبل والمقاصد - لتتربط حلقات الموضوع وتتراص لبناته، وتشكل بيتاً واحداً كجسد واحد وأمة واحدة.

وسأقوم في هذا الفصل ببيان هذه المقومات انطلاقاً من نصوص الآي القرآني الواردة في سياق آيات الوحدة اعتماداً، مع الاعتضاد بآيات القرآن الأخرى الدالة على المعنى نفسه والقضية نفسها.

المبحث الأول وحدة الخلق

المطلب الأول: وحدة الخلق والكون.

إن الكون كله مخلوق صادر عن إرادة واحدة هي إرادة الله الواحد القهار، فبعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً صار خلقاً واحداً لخالق واحد؛ قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 116]. وهي الحقيقة التي أخبر عنها القرآن الكريم في أول وحيه إلى خاتم رسله حيث قال جل جلاله: ﴿أَفِرُّ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] فأخبر أن «أصل الموجودات كلها واحد وهو الخلق الإلهي».⁽¹⁾ وقد دل النص القرآني بما هو أصرح وأوضح دلالة ناصة على واحدية الخالق جل في علاه في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: 18]. «فالعالم ككل يعود في وجوده إلى الله وحده بعد أن كان في طي العدم، وما من موجود يوجد على مر الدهر إلا والله هو المبدئ له، وليس ما يبدو من تتابع سببي في سلسلة الخلق إلا ناموساً إلهياً ترجع فيه تلك السلسلة إلى الخالق الحقيقي».⁽²⁾ وواحدية الخالق هذه تتجلى أبعادها في وحدانية الإنشاء والإبداع، فالعالم؛ علويه وسفليه باعتباريه أشياء، مرجعه ومرده إلى الله وحده، تشهد كل ذرة فيه ونواة به على خالقية الله سبحانه، وتشهد وحدة أجزائه، وتربط أركانه، وتناسق بنيانه على حكمة الرب وعظمته ووحدانيته، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ إِلَهَةٍ إِلَّا اللَّهُ لَبَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22].

(1) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدلية النص والعقل والواقع، لعبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الثانية: 1413هـ - 1993م، ص: 40.

(2) المرجع نفسه، ص: 46.

وقد كان هذا العالم بكلمة كن كما أراده الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40]. ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82-83]. وهذا يدلنا على حقيقة الوحدة في منشأ الكون، ووحدة الإرادة الإلهية الخالقة، ووحدة النظم والنواميس التي يجري عليها هذا الكون، ووحدة المصير.

فالنظام الكوني يشهد بوجوب الإقرار بوجود الخالق البارئ المصور، وبوحدانية الواحد القاهر المدبر، لما فيه من دقة ترتيب، ووحدة تنسيق، ونظام سائق، وتصريف سابق، يخضع فيه الكل لسنن متكامل متناسق محكم موحد.

وكلُّ هذا العالم الواسع البديع ﴿صُنِعَ اللَّهُ إِلَيْهِ أَلْفَ مِائَةٍ أَلْفَ مِائَةٍ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: 90]، والذي خلقه هو نفسه الذي خلق الإنسان وسوَّاه ونفخ فيه من روحه. فالإنسان والكون المحيط به صادران عن الإله الواحد الأحد، مخلوقان له، مرتبطان في وجودهما بوحدة الرب الخالق جل في علاه، وبذلك تتحدد العلاقة بينهما وهي علاقة المخلوقية الواحدة والوجود الأصلي الواحد، وقد أوما القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، والخصيصة الوجودية الجامعة بينهما بدلالة الاقتران بين خلق الإنسان والكون في مواطن من محكم التنزيل، ومن أمثلة ذلك قول الله عز وجل: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: 3-5]. فأخبر بخلق السماوات والأرض، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: 3-5]. والآن علم خلقها لكم فيها دِفءٌ وَمَنْعِجٌ وَمِنْهَا تَكْلُونَ﴾ [النمل: 3-5]. فأخبر بخلق السماوات والأرض، وأعقب ذلك بالحديث عن خلق الإنسان، ثم صار إلى تعداد بعض مخلوقاته المترامية في هذا

العالم المنظور، والكتاب المنشور، لتكون دلائل لهذا الإنسان تدله على الله وترشده إلى ما يلزمه من امتثال أمره، واتباع وحيه ولزوم شرعه، وتسخير كونه فيما فيه نفعه وصلاحه، وتيسير معاشه وارتقاؤه. ويتكرر هذا المنهج القرآني في الربط بين خلق الإنسان وبسط الأكوان في آيات أخر كما في سورة الحج حيث قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْقَةٍ﴾ [الحج: 5] فبعد أن عرض الله عز وجل خلق الإنسان من تراب وأبان عن أصله ومنشئه، استطرد إلى عرض مشاهد الخلق والإحياء في الأرض والنبات ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبَتَتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5]. «وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعاً، فيسلّكهم في آية واحدة من آياته، إنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة، وإنها الدليل على وحدة عنصر الحياة وعلى وحدة الإرادة الدافعة لها هنا وهناك في الأرض والنبات والحيوان والإنسان»⁽¹⁾ إنها إذاً وحدة بين الإنسان والكون جامعها أن الكل مخلوق لله، مكون من مكونات هذا الوجود، وأن الإنسان جزء يندرج ضمن هذا الكون المعبود لله، وهو مجال خلافته وتفكره وتسخيريه. وهذه الوحدة الكونية الوجودية تعطي الإنسان فهماً جديداً للحياة والعالم من حوله، فتحكمه نظرة الترابط الوجودي والاتحاد الكوني، واتفاق الخلق والمنشأ، ووحدة المآل والمصير.

ومن لطيف الوارد في سورة الأنبياء - وهي السورة التي أشارت إلى وحدة الرسل والرسالات - التنصيص على أن مرحلة الوحدة الكونية هي أولى مراحل هذا الوجود حيث قال جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْفًا﴾⁽²⁾

(1) في ظلال القرآن، 4/2411.

(2) الرق: إلحام الفتق وإصلاحه، يقال: رتقت فتقه حتى ارتتق = التأم. العين، 2/95. عن عمران بن حصين عن النبي ﷺ قال: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر كل شيء" صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: "وكان عرشه على الماء"، "وهو رب العرش العظيم" ح: 7418. 4/544.

فَبَقَتْنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَقْبَلًا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ [الأنبياء: 30]. قال ابن عباس والضحاك والحسن وقتادة: «كانتا ملتصقتين ففصل الله بينهما».(1)

فالأصل في خلق السماوات والأرض أن جعلها الله عز وجل كتلة واحدة ووحدة مترابطة، ثم شاء الله لها أن تتفتق وتتمدد وتتوسع، فالاتصال والاتحاد والالتصاق هو مبدأ الوجود الكوني ثم انفصل عاليه عن أسفله، وتميزت أجزاؤه، وتعددت أصنافه وصارت عوالم مختلفة وكواكب متنوعة وأما متجانسة مردها إلى أصل واحد ووحدة ملتحمة هي خلق الله الذي منه بدأ الكون، قال محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ في معرض إيرادهِ لأقوال المفسرين في تفسيره للآية: ﴿كَانَتَا رَتْفًا فَبَقَتْنَهُمَا﴾: «يحتمل أن يراد بالرتق اتحاد الموجودات حين كانت مادة واحدة... فكانت جنسا عاليا متحدا ينبغي أن يطلق عليه اسم مخلوق، وهو حينئذ كلي انحصر في فرد، ثم خلق الله من ذلك الجنس أبعاضا وجعل لكل بعض مميزات ذاتية، فصير كل متميز بحقيقة جنسا، فصارت أجناسا، ثم خلق من الأجناس مميزات بالعوارض لحقائقها، فصارت أنواعا».(2)

(1) تفسير الطبري، 10/18. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، دار الفكر بيروت، 626/5. وروي عن سعيد بن جبيرة. الدر المنثور، 626/5. وعطاء وكعب. تفسير البغوي، 293/4. تفسير القرطبي، 283/11.

(2) التحرير والتنوير، 55/17. وهذا الذي بسط القرآن الحديث عن شيء منه في الآيات الأولى من سورة الرعد، فصرح بالأدلة الناهضة بمظاهر الموجودات المتنوعة الدالة على انفراده بالخلق والربوبية واستحقاقه لوحدة الألوهية من مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ اثْنَيْ عَشَرَ لِيُغْشِيَ اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وفي الأرض فطع متجورات وجنت من أغناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسفي بماء واحد ونهضيل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ [الرعد: 3-4]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: 13-14]. إلى أن ختم ذلك بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ الْوَعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَكُ مِنَ خَيْبَتِهِ...﴾ [الرعد: 13-14].

إن هذه العوالم والألوان والأصناف والأجناس والأنواع، صادرة عن كينونة واحدة وكتلة متحدة، وقد كانت في بدء خلقها وإنشائها مترابطة ملتزمة كقطعة واحدة، ثم فتق الله هذه الوحدة وفصل بين عوالمها وبث الحياة في أرجاء كل عالم بتقديره وتدبيره بميزان وحسبان، يشهد تناسق هذه العوالم وانتظامها وترابطها وحسن تركيبها وتناسب وضعها على وحدانية الخلق فيها: «إذ وحدة الأسلوب في كتاب الكون تدل على وحدة المنشئ، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ﴾ [المك: 3].⁽¹⁾



= كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْفَهْرُ ﴿١٨﴾ [الرعد: 18]. فهذه المظاهر الكونية المتعددة والمتنوعة ناجمة عن كينونة واحدة وأصل واحد.

(1) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل. ص: 46.

المطلب الثاني: وحدة الأصل في خلق الأحياء وتنوعها.

إن من المناسبات السياقية في آية الرثق والفتق أن تحدث عن خلق الأحياء من ماء فقال جل جلاله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْفًا بَقِيتَٰنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، فأخبرت عن أصل واحد ترجع إليه كل الكائنات والمخلوقات الحية، هو مهد الحياة الأول، وهو أصل كل الأحياء،⁽¹⁾ ووحدة البناء في كل كائن حي نباتا كان أو حيوانا، منه خلق، وبه ينمو ويزهو، وإذا ما انعدم آل إلى العدم، وصار إلى الزوال والهلاك، قال عبد الكريم الخطيب في تفسير الآية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30] «فهو أصل كل حي، وبذرة كل حياة في عالمنا هذا الذي نعيش فيه، فالإنسان والحيوان والنبات قوامهم جميعا الماء الذي به لبست ثوب الحياة، وتستمد منه بقاءها ووجودها، فإذا افتقدت الماء عادت إلى عالم الموات، وهذه الحقيقة قد أصبحت من مقررات العلم الحديث».⁽²⁾

فمن الماء الواحد تخرج عوالم وأجناس متعددة، وأصناف وأنواع متميزة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ﴾ [الناس والدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ] [فاطر: 27-28]. ثمرات مختلفة الألوان والأشكال والأطعمة والفوائد تسقى بماء واحد، ﴿وَفِي الْأَرْضِ فِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ

(1) ينظر: تفسير ابن كثير، 340/5.

(2) التفسير القرآني للقرآن. 868/9.

صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ تُسْفِي بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَبْضِلَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْمِلُونَ ﴿٤٣﴾ [الرعد: 4]. فأصل ما ينبت على الأرض من
شجر ونخل وعنب وزرع وزهر وثمر ماء واحد أنزله الواحد من السماء وسلكه ينابيع في
الأرض ومجاري بين السهول والهضاب، والتلال والجبال، لا يعلم مداها ومجراها إلا خالقها
سبحانه، وهي شاهدة لمن تأمل على وحدة المصدر؛ وحدة الأصل الذي به تحقّق الحياة على
الأرض، سواء ما كان حياة نباتية، مما أشارت إليه الآية السالفة، أو حياة حيوانية وهو الذي
صرح به قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: 43].

فبعد أن كان الكون ملتحما متحدا بعضه ببعض، فتق الله سبحانه السماوات عن
الأرض، ثم فتق السماوات وجعلها سبعا والأرض سبعا،⁽¹⁾ وفصل بين السماء الدنيا
والأرض بالهواء، وأمطرت السماء، فأنبتت الأرض، ودبت الحياة شيئا فشيئا، وذلك كله
تجل من تجليات وحدة الخالق، وقدرة الواحد، ووحدة الكون في أصل الخلق، فالوصف
واحد وهو الاتحاد والرتق، والأصل واحد وهو الماء، والتصوير القرآني لمراحل الامتداد
والتوسع والبسط والإنشاء لفروع هذا العالم الفسيح إنما هو تدبير للملكوت السماوات
والأرض وتعبير فعلي عن واحدية الصانع سبحانه.

هذا الأصل للأحياء يشترك فيه الإنسان أيضا فهو من نفس عناصر الكون، يشمل
الخلق من ماء ويدخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]
ووحدة التكوين هذه جامعة بينه وبين العالم المحيط به، فيرتبط به ارتباط تناغم وتوافق
وتوحد.

(1) كان الجميع متصلا بعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل
السماوات سبعا والأرض سبعا. (ينظر: تفسير ابن كثير، 339/5).

«وسياق سورة الأنبياء يعالج موضوع الوحدة هذه بعرض النواميس الكونية الكبرى التي يسير عليها هذا الكون، ومن ثم يحول بالناس . . بقلوبهم وأبصارهم وأفكارهم... بين مجالي الكون الكبرى: السماء والأرض. الرواسي والفجاج. الليل والنهار. الشمس والقمر... موجهاً أنظارهم إلى وحدة النواميس التي تحكمها وتصرفها، وإلى دلالة هذه الوحدة على وحدة الخالق المدبر، والمالك الذي لا شريك له في الملك، كما أنه لا شريك له في الخلق... ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَبَسَدَتَا۟﴾ ثم يوجه مداركهم إلى وحدة النواميس التي تحكم الحياة في هذه الأرض، وإلى وحدة مصدر الحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وإلى وحدة النهاية التي ينتهي إليها الأحياء: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ وإلى وحدة المصير الذي إليه ينتهون: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾».(1)

والعقيدة وثيقة الارتباط بتلك النواميس الكونية الكبرى. فهي واحدة كذلك وإن تعدد الرسل على مدار الزمان: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يُوجِيٓءُ إِلَيْهِۚ أَنَّهُۥ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا۟ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، فالوحدة في الكون قائمة على أساس عميق يمتد في جذوره إلى أصل الخلق، ومن الطبيعي أن يمتد هذا الأساس إلى جميع مكونات هذا الكون، لأن الكل صادر عن إرادة واحدة، متصل بمصدر واحد، منبثق من أصل واحد أخبر عنه الواحد جلت قدرته. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وقد ارتبط هذا الاتحاد في عوالم الكون ونواميسه بوحدة العقيدة في هذه السورة وغيرها من سور القرآن وهذا دليل النظم القرآني على أن هذا الدين إنما جاء ليوحد الأناسي والأكوان، ويجمع بين مختلف بني الإنسان.



(1) في ظلال القرآن، 2364/4-2365.

المطلب الثالث: وحدة الخلق الإنساني.

إن ما سبق تقريره من الحديث عن وحدة الخلق والكون واعتباره في مبدأ النشأة والإيجاد كتلة واحدة وشيئا واحدا يسري على الإنسان أيضا لأنه مكون من مكونات هذا الكون وجزء لا يتجزأ من عناصره. انفصل عنه في بدء الخلق حيث خلق الله آدم من تراب الأرض ليكون محور الخطاب، ومركز التكليف الإلهي بالنظر في الآفاق والأنفس، والتدبر في الآي والسور، وامثال الأمر والنهي، وتصديق القصص والخبر... وقد ورد في الذكر الحكيم ما يشير إلى وحدة الخلق من تراب للجنس البشري ممثلا في أبينا آدم عليه السلام؛ أصل البشرية ومبدئها الإنساني وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَبَرْتَ بِالذِّمَّةِ خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ رَجُلًا ۖ﴾ [الكهف: 36]، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْقَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْفَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِّنَبِّئَ لَكُمْ وَنُفِرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: 5]، وقوله عز من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۖ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: 19-20]، وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْقَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: 11]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ

مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْقَةٍ ثُمَّ مِّن عَافَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ
ثُمَّ لِّتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّى مِّن قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْفَلُونَ ﴿٦٧﴾ [غافر: 67].

وظواهر هذه النصوص تفيد أن كل الناس قد خلقوا من تراب، وللعلماء في تعليل ذلك وتأويله قولان:

- الأول: أن معنى خلقه للناس من تراب أنه خلق أباهم آدم منها ثم خلق منه زوجه ثم خلقهم منهما عن طريق التناسل، فلما كان أصلهم الأول من تراب، أطلق عليهم أنه خلقهم من تراب؛ لأن الفروع تبع للأصل.⁽¹⁾
- الثاني: أن خلقه الإنسان من المني ودم الطمث وهما إنما يتولدان من الأغذية، والأغذية إما حيوان أو نبات، وغذاء الحيوان ينتهي قطعاً بالتسلسل إلى النبات، والنبات إنما يتولد من الأرض و الماء، فصح قوله: ﴿بِإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ﴾.⁽²⁾

وأيا كان المعنى فإن الحقيقة الظاهرة أن الناس جميعاً قد خلقوا من تراب أصالة أو وساطة، وهم بذلك مشتركون في أصل المنشأ متحدون في مبدئه متفرعون منه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: 19] فالإنسان ابن هذه الأرض من ترابها نشأ ومنه تكون وبه عاش، وما في جسمه من عنصر إلا له نظيره من عناصر أمه الأرض. عدا ذلك السر اللطيف الذي أودعه الله إياه ونفخه فيه من روحه، وبه تميز عن عناصر التراب «لكنه أصلاً من التراب عنصراً وهيكلًا وغذاءً».⁽³⁾

(1) ينظر: أضواء البيان، 22-21/5، بتصرف، التحرير والتنوير، 197/17، وتفسير الرازي، 8/23.

(2) تفسير الرازي، 8/23.

(3) في ظلال القرآن، 2409/4.

وتسترسل الآيات القرآنية في بيان وحدة الخلق الإنساني في مراحل التكون والتشكل، مستتبعة المرحلة الأولى -مرحلة التراب- بمرحلة ثانية هي مرحلة الطين، وقد وردت نصوص الكتاب متظافرة صريحة في الإخبار عن خلق الإنسان من طين منها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 3] وقوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12] وقوله عز من قائل: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: 6]. (1)

وهذه الآيات إذ تنبئ عن إحدى مراحل تكون الإنسان، توحى إلينا فيما توحيه من حقائق وبصائر أن الوحدة هي أصل البشرية منشأ وتطورا. (2)

وإذا تتبعنا مراحل النشأة و الخلقة الآدمية؛ أصل الخليقة الإنسانية، نشهد هذا الإيماء القرآني، فالتعبير بلفظ البشر والإنسان المفيدان للعموم مما يستقى منه الإشارة إلى وحدة الأصل دائما، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: 26]، وقوله جل جلاله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنَّي خَلِقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: 28]، وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْعَبْجَارِ﴾ [الرحمن: 12]. ففي هذه الآيات وسابقتها سمي آدم في معرض الإخبار عن خلقه - بشرا وإنسانا - وهو ما يقتضي التنبيه على وحدة الجنس البشري، والمتتبع لذكر آدم باسمه في القرآن يجد أن ذلك لم يرد في ذكر خلقه إلا مرة واحدة في قوله

(1) تنظر الآيات: [الصفات: 11] - [ص: 71] - [ص: 76] - [الأعراف: 12].

(2) قد يستوحى من الآيات معان أخرى مثل عدم التفاخر والتباهي ما دام الطين أصلنا وكذا المساواة بين البشر وعدم الغلو في أي كان ورفعته إلى درجة الألوهية...

تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 58].

وما عداه من الآيات جاء في الإخبار عن بعض قصته تعليماً للأسماء، وأما بالإنباء، وإسكانا له الجنة، واصطفاء له، وعهدا إليه، وتحذيراً من عدوه، وإخباراً عن الأمر بالسجود له.⁽¹⁾ وأما الإخبار عن خلقه فجاء التعبير عنه بوصف البشرية والإنسانية...⁽²⁾ وهذا يلح إلى وحدة الأصل للإنسانية جمعاء.



(1) ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 30]، ﴿فَالَ يَتَّعَادَمُ أَنْبِيئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: 32]، ﴿وَفَلَّنَا يَتَّعَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 34]، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: 33]، ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ﴾ [طه: 112]، ﴿فَفَلَّنَا يَتَّعَادَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: 117]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِءَادَمَ﴾ [البقرة: 34].

(2) ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾، ﴿خَلَقُوا بَشَرًا﴾.

المطلب الرابع: وحدة النفس البشرية.

بعد الحديث عن أطوار الخلق والإنشاء لهذا الكون الفسيح - والإخبار عن كينونته وحدة ملتحمة مترابطة، والإنباء عن بدء خلق الإنسان من تراب ثم أطوار تشكله واستوائه وتكوينه طينا، فحماً مسنونا ثم صلصالا، ثم انتقاله بعد ذلك نطفاً تتناسل في الأرحام، وتُحمل وهنا على وهن، وهو في منشئه جزء منفصل عن تربة الأرض - متشكل منها - مقبوض من طينها ليكون الخليفة في هذه البسيطة، بما حباه الله من صفات وسمات تمايز بها عن أصله ومنبته.

بعد هذه الأطوار نجد الآيات القرآنية تشير مرة أخرى إلى وحدة النوع الإنساني والجنس البشري، وتذكره باسم النفس الواحدة، وهو وصف صريح الدلالة على وحدة هذا المخلوق في أصله الذي يمثل جامعا للناس كلهم رغم اختلاف أجناسهم وأعراقهم وشعوبهم ومعتقداتهم، وذلك في الآيات التالية:

✓ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1].

✓ وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ قَصَصْنَا أَلَايَتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 99].

✓ وقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189].

✓ وقوله عز من قائل: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَرْوَاجٍ﴾ [الزمر: 7].

ولن تكون هذه النصوص القرآنية المكية والمدنية المقررة للأصل الواحد والمذكورة به عارية عن مقاصد وغايات، وحكم وعظات، لعل أهمها التنبيه على وحدة النفس البشرية -

التي تعددت وتشعبت فصارت أمما وقبائل وشعوبا وعشائر - لتغدو إلى أصلها، وتؤوب إلى نفسها، وتسترجع لحمتها، وتتحد مع نظائرها وتتجاوز الوجود الفردي ويتحرك فيها البعد الجماعي التلاحمي.

وبتأمل الآيات الأربع السالفة، بدءا من سورة النساء، نجد الإعلان الصريح لأصل البشرية والتذكير به مقرونا بالأمر بتقوى الله المتصف بالربوبية، الخالق للإنسانية جمعاء، فكل البشر لآدم وآدم من تراب - تجمعهم خصائص موحدة - وتوحدهم تربة واحدة، وكل اختلاف في الألوان والألسن والميول والطباع والزمان والمكان، إنما هو اختلاف تنوع يزيد الوحدة تأكيدا وتثبيتا. وهذا المعنى يتناسب وسياق الآية القرآنية من سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: 99] حيث تطرق المولى سبحانه بعدها إلى اختلاف الحب والثمار والأشجار مع وحدة الماء الذي تسقى به، وكأنه إشارة إلى وحدة الأصل وتنوع النتائج والثمرات، كما هو شأن خلق الأمة الإنسانية من أصل واحد وماء دافق، وتنوع المذاهب والمشارب، وتعدد الأجناس والألسن.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا فَنَوَاقِدَ دَانِيَّةٍ وَجَنَّتٍ مِّنْ أَغْنَبٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ⁴ نَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ⁵ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنعام: 100] إن التذكير بوحدة النفس والأصل والخلق والمنشأ والتكوين لبنة أساس في طريق بناء وحدة الأمة.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالنفس الواحدة في الآية هو آدم وحواء.⁽¹⁾ وهو تفسير يؤكد المغزى الذي لأجله سيقّت الآيات: إنه التعبير عن وحدة الأصل الإنساني واشتراك كل البشرية فيه، فلا وجه لأن يتعالى بعضنا على بعض أو يفخر بعضنا على بعض ونحن رحم واحدة ونفس واحدة. وهذا ما يحقق ما لأجله جعل الناس شعوبا وقبائل، وبث منهم الرجال والنساء، وهو التعارف والتآلف والتكاتف والتعاطف.

قال ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة وأنه بثهم في أقطار الأرض مع رجوعهم إلى أصل واحدة ليعطف بعضهم على بعض، ويرفق بعضهم على بعض...»⁽²⁾ وهذا ما تقتضيه الفطرة الإنسانية والجبلة الآدمية، ولذلك ورد الأمر في سياق الآية نفسها ببر الأرحام وهو أمر ثابت حتى مع الرحم المشترك،⁽³⁾ لأن الإنسانية هي مناط الوحدة وداعية التعاطف والألفة سواء كان الناس على عقيدة واحدة أو اختلفت مشاربهم ومذاهبهم.

فأخوة الأصل الواحد تستلزم المحبة والمسالمة، وتقتضي التآزر والمعاونة، وتنفي كل عوامل النفرة والمخاصمة، والبغض والمنازعة. والبشرية في محضنها الأول ومنشئها وحدة واحدة، ونفس واحدة وأسرة واحدة، وإن كان ثمة صفة تخول لفئة أو جنس أو عرق أو شعب أو شخص أفضلية، فإنما هي تقوى الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ﴾، وهو ما دعت إليه الآية من سورة النساء في مطلعها.

(1) تفسير الطبري، 7/ 515. تفسير ابن كثير، 2/ 206. تفسير القرطبي، 6/ 6.

(2) تفسير السعدي، ص: 163.

(3) كما جاء في قصة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: إن أمي قدمت علي راغبة وهي مشركة أفصلها؟ قال: نعم صلي أمك. صحيح البخاري كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج، ح: 5979، 4/ 154. فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يَنْهَيْكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ فبر ذوي القرى أولى.

وتذكير الناس بهذا الأصل الإنساني الواحد في مطلع السورة مقدمة للكلام عن حقوق الأيتام والأرحام، وأحكام القرابة والنسب والمصاهرة. وفيه بيان للعلاقة الإنسانية التي تربط بعضهم ببعض، وتثبت أن الناس جميعاً أمة واحدة بحكم الخلق والتكوين، وتلكم إشارة إلى المعنى الإنساني الجامع، وتذكير به لما يوطئه من حفظ حقوق الضعفاء على مجموع الأمة، ثم على أفراد الأسرة بما يضمن رعايتهم وإقامة دعائم البيت المتماسك الذي يمثل خلية التكوين الإنساني والاجتماع البشري بحيث يتربى فيه الإنسان على الإلف والائتلاف.

إن توجه الخطاب القرآني في الآيات كلها إلى البشرية جمعاء - خَلَفَكُمْ -

أَنْشَأَكُمْ - تذكيراً لها بنعمة الإنشاء يدل على ربوبية الخالق واستحقاقه للعبودية دون من سواه ويرشد إلى الدعامة الأساسية لتحقيق وحدة الأمة المنشودة والألفة المرجوة؛ إذ إيجاد جميع البشر من نفس واحدة ثم تفرعها إلى ذكر وأنثى ثم إلى أجناس و أعراق وألسن وألوان، إنما ذلكم من آيات الله؛ حيث صدر الأمر عن إرادة واحدة وصلت الكل برحم واحدة تلتقي في أصل واحد وتتسبب إلى نسب واحد، وهي حقيقة لو وعيها الناس وفقهوها واستحضروها لتضاءلت لديهم كل الفروق الطارئة والفوارق الناتئة، ولحققوا مقصد الشارع من هذا الاختلاف والتنوع الذي هو سبيل إلى تعارف الخلق وتعاونهم على البر والخير، وهذا ما دلت عليه الآيات الواردة في السياق القرآني العام.

قال محمد رشيد رضا (ت: 1354هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «... وفي التذكير به - أي إنشاء الخلق من نفس واحدة - إرشاد إلى ما يجب من شكر نعمته، ومن وجوب التعارف والتآلف والتعاون بين البشر، وعدم جعل تفرقهم إلى شعوب وقبائل مدعاة للتعادي والتقاتل»⁽¹⁾. وهذا يحتاج من العقلاء دقيق فهم، للاحتراز من الوقوع في مشاريع الصراع التي يهمس بها الشيطان في آذان الكثيرين، والإخلال بمراعاة حقوق الأخوة الإنسانية، واللحمة النفسية الواحدة، إذ رجوع الجنس البشري كله إلى أصل واحد أدعى إلى التواد والتراحم وأقرب إلى

(1) تفسير المنار، 639/7. وينظر: تفسير المراغي، 201/7.

التآلف والائتلام، وأحسب أن الآية ختمت بقوله: ﴿فَدَقَّصَلْنَا أَلَايَتِ لِفَقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 99]، للإشارة إلى هذا المعنى العميق الذي تقرر في غير ما آية من كتاب الله، تذكيراً بوجوب التزام حدود الإنسانية بما تقتضيه من المسالمة والتعاون على البر والخير، ونبذ المنازعة والمحاربة.

وهذا المعنى القرآني العظيم يتأكد بوضوح في كل من آية الأعراف ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]. وآية الزمر ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزْوَاجًا﴾ [الزمر: 7].

فهذا العالم البشري كله مخلوق من نفس واحدة - منها تكاثروا وتناسلوا وتوالدوا، وفي هذا الإخبار القرآني والتذكير الرباني ما فيه من المنة بالنعمة والتنبيه إلى وحدة الأصل والنفس مهما تباعدت الأبدان واختلفت الأديان وتوارت البلدان وتباين اللسان، فهم جميعاً من جنس واحد وأصل ومنبت واحد منه بدأ رب الخلق الخلق.

وبيان هذه العلاقة الإنسانية والوحدة الأصلية التي تربط الناس بعضهم ببعض وتذكيرهم بها، وتكرار ذلك في مواطن عدة من القرآن الكريم، هو إشارة إلى هذا المعنى الإنساني الجامع وتذكير برابط قوي وقاسم مشترك جلي يعلو به الإنسان عن الأحادية والانفرادية ليحقق الوجود الإنساني الجماعي المستخلف في الأرض.



المطلب الخامس: الأسرة ووحدة النظام الزوجي.

إن الأسرة هي النواة الأولى في النسيج الاجتماعي، واللبننة الجوهرية في بناء المجتمع الإسلامي، وهي الخلية الرئيسة للأمة الإنسانية عموماً وللأمة الإسلامية خصوصاً، وقد حظيت في القرآن الكريم بمنظومة تشريعية متكاملة، تنظم علاقاتها، وتحفظ حقوق أعضائها، وترعى مصالح أفرادها، وتزيل ما قد يكون سبباً في النفرة أو سبيلاً إلى الوحشة. وتواردت التوجيهات القرآنية والإرشادات الربانية التي تحث على تبادل اللوائم، وحفظ الائتلاف، وتسجية البيت الأسري بغطاء من القداسة والروحانية، وسياج من مشاعر المودة والرحمة؛ لإقامة مجتمع مترابط الفئات، متماسك اللبنة، متكاتف المكونات، تتألف عناصره لتكون أمة واحدة متفقة متآخية.

والزواج في التشريع الإسلامي هو النظام الوحيد لتكوين هذه الأسرة، وهو منشئ لروابط متعددة، أفقية وعمودية، ومؤسس لصلوات اجتماعية متفرعة وممتدة قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: 54]، قال ابن كثير: «فهو في ابتداء أمره ولدٌ نسيبٌ، ثم يتزوج فيصير صهراً، ثم يصير له أصهار وأختان وقربات»،⁽¹⁾ فتتسع دائرة التعارف بين الناس، وتزداد الروابط قوة، والأواصر تماسكاً، ولا تتوقف العلاقات الاجتماعية عند مجرد النسبية: أبوة وأمومة وبنوة، بل تمتد وتتسع فيضم المرء إلى أسرته أسرة بل أسرا، ويصير الأمر إلى أصهار وأخوال وخالات تتسع بهم دائرة الألفة وتتوطد روابط المودة، قال جل جلاله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَقَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَقْبَالِ بَطِلِ يَوْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾

(1) تفسير ابن كثير، 117/6.

[النحل: 72]. فمن هذه الزوجية تنطلق الصلات البشرية والعلاقات الإنسانية، وتتمدد بقدرة الرب الكريم⁽¹⁾ لتشكل أمة قوية دافعة للشر متدافعة مع الباطل وأمة الفساد.

والم تأمل في الآيات التي أخبرت عن خلق البشرية من نفس واحدة يلحظ أنها قد أخبرت عن مرحلة أخرى من مراحل تكون الأمة الإنسانية، وهي مرحلة خلق الزوجة من الزوج نفسه، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى صفة الوحدة بين الزوجين، والترابط الخُلقي بين الطرفين، قال تعالى: ﴿خَلَفَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1]. وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: 189]. وقال عز من قائل: ﴿خَلَفَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: 7]. فذكر بأصل الخلق الواحد، وأن الزوجين من نفس واحدة،⁽²⁾ تهيئاً للسلوك وتهيئاً للإنسان ليبنى بجزئه الثاني، وشريكه التكويني «لما بين الاثنين، إذا كانا من جنس واحد، من الألفة والمودة والسكون»⁽³⁾، فينعما بالأمن والسكينة والسلام، ويسعيا معاً لتحقيق مهمة الاستخلاف، والتحقيق بصفة العبدية لله عز وجل.

فليست العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة متعة فقط، وضرورة من ضرورات الفطرة الجبلية فحسب، تسكت صيحات الجسد، وتهدي من روع الشهوة وولع الغريزة، بل هي «نظام رباني للإنسان ملحوظ فيه كل خصائص الفطرة الإنسانية وحاجاتها ومقوماتها... ثم تتدرج النظرة الإسلامية للإنسان فتذكر النفس الأولى التي كان منها الزوجان، ثم الذرية، ثم

(1) لتكون بذلك "أصل نظام الاجتماع البشري لتكوين القبائل والشعوب وتعاونهم مما جاء بهذه الحضارة المرتقية مع العصور والأقطار". (التحرير والتنوير، 56/19).

(2) مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: 72]. وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ-أَيْلَتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: 21]. وهذا مبسوط في كثير من نصوص القرآن الكريم.

(3) البحر المديد، 332/4.

البشرية جميعاً: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ بِتَفْوَأٍ رَبِّكُمْ أَلَدِ خَلْفَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَفِيبًا﴾ [النساء: 1]،⁽¹⁾ فكان الآية تصوير لتكوين الأمة البشرية بدءاً من النفس الواحدة، انتقالاً إلى الزوجية والعلاقة الأسرية، تحولاً بعد ذلك إلى الأمة الإنسانية المبتوثة في أرجاء الأرض، والتعقيب القرآني: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَفِيبًا﴾، تنبيه إلى ما يعقب العلاقات الإنسانية عموماً والعلاقات الزوجية الأسرية خصوصاً من محاسبة ومراقبة صونا للحقوق ورعاية للواجبات وحفظاً للعلاقة والرابطة.

إن الأحكام الشرعية والآداب القرآنية لتشكل تنظيمات ربانية للجوانب والمقومات التي يقوم عليها هذا النظام الاجتماعي والترابط الأسري، ويحفظه من كل أشكال النزاع وعوامل الصراع التي قد تنحرف به عن مقصد الإنشاء وغاية الالتقاء. وبيت الزوجية ومحض الأسرة هو الفرع الذي يتكامل مع أمثاله ليكون الأمة في اتساعها وعظمتها، ويتوقف على صحة هذا الفرع صحة الأمة وقوتها وتماسكها وامتدادها، ولذلك كان من الدعامات الأساسية كي لا تبقى الأسرة مجرد خلايا مجتمعية متفرقة ومنعزلة، ولتحقق ما أريد لها من بناء أمة شامخة؛ ما أكد عليه القرآن من قيم أخلاقية إنسانية وعاطفية تغمر العلاقات الأسرية، وتحفظ الروابط الاجتماعية، وتحقق القصد الشرعي من تشريع النكاح، والذي نصت عليه الآية الكريمة تصريحاً في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ - آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 20]، فالتوجيه القرآني إلى ما تتطلبه العلاقة من قيم

(1) في ظلال القرآن، 234/2-235.

وجدانية منطوق وصريح، وبهما يتحقق التلاؤم والانسجام، ويغرس الود والوئام بين كل أفراد بيت الزوجية، وقد هيا الله أسباب ذلك جيلةً بأن «خُلِقَ كُلُّ من الجنسين على نحو يجعله موافقا للآخر، مليا لحاجته الفطرية: نفسية وعقلية وجسدية، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار، ويجدان في اجتماعهما السكن والاكتفاء، والمودة والرحمة، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ملحوظ فيه تلبية رغبات كل منهما في الآخر، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد»،⁽¹⁾ ثم ينتقل ذلك بعدُ مع امتداد الأسرة إلى علاقات النسب والمصاهرة، وما يتفرع عنهما من قرابات البنوة والأخوة والعمومة والخؤولة، وصلات الأرحام، وكلها علاقات تحكمها قيم الإرفاق والإحسان، ومشاعر المودة والحنان، والمعاملة الطيبة، والرعاية الحسنة، لتشكل وحدات لبناء الأمة التي وُصفت بالجسد الواحد الذي يتداعى كل عضو فيه لما قد يصيب أحد أطرافه.

فالسكينة والطمأنينة والمحبة والرحمة بين الزوجين هو ما ينبغي أن يسود العلاقة الزوجية، وإذا غابت هذه المعاني، وهانت وضعفت، صارت البيوت أوهن من بيت العنكبوت، وآلت إلى التعاسة والهموم، والشقاوة والغموم، وانفصمت العلاقات العاطفية، وانتشرت الجوامع الشعورية، وصار البناء الأسري آيلا للسقوط عند أدنى عاصفة خلاف واختلاف. وإن الأسرة إذ تمثل الخلية الأصلية للأمة والنواة الصغرى لها؛ هي المدرسة الأولى التي يتشرب فيها الفرد قيم التعاون المشترك، والتكامل مع المكونات الأسرية الأخرى، والالتزام بالمسؤولية، والقيام بالواجبات، وأداء الحقوق، والتعامل بالبر والإحسان، والمودة والاحترام، فينشأ على ما به صلاح علاقاته خارج إطار البيت، لأن المقصد الاجتماعي العام للأسرة هو أن تكون عامل وحدة اجتماعية، وذلك بما يفضي إليه بناؤها ابتداء وتصرفاتها بعد البناء امتدادا من تقوية اللحمة بين أفراد المجتمع وفئاته، فتكون منطلقا لما يسود الأمة من تآلف، وما يعمها من قيم أخلاقية، وما يربط أفرادها من صلوات ود ومحبة، والمتدبر في نصوص الشريعة الموجهة لنظام الأسرة بدءاً من التوصيف الخُلقي والتقدير

(1) في ظلال القرآن، 5/2763.

الكوني، مروراً إلى التأديب الشرعي والتشريع القرآني يظهر له جلياً مقصد الاجتماع والتآلف، ولذلك استحث القرآن العقل البشري ليتفكر ويتبصر في هذه العلاقة فقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 20]، ولن تزال الأسرة عامل وحدة للأمة ما تخلقت بهذه القيم الأخلاقية العاطفية، والتقت الأنفس فيها على المودة والتراحم، وحقت السكينة والطمأنينة، والتزم أفرادها بآداب الرعاية المتبادلة، والعناية المشتركة، فهذه القيم هي وسائل استبقاء العلاقة، واستيفاء الحاجيات، وتقوية الأواصر الاجتماعية، والتغافل عن كل تقصير وتفريط، ودرء أسباب التنافر والتدابير. قال الشعراوي (ت: 1418هـ) رَحِمَهُ اللهُ في تفسير الآية: 20 من سورة الروم الآنفه: «ولو تأملنا هذه المراحل الثلاثة لوجدنا السكن بين الزوجين، حيث يرتاح كل منهما إلى الآخر، ويطمئن له ويسعد به، ويجد لديه حاجته... فإذا اهتزت هذه الدرجة ونفر أحدهما من الآخر جاء دور المودة والمحبة التي تمسك بزمام الحياة الزوجية وتوفر لكليهما قدراً كافياً من القبول. فإذا ما ضعف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة فيرحم كل منهما صاحبه... يرحم ضعفه... يرحم مرضه... وبذلك تستمر الحياة الزوجية ولا تكون عرضة للعواصف في رحلة الحياة».(1)

إن للعلاقة الزوجية قداستها، ولها مكانتها وأهميتها في تشكيل أمة متماسكة، فهي الميثاق الغليظ بنص القرآن، والذي ينبغي أن يلتزم فيه كل شريك بما يلزمه به العقد والميثاق من آداب وواجبات، وأخلاق ومسؤوليات، ويعلم أن أي إخلال بشروط الميثاق وأخلاقياته هو إضرار بالنفس أولاً، وبالشريك ثانياً، وبالمؤسسة الأسرية ثالثاً، وبالأمة تبعاً ولزماً، لذا يجب أن يحرص كل فرد على استدامة الرابطة، واستبقاء الوشيجة، وحفظ مرتكزات الاستقرار وأسس الاستمرار في العلاقة - وهي هذه الوشائج الوجدانية الشعورية العاطفية-، والتي ينبغي أن تزداد توسعاً وتمتدداً بازدياد توسع الأسرة وتمددتها، بالبنين

(1) تفسير الشعراوي، 8077/13.

والحفدة، وهو التوسع الذي وصفه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَرْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: 72]، فالبنين والحفدة امتداد للعلاقات التي انطلقت من الأسرة، وتفرع من تفرعاتها، وهي بذور تحتاج أن تسقى بماء الود والمحبة، والحنان والرعاية لِتَمْتَنَ وتستوي على سوقها، ولن يصل الماء إلى الفروع ما لم تتشربه الجذور والأصول. وهذه العناية بمكونات الأسرة هي التي جاءت في التصوير القرآني للعلاقة الزوجية في قوله سبحانه: ﴿يَسَآوُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ قَاتُوا حَرْثَكُمْ﴾ أَيْ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُّكْفَوَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢١﴾ [البقرة: 221]، تمثيلا بحاجة الأرض إلى عناية الحارث لها تنقية وتسوية وتسقية واستصلاحا، وحاجة البذور إلى الرعاية والعناية ريا وتغذية وتربية وإصلاحا «فكما أن الحارث لا ينتهي عمله في الحرث بمجرد إلقاء البذرة فيه، بل يكون من واجبه بعد ذلك أن يسمده ويرعاه ويسهر عليه، كذلك ليست المرأة بمزرعة يلقي من يمر بذره كيفما اتفق فتنبت شجرة برية، بل هي إذا حملت تحتاج إلى حارثها برعايتها وكفالتها»⁽¹⁾ فيضطلع الزوج بتبعات هذه العلاقة، ويتحمل أعباءها، وفي واجباته التربوية، ويقوم بمسؤولياته الأخلاقية، والتزاماته المادية، ورعايته الأبوية، ويُمكن النوع الإنساني من عوامل البقاء والاستمرار، والتكاثر والانتشار، ويؤهل أهل البيت لتدبير شؤون الحياة، والنهوض بمهمة الاستخلاف، وتشكيل الأمة الشاهدة.

وقد أكد النص القرآني والكناية الربانية على ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة الزوجية من قوة الترابط والالتحام، والتلازم والالتزام، بعبارة بليغة في معناها عميقة في مغزاها في

(1) الحجاب لأبي الأعلى المودودي، تعريب محمد كاظم السباق، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 1384هـ - 1964م، ص: 221.

قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187]،⁽¹⁾ وفي ذلك: «تنويه بعلاقة الزوجين ببعضهما، وما يجب أن تقوم هذه العلاقة عليه من الصفاء والتعاطف والتواد والتمازج حتى يغدوا كشخص واحد وروح واحدة وقلب واحد»،⁽²⁾ متلازمان ملازمة الثوب لصاحبه، لا يستغني عنه، ولا يكمل بدونه، يستر عورته، ويقيه الحر والقر. وكذلك العلاقة بين الزوجين تلازمية تشاركية توافقية، تكسوها المشاعر المتدفقة، والأحاسيس المتبادلة، وهي التي تبني بيت الزوجية المشيد، وتُشيد بناء الأمة المجيد، والإخفاق في صون هذه المشاعر وحفظ هذه العواطف تتعدى عواقبه الوخيمة إلى الأولاد تربية وبناء وتكويننا وتعليمنا وتديننا، فيؤثر في جيل يؤمل فيهم بناء نهضة الأمة.

إن بناء الأسر بناء للأمة، وتخريبها تخريب لها، والأسرة القوية المترابطة المتحابية عماد الأمة القوية المتلاحمة، وغياب خصال الود والتراحم بداية دمار للبناء، وإشعار بزوال اللقاء، وعقد النكاح وإن بقي قائما إلا أنه في الحقيقية صوري ومن جوهر مقاصد النكاح خواء، وجو العلاقة بين الزوجين مؤذن بقرب الشقاق والفراق. وقد فقه إبليس هذا الدور للأسرة وعلم أهميته فجعل أعظم مكافأته لمن أتى على هذا البناء بالهدم، وقَدَّر على الردم، فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يحيي أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال: ثم يحيي أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ثم يقول: نِعَمْ أَنْتَ». ⁽³⁾ لعلمه بما في ذلك من إفساد النسيج الاجتماعي وإضعاف الأمة الإسلامية. ولذلك حاول فرعون تدمير الأسرة وإلغاء دورها ورسالتها والقضاء على

(1) قيل في معنى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾. قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان: "يعني هن سكن لكم، وأنتم سكن لهن". (تفسير ابن كثير، 510/1).

(2) التفسير الحديث، ترتيب السور حسب النزول لمحمد عزت دروزة. دار الغرب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثانية: 1421هـ - 2000م. 317/6.

(3) صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينا، ح: 2813، ص: 715.

إنتاجها ضمانا لاستمرار فساده، لعلمه أن الأسرة كيان له اعتباره وتأثيره في تغيير القوى الكبرى، وليست مجرد علاقة جزئية هامشية غير فاعلة.

فالعلاقة الزوجية هي حجر الأساس في بناء المجتمع وتشكيل الأمة الواحدة، وكلما تمّتن الحجر كان البناء أمتن وأشد وأصلب، وأقدر على مواجهة الهزات والصدمات، ومكابدة الشدائد والأزمات.



المبحث الثاني وحدة التصور العقدي

المطلب الأول: أثر توحيد الربوبية في تحقيق وحدة الأمة.

ومعنى توحيد الربوبية أن الله وحده هو الرب الخالق، المسير للكون دون سواه، وهو الذي بيده الخلق والتقدير، والرزق والتدبير، قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: 18]. وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [البقرة: 255]. ﴿لَهُ مَفَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أَذْوَبيكَهُمُ الْخَسِرُونَ﴾ [الزمر: 60-59]، وقال جل جلاله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَفْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2]، وقال تعالى مثبتاً صفة الرازقية وهي من مقتضيات ربوبيته لخلقه: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ تَوَكُّونَ﴾ [فاطر: 3]، وقال جل جلاله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنَ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: 31]. وأعلن أن بيده ملكوت السماوات والأرض فقال سبحانه: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 255] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ قُلْ مَنِ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: 255] سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 255] قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنبِئِ تُسْحَرُونَ ﴿٨٢﴾ [المؤمنون: 85-90] ونصوص الآي في تقرير هذا المعنى كثيرة جدا.

وهذا التوحيد هو الأساس الذي ينبنى عليه توحيد الله عز وجل في ألوهيته، لأن الخالق المالك المدبر هو المستحق وحده أن يُتوجه إليه بالعبادة والخضوع، والإنابة والدعاء... ولأنه كذلك فقد أولاه القرآن الكريم عناية بالغة حتى لا تكاد سورة تخلو من ذكره أو الإشارة إليه والتنبيه عليه، وغالبا ما يكون السياق القرآني قارنا بين الألوهية والربوبية جاعلا توحيد الألوهية من لوازم الربوبية، أو ثمرة من ثمرات الإقرار به، فتسوق الآيات الدلائل الشاهدة الناطقة بربوبيته تعالى لكل شيء ثم تنتقل إلى الأمر بعبادته وإفراده بالقصد والطاعة قال سبحانه في سورة النحل بعد أن ذكر آيات ربوبيته في الخلق والتدبير⁽¹⁾ ﴿أَقِمْنَ يَخْلُقْ كَمَ لَا يَخْلُقْ أَقَلًا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ بِالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ [النحل: 17-22]. فنفي الإلهية عن كل ما يدعى من دونه لأنها مخلوقات غير خالقة. وأثبت ألوهية نفسه وواحديته سبحانه.

وقد ترد الآيات على العكس من ذلك فتوجه الخلق إلى توحيد الألوهية ثم تستطرد في ذكر دلائل ذلك وحججه من عظيم خلقه وواسع إنعامه وإمداده قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ كَمِ إِلَهٌ

(1) تنظر الآيات من سورة النحل 3 - 21، فقد ذكرت بعض ما خلق الله وسخر لعباده وحشدت آيات الكون: سماءه وأرضه، وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وجباله وبحاره وفجائه وأنهاره وظلاله وأكفانه نبتة وثماره، وحيوانه وطيوره... وآلاءه على الناس وهم أجنة في البطون... كل ذلك توطئة للتوجيه إلى وحدة العبودية والإلهية له سبحانه.

وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٢﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْبَغُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ
اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
وَتَصْرِيْفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿١٦٣﴾ [البقرة: 162-163]. وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿١٦٤﴾ رَبُّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿١٦٥﴾﴾ [الصافات: 4-5]. وقال عز وجل:
﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيتَىٰ قَارِهُبُونَ ﴿١٦٦﴾ وَلَهُ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [النحل: 51-52].
ولو تتبعنا ما تم إحصاؤه من آيات الوحدة لوجدنا أن جلها يشير سياقاً أو سباقاً أو لحاقاً
لوحدة الربوبية وتوحيد الرب، ويطول بنا المقام إن أردنا إيراد ذلك. (1)

وأما استقصاء ما جاء في القرآن الكريم من آيات الربوبية التي سبقت برهاناً على
توحيد الإلهية، فهو استقصاء لمعظم سور القرآن وآياته، لأنها مليئة بذلك لمن تدبر كتاب الله.
وهذه النصوص القرآنية تستقطب الأنظار إلى رؤية آيات الله في الأنفس والآفاق،
وتستحث المشاعر والبصائر للإقرار بوجود الله والإيمان بأنه وحده الخالق الرازق المدبر...
وهذا يقتضي ويستلزم أن يكون هو وحده الإله المستحق للعبودية دون سواه، وهذه القضية
هي محور دعوة الرسل والأنبياء، وقطب الرحي في موضوعات القرآن، وهي مركزية قرآنية
إيمانية تغياها الوحي الرباني تقريراً وتأكيذاً وتوجيهاً، وتصويهاً لما ناقضها وخالفها.

ولأن البشرية زاغت عن هذه الحقيقة، ونقضت العهد والميثاق، وتنكرت للطرة
السليمة السوية، وزعمت أرباباً متفرقين، واستبدلت الذي هو ضلال وتيه بالذي هو خير

(1) ينظر على سبيل المثال سباق الآيات التالية: [الرعد: 16] - [الشورى: 6] - [لقمان: 28] - [الزمر: 7]. ولحاق
الآيات التالية: [الصافات: 4] - [ص: 64] - [النساء: 170] - [الزمر: 5].

وهدى، صارت فرقا متصارعة، وطوائف متنافرة، وشيعا متضاربة، لتخليها عن أعظم جامع لها، ورابط لأفرادها، وواصل لأحاديها، وهو رابط العقيدة والتوحيد: توحيد الربوبية أولا ثم توحيد الألوهية ثانيا.

أما توحيد الربوبية فلأنه الجامع للبشرية كلها خلقا وإفناء، إحياء وإماتة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْفَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَکُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَبُّ مِنْ قَبْلِ وَلِيَبْلُغُوا أَجَلَ مُمَسَّمًى وَلَعَلَّكُمْ تَعْفَلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا فُضِي أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ [غافر: 67-68]. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: 99]. وقال جل جلاله: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: 27].

قال ابن القيم رحمه الله: «فاسم الرب له الجَمْعُ الجامع لجميع المخلوقات، فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبد له، في قبضته وتحت قهره، فاجتمعوا بصفة الربوبية، وافترقوا بصفة الإلهية، فألهه وحده السعداء وأقروا له طوعا بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي لا ينبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والإخبار والخشية والتذلل والخضوع إلا له»⁽¹⁾.

فاسم الرب ووصف الربوبية جامع للبشرية، ومتوافق مع الجبلية الفطرية التي فطر الله الناس عليها، وهو يومئ إلى وحدة الأمة الإنسانية، والمتأمل للسياق القرآني في معرض الحديث عن وحدة الأمة يلحظ الاقتران بين وصف الأمة بالوحدة وبين التصريح بربوبية

(1) مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط، اعتنى به: مصطفى شيخ مصطفى. مؤسسة الرسالة، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى: 1414هـ - 2013م، ص: 33.

الرب جل جلاله، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 91]. وقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: 53].

فوصف الأمة بأنها أمة واحدة، وتذيل ذلك بذكر الرب سبحانه في الآيتين معا إشارة إلى أن وصف الربوبية بما يحمله من معاني الإيجاد والإمداد، والخلق والإنشاء، والتسيير والتسخير والتدبير هو جامع من جوامع الإنسانية ورابط من روابط الأمة البشرية، بل هو الرابط الأقوى والأوسع من بين مجموع الروابط الأخرى لشموله للخلائق كلها وللبشرية جمعاء، فلا يخلو أحد من فضل الله عليه، وإحسانه إليه، وإنعامه عليه، وخلقه وتدبير شؤونه، لأنه رب كل شيء ومليكه، وهو رب العالمين، ورب الناس أجمعين.

والرابط الذي أتى في الآيتين ليس اعتباطيا ومن قبيل الصدفة، بل يؤكد أهمية البعد العقدي ووحدة الربوبية في تحقيق الوحدة، وله دلالة الاقتراطية والسياقية التي مفادها أن وصف الربوبية لله والإقرار بذلك هو أول الجوامع للأمة الإنسانية، ولذلك كان تقديمه على الأمر بعبادة الله وتقواه.

فالأمة الإنسانية تنبثق وحدتها بالفطرة والإقرار بوحدة الرب سبحانه، والأمة الإسلامية تنبثق وحدتها بالإقرار بوحدة الرب مع الإذعان لازمه وهو توحيد الإلهية.

فالألوهية جامع الأمة الإسلامية، والربوبية جامع الأمة الإنسانية، قال ابن القيم رحمه الله: «الخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته»⁽¹⁾.

إن الارتباط وثيق في القرآن الكريم بين الربوبية وبين وحدة الخلق والكون والنظام، ولذلك يُذكر القرآن الكريم الإنسان بخصائص الربوبية هذه: الخلق، والرزق، والملك،

(1) بدائع التفسير الجامع لما فسره الإمام ابن القيم الجوزية. جمعه وخرج أحاديثه: يسري السيد محمد، راجعه ونسق مادته ورتبها: صالح أحمد الشامي. دار ابن الجوزي. الطبعة الأولى: 1427هـ، ص: 54.

والتدبير، والتصرف، والإماتة، والإحياء... ليسوق الخلق كلهم في سلك الإقرار بوحدة الرب، والاستمرار على العهد، والاستقامة على الشرع والملة.

فالذي يجعل من هذه الأمة أمة واحدة ابتداء هو اشتراك أفرادها في الإقرار الفطري بربوبية الرب سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ فَالُوا بَلَى﴾، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ مما يجعل هذا الوصف عاملاً مكيناً من عوامل الوحدة الإنسانية، وحتى تتميز بعد ذلك الأمة الإسلامية أتى الأمر الذي إذا امتثلته الأمة الإنسانية نالت وصف العبدية الخاصة وصارت هي الأمة الإسلامية المقصودة، قال تعالى: ﴿بَاعِبُدُون﴾.

قال المقرئزي (ت: 845هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم، وخالق السماوات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الألوهية... فلا ولي، ولا حكم ولا رب إلا الله الذي من عدل به غيره فقد أشرك في ألوهيته ولو وحد ربوبيته، فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها وتوحيد الألوهية مفرق الطرق بين المؤمنين والمشركين».(1)

وهذا الاقتران بين وحدة الرب ووحدة البشرية والإنسانية قد ذكر به النبي ﷺ حين قال: «أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى»،(2) وهو إعلان نبوي يؤسس لوحدة الأمة الإنسانية خلقاً ومنشأً، ويعلن ذلك في البشرية عبر الزمان والمكان، يُعلم بوحدة الربوبية، ووحدة البشرية: «فالإنسان أخو الإنسان من جهتين،

(1) تجريد التوحيد المفيد لأحمد علي المقرئزي (ت: 845 هـ) تحقيق: علي بن محمد العمران. دار الصميعي، المملكة العربية السعودية، الرياض. الطبعة الثالثة: 1436هـ-2015م. ص: 40-41.

(2) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حيث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م، ج: 23489، 474/38.

والإنسان أخو الإنسان مرتين، مرة وهي الأساس، لأن الرب واحد، ومرة ثانية لأن الأب واحد». (1)

فيؤكد هذا المبدأ القرآني في تقرير وحدة الربوبية وعلاقتها بوحدة الإنسانية بالبيان النبوي، وهذه لبنات أولى مقيمة لوحدة الأمة بدءاً من وحدة الرب المنشئ مروراً إلى وحدة النفس والأصل؛ آدم عليه السلام، وامتداداً بالزوجية والأبوة والبنوة والأخوة والمصاهرة...

وهو ما أشارت إليه الآية القرآنية في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِتِّفَاقًا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]. فمستهل السورة «تقرير لحقيقة الربوبية، ووحدانيتها، ولحقيقة الإنسانية ووحدة أصلها الذي أنشأها منه ربها، ولحقيقة قيامها على قاعدة الأسرة، واتصالها بوشيجة الرحم، مع استجاشة هذه الروابط كلها في الضمير البشري، واتخاذها ركيزة لتنظيم المجتمع الإسلامي على أساسها، وحماية الضعفاء فيه عن طريق التكافل بين الأسرة الواحدة ذات الخالق الواحد، وحماية المجتمع من الفاحشة والظلم والفتنة وتنظيم الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم، والمجتمع الإنساني كله على أساس وحدة الربوبية ووحدة البشرية...» (2)

إن الإسلام إذ يدعو إلى وحدة الأمة الإسلامية يقيم هذه الوحدة على ركائز متينة وروابط وثيقة، ويذكر بمشتركات بديهية وفطرية، أولها: وحدة الجنس البشري التي تقررها الآية السالفة وغيرها مما سبق ذكره من آيات في وحدة النفس البشرية، وثانيها: وهي سبب الأولى وعلة وجودها وهي: وحدة الرب الخالق المنشئ.

(1) الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية، لأبي الحسن الندوي. دار الصحوة. الطبعة الأولى: 1406 هـ -

1986 م. ص: 31.

(2) في ظلال القرآن، 1 / 558-559.

فوحدة الربوبية للخالق سبحانه تستدعي وحدة الربوبية في حق الناس جميعا، فيتساوى الكل في الخضوع التكويني الاضطراري لخالقهم سبحانه، والخضوع للقوانين الثابتة المطردة التي تحكم هذا الكون بأجمعه، ولا يسع أحدا من خلق الله أن يخرج عن هذا المبدأ الكوني الموحد لمخلوقات الله ولعباد الله، قال سبحانه: ﴿وَلَهُ ۥ أَسْلَمَ مَنۢ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ طَوْعًا وَّكَرْهًا وَّإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: 82].

ومبدأ العبودية الاضطرارية هذا ينتظم جميع المخلوقات وعلى رأسها الإنسان، وهو أساس مهم للتقريب بين الناس، وتوحيدهم، وجمع كلمتهم، وتقليل هوة الخلاف بينهم.



المطلب الثاني: أثر وحدة الألوهية في تحقيق وحدة الأمة.

غني عن البيان أن أصل دعوة الرسل والأنبياء جميعا هو تصحيح التصور العقدي، وتقويم القضايا الإيمانية، وأصل هذا التصور وأساسه هو ما كان متعلقا بالإله المعبود، إيماننا به وتوحيدها له، وإفرادا إياه بالعبادة والذكر والقصد والدعاء... ولما كان هذا هو أول تكليف يدخل به العبد حرم الإسلام، وأول دعوة المرسلين، كان اهتمام القرآن الكريم به كبيرا؛ باعتباره كتاب الإسلام الذي يؤسس بناء الفرد والمجتمع على عقيدة التوحيد، وكان إثبات هذا الأصل في مختلف سياقات القرآن، وكان هو المبتغى الأساس للقرآن الكريم في جل سوره المكية والمدنية، حتى أضحى التنزيل كله مصدرا للعلم بالله، ودعوة إلى الإيمان به وتوحيده وتقديسه وتنزيهه، وتحقيق القصدية الخالصة إليه والعبدية له.⁽¹⁾

وهذا الحديث عن وحدانية الله وتوحيده سواء جاء الاهتمام بتقريره في صورة إخبار عن حقيقة فطرية مؤكدة مثل قوله تعالى: ﴿فُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]، وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ كُفٌّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 162]. أو في صورة بيان يسلم العقل له ويشهد بصدقه، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَبَسَدَتَا فَبَسَحَسَ اللَّهُ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22]. وقوله جل جلاله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا

(1) يدل على هذه العناية البالغة قول ابن القيم رحمه الله: "كل آية في القرآن فهي متضمنة للتوحيد شاهدة به داعية إليه، فإن القرآن: إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع كل ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته في تحييه وأمره، فهي حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا، وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبي من العذاب، فهو خبر عمن خرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم". (مدارج السالكين ص: 1076).

خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٢﴾ [المؤمنون: 92]. أو جاء في صورة محاربة الانحراف العقدي الذي وقع فيه أقوام اجتالهم الشياطين عن توحيد الله، فسعى القرآن لردهم إلى الحق كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ بَارِهْبُونِ﴾ [النحل: 51]. وقوله عز من قائل: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: 75]. أو غيرها من الصيغ والأساليب والطرائق،⁽¹⁾ إنما هو تذكير بهذه الحقيقة، وترسيخ للعقيدة السليمة التي هي عقيدة الإنسان منذ نشأته، ولم تنفك عنها الخليفة دهرًا، وإنما انخرط عنها الإنسان إلى ألوان من الوثنية والتثليث والتعددية لم تكن في الأصل الأول، فكان الرد إلى الأصل أصلاً في دعوة الرسل جميعاً، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

والمأمل في الآيات التي ورد فيها اسم الواحد ووصف الواحدية وتعلق هذا الوصف بالذات الإلهية⁽²⁾ يهتدي من خلال حجم ورودها وسياقاتها إلى ما يُجَلِّي أهمية العقيدة ويكشف عن مقصد من مقاصد التوحيد، فهو أساس من أسس وحدة الأمة الإسلامية

(1) من طرق التعبير عن التوحيد في القرآن الكريم: 1_ الألفاظ المباشرة في التوحيد: الأحد والواحد والأحدية: قل الله الواحد، إلهكم إله واحد، قل هو الله أحد، وهو الواحد (وردت: 21 مرة). 2_ الدلالة الحصرية: لا إله إلا الله، لا إله إلا هو، لا إله إلا أنت (وردت: 37 مرة). 3_ نفي التعدد: لا تتخذوا إلهين اثنين، ولا تقولوا ثلاثة، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا 4_ نفي الشرك: وما لهم فيهما من شرك، لا شريك له (وردت: 6 مرات). 5_ الأسماء الحسنى والصفات التامة: عالم الغيب، غافر الذنب، رب العرش، خالق كل شيء، رفيع الدرجات، أسرع الحاسبين، مالك الملك... 6_ التنزيه: تنزيهه سبحانه عن النقص أو المماثلة أو المشابهة: ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفوا أحد.

ينظر: منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية وال عمران لفتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرنند - فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى: 1434هـ - 2013م. ص: 34.

(2) ورد وصف الإله بالواحد في آيات عدة ينظر منها: [البقرة: 163] - [النساء: 171] - [المائدة: 73] - [الأنعام: 19] - [يوسف: 39] - [إبراهيم: 52] - [النحل: 22] - [النحل: 51] - [الكهف: 110] - [الأنبياء: 108].

لوحدة معبودها واتحاد مقصودها. فالحضور النوعي لمشتقات الوحدة في سياق الحديث عن واحدة الإله ليس من قبيل الصدفة، بل يشير إلى أن الوحدة وصف لا يتصور تحققه للأمة الإسلامية ما لم تتوحد على عقيدة التوحيد، وتتفق على أفراد الإله الحق بالعبودية، والإخلاص له في كل طاعة وقربة، فوحدة الألوهية قضية مركزية في منظومة القضايا العقدية الإيمانية التي تحقق اتفاق الأمة واجتماعها، وتمثل المحور الرئيس الذي يؤلف بين أبنائها ليشكلوا وحدة قوية تأتلف فيها القلوب، وتلتقي حولها المشاعر، وتتحد عليها الأفتدة، ويجعل تلكم العلاقة متينة راسخة تفضل كل وشيجة نسبية أو دموية أو عرقية أو لغوية. ويؤكد هذا المعنى ما ورد في معرض الإخبار عن وحدة الأمة الإسلامية في بعدها الزماني الممتد قدماً؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ بِاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 91]. فإن الآية وإن كان سياقها مرجحاً للدلالة على أن المقصود هم أمة الرسل وجماعة الأنبياء، إلا أن الوصف يتعدى باعتبار مقصدية العظة والتذكير في قصص القرآن والمرسلين، ليكون خطاباً لهذه الأمة على مر العصور والأزمان حتى تحقق الوحدة والجماعة، ويتكامل أفرادها، وتتكاتف جماعاتها وهيئاتها، بغية إخراج الأمة الإسلامية الأمرة بالمعروف والنهي عن المنكر.

والتذييل القرآني في الآية بقوله: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ بِاعْبُدُونِ﴾ إشارة إلى هذا الأمر الجامع الذي يجعل الأمة بحق أمة واحدة وهو استشعارها العبودية لله، وإفراده بالقصد والتوحيد في كل طاعة؛ لأنه الوصف الذي يعلو بالإنسان عن كل صوارف الود والإخاء وموانع المحبة والولاء.

فهذا الأمر الإلهي الشرعي بعبادته وحده سبحانه يولد وحدة روحية شعورية تفيض على الأمة المسلمة لله، المستسلمة لشرع الله، الخاضعة لأمره الملتزمة بحكمه، فتسلم عباد الله، ويتحقق معنى الائتلاف والاتحاد والاتفاق.

واجتماع الأمة على توحيد الله وإفراده بالعبادة يربي المجتمع على الوحدة تربية توحيد نظرتهم للوجود والإنسان، وتوحيد غايتهم ومقصدتهم في هذه الحياة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، وتوحيد نظام حياتهم وتنظيم معاشهم وتشريع علاقاتهم بربهم وأنفسهم ومجتمعهم وأمتهم، وتحدد منظومة قيمهم وفضائل أخلاقهم التي بها تتوثق هذه الوحدة وتشتد متانتها. لأن التوحيد لا يقتصر على مجرد الفكرة النظرية والتصور العقلي الذهني المحض منفكا عن الحياة العملية للفرد والمجتمع، بل يتحقق بالتصديق العملي، والتأثير في الفعل الإنساني، من خلال مجموعة من القيم والمبادئ والأحكام التي تنبثق من هذه التصورات وترتكز عليها.

فالاتفاق في قضية التوحيد، والاعتقاد بالوهمية الواحد القهار، ينتج عنه وحدة القصد والتوجه، ووحدة القصد ينتج عنها وحدة المشاعر والميول، فيترتب عن ذلك وحدة الرغبة والإرادة والدافع، وهي إخلاص العمل لله.

ومما يقوي وحدة الأمة من منطلق وحدة معبودها أن نصوص القرآن الدالة على مسائل التوحيد واضحة قاطعة لا يعترىها غموض، ولا يشوبها تعقيد، وذلك أدعى لتحقيق ائتلاف الناس عليها، واتفاقهم حولها، وقد عُلِمَ من دين الله أن أساسيات الاعتقاد وأصوله في الإسلام واحدة لا تقبل الاختلاف، وهي ذروة سنام القرآن، وقطب رحاه، والعامل الجامع المعبر عن وحدة حقيقية للأمة، والمؤثر المانع من أي فرقة. فخطاب القرآن المتتالي؛ تقريراً لأُمُور الاعتقاد، وأركان الإيمان، وأصول الدين، ليؤكد وحدة التصور العقدي، والتجانس الفكري، والمرجعية الإيمانية، لتتعالى الأمة عن روابط العرق والنسب والقبيلة، وتنبذ كل المركزية القومية والنسبية والجنسية، مستعيضة عنها بأمة التوحيد والعقيدة الواحدة، وشواهد القرآن كثيرة في التأكيد على هذه الحقيقة العقدية، وهذا يسد منافذ التقاطع، ويفتح أبواب التضام، لأن الأصل واحد وهو دين الله، والقصد واحد وهو عبادة الله، والسبيل واحد وهو طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وذلك ينقذ الأمة من دواعي

الخصام، وموجة التمزق التي تجتاحها، وحالة الضعف التي خيمت على أرجائها، ويصلح ما فسد من سرائر الناس، وما وهن من علائقهم، ومن هاهنا يستقيم حال الناس، ويستقر معاشهم وتنظم حياتهم، وتؤسس جماعة إنسانية تؤسس وحدتها الاجتماعية على أساس الالتزام بمبادئ الشريعة الربانية والسنة النبوية.

فالقرآن تأصيلاً، والسنة تفصيلاً، هما مصدر التصور والتصديق، ومنهج العبادة والعمل، وبما تضمناه من قواعد وكليات، وأحكام وتشريعات يمثلان خط السير إلى الله، والصراط المستقيم الذي سلكه المنعم عليهم من عباد الله، وهذه كلها تكون الأمة الإسلامية ذات العقيدة الإيمانية الواحدة، والقصد الواحد، والمنهج السلوكي الحياتي الواحد.

وقد أشار إلى هذا المعنى القاسمي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿آرَبَابٌ مُتَّبَعُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39] حيث قال: «هذه الآية تشير إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر في وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم، وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه، وفي ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى. أما اعتقاد جميعهم بإله واحد، فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد، يخضع الجميع لحكمه، وفي ذلك نظام أخوتهم، وهي قاعدة سعادتهم».⁽¹⁾

وسباق هذه الآية ولحاقها يؤكدان المعنى ويوثقان المغزى فقد أشارت الآية قبل إلى وحدة الرسالة وعمقها التاريخي حيث أعلن يوسف عليه السلام أنه على ملة آبائه من الأنبياء عليهم السلام ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: 38]، وهم الموحى إليهم برسالة التوحيد، وملة الإقرار بالوهمية الواحد القهار، وهذا تذكير بوحدة الدين، ووحدة أمة الأنبياء، ووحدة الذين آمنوا بمن بعث فيهم من المرسلين. ثم أتى اللحاق مبطلا تعدد الآلهة التي تعبد من دون الله، مبينا أنها مخلوقة ليس لها من حقيقة

(1) تفسير القاسمي، 3541/9.

الربوبية شيء، ولا تستحق أن تؤله من دون الله. وثنى سبحانه بإثبات وحدة الحاكمية، ﴿إِنِ
 الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فلا حكم إلا ما شرع، ولا مصدر للحكم إلا بما قضى، ولا مرجعية في
 الحكم إلا فيما به أوحى، وذلك من أسس وحدة الأمة. ثم ثلث بالأمر الشرعي الجامع
 للأمة الإسلامية وهو عبادة الله وحده دون سواه، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ووسم ذلك
 كله بأنه الدين القيم؛ المستقيم الذي به قوام الأمة وقيامها، وإثبات وجودها وحضورها.
 وهو الدين الذي أمر الله به، وتعاقبت الرسل على الدعوة إليه مذ بدء الخليقة مروراً
 برسالات الأنبياء والرسل، وختاماً برسالة سيد الأولين والآخرين، فدعوته من دعوتهم،
 وأمره كأمرهم، ورسالته هي عين رسالتهم في أصولها وقواعدها وعقيدتها وتوحيدها، وما
 شرع الله على لسانه إلا ما شرع على لسان من سبقه، فالوصية واحدة، والدين واحد، قال
 جل جلاله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا
 وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:
 13]. فليس بدعا في بعثته ولا فيما جاء به، قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنْ
 الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوجَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا
 نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: 8]. ولم تكن نبوته حدثاً جديداً، ولا رسالته أمراً فريداً، بل قد
 سبقته الرسل، وأنزلت قبله الكتب، وجوهر رسالتهم ومناط خطابهم إقامة دين الله وتحقيق
 العبودية لله، وهي الوصية الجامعة للأمة المؤمنة، والواصلة للرحم المسلمة، مع اختلاف
 الأنساب والأعراق، والألسن والأوطان...

وكلما وعت الأمة بأهمية هذا الرابط الجامع وفقهت فضله، واستشعرت الانتماء إليه،
 والارتباط به، واستحضرت مسؤولية نشره والدفاع عنه، وقوّت الولاء له؛ تحدت لديها
 الغاية من الخلق، واتحد عندها القصد الذي تؤمّله، وخضعت قاطبة لتشريع ناظم، وشرع

حاكم، واثلت على ما ترسخه هذه العقيدة وتثمره من قيم الخير والفضيلة والإحسان، وتعززت الرابطة الإيمانية التي تشكل أساسا لقيام الأمة المتآلفة.

وقد دل القرآن الكريم على هذا الرباط المكين في وصف المنتمين إليه بالإخوة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]. فرباط الإيمان بالله وتوحيده وما يستتبعه من أركان الإيمان الأخرى يستلزم أخوة تجمع بين أهل هذا الوصف، وتشد بعضهم لبعض، وتؤلف بين جموعهم، وتوحد أجناسهم وأفرادهم، وحصر الأخوة في المؤمنين دون غيرهم يدل على ذلك.

قال ابن كثير (ت: 774هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «أي الجميع إخوة في الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه»⁽¹⁾». (2)

وقال القاشاني (ت: 730هـ أو 735هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «بين تعالى أن الإيمان الذي أقل مرتبته التوحيد والعمل، يقتضي الأخوة الحقيقية بين المؤمنين، للمناسبة الأصلية، والقربة الفطرية، التي تزيد على القرابة الصورية، والنسبة الولادية»⁽³⁾. فبين أهل الإيمان ترابط روحي، واتفاق وجداني يتمثل في توحيد إله واحد، والاعتقاد بديانة واحدة، والاتفاق على مقصد للوجود وغاية للإيجاد واحدة، وتفسير للخلق واحد، وهذا التصور العقدي هو الذي يرشد السلوك الإنساني، ويثمر التقوى والخشية، فتزهر تعاوننا اجتماعيا، وتآزرنا مجتمعيا، وتكافلا إنسانيا، وتمتن مشاعر الود والمحبة، وتقوي روابط الإخاء والألفة، فتتشكل صورة الجسد الواحد الذي وصفه رسول الله ﷺ. ويظهر جليا وصف الأخوة الذي نطقت به الآية من سورة الحجرات.

(1) صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب: لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه. 158/2 رقم: 2442.

(2) تفسير ابن كثير، 7/375. وقال القرطبي (ت: 671هـ) رَحِمَهُ اللهُ مفسرا الآية: "﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾"، أي في الدين والحرمة لا في النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب". تفسير القرطبي، 19/383.

(3) تفسير القاسمي، 15/5455.

وقد تقرر عند أهل الأصول أن الحكم إذا علق بوصف مشتق دل ذلك على العلية، ومعناه أن حكم الأخوة ثابت بين أفراد الأمة الإسلامية لثبوت وصف الإيمان فيهم،⁽¹⁾ فإيمانهم بالواحد يوجب عليهم أن يكونوا إخوة كجسد واحد، فإن كان من فتور في هذه الأخوة فإنما ذلك لفتور ونقص في إيمانهم وخلل في عقيدتهم، كما علق المولى سبحانه في الآية نفسها حكم الإصلاح على وصف الأخوة الإيمانية هذه، فقال جل جلاله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: 10]. «وجيء بصيغة القصر المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة، مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين».⁽²⁾

فالآية ناطقة في لفظها دالة في صيغتها دلالة قوية على أن معنى الأخوة بين أهل الإيمان معلوم مقرر،⁽³⁾ وقد تأكد ذلك في تضاعيف كلام الله تعالى من ذلك قوله جل جلاله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا إِغْنِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: 10]،

(1) ترتيب الحكم على الوصف المشتق ثابت في نصوص نبوية أيضا كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا" (صحيح البخاري كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد، ح: 481، 1/148)، وقوله صلى الله عليه وسلم: "تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى". (صحيح البخاري كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ح: 6011، 4/160). فسبب التواد والتراحم والتعاطف هو الإيمان.

(2) التحرير والتنوير، 243/26. قال الطاهر بن عاشور: "ولما كان المتعارف بين الناس أنه إذا نشبت مشاقة بين الأخوين لزم بقية الإخوة أن يتناهضوا في إزاحتها، مشيا بالصلح بينهما، فكذلك شأن المسلمين إذا حدث شقاق بين طائفتين منهم، أن ينهض سائرهم بالسعي بالصلح بينهما وبث السفراء إلى أن يرقعوا ما وهى، ويرفعوا ما أصاب ودهى... " (التحرير والتنوير، 244/26).

(3) قال عبد القاهر الجرجاني رحمه الله (ت: 471 هـ أو 474 هـ): "اعلم أن موضوع إنما على أن تجيء لخبر لا يجله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل هذه المنزلة... ومثاله من التنزيل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 37]. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنََ الْغَيْبَ﴾ [يس: 11]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَنِ يَخْشِيهَا﴾ [النازعات: 44]. كل ذلك بأمر ثابت معلوم...". (دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني بمصر، ص: 330).

وقوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 103]، فألف بينهم بنعمة الإيمان والتوحيد، وقوله عز من قائل: ﴿بِإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ بِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: 11]، فيه تصريح بالأخوة في الدين، وقوله جل جلاله: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: 12]، وقوله: ﴿بِمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: 177]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ بِإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة: 218]. ومؤدى هذه الآيات الحديث عن أخوة التوحيد والإيمان، ومن فهم غير هذا المعنى فهو متطوح عن مفاد التركيب، بعيد عن السياق والترتيب.

إنه لا انفكاك بين اعتقاد المؤمن بوحدة الإله المعبود وبين عمله بالشريعة المنزلة، وقد دل على ذلك نصوص كثيرة قرن فيها المولى جل جلاله بين توحيده والإيمان به، وبين أحكام تشريعية عملية وسلوكية ينبغي امتثالها والتزامها، مثل قوله جل جلاله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: 36]. وهو منهج الإسلام في جميع رسالاته إلى الأنبياء والمرسلين، ففي ذكر بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ

وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٢﴾ [البقرة: 82]. وموارد هذا الاقتران بين الإيمان والعمل الصالح لا تخطئها عين قارئ تال متدبر لكتاب الله⁽¹⁾ وليس القصد في هذا المقام حصرها، فالأمثلة السالفة تغني عن الاستطراد في الاستشهاد. ووفرتها وكثرتها يجتمع منه أصل كلي موح في ألفاظه ودلالته أن العقيدة لها تجلياتها في شؤون الفرد والجماعة الدينية والدنيوية، الأسرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية... وكل مجالات العمل الإنساني والفعل البشري.

والتزام العبد بهذه الأحكام العملية وامثاله لها تعبدا لله وطاعة له هو ما يثمر مجتمعا متآخيا متحابا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: 97]. قال القرطبي (ت: 671هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «أي حبا في قلوب عباده»،⁽²⁾ ثمرة للاعتقاد الصحيح والعمل الصالح، وبه تحقق وحدة الأمة واجتماعها.



(1) اقتزنت جذور الأفعال الثلاثة: ("آمن" و"عمل" و"صلح") 88 مرة، ما يحمل دلالة مؤكدة على ارتباط الإيمان بالعمل الموصوف بالصالح، وقد اقتزن العمل الصالح في هذا التركيب: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ 51 مرة، وهي معظم ما اقتزن به الإيمان مع العمل الصالح بصيغته الصريحة في صيغ أخرى التي بلغ مجموعها: 69 مرة، ونجد تفاضل الصالحات من الأعمال في مجموع الأوامر الإلهية التي نودي المؤمنون لفعلها والتي وردت بصيغة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وقد تكررت هذه الصيغة: 89 مرة، متضمنة الإرشاد والأمر والتوجيه للمؤمنين. ينظر: اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن الكريم: دلالته الحضارية لعبد الرحمن حللي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد: 27. العدد الثالث: 2011. ص: 450.

(2) تفسير القرطبي، 526/13.

المطلب الثالث: البعد التاريخي العقدي لوحدة الأمة.

إذا كانت عقيدة التوحيد هي الأصل الجامع للبشرية منذ بدء الخلق، فإن هذا الجامع ظل ممتدا عبر التاريخ، متقدما مع كل عصر وزمان، يبعث الله به الرسل ترى مقرين ومقررين، لا تبديل ولا تحويل، وقد وردت آيات قرآنية عدة تقرر هذه الحقيقة، وتؤكد هذه العقيدة الإسلامية التي تعاقبوا على بيانها، وتواطؤوا على استيفاء أصولها ومقوماتها في كل حقبة وبعثة.

وفي ذلك بيان للبعد الزمني لوحدة الأمة الإنسانية والجامع العقدي الذي يجعل من الرسل وتابعيهم ومن آمن بهم أمة واحدة على تعاقب الأجيال، لا يفصل بينها زمان، ولا يقطع اتصالها الشعوري سنون ولا قرون، وقد سرد رب العزة سيرة الأنبياء وأتباعهم في سورة الأنبياء، فذكر من خبر موسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوط ونوح وداود وسليمان وإدريس وذا الكفل وذا النون وزكرياء ويحيى عليهم السلام،⁽¹⁾ ثم سلكهم في سلك واحد وجعلهم أمة واحدة معبودها واحد، فقال جل جلاله: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ

أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 91]. والقصد من ذكرهم بيان أنهم مجتمعون على ملة واحدة ودين واحد، وأنهم بذلك يشكلون أمة واحدة. مع اختلاف الشرائع والأقوام والزمان والمكان، وأساس هذه الوحدة يكمن في وحدة العقيدة ممثلة في عقيدة التوحيد التي حمل لواءها جميع الرسل، وأمام هذه الوحدة العقدية لا اعتبار للفوارق الزمانية والمكانية والقومية، وهذا يدل دلالة صريحة على أن جامع العقيدة والتصور يظل هو الجامع الأكبر، والرباط الأصل للأمة الإنسانية والإسلامية.

فالدين الذي بعث به الأنبياء قاطبة عبر تاريخ الرسالات السماوية هو صراط واحد يسلكه السابق واللاحق، وهو شعار واحد عام دار على السنة الرسل وأتباعهم جميعا، وهم على تباعد أزمانهم، وتعاقب رسالاتهم مجتمعون حواليه، مجتمعون عليه، يشكلون جماعة

(1) تنظر الآيات من: 48 إلى 90 من سورة الأنبياء.

واحدة من حيث المعتقد والتصور منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية، وهذا يشكل الجانب الثابت في خطابهم ودعوتهم، والمقصد الكلي من رسالتهم وبعثتهم، ولذلك كان تكذيب واحد منهم تكذيباً لجميعهم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْآيَةِ وَفَوْمٌ تَبَعَ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [ق: 12-14]، «وهي لفظة مقصودة لتقرير وحدة العقيدة ووحدة الرسالة، فكل من كذب برسول فقد كذب بالرسول أجمعين، لأنه كذب بالرسالة الواحدة التي جاء بها الرسول أجمعون، والرسول إخوة وأمة واحدة، وشجرة ضاربة الجذور في أعماق الزمان ...»⁽¹⁾ فهم على ملة واحدة، وهم أمة واحدة، توحدتهم عقيدة متعالية عن الزمان والمكان، مستغرقة لجميع حقب ودروب الإنسان. وما تتابع الأنبياء في الأمم، واتساق خطابهم وكلمتهم وقيمهم وأصول رسالتهم إلا دليل على وحدة مصدرهم واتحاد مقصدهم، وقرينة مرشدة إلى تكامل مهمتهم واتفاق غايتهم. ومشروع إصلاحهم إعادة البشرية إلى الوضع الأصلي الطبيعي؛ وضع الوحدة الإنسانية المنضوية تحت راية التوحيد، وتشكيل الأمة الواحدة الربانية الساجدة. والتي قال عنها رب العزة سبحانه ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ بِعَبْدُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: 91]. وقال عنها جل جلاله: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ

﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: 53]. وهذا يلمح إلى عمق الأخوة الإنسانية بين أتباع الرسل، وأنصار الأنبياء، ويعمق الشعور بالوحدة الإسلامية، ويجلي أهمية العقيدة ودورها في ترسيخ هذه الوحدة، فمعلوم اختلاف شرائع الأنبياء، ونسخ اللاحق منها للسابق، فيبقى جامع العقيدة وناظم التوحيد، ورابط الإيمان مثبتاً أصالة الوحدة في الإنسانية، ومؤكداً أن توحيد الله يقتضي وحدة الأمة، وهي من الفرائض التي ينبغي إقامتها، ويقتضي الانتماء إلى الدين الاتصاف

(1) في ظلال القرآن، 6/3361.

بها. «والربط بين «وحدة أمة الأنبياء» وبين «عقيدة التوحيد» - الذي ورد في كل من سورتي الأنبياء والمؤمنون - ليس ربطا اعتباطيا، بل يدل، فيما يدل عليه، على أن «وحدة أمة الرسل» ترجع بالأساس إلى «عقيدة التوحيد» التي تجمعهم وتوحد دعواتهم، مما يعني أن اقتران المؤمنين هو اقتران النتيجة بالسبب، والمعلول بالعلة»⁽¹⁾.

ومع أن الآيتين الكريمتين جاءتا خطابا للرسل والأنبياء، غير أن المخاطب الحقيقي هو الأمة المسلمة باعتبارها وارثة تراث الأنبياء، ولأن ما يقص علينا من القصص إنما القصد منه الاعتبار والاستبصار، وقد صرح القرآن بأن رسالة نبينا محمد ﷺ ليست إلا امتدادا لما سبق من رسالات، وأن دينه ليس إلا حلقة من حلقات اكتمال الإسلام والتوحيد. فالآيتان من قبيل الخطاب غير المباشر للأمة المسلمة، وهي عاضدة للنصوص المباشرة الصريحة التي تلزمها بمبدأ الوحدة، وتعتبر هذا المبدأ انعكاسا مباشرا لعقيدة التوحيد، ونتيجة طبيعية من نتائجها، في حين تعتبر أن أي شكل من أشكال الخروج عن الوحدة خروجا عن الإيمان ونقضا للتوحيد. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا قَرِيفًا مِّنَ الَّذِينَ ءَاثَرْتُمْ يَرْدُّوْكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَتْ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 100-103].

(1) مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف، ص: 235.

فكما يعتقد المسلم أن أمته تتعدى الإطار الجغرافي الذي يعيش فيه، والحدود الترابية التي ينتمي إليها، والعرف الذي ينتسب إليه، لأن دينه أعلى من ذلك، فكذا يستشعر امتداد أمته الإسلامية، وتعمق جذورها في التاريخ لتشمل كل تجمع إنساني بشري كان على العقيدة التوحيدية الصحيحة، وتعتبر هذه الأمة الإسلامية الموحدة المهتدية بخاتم رسالة، امتدادا له، ويستحضر خطاب الله له: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 13]. والذي وصى الله به نوحا وإبراهيم وموسى وعيسى، بل الأنبياء جميعا عليهم السلام هو تحقيق توحيد الله، وإخلاص العبودية له دون سواه، وهو ما صرحت به الآيات في مواطن أخرى مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، وقوله جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]⁽¹⁾ وقوله عز من قائل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: 2]، وقوله جل جلاله: ﴿وَسُئِلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: 45]. فهذه الآيات - وغيرها مما لم يذكر - مجلّية لحقيقة وحدة العقيدة وثبات أصولها، وتأصل جذورها، وارتباطها بالبشرية ارتباط الظل بصاحبه، فهي لب دعوة الأنبياء وجوهر الرسالات السماوية كلها، وهذا ما فصلته سور القرآن وآياته في

(1) العبودية، لابن تيمية، تحقيق: محمد زهير الشاويش، تقديم: عبد الرحمن الباني، تخرّيج: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الأولى: 1382هـ - 1962م، ص: 44 - 45.

معرض الحديث عن دعوات الرسل، قال تعالى حكاية لدعوة نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ بِقَالٍ يَلْفُومٍ اِعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 58]، وحكى لنا خبر هود عليه السلام فقال جل جلاله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَلْفُومٍ اِعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 74]، ونبا صالح عليه السلام فقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَلْفُومٍ اِعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ﴾ [هود: 61]، ونبا شعيب عليه السلام فقال عز من قائل: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَلْفُومٍ اِعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ فَذُجَاءْتُكُمْ بَيِّنَةً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 85]، وحكى عن إبراهيم عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اِعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 15]... وفي تكرار ذكر هذه القضية والتذكير بها في الكتاب المين ترسيخ لها في نفوس المسلمين من أبناء هذه الأمة الإسلامية، وذلك له قيمته في شعورهم بحقيقة دعوتهم، وعمق انتسابهم، واتصال موكبهم بمطلع الخليقة، ومبدأ البشرية، ودورهم في تحمل رسالة الأنبياء جميعا، والقيام بمهمتهم، والدعوة إلى منهج الله القويم ودينه القديم، فدل ذلك على وحدة العقيدة عند المرسلين جميعا، عبر العصور والأزمان، منذ بدء الخليقة وابتداء الرسالة إلى خاتم رسالة وخاتم نبي ﷺ، «والسياق القرآني يوحد الألفاظ التي عبر بها جميع الرسل-صلوات الله عليهم- مع اختلاف لغاتهم. . يوحد حكاية ما قالوه، ويوحد ترجمته في نص واحد: ﴿قَالَ يَلْفُومٍ

إِعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴿١﴾... وذلك لتحقيق وحدة العقيدة السماوية - على مدار التاريخ - حتى في صورتها اللفظية»⁽¹⁾.

فالرسل على اختلاف أزمته وأمكنتهم وأقوامهم يشكلون جماعة واحدة، تجمعهم وتؤلف بينهم وحدة الحقيقة التي بعثوا بها، والتي تمثلها عقيدة التوحيد التي آمنوا بها ودعوا إليها ولذلك جاء الخطاب موجها إليهم، كأنما هم مجتمعون في صعيد واحد، وفي زمان واحد.



(1) في ظلال القرآن، 3/1304.

المطلب الرابع: وحدة المصير.

إن المؤمن في تصوره للحياة والوجود لا يَقْصُرُ بهما عن امتداد الزمان إلى أبد الآباد، وانتقال المكان من دار الفناء إلى دار البقاء، ومن حدائق الدنيا إلى جنان الخلد. وهذا التصور نابع من اعتقاده المنبثق من نصوص الوحي التي تواترت وتكاثرت تأكيداً لهذا الأمر، وترسيخاً لهذه العقيدة الإيمانية في قلوب العباد. فقلّ أن تجد سورة أو صفحة من صفحات المصحف إلا ويذكر البعث أو الثواب أو العقاب أو الموت أو الحشر أو الميزان أو الحساب... عقب أمر إلهي، أو نهى رباني، أو خلق قرآني، أو أدب أخلاقي، أو تعامل مالي، أو سلوك اجتماعي، أو حدث تاريخي، أو قصص نبوي...⁽¹⁾ في آيات دالة على وحدة المصير المحتوم الذي ينتظر الناس جميعاً، والذي كتبه الله على عباده، وقدره لأجله، قال جل جلاله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَقَّيْكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ وَهُوَ الْفَاحِشُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلِيهِمْ الْحَقِّ ﴿٢﴾ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنعام: 61-63]، وقد تكرر هذا المعنى في مواطن عدة مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا - آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: 88]، وقوله جل جلاله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: 57]، وقوله

(1) المرشد إلى فهم آيات القرآن، محمود فواز العقيل، دار الفكر، بيروت - لبنان، طبعة: 1414هـ - 1994م. ص: 248-255.

(2) قيل في معنى الآية: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلِيهِمْ الْحَقِّ﴾، يعني: الملائكة، وقيل: يعني العباد يردون بالموت إلى الله مولاهم الحق. ينظر: تفسير البغوي، 3/152. تفسير ابن كثير، 3/267.

عز من قائل: ﴿فَلْ يَتَوَقَّيْكُمْ مَلَكَ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: 11]، وقوله سبحانه: ﴿فَلِ اللَّهِ يَحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْفِيلَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الحاقة: 25]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ [ق: 42]، وقوله عز من قائل: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: 41]، وقوله سبحانه: ﴿فَلِإِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَلِيمٍ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: 8]، وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة: 29]... وغيرها.

ومن لطيف الموافقات، وبديع الاتفاقات أن يرد لفظ - واحدة - من مشتقات الوحدة في سياق الحديث عن القيامة وبعض أهواها وأحوالها وذلك في آيات عدة،⁽¹⁾ وهي موافقة تعكس البعد العقدي للمصطلح، وتبين أهمية الإيمان بالبعث والحشر والحساب والذي يعد من المفاهيم العقدية الإسلامية الكبرى في تحقيق وحدة الأمة وتقوية لحمتها؛ لوحدة مصيرها واتفاق مآلها.

والناظر في السياق القرآني وهو يتحدث عن اليوم الآخر يلحظ اقتران ذلك بمختلف الطاعات والقربات والعبادات والمعاملات التي بها تحقُّ الألفة والجماعة، وتوحد الصف، وتقوية مناعة الأمة؛ مثل البذل والإنفاق في سبيل الله والإحسان والصدقة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ووفاء الكيل...⁽²⁾ فيخبر سبحانه أن المرجع والمآب إليه، وهو المولى الذي لا

(1) ورد ذلك في اثني عشرة آية: [الفرقان: 14]، [لقمان: 28]، [يس: 28-48-52]، [الصافات: 19]، [ص: 14]، [القمر: 31-50]، [الحاقة: 12-13]، [النازعات: 13]. ناهيك عما ورد من آيات تخبر عن وحدة المصير في سباق أو لحاق الآيات التي تضمنت مشتقا من مشتقات مصطلح الوحدة.

(2) لمزيد تمثيل ينظر مقال: الإيمان باليوم الآخر رؤية قرآنية لوظيفته الإصلاحية لزيد بوشعراء. مجلة حراء: مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من اسطنبول. العدد: 33 بتاريخ: نوفمبر - ديسمبر: 2012م، ص: 24.

مولى معه، والذي سيحاسب كلا على فعله، ويحكم فيهم بأمره، ويقضي بينهم بعدله، وهذا البعد الغيبي المآلي الذي قررته هذه النصوص الشرعية هو ما يعبر عنه بالإيمان باليوم الآخر، وهو من أعظم ما يرقى الإنسان في منازل العرفان، ومدارج طاعة الرحمن، ويهيئ الإنسانية لإقامة شرع الله، والرحمة بعباد الله، ويقوم السلوك الاجتماعي، ويحرك النفس البشرية في طريق الخير والصلاح، ويكسب العبد مناعة قوية لمقاومة إغراءات الدنيا، وإغواءات الحياة المادية. ولأجل هذه المقاصد الإيمانية، والمعاني السامية، حشد القرآن الكريم ما لا حصر له من الآيات المذكورة بالمصير والمآل وعاقبة الحال، إصلاحاً للنفس، وتزكية للقلب، وتقويماً للفرد، وتربية للجماعة... وهذا التوجيه القرآني إلى سبل الخير والبذل والعطاء، وقيم التضامن والإحسان والإخاء، مع ربط ذلك بيوم الفصل واللقاء؛ ذو دلالة عميقة على البعد الإصلاحى الذي يؤديه هذا الركن العقدي من أركان الإيمان في بناء مجتمع العقيدة والوحدة والأخوة الحقة، الذي تتكاتف طاقاته وتتظافر جهوده في كل مجالات الحياة، وتتحرك بحوافز داخلية من أعماق نفوس أفرادها، إذ المؤمن باليوم الآخر يعلم أن الدنيا قنطرة العبور، ومزرعة الخيرات أو الشرور، وأن محطة النزول ومنزل القرار والوصول هو الوقوف بين يدي الجليل الغفور: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88]، فينبأ كل بما عمل، ويجد كل ما فعل، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30]، فمجرد استشعاره لفناء أيامه، وانقضاء شهوره وأعوامه، وأن أمره إلى بارئه، وأنه موقوف بين يديه، تحصى عليه أفعاله، وتعرض عليه أعماله، كاف في هز أعماقه، وتحريك وجدانه، وتفعيل إيمانه، وهذا دافع قوي ينعكس إيجاباً على الأفراد، ثم تبعا على المجتمع والأمة، تربية وتزكية، وتخلية وتخليّة، فيصبح العبد مصدر نفع وبر، وسبب إصلاح وخير، تصلح سريرته، فتصلح علانيته، وينبذ أخلاق الأنانية والأثرة، والمصلحة الشخصية والجزئية، والتمركز حول الذات والفردية، والتحيز العرقي أو القبلي، ويحرص على التعايش وفق مقتضى الأمة الإسلامية المتحدة قلوبها، والمتداخلة

مصالحها، والمترابطة حاجاتها، والمتكاملة أدوار أعضائها، وذاك سبيل إلى وحدة حقيقية وألفة صادقة.

إن العبد حين يشعر أنه إلى الموت صائر، وأن الله عليه قادر، وأنه مهما طال به الأمد، فلا بد من اللحد، ومهما سعى فوق الأرض، فمنتهاه إلى العرض، نزع إلى الإحسان، وطاعة الديان، وتخلق بالقرآن، وأعد نفسه للميزان. تفرغ سمعه آيات الموت والفناء فيحذر، وتوقظ نفسه آيات البعث والجزاء فيتدبر. يستحضر القبر فيتبصر، ويتذكر الحشر فيتأثر، ولا يكون خطوه إلا فيما يرضي الله، وفيما يجلب رحمة الله، وفيما ينفع عباد الله.

فالاعتقاد بوحدة المصير، واليقين فيه، يمثل قوة وجدانية إيمانية مثمرة لكل معروف واهتداء،⁽¹⁾ وممانعة من كل أذية واعتداء، وتطاول واستعلاء،⁽²⁾ مفضية لا محالة إلى الخير، جالبة له، سالبة لا ريب للشر، دافعة له، فنوازع النفس قوية لا ينفك عنها أحد، وهي موقعة لا شك في الشر وسيء الفعل من حسد وغرور وكبر وأنانية، وميلها إلى الشهوات والمحرمات شديد، وإهمال مجاهدتها سبب بروز العداوات، وفشو الخصومات، وانتشار الخشونات، وللقلوب أمراض ترد عليها ورود الأسقام على الأبدان، وكما يتعهد العبد جسده بالوقاية والتداوي، عليه أن يتعهد قلبه بالتربية والتزكية لأن صلاح القلب صلاح للبدن كله، وصلاح البدن كناية عن حسن الفعل وجميل الخصال، فكان الوعيد العظيم والتذكير بالجحيم والعذاب الأليم أوصل السبل لكسر قوى طغيان النفس، وكبح جماح

(1) قد ورد في القرآن ما يدل على أن هذه الشريعة لا يهتدي بها إلا من كان مؤمناً باليوم الآخر موقناً بالبعث والحساب قال تعالى: ﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْفُرْعَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُفِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوفُونَ ۝﴾ [النمل: 1-3]، وقال أيضاً: ﴿أَلَمْ تَلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُفِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوفُونَ ۝﴾ [الأنعام: 1-4].

(2) قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ أَلْدَارُ الْآخِرَةِ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَاداً وَالْعَافِيَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [القصص: 83].

عدوانها، وتوجيهها قبله إخوانها، وحملها على التزام الحق وإيثار الخلق والتواضع لهم، فتلبس لباس المحبة، وتكتسي برداء الأخوة، فتزكو وتصفو، وتتكاتف وتتآلف لتشكل قوة مجتمعية وأمة متحدة.

إن الشعور الداخلي بوحدة المصير تصورا واعتقادا هو الحافز لممارسة الفرد والمجتمع المسلم للفعل الإنساني وفق التشريعات الإلهية، والضابط لتصرفات الناس وفق مبدأ الصلاح والإصلاح، وهو السياج العقائدي الروحي المتين الذي يصون الإنسان، ويلامس أغوار وجدانه، ويعصمه من الانحراف، وهو الذريعة لتحقيق وحدة حقيقية وأمة متآلفة متآخية.

فلا بد إذا لمن تغيى بناء الأمة وتقوية نسيجها الاجتماعي من التركيز على قضية الإيمان باليوم الآخر والتنبيه عليها كما فصلها القرآن في سياقات مختلفة، يظهر للناظر فيها مدى أثرها في كيان الإنسان ووجدانه، وصياغته صياغة عقدية وأخلاقية تجعله فاعلا مؤهلا لتشكيل أمة متماسكة. يستحضر من خلالها قصدية خلقه وغاية إيجاده، فيعبد الله ويعمر أرضه وينفع خلقه وعباده؛ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَفْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ

إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٦﴾ [المؤمنون: 116].



المطلب الخامس: الولاء على العقيدة أساس لتحقيق الوحدة.

لقد تقرر مما سبق أن العقيدة والإيمان وتوحيد الله عز وجل من جوامع الأمة وأسس وحدتها وألفتها، واتفاقها واتحاد صفها، ومن لوازم هذه العقيدة الصحيحة والتوحيد الرشيد موالاة أهل الإيمان ومحبتهم ونصرتهم، والبراءة من أهل الشرك، وبغضهم لكفرهم، ودعوتهم، وهذا معتقد أهل الإسلام، وسبيل تمتين الأواصر بين ذوي العقيدة السليمة والمرجعية الإيمانية الواحدة، فالمسلم وهو في دائرة الإيمان وفي زمرة أهل الإيقان، وفي حضيرة التوحيد؛ يحب إخوانه المؤمنين، شركاؤه في توحيد الله، وإخوانه في الإيمان بالله، ورفقاؤه في السير إلى الله، ويستشعر التودد إليهم، والتعاون معهم على الخير والحق والصلاح، وهذه ملة إبراهيم عليه السلام، دل عليها قوله تعالى: ﴿فَدَكَانَتْ⁽¹⁾ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَقَبْرُنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [المتحنة: 4]، فجعله الله قدوة وأسوة يضرب به المثل في صدق الإيمان، وما يستتبعه ذلك من عقيدة الولاء للمؤمنين، والبراءة من المشركين حتى مع أقرب الناس إليه، ما لم يستقيموا معه على الدين، ويؤمنوا معه برب العالمين، وينضموا إلى موكب الموحدين، قال صاحب الظلال رحمه الله: «العداوة والبغضاء لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده، وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئا من الوشائج

(1) افتتاح الكلام بكلمتي (قد كانت) لتأكيد الخبر، فإن قد مع فعل الكون يراد بهما التعريض بالإنكار على المخاطب ولومه في الإعراض عن العمل بما تضمنه الخبر... ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُم﴾ [ق: 22] وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ [القلم: 43]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: 21]. (ينظر: التحرير والتنوير، 142/28-143).

والأواصر بعد انقطاع وشيخة العقيدة وآصرة الإيمان»⁽¹⁾ فمقتضى الإيمان الحق والعقيدة الصديق أنه يجب على كل مسلم يدين بهذه العقيدة موالاة أهلها ومعاداة أعدائها، فيحب أهل التوحيد والإخلاص وينصرهم ويواليهم، ويبغض أهل الكفر والشرك ويعاديهم⁽²⁾ وهذا صمام أمان، وحفظ لوحدة الأمة، وحماية لها من خصومها، وسبب للألفة بين أهل الملة الإسلامية، واحتضان المؤمنين بعضهم لبعض، وإشاعة روح التعاطف والتواد والتراحم بينهم، والانسياب في النسيج الاجتماعي العام للأمة الواحدة، والحرص على ما به صلاح أفرادها وجماعتها، وحفظ بيضتها.

فالعلاقة بين وحدة العقيدة وبين الولاء العقدي علاقة تلازم واقتضاء، إذ من ضروريات الاتفاق الإيماني والانتماء العقدي قيام هذه المودة والمحبة القلبية، وتجلي هذه النصر لأبناء الأمة، وتوطد العلاقة والآصرة متعالية عن حواجز الأراضي وحدود الدول، مستعلية على اختلاف الأعراق وتخالف الأنساب، مترفعة عن تنوع الألسن وتعدد اللغات، قال جل جلاله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: 72]...، بما يفيد الجمع المعروف «بأل» من العموم والاستغراق، وبما يفيد وصف الإيمان من عليية الموالاة، قال القرطبي: «بعضهم أولياء بعض: أي قلوبهم متحدة في التواد والتحاب والتعاطف»⁽³⁾ وقال ابن كثير: «أي يتناصرون ويتعاضدون»⁽¹⁾

(1) في ظلال القرآن، 6/3542.

(2) قال ابن القيم رحمه الله: "لا تصح الموالاة إلا بالمعاداة، كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿أَقْرَبَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾" [الشعراء: 75-77]. فلم تصح لخليل الله الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة، فإنه لا ولاء إلا لله، ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه...". (الداء والدواء لابن القيم، تحقيق: محمد أجمل الأصيلحي، تخريج زائد بن أحمد الشيرازي، إشراف: بكر أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد، ص: 455. وينظر: بدائع التفسير ابن القيم، 2/275).

(3) تفسير القرطبي، 10/298.

وهذه الآية وإن كانت خبرية، إلا أنها في موضع الإنشاء الطلبي التقريري، إذ تقرر فائدة في طبيعة العلاقة بين المؤمنين، وأنها قائمة على الموالاة فيما بينهم، محبة ونصرة، وتراحما وتعاطفا...

ويتأكد هذا المعنى بنصوص أخرى مثل قوله جل جلاله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُفِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: 57] «فأداة الحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين والتبري من ولاية غيرهم».(2)

فالتزام العقيدة الإسلامية هو بمثابة إقرار على المستوى القلبي بالحبّة لأهل هذه العقيدة، وإعلان على المستوى العملي بالنصرة لهم، وبقدر توثق القلب وشدة ارتباطه بمبدأ الإيمان بقدر توثق الروابط والعلائق بين أهله، فيتجلى قول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ [المائدة: 55]، وينتظم المجتمع المسلم حلقة مترابطة متكاملة مترابطة تتمثل فيها ثمرات الولاء على العقيدة ومقتضياتها، ويظهر جوهر الوجود الإنساني الأخوي للجسد الواحد الذي يستقي متانته وقوته وأخوته من معين الولاء والانتماء، ويتجلى في تصرفات سلوكية مختلفة نابعة من سريرة مؤمنة، وعقيدة موحدة وموحدة. ويتأكد مفهوم الولاء والبراء لمن تتبع نصوص الوحي وتأمل قوة الخطاب في إظهار القطيعة الشعرية التي ينبغي أن تكون بين أمة التوحيد، وأمم الكنود والجحود، قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ

(1) تفسير ابن كثير، 4/174.

(2) تفسير ابن سعد، 236.

الْكُفْرِيِّينَ أَوْلِيَاءَ مِمَّنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴿١٤٣﴾
 [آل عمران: 28]. وقال جل جلاله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكُفْرِيِّينَ
 أَوْلِيَاءَ مِمَّنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾
 [النساء: 143]. وقال عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى
 أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 53]. وهذه نصوص صريحة في مفادها، شديدة في كلماتها،
 قوية في تحذيرها، تحرم محبة أعداء الله، وتعلن براءة الخالق ممن والاهم، وتقرر بشكل حاسم
 وجوب مبادعتهم ومحاذرتهم، فمن ودَّهم برئ منه ربه، وانقطعت صلته به، ونسب في دينه
 إليهم، وعُدَّ من زمريتهم وأمتهم، وحق به ما حاق بهم من العذاب وسوء المآب، حتى ربط
 القرآن الكريم تحقق الإيمان بانتفاء الولاية لهم فقال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ
 هُمْ خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: 113] وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ
 أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [المائدة: 82-83]، قال الزمخشري (ت: 538هـ)
 رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولو كانوا يؤمنون إيماناً خالصاً غير نفاق ما اتخذوا المشركين أولياء، يعني
 أن موالاته المشركين كفى بها دليلاً على نفاقهم، وأن إيمانهم ليس بإيمان»⁽¹⁾ وقال ابن تيمية
 (ت: 728هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ: «فذكر جملة شرطية تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط، فقال: ﴿وَلَوْ
 كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، فدل على أن

الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده»⁽¹⁾ وبين سبحانه أن الإيمان به وبنبيه وبما أنزل إليه مستلزم لعدم ولايتهم، وثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان، لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم، فلا يجتمع الإيمان واتخاذ الكفار أولياء في القلب، ومن فعل ذلك فقد فسق عن أمر ربه، وخرج عن طاعته، وفارق جماعته. وهذا الوصف للفئة المخاطبة بصفة الإيمان والذي تكرر في هذه الآيات القرآنية⁽²⁾ وغيرها، هو تذكير بالصفة التي تفرقهم وتميزهم عن حوّلهم، عقيدة ومنهجاً، إيماناً وتصديقاً، سلوكاً وواقعاً، وهو أسلوب دال في هذا المقام على ما كانت العرب قد ألفته من موالاته قبلية، ومناصرة نسبية، وموادة عرقية،⁽³⁾ فأتى النص القرآني مصححاً للقضية، موجهاً للبرية إلى ما ينبغي أن تعقد عليه علاقاتها، وتعلق عليه صداقاتها وولاءاتها، وهو الدين القيم، والإيمان الصحيح، ولذلك صرحت النصوص القرآنية بقطع كل ولاء على غير دين الله، قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [آل عمران: 28]؛ قال البيضاوي (ت: 691هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «نهوا عن موالاتهم لقربة وصداقة جاهلية ونحوهما، حتى لا يكون حُبهم وبغضهم إلا في الله، أو عن الاستعانة بهم في الغزو وسائر الأمور الدينية: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: إشارة إلى أنهم الأحقاء بالموالات، وأن في موالاتهم مندوحة عن موالاته الكفرة»⁽⁴⁾ ولو كانوا من ذوي القرابة والنسب. قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ،

(1) الإيمان لابن تيمية، خرج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة: 1416هـ - 1996م، ص: 17 - 18.

(2) أقصد: [آل عمران: 28] - [النساء: 144] - [المائدة: 51].

(3) كانت القبيلة في المجتمع الجاهلي هي أساس الانتماء ومحور الولاء، وكان ولاء الرجل لقبيلته في الحق والباطل يعبر عن ذلك قول الشاعر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم *** في النائبات على ما قال برهانا.

وكان شعار كل منهم: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً على ظاهر معناها. (في فقه الأولويات: دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1421هـ - 2001م، ص: 153).

(4) تفسير البيضاوي، 12/2.

وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ؕ أُوْلَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْاِيْمَانَ وَاَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ؕ اُوْلَٰئِكَ حِزْبُ اللّٰهِ اِنَّ حِزْبَ اللّٰهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦١﴾ [المجادلة: 21]. فنفت الآية بما يفيد العموم، أن يوجد من يؤمن بالله ويقرن إيمانه بموادة المحادين لدين الله ولو كانوا من ذوي القرابة؛ أبوة أو بنوة أو أخوة أو عشيرة، وذلك أدعى لبيان أن العقيدة هي أساس المودة بين الناس، ويتأكد هذا المعنى في موضع آخر من محكم التنزيل حيث ورد تحذيرا في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْاِيْمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَاُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ فل إن كان ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ أَلْفِ لُحْمٍ أَلْبَسْتُمْ فِي سَبِيلِهِ فَبَرَبُّوهُ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْاَلْسِيفِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة: 23-24]. «فالولاء الذي تقوم على أساسه الأمة... هو الذي ينقسم انفصاما كاملا حين تنقسم رابطة العقيدة، وهو العنصر الحي الذي تقوم به الأمة في ظل العقيدة، وقد تأتي الروابط الأخرى فتكون أواصر إضافية: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 75]، ولكن بشرط الالتقاء في العقيدة، الذي لا تقوم الأمة الحقيقية إلا عليه».(1)

(1) واقعنا المعاصر لمحمد قطب، دار الشروق، القاهرة. الطبعة الأولى: 1418هـ - 1997م، ص: 53.

إن الولاء والمودة والنصرة للإخوة المؤمنين، وإن بعدوا دما ونسبا، ونأوا مولدا ومنشأ. أما رابطة الدم فلا تزن في مقابل رابطة العقيدة شيئا، فهذه الأخيرة هي الوشيعة التي نبه عليها القرآن الكريم في أكثر من موضع، واعتبرها المحور المتين والمناطق المكين الذي يعلق عليه الولاء والبراء، والنصرة والعداء، والمحبة والبغضاء، ويشهد لذلك بعد الذي ذكر من براءة الابن من أبيه - قصة إبراهيم عليه السلام مع والده -، براءة الوالد من ولده في قصة نوح عليه السلام لما رفض الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ رَبِّ إِنَّ أَبْنِيَّ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45-46]، «ينبهه الله سبحانه وتعالى أن الوشيعة الحقيقية ليست وشيعة الدم وإنما هي وشيعة العقيدة: ﴿يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 47]، وأبان عن ولاء إيماني وبراء عقدي يتجاوز العقد الأبوي والرابط الدموي، وهذا دليل صدق الانتماء والإيمان.

(1) المصدر نفسه، ص: 53.

إن من ثمرات إحياء روح الولاء والبراء على العقيدة الإسلامية تحقيق حضورها في الكيان الاجتماعي المسلم، واعتبارها أساس الانتماء ومصدر الولاء، وتحرير الإنسان من مضايق الانتماءات ودروب اللواءات التي قد تعقد وترفع ويدعى الناس إلى الاجتماع والموالة عليها، وبذلك يتم بناء المجتمع الإسلامي على أسس الإيمان وركائز الاعتقاد المنبثقة من نبع القرآن، بما تضمنه من علميات وعمليات وأخلاقيات. فدل ذلك على أن الولاء يستند إلى الوحدة العقدية بين المسلمين،⁽¹⁾ وهو ما يشد وحدة الأمة ويمتد أواصرها، ويخلق الحس الجماعي فيها، ويعزز الشعور بالانتماء إليها، ويقوي الإحساس بالولاء لها، فيبلغ بها تحقيق مآربها وأداء رسالتها، وتبليغ دعوتها، وتعلية مكانتها، والنصر على أعدائها: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: 58]، وهذه نتيجة وثمره أخبر عنها من لا يخلف وعده، وبشارة ممن ينصر حزبه وجنده، متى ما تحققت فيهم أوصاف الاستحقاق، فكانت نصرتهم لله ولرسوله وحبهم لأهل الإيمان به وطاعته وولايتهم لهم.



(1) طبعا لا يقتصر الولاء على مجرد الاعتقاد، والتصور النظري والتصديق القلبي بل لا بد مع ذلك من التزام التشريع وامتثال الأحكام وطاعة العزيز العلام، ويظهر ذلك بالنظر في سياق الآيات القرآنية التي تحدثت عن هذه الولاية بين = أهل الإيمان حيث استتبع ذلك بجملة أحكام وتشريعات، ومبادئ وتعليمات، وقيم وتبعات تدل على صدق الإيمان.

المبحث الثالث وحدة المرجعية التشريعية

المطلب الأول: وحدة الكتاب.

إن من القضايا الإيمانية التي تدل على وحدة الرسالات الإلهية، وتقرب الهوة بين مختلف أصحاب الديانات، إذا ما أنصفوا أنفسهم، وعدلوا في حكمهم، قضية الإيمان بوحدة الكتب السماوية، وأنها جميعا تخرج من مشكاة واحدة، وتؤوب إلى مصدر واحد، وهو ما جاء صريحا في آيات الذكر الحكيم، في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 46]. وقوله عز وجل: ﴿وَفَقَّبْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 48]. وقوله جل جلاله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: 55]. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَكُنْ لَهُ الْإِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿١٠٠﴾ مِّن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿١٠١﴾ [آل عمران: 1 - 3].

فجعل اللاحق مصدقا للسابق، ومؤكدا لأصول دعوته ورسالته، إلى أن ختم ذلك بمحكم تنزيله، وخاتم وحيه وتشريعه، المهيمن عليها، والحق الذي تُجمع القلوب عليه، والحكم فيما يختلف الناس فيه، فيقيهم من تنازع الأهواء، وافتراق الآراء والأدواء، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 50]. فضمَّته قواعد الاعتقاد وأصول الإيمان التي تضمنتها الكتب السابقة، وجعله جامعا لما تفرق فيها من مكارم الأخلاق والفضائل وكريم الآداب والشمائل. ولو شاء الله لجعل الناس جميعا أمة واحدة جبرا وكرها، ولحملهم على منهج واحد وكتاب

واحد مذ بدء الرسالات إلى يوم الناس هذا، لكن حكمته سبحانه اقتضت غير ذلك، فجعل لكل أمة شرعة تناسب زمانها ومكانها، وامتحانهم فيما آتاهم، وابتلاهم بما أنعم عليهم من وحي ورسالة ليميز الطيب من الخبيث، ويتميز المؤمن من الكافر، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَايَكُمْ فَاسْتَفُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: 50].⁽¹⁾

وقد جعل بين هذه الأمم المتعاقبة ميثاق إيمان وتصديق بكل ما أوحى الله به، وهذه الحقيقة العقدية الإيمانية قررها القرآن الكريم فيما سبق من آيات، وتكرر ذكرها في مواطن أخرى كما في قوله تعالى: ﴿فُولُوا أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 135]، والآية «تدعو المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين من لدن إبراهيم أبي الأنبياء إلى عيسى ابن مريم إلى الإسلام أخيراً، وتدعو أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد»،⁽²⁾ وترفع العلاقات البشرية عن أن تكون محصورة بزمان أو مكان، أو مقصورة على قوم أو لون، أو جنس أو وطن، لتصلها بأولى رسالات الإله إليها، وأولى خطابه لها، فيشعر المسلم بوحدة البشرية، لوحدة الوحي المنزل، والدين المرسل، ووحدة المرسل والمصدر، فتتلاشى كل الفوارق والعوائق، والحواجز والحواجب.

(1) وعقب بالتذكير بوحدة المصير، وما فيه من الفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، وأمر بوحدة الحكم والرجوع فيه إلى الكتاب المنزل.

(2) في ظلال القرآن، 1/118.

ولذلك كان من أركان الإيمان الصحيح: الإيمان بجميع الكتب المنزلة: ﴿كُلُّ-امْرَءٍ

بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: 284].

لوحة مصدرها، وحق ما فيها. وتصديقها في ذلك تصديق للرسل جميعا، وما تتابع إنزالها وإرسالهم بها واحدا تلو الآخر إلا لإقرار التشريع الإلهي بين الناس والذي من شأنه أن يربط قلوب الخلق بالخالق، وينشر الإخاء والمحبة والوئام بين الخلائق، فتستقيم حياتهم، ويهنأ عيشهم، ويسلم بعضهم من أذية بعض، لأن الكل يدين بعقيدة واحدة ذات منهل ومصدر واحد، تقوم تصوراتهم فيقوم سلوكهم وتصرفهم.

لقد جعل الله عز وجل لكل أمة كتابا فيه ذكرهم، ونظام حياتهم، وتسيير شأنهم، وحكم ما بينهم، وحثهم على تحكيم الكتاب المنزل فيهم، وجعله أمرا شرعيا لازما خوطبت به أهل الملل السابقة كلها، وذلك مدعاة لوحدهم واتفاق جماعتهم، قال سبحانه في شأن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 46]. وقال في شأن الإنجيل في ذات السياق والآيات: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْأَنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: 49]. وقال في شأن القرآن الكريم: ﴿بِأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 50].

فالخطاب القرآني صريح الدلالة على أن هذه الكتب كان من مقاصد إنزالها تحكيمها في مشكلات الناس ومختلفات قضاياهم، لتحكم نوازع النفوس وأوابع الطباع فيهم، وتضمن الحقوق، وتمنع العقوق، وترفع كل خلاف، وتدفع كل شقاق، وذلك بين كل أمة بحسب كتابها، إلى أن أنزل الله خاتم كتبه وخاتمة وحيه، وجعله المعيار الصادق، والميزان الناطق بصواب أهل الملل والعقائد أو خطئها، تطابقت أصوله ووكلياته ومقاصده مع ما

كانت عليه الكتب السابقة المنزلة، واختلفت معها على مستوى فروع وتفصيلات، وجزئيات وتشريعات، لتوافق ظروف الزمان والمكان والإنسان، وتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، وذلك مقتضى ما نطقت به الآية الكريمة في سياق سورة المائدة نفسها: ﴿لِكُلِّ

جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاً﴾، فحكمته تعالى اقتضت أن يجعل لكل أمة ما يناسبها من تشريع وأحكام، ووحى ونظام، يناسب حاجات بيئتها وإنسانها، وجعل في هذا الوحي نفسه من الجوامع والأصول ما ييسر سبيل الوفاق والاتفاق، ويقرب بين أهل كل خلاف وشقاق.

فتعدد الشرائع واختلافها، وكثرة المناهج وتنوعها ليس قاصداً إلى اختلاف مذموم وتنافر مشؤوم، بل قد جاء في الكتاب الخاتم ما يدل على قصدية الوحدة والاجتماع على كلمة سواء هي أصل دعوة الرسل وجوهر ما جاءت به الكتب، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّأَهَّلْ

أَلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 63]. وهي

الكلمة التي أتت في معرض الحديث عن مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، وفي سياق الإخبار عن الإيمان بالكتاب الخاتم وبما أنزل من قبله في إشارة لطيفة ودلالة اقترانية سياقية

لوحة الكتب المنزلة، ووحدة المنزل لها، ووحدة القصد من إنزالها، قال تعالى: ﴿وَلَا

تُجَدِّلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا

ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ

مُسْلِمُونَ ﴿[العنكبوت: 46].

والتعبير القرآني الصريح بالإيمان بما أنزل على محمد وما أنزل من قبله يشير إلى وحدة المصدر الإلهي للكتب، ويؤكد أن الأصل في الرسالات كلها والكتب جميعها الاتفاق

لصدورها من مشكاة واحدة، فلا مسوغ إذا للشقاق والنزاع ما دام الكل يؤمن بإله واحد: ﴿وَالْهَنَّا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ وهو الإله الحق الذي بعث رسله بالحق والهدى والنور، والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل من قبلهم، وهو في صميمه وجوهره وأصوله واحد، إنما اختلف منه ما كان تشريعاً عملياً داعياً تغيير زمان ومكان وإنسان.

إن من تدبر الآيات من سورة المائدة⁽¹⁾ وتأمل سياقها، وجد الصلة واضحة بين الكتب السماوية، وتجلت له وشائج القربى وروابط الاتفاق والانسجام بين مضامينها وأصولها، وظهر له اتحاد مقاصدها، واتفاق غاياتها، وتصديق بعضها بعضاً، وتثبيت بعضها بعضاً، وهذا ما يؤكد وحدة المصدر التشريعي، ويقرر كما في الآية هيمنة الرسالة الخاتمة والكتاب الخاتم على غيره من الكتب، لما خصه الله به من سمات العالمية والشمول والاستيعاب: «فهو الصورة الأخيرة لدين الله، وهو المرجع الأخير في هذا الشأن، والمرجع الأخير في منهج

(1) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِكُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسَّيِّئَ بِالسَّيِّئِ وَالْجُرُوحَ فِصَاصًا فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٦﴾ وَفَقَّبْنَا عَلَى آثَرِهِمْ بَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٨﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المائدة: 46-50].

الحياة وشرائع الناس، ونظام حياتهم بلا تعديل بعد ذلك ولا تبديل»⁽¹⁾ وهو الكتاب الجامع لها، والمرجع الأصيل لنظامها وتصورها، يتحدد به الأمر والنهي، والفعل والترك، والحلال والحرام، والجائز والممنوع، وهو الذي ينظم الحياة البشرية بكل أبعادها ومناحيها، وينظم علاقات الناس بعضهم ببعض اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا... وهو المعلن لحقائق الإله والكون والإنسان، وهو المصدر الأول لصياغة الوحدة التصورية العقدية للأمة الإسلامية، والمرجع الأساس للمنظومة الأخلاقية التي تضع الألفة والمودة بين أفراد هذه الأمة، والموئل الرئيس للأحكام الشرعية التي توجه الجوارح إلى العمل الصالح النافع؛ الذي يقوي روابط الصلة مع الخالق، ويثمر توطيد الرباط مع الخلق.

فعلى هذا الكتاب تلتقي الأمة مع تباعد أقطارها واختلاف أجناسها، والاعتصام به يوحد مرجعيتها بحكم وحدة المنهل الذي تنهل منه، ووحدة المصدر التشريعي، ويحدد معالم التصور والقول والممارسة للمجتمع الإسلامي، فردا وجماعة، آحادا ومؤسسات، مما يجمع الأمة على اعتقاد واحد وممارسة واحدة، ويوحد ووجهتها. ويرسم لها معالم المنهج السليم والسبيل القويم الذي يفضي بها إلى بلوغ غاية إخراجها أمة آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، دالة على الخير، مرشدة إلى الهدى، وهذا ما يقيها من الوقوع في التخبط والتنازع.

فصونا لمصالح الخلق عن عبث الأنانية والفردية، وتخليصا لنفوسهم من وطأة الظلم، وحفظا لهم من شر الهوى، وإخراجا لهم عن دواعي أهوائهم، وشطط نزعاتهم ومصالحهم الخاصة؛ جعل الله سبحانه كتابه أساس التشريع، ومرجع الأحكام، ومحور الشريعة، وقطب رحاها، ودستور الأمة الذي تهتدي بهداه، وتتعبد بتلاوته، وأمر بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والتزام ما فيه، والسير على منهاجه، وعد ذلك صراطا مستقيما يقي الأمة من التفرق والاختلاف، ويحفظها من السبل والخلاف.

(1) في ظلال القرآن، 2/902.

قال تعالى في سورة الأنعام بعد جملة من الأحكام والوصايا القرآنية الربانية: (1) ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 154]. فاتباع هذه الأحكام والتشريعات والتزام الأوامر ومجانبة المنهيات اتباع للصراط المستقيم والتزام بالمنهج السديد الذي هو آيات الذكر الحكيم، وهو سبيل الوحدة وطريق الائتلاف.

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن كثير رحمه الله مستدلاً بما أخرجه الترمذي وغيره عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال: «كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم... وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم...» (2) وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «الصراط المستقيم: كتاب الله» (3).

فهو صراط واحد ومنهج واحد ودستور واحد وكتاب واحد، إذا اعتصمت به الأمة، ودانت به لله، وجعلته السبيل المتبع والصراط المقتفى، نجت من التفرق الذميم، وعصمت من الاختلاف الأثيم. وقد أعقبت الآيات بالحديث عن كتاب موسى: «للإيحاء بأن هذا

(1) هذه الوصايا هي: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّا إِنْكُمْ نَحْسُ نَزَرُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 153-152].

(2) سنن الترمذي، باب ما جاء في فضل القرآن. ح: 2906. ص: 650.

(3) ينظر تفسير ابن كثير، 1/138. روى الطبراني في الكبير، عن عبد الله بن مسعود قال: "إن هذا الصراط محتضر تحضره الشياطين يقولون: يا عباد الله هذا الطريق، فاعتصموا بحبل الله فإن الصراط المستقيم كتاب الله" المعجم الكبير، لأبي القاسم الطبراني، باب العين، من إسمه عبد الله: عبد الله بن مسعود الهذلي، ح: 9031، تحقيق حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الثانية، 212/9.

الصراط ممتد من قبل في رسالات الرسل عليهم الصلاة والسلام وشرائعهم، وأقرب شريعة كانت هي شريعة موسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يَوْمِنُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام: 155] وتستمر الآيات فتذكر الكتاب المبارك، الملتمح بالكتاب الذي أنزل على موسى المتضمن للعقيدة والشريعة»^١ الجامعة للأمة، والذي يمثل الصراط المستقيم الذي يجب اتباعه لتنال الأمة رحمة الله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٦﴾﴾. ولن تتحقق رحمة الأمة إلا بالاجتماع والاتحاد، وإلا كان بأسها بينها شديدا. (2)

والملاحظ أن السياق يكرر، وهو بصدد الكلام عن الكتاب ما جاء من التحذير والتنفير من الفرقة والافتراق، وهذا ظاهر ومقصود، لتقريره حقيقة بعينها، ولتحمل الآيات على تقرير هذه القضية؛ وهو أن الكتاب المنزل سبيل الوحدة، وكل حيدة عنه هي حيدة عن الصراط المستقيم، ومآل ذلك هو ما آلت إليه الأمم السابقة من التفرق في دين الله، والتقطع عن منهج الوحي، قال جل جلاله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: 159].

(1) في ظلال القرآن، بتصرف: 1236/3.

(2) قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُحْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: 118].

فهذا التعقيب القرآني بالحديث عن الذين فرقوا دينهم سواء كانوا من المشركين أو من أهل الكتاب⁽¹⁾ في سياق الكلام عن الكتاب المبارك والصراط المستقيم وكتاب موسى عليه السلام يفيد بيقين أن القرآن هو المنهج المانع والشرع الجامع الذي يقي الأمة من بنيات الطريق، ودروب السبل، إنه الكتاب الذي يرسم الصراط الواحد والسييل الواحدة والمنهج الواحد الذي يؤلف بين الناس، وهو مناط اعتقادهم ومرجع تشريعهم، وإليه فيء قلوبهم، وبه وحدة صفهم.



(1) المشركون مرقبتهم أوهام الجاهلية وتقاليدها وعاداتها وثاراتها وفخرها بأنسابها فصارت شيعة وفرقا وقبائل وعشائر وبطونا متناحرة، وأهل الكتاب من اليهود والنصارى فرقتهم الخلافات المذهبية والاختلاف في الكتاب فآلوا إلى ملل ونحل، وطوائف وفرق، ومعسكرات ودول.

المطلب الثاني: أهمية اللسان في توحيد الأمة.

إن من القضايا الأساسية التي تعد من ركائز الوحدة ودعائمه، ومن سبل تحقيقها وتيسير شأنها قضية اللغة واللسان، ولذلك كان الوحي صريحا في الحديث عن عربية الخطاب القرآني. وتكرر ذلك في آيات عدة وفي سياقات مختلفة لها دلالاتها ومناسباتها، ومن هذه الدلالات ما ورد في سورة الشورى، وهي السورة التي ركزت بصفة خاصة على حقيقة الوحي والرسالة «حتى ليصح أن يقال إنها المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة كلها، وتأتي سائر الموضوعات فيها تبعا لتلك الحقيقة الرئيسية فيها»،⁽¹⁾ حيث أشارت في مطلعها إلى قضية اللسان العربي، لسان القرآن الكريم، فبعد تقرير وحدة مصدر الوحي في الأولين والآخرين ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: 1] وتقرير وحدانية المالك، وإقرار الكون بهذه الوحدانية وإنكار اتخاذ الأولياء والشركاء من دون الله؛ يعود السياق إلى تأكيد مصدر الوحي مع التصريح بلغة الخطاب ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فَرْءَانَا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: 5] ويعقب ذلك بالإشارة إلى وحدة الجمع والمصير، ثم يستطرد ويقرر أن لو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة على ملة واحدة جبرا وإكراها، ولكن حكمة الله اقتضت أن يخير الناس بين الهدى وسبيله، والضلال وسبله، وقد أنزل من الوحي والقرآن ما به البيان للنجدين، وجعل من وسائل الاهتداء لسان العربية، لسان القرآن، قال تعالى مشيرا إلى هذا المعنى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: 125] إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

(1) في ظلال القرآن، 3136/5. تتحدث سورة الشورى عن وحدانية الخالق، ووحدانية الرازق، ووحدانية المتصرف في القلوب، ووحدانية المتصرف في المصير. . وعن حقيقة الوحي والرسالة، وتقرير وحدانية الموحى سبحانه، ووحدة الوحي، ووحدة العقيدة، ووحدة المنهج والطريق، وأخيرا عن وحدة القيادة البشرية في ظل العقيدة". (ينظر: في ظلال القرآن، 3137/5).

﴿النحل: 103-104﴾، وقال جل جلاله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ ۚ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 5].

فالهداية الواردة في الآيتين، مقرونة بخطاب القرآن وإخباره عن عربية اللسان؛ لا تتحقق للعبد ما لم يفقه الشرع فقها صحيحا، ويفهم أحكامه ومقاصده فهما سليما، فكانت اللغة العربية وسيلة الهداية وسبيل الفقه والدراية، وواسطة الوعي والاسترشاد بالرسالة، بها تتوحد المفاهيم وتتضح الأحكام، وتتوافق الأفهام، وتتقارب التصورات بين أهل الإسلام. قال السعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿كَتَبَ بُصِّلَتْ - آيَتُهُ، فَرَأَى أَنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: 2] «﴿فَرَأَى أَنَا عَرَبِيًّا﴾ أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصلت آياته وجعل عربيا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأجل أن يتبين لهم معناه كما يتبين لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال، والغي من الرشاد».(1)

وقد حذر علماؤنا من مغبة القول في دين الله لمن لا علم له باللغة العربية، وشددوا النكير على من تجرأ على ذلك لأنه مجلبة الضلال والإضلال، وسبب الانحراف والاختلال، وفساد تصور المعاني، قال أبو الوليد بن رشد رحمه الله (ت: 520هـ) في جواب له عمن قال: إنه لا يحتاج إلى لسان العرب: «هذا جاهل فلينصرف عن ذلك، وليتب منه، فإنه لا يصلح شيء من أمور الديانة والإسلام إلا بلسان العرب، يقول الله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: 195]، إلا أن يرى أنه قال ذلك لخبث في دينه فيؤدبه الإمام على قوله ذلك بحسب ما يرى، فقد قال عظيما».(2) فإذا فسد اللسان، فسدت المعاني، وصار الناس

(1) تفسير السعدي، ص: 744.

(2) التحرير والتنوير، 20/1.

إلى خلط وخبط وقول على الله بغير علم، وحمل لكلام الله على ما لا يحتمله، ونسبة فهم إلى الشرع لا تدل نصوص الوحيين عليها، وهذه من أعظم عوامل التفرقة وأسباب الاختلاف، ولذلك كانت لغة ابن رشد شديدة في جواب سائله، وكشف عما قد يصاحب الجهل من سوء طوية وخبث قصد، وما يلزم من كانت تلك سريره وبانت في لحن قوله خبيثته من تعزيز وتأديب، وتوبيخ وترهيب.

ولمثل هذا الانحراف نبه ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في تحريره لمسمى الإيمان حيث أرجع سبب الخلط عند أهل الأهواء والبدع إلى قلة العلم والفهم للغة العربية فقال: «لا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما دل على مراد الله ورسوله من الألفاظ وكيف يفهم كلامه، فمعرفة العربية التي خوطبنا بها مما يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني فإن عامة ضلال أهل البدع كان لهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدعون أنه دال عليه ولا يكون الأمر كذلك»⁽¹⁾ فكلما قصر الناظر عن إدراك اللسان، وقصر في تعلم أصول البيان، كان في التفسير أزل وفي الفهم أضل، وجنى على الأمة بسوء تقريره، وزيف تنظيره، ففرق الجماعة، وأوهن الأمة.

فلا بد أن يتحقق وعي الأمة بأهمية تعلم العربية حتى يصير الحرص عليها حرصاً على إقامة هذا الدين، وحفظ أركانه وبنائه. «وقد تعلم كثير من غير العرب اللغة العربية، من أجل فهم القرآن، وإدراكه، ولهم في ذلك كسب رفيع...»⁽²⁾ لأنهم اعتقدوا أنه لا يمكن الوصول إلى فهم القرآن إلا بلغته الأصلية...»⁽³⁾.

(1) كتاب الإيمان لابن تيمية، ص: 97.

(2) حسبنا أن نتذكر أسماء سيبويه، وأبي علي الفارسي، والمبرد، والفراء، والكسائي، وابن جني، وعبد القاهر الجرجاني، هؤلاء أئمة الأئمة في علوم اللغة العربية، وكلهم من أصول أعجمية لا عربية. (ينظر: أدب التخاطب لأبي عبد الله مصطفى بن العدوي، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى: 1420هـ - 1999م. ص: 42-43).

(3) كيف نتعامل مع القرآن محمد الغزالي في مدارس أجراها عمر عبيد حسنة، دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة عشر: 2012م، ص: 193.

قال صاحب المنار: «إن الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام على أيدي الصحابة الكرام قد فهموا أن للإسلام لغة خاصة به، لا بد أن تكون عامة بين أهله ليفهموا كتابه الذي يدينون به ويهتدون بهديه، ويعبدون الله بتلاوته؛ ولتحقق بينهم الوحدة المشار إليها بقوله فيه: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: 91] ويكونون جديرين بأن يعتصموا به وهو حبل الله فلا يتفرقوا، ولتكمل فيهم أخوة الإسلام التي حتمها عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]، ولذلك انتشرت اللغة العربية في البلاد التي فتحها الصحابة بسرعة غريبة مع عدم وجود مدارس ولا كتب ولا أساتذة للتعليم».⁽¹⁾

لقد كان الخطاب الإلهي والوحي الرباني بلسان عربي مبين، وجعل الله من هذه اللغة لغة تشريع، مرتبطة بالعقيدة والدين، بها تحفظ سلامة الفهم، وصواب الاستنباط، واستقامة الخلائق على الصراط المستقيم، والمنهج القويم، وبها مأخذ الأحكام، واستدرار الحكم، ومعرفة القيم، وتعلم الشيم، وشرح المشكلات، وبيان التشابهات، والخروج من المتاهات والضلالات، وبها تتواصل الأمة الإسلامية، وتتقارب مسافة الاتصال بين أفرادها رغم ما فرضه الواقع من حدود جغرافية، ورسخه من حواجز أرضية ووطنية، فصارت العربية أولاً: وسيلة تفقه وتدين تحقق الوحدة الفكرية والعقدية التصورية، وتقرب الفهوم والفقاهة لنصوص الشريعة، وثانياً: وسيلة تعارف وتواصل، وذريعة تآلف وتخاطب، وعامل ائتلاف والتفاف، واتحاد واتفاق بين الشعوب المختلفة عرقاً ونسباً ولغة وموطناً. يفهم بها شرع الله، ويتفاهم بها عباد الله، «فلا يمكن أن يتم الاتحاد والإخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة. ومازال الحكماء والباحثون في مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة يتعاونون بها على التعارف والتآلف... وهذه الأمنية قد حققها الإسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة لجميع المؤمنين به

(1) تفسير المنار، 9/329-330.

والخاضعين لشريعته، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله، وسنة رسوله، لفهمهما والتعبد بهما، والاتحاد بإخوتهم فيهما، وهما مناط سيادتهما وسعادتهما في الدنيا والآخرة...» (1).

إن الكثرة والوفرة من النصوص القرآنية التي ورد فيها التصريح بعربية القرآن تؤسس لأهمية اللسان، وضرورة الاعتناء به لفهم الخطاب وتبليغه وتعليمه، وبيان حاجة الناس إليه، والتواصل به، وأنه لسان اصطفاه الله واجتباؤه وجعله لسان وحيه وخاتم رسالاته قال تعالى: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: 103]، وقال جل جلاله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَلَمِينَ﴾ [النحل: 103]، وقال جل جلاله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَارِهُونَ﴾ [الشعراء: 193]، وقال عز من قائل: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: 11]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ فُرْقَانًا عَرَبِيًّا﴾ [طه: 110]، وقال جل جلاله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ فُرْقَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: 2]، وقال عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فُرْقَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى: 5]، وقال جل جلاله: ﴿فُرْقَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: 27]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: 38]، وقال عز من قائل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فُرْقَانًا عَرَبِيًّا لِّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2]، وقال تعالى وتقدس: ﴿كِتَابٌ بُصِّلَتْ آيَاتُهُ فُرْقَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: 2]. وتشير الآيات أيضا إلى لزومه للقرآن واقتران الوحي به، فلا غنى عنه تلقيا وتفهما، وتبليغا وتفهيما، وتوصيلا وتوصيلا، إذ هو خير سفير للربط بين

المجتمعات، والوصل بين القارات، وتنمية أوجه العلاقات على اختلاف المجالات، فيجب استثمار دوره في توحيد فئات المجتمع الواحد في الصقع الواحد، وتأليف قلوب أبنائه، والتقريب بين طبقاته، والجمع بين المختلف والمتنافر من مكوناته، بل إنه ليؤلف بين المتباعد والمتناثر من المجتمعات والشعوب، فيقرب ما بُعد من المسافات، ويطوي ما تنأى من المفاوز والمنعطفات، وهذا أمر مدرك لذي لب، ظاهر لذي بصر، تعاملت عنه الأمة وانشغلت بمعيقات وهمية وحدود رسمية جعلت الأمة عضيين وعزين.

قال ابن عاشور رحمته الله: «فقدّر الله تعالى هذه اللغة أن تكون هي لغة كتابه الذي خاطب به كافة الناس، فأنزل بادئ ذي بدء بين العرب أهل ذلك اللسان ومقاوليل البيان ثم جعل منهم حملته إلى الأمم تترجم معانيه فصاحتهم وبيائهم، ويتلقى أساليبه الشادون منهم وولدائهم، حين أصبحوا أمة واحدة يقوم باتحاد الدين واللغة كيانهم»⁽¹⁾.

فأشار رحمته الله في آخر كلامه إلى أن كيان هذه الأمة يقوم باتحاد الدين واتحاد اللغة معاً، وهو نظير قول صاحب المنار قبله،⁽²⁾ وتلك حقيقة ثابتة جلية، لأن دور اللغة في تواصل الشعوب المختلفة، وتبادل الثقافات والأفكار، وتقارب العقول والأفهام لا ينكره أحد، فهي اللسان العام الموحد للأمة في عباداتها وأداء شعائرها، وهي لسان البلاغ والإنذار للعالمين، وتوحيد خطاب المسلمين، وتأليف شعور المؤمنين.

قال أحمد شاعر رحمته الله: «إن الأمة التي نزل بلسانها الكتاب الكريم، يجب عليها أن تعمل على نشر دينها، ونشر لسانها، ونشر عاداتها وآدابها بين الأمم الأخرى، وهي تدعوها إلى ما جاء به نبيها من الهدى ودين الحق، لتجعل من هذه الأمم الإسلامية أمة واحدة، دينها واحد، وقبلتها واحدة، ولغتها واحدة، ومقومات شخصيتها واحدة، ولتكون أمة واسطاً،

(1) التحرير والتنوير، 190/19.

(2) حين قال: والاتحاد بأخوتكم فيهما، وهما مناط سيادتكم وسعادتكم.

ويكونوا شهداء على الناس. فمن أراد أن يدخل في هذه العصبة الإسلامية: فعليه أن يعتقد دينها، ويتبع شريعتها، ويهتدي بهديها، ويتعلم لغتها»⁽¹⁾.

فالملاحظ في كلام من سبق من الأعلام تواطؤهم على أن اللسان العربي سبيل الوحدة وتحقيق الألفة، فكان الاهتمام به اهتماما بالدين أولا، واهتماما بالأمة ثانيا، وإذا صار هذا واضحا في أذهان أبناء الإسلام على اختلاف مداركهم العلمية، ومراتبهم المعرفية، لم ينجحوا إلى لسان أعجمي وهم في عجمة عن لسانهم العربي، ولم يفخروا بلي ألسنتهم بلغات زعم أنها حية وهم قد أमतوا لغة بها كانت حياتهم وحياة آبائهم وأسلافهم، وبها تكون حياة أبنائهم وأحفادهم.⁽²⁾

إن اللغة العربية من العوامل التي تربط أفراد الأمة وتوحد جماعتها، وتقوي ألفتها وتيسر تواصلها وتفاهمها وتعارفها، وتدرأ عنها أسباب الاختلاف والاندثار، ولذلك كان النهج الرباني ميسرا سبل الاجتماع على دعوة الرسل والأنبياء بتيسير اللسان، فما أرسل من رسول إلا بلسان قومه كما أخبر في سورة إبراهيم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِيَ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الآية: 5]، ومن حكمة العزيز الحكيم توحيد لسان البعثة تمهيدا وتهيئا لتوحيد أتباع الدعوة وأنصار الرسالة، وإلى هذا المعنى أشار البقاعي رحمته الله بقوله: «دبر بحكمته إرساله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الخلق كافة باللسان العربي، لأن المقصود جمع الخلق على الحق، فجمعهم على لسان واحد أنسب ما يكون لذلك، ولو أنزل بالسنه كلها

(1) الرسالة للشافعي (ت: 204هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى: 1357هـ-1938م، ص: 49، (وهو من كلام المحقق).

(2) لا يلزم من كلامي هذا أنني أنكر تعلم اللغات الأخرى، بل إن اختلاف الألسن من آيات الله، وتعلم لغات الأقوام الأخرى مما يحقق مقصد التعارف معهم وتعريفهم برسالة الإسلام.

لكان منافيا لهذا المقصود... ويؤدي أيضا إلى ادعاء أهل كل لسان أن التعبير عنه بلسانهم أعظم، فيؤدي ذلك إلى المفاخرة والعصبية المؤدي إلى أشد الفرقة». (1)

وإلى هذا المقصد نفسه نبه الشوكاني رحمه الله فقال في تعليقه على الآية: «ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم، وبينه رسول الله لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحا لباب التنازع، لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها، وربما كان ذلك مفضيا إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون». (2)

فبديهي أن يؤدي تعدد اللغات والألسن إلى تعدد الفهوم والظنون، وتتسع بذلك دائرة الاختلاف بين الأمم والأقوام، ومهما يكن الوحي جامعا بعقيدته وتوحيده، إلا أن اختلاف لسانه سيفضي إلى اختلاف الفهم في غالب أحيانه، فكان قصد الشارع من وحدة اللسان تقريب الأفهام وتأليف الجنان، لأن وحدة اللسان تنزلا وتفقهها، وحيا وتفهمها، يضمن اشتراكا كبيرا في بلوغ مقاصد الوحي، وبقدر ما يكون أفراد الأمة مشتركين في وعاء نظرهم - أقصد اللغة - بقدر ما يترابطون في ثمرات فكرهم ويتقاربون في نتائج فهمهم، وإذا ما اتخذ كل منهم لسانا في النظر ولغة في القراءة والفهم انفطرت وحدتهم وتشتت نظرهم.

قال محمد الغزالي رحمه الله: «ولا شك بأن الأمة الإسلامية أمة واحدة، وأن اللغة المشتركة هي وعاء لشعور الأمة، وصياغة له، وهي أوعية تفكير الأمة... فإذا تعددت

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة، 1404هـ - 1984م، 375/10-376. "وأنسب الألسنة لسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه فيكون فهمهم لأسرار شريعته ووقوفهم على حقائقها أسهل، ويكونون عن الغلط والخطأ أبعد، فإذا فهموا عنه دعوا من يليهم بالترجمة وهلم جرا، فانتشر الأمر وعم وسهل، وكان مع ذلك أبعد من التحريف وأسلم من التنازع". المصدر نفسه، 375/10-376.

(2) فتح القدير، 129/3.

اللغات يخشى أن تتعدد الأوعية، وتتمزق وحدة الشعور، وبالتالي نفتقد بعض خصائص وميزات الأمة الواحدة نظراً لتشعب اللغات»⁽¹⁾.

وهذا الذي خشيه الغزالي رَحِمَهُ اللهُ ومن قبله من العلماء له مصداق حق وشاهد صدق، وهو ما عرفه تراث الأمة من اختلافات في المعاني وتفاوت في بعض الأحكام نظراً لاختلاف قواعد اللغة العربية، واحتمالية اللفظ، والسياقات والأساليب في اللسان العربي الواحد، لكنه اختلاف تنوع ما دامت تحكمه قواعد مستقرة وأصول مستفيضة، فإذا كان هذا في اللسان الواحد فكيف إذا تعددت الألسن وصار الوحي مدار تجاذب وتشاجب بين لغات عدة، ناهيك إذا ما اصطحبت هذه اللغات حمولاتها الثقافية وأهواء أهلها الشخصية.

إن اللغة باعتبارها وسيلة يمارس بها النظر في النص والفهم للوحي، هي سبيل التأليف إذا اتفقت قواعد النظر وتقاربت، وهي مساك الجماعة على كثرة المفرقات، وملاكه على وفرة العوامل المبعثرات، وهي رباطها الذي لا ينفصم، وهي الرحم الواصلة بين الأقطار، واللحمة الجامعة بين الأمصار. ومن شأنها أن تزيد من عمق الروابط بين دول العالم الإسلامي وتوطد ارتباطها الحضاري والتاريخي والديني. وإن هذا الفهم للآيات القرآنية السالفة الذكر، يسنده جمهور آيات اللسان التي نجدها في ثنايا سور الفرقان مؤكدة عربية القرآن، مذكرة بذلك في كل مرة، مشيرة ضمناً إلى العناية به وتداوله وتدارسه؛ لأنه وسيلة فهم أسرار الشريعة وتفهمها، والوقوف على حقائق التنزيل وتبليغها، ومعرفة غوامض التأويل وتعليمها، بعيداً عن التحريف والتخريف، والتخالف والتنازع.

فأهمية وحدة اللسان ظاهرة في توحيد كلمة أهل البلاد المتباعدة، والأمم المختلفة، وجمعهم على كتاب واحد مدارس ومذاكر، وتدبرا وتبصرا، وتأملاً وتفكراً. ولا تتصور وحدة الاعتقاد ولا وحدة تصور الأمة للكون والحياة والوجود إلا بوحدة الفهم لنصوص

(1) كيف نتعامل مع القرآن للغزالي، ص: 194.

الوحي، ولا يكون ذلك ما لم يكن لسان الوحي واحداً، وما لم يكن من يفهم عن الشارع وحيه دارياً بهذا اللسان عالماً به متمكناً من فنونه وعلومه.

إن «في إنزال القرآن عربياً من أعلى المراتب العلية أسنى المناقب لعلم العربية»⁽¹⁾ ولذلك كان إلزام الأمة بتعلم لسان شرعها وتحقيق الوحدة اللغوية بين أبنائها هي أصدق خطوة من خطوات السعي إلى وحدة الأمة الإسلامية، لما في ذلك من تحقيق وحدة تخاطبية، ورؤية تقاربية، وألفة شعورية، وهذا الإلزام مسؤولية تزعمها السلطة الحاكمة والإمارة القائمة، ولا تزعمها تقارير العلماء وتدوينات الفقهاء، فمهما قيل عن أهمية اللغة العربية ووجوب درايتها، ومهما دعا العلماء لترسيخها وتعليمها، تبقى اللغة أسيرة قرارات سيادية جريئة تتجاوز ضغوطات المعارك الحزبية الذيلية التابعة للسلطات الغربية النافذة⁽²⁾ ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: 103].



(1) الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية، لنجم الدين الطوفي (ت: 716هـ) دراسة وتحقيق: محمد بن خالد الفاضل، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى: 1434هـ - 2013م، ص: 236.

(2) معلوم أن الاستعمار لا يزال جاثماً على مستعمراته يفرض كثيراً من قراراته ويسعى لإقرار ثقافته وقيمه، ترسيخاً لمبدأ التبعية وفرضاً لسلطته الفكرية في جل البلاد الإسلامية، وهو بذلك يريد تعميم تصوره للكون والحياة ليؤمن على هوية أجياله وأبنائه.

المبحث الرابع الشعائر التعبدية ووحدة الأمة.

المطلب الأول: الصلاة ووحدة الأمة.

إن من أوائل الأحكام الشرعية العملية التي أشار إليها النص القرآني في معرض الحديث عن آيات الواحدية؛ عبادة الصلاة، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝﴾ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ [العنكبوت: 45-46] فأمر سبحانه بتلاوة الكتاب المنزل على نبيه ﷺ وهو يمثل وحدة المرجعية التشريعية للأمة الإسلامية، وثنى بإقامة الصلاة وهي من أجل الشعائر التعبدية المجلية لمظهر الوحدة وائتلاف الجماعة، وأعقب بالحث على مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن تأليفا لقلوبهم وتقريبا لوصالهم لردهم إلى الحق الذي حادوا عنه، والرجوع بهم إلى الأصل الذي جاءت به رسالهم وهو توحيد الله الجامع للبشرية على الهدى والرشاد، واتباع ما أنزل من الوحي والتشريع، وتصديق ما ورد من خبر من غير وما هو آت...

واستطرد النص القرآني بعد ذلك، فكشف عما بين الكتاب الخاتم والكتب السماوية السابقة من صلة وموافقة، وبيّن وحدة مصدرها ومعينها، وأنها من مشكاة واحدة، وذات مقصد واحد، وغاية واحدة هي توحيد الله وإسلام الأمر إليه، وهو ما ورد صريحا في الآية: ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فلا حاجة للنزاع والشقاق، والمجادلة والمخالفة، إذا تحقق هذا المقصد الرسالي وهو رد البشرية الضالة إلى ربها، وهدايتها إلى طريقه، وتربيتها بمنهاجه، فالمؤمنون برسالة الإسلام إخوة لغيرهم ممن آمن برسالة من بعث

فيهم إذا أقروا بالبعثة المحمدية، والرسالة الخاتمة المكملة لما سبقها من الرسالات والمتممة للبنات الوحي السماوي والتي جاءت وفق حكمة الحكيم الخبير، وعلمه بحاجة البشر.

وورود فريضة الصلاة في هذا السياق القرآني يدل على عظمها وركنيتها في الدين الإسلامي بعد توحيد الله تعالى، وهي من العبادات التي تتجلى فيها وحدة الأمة، وتظهر ظهوراً لا يخفى على ذي البصر والبصيرة، ومن تأمل الآيات الواردة في الحث عليها وإيجابها يجدها تؤمُّ غرس روح الوحدة بين المسلمين؛ يظهر ذلك في التنصيص على وقت أدائها حيث حدّ لها الشارع الحكيم وعاء زمنياً مضبوطاً، وجعله شرطاً لوجوبها، وحث على مراعاته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ ﴿١٢﴾

[النساء: 103]. وشرع لذلك أذاناً وإعلماً يجمع الناس لها حيث ينادى بها، قال ولي الله الدهلوي رَحِمَهُ اللهُ (ت: 1176هـ)، متحدثاً عن الأذان وغايته: «لما علمت الصحابة أن الجماعة مطلوبة مؤكدة، ولا يتيسر الاجتماع في زمان واحد ومكان واحد بدون إعلام وتنبيه، تكلموا فيما يحصل به الإعلام...»⁽¹⁾، ففي التحديد الزمني للصلاة والخطاب الجماعي الموجه لعموم الأمة لشهودها مقاصد جمّة⁽²⁾ أولاهها وأعلاها مقصد جمع الناس على الطاعة والعبادة وتحقيق الوحدة.

وجعل الشرع الحكيم هذا الجمع اليومي ينعقد بصيغة واجبة أسبوعياً، مقروناً بتجمع خطابي إلزامي لم يعذر فيه إلا قلة، ينقطع فيه الناس عن دنياهم وطلب معاشهم، ويسعون إلى ربهم وطلب آخرتهم، فقال جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ

(1) حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، تحقيق ومراجعة: السيد سابق دار الجيل، الطبعة الأولى، 1426هـ - 2005م، بيروت، 322/1.

(2) لمزيد اطلاع على مقاصد تشريع صلاة الجماعة، ينظر كتاب: صلاة الجماعة حكمها وأحكامها، لصالح بن غانم السدلان، دار بلنسية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة: 1416هـ.، ص: 23-24، وكتاب صلاة الجماعة مفهوم وفضائل وأحكام وآداب في ضوء الكتاب والسنة، لسعيد بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض، ص: 26-31.

مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ [الجمعة: 9] فقله: إذا؛ ظرفية دالة على زمان حُدِّد بالسنة، ووجهه للمؤمنين ليتحقق اجتماعهم، وشعور كل جمع منهم بأن إخوانهم يؤدون الصلوات الخمس وصلاة الجمعة في أوقات معلومة، وبطريقة واحدة وإن تباعدت البلدان واختلفت مواقيتها يولد شعورا بالوحدة الروحية المعنوية واتحاد الأعمال التعبدية.

وتتعرّز هذه الوحدة الشعورية والمعنوية بين المسلمين بالممارسة العملية حيث تظهر وحدة المسلمين المكانية في صلاة الجماعة، فلو كانت الغاية من الصلاة مجرد تحقيق عبادة الله تعالى، لتيسر ذلك عن طريق الصلوات التي يؤديها المسلم منفردا بينه وبين ربه تنفلا وتسنا، ولما أُلْزم المسلمون بحضور الجماعات وإقامة الجُمُعات، وحضور صلوات الأعياد وعمارة المساجد، فتبين أن هذا الأمر ليس إلا لمقصد زائد عن مقصد الأداء الفردي. قال محمد الغزالي (ت: 1416هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «إن العمل الواحد في حقيقته وصورته يختلف أجره اختلافا كثيرا حين يؤديه الإنسان وحيدا، وحين يؤديه مع آخرين، إن ركعتي الفجر أو ركعات الظهر هي هي لم تزد شيئا عندما يؤثر المرء أداءها في جماعة عن أدائها في عزلة، ومع ذلك فقد ضعف الإسلام أجرها بضعا وعشرين مرة أو يزيد عندما يقف الإنسان مع غيره بين يدي ربه، وهذا إغراء شديد بالانضواء إلى الجماعة ونبد العزلة، ودفع بالإنسان إلى الانسلاخ من وحدته والاندماج في أمته»⁽¹⁾.

فالحث القرآني على إقامة الصلوات وتأكيد ذلك بصيغ متعددة طلبا وأمرا، وتحفيزا وثناء، لدليل على أن هذه الهيئة الجماعية قد شرعت في الإسلام لتعميق روح الجماعة في قلب كل مؤمن،⁽²⁾ ولئلا ينحصر المسلم في نطاق نفسه، ويستفرد في تفكيره، ويستوحش في

(1) خلق المسلم، لمحمد الغزالي، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1408هـ - 1987م. ص: 183.

(2) يتأكد حرص الإسلام على صلاة الجماعة بما ورد من ذكر نبوي لفضل صلاة الجماعة، وهمّ منه صلى الله عليه وسلم لتحريق بيوت أقوام يتخلفون عن حضورها، وعدم إذنه للأعمى الذي استأذنه أن يصلي في داره (لسماعه الآذان).

إحساسه، وينأى بهمومه عن هموم جماعته وأمته، وتكون هذه اللقاءات اليومية والأسبوعية والسنوية - المتكررة - مناسبات تشد بها الروابط الاجتماعية بين المسلمين، ويسكب فيض المحبة والقربة بين جموع المصلين، وتعمق الروح الجماعية بين عموم المؤمنين، ويختلط أهل المداشر، وتمتزج المشاعر، وتبرز الشعائر، ويلوح الترابط الإسلامي الوثيق، والتواصل الاجتماعي العميق، ويتحقق التعارف والتزاور والتآزر.

ولهذه المقاصد الجليلة والمعاني العظيمة جعل الله تعالى للصلاة بيوتا أضافها إلى نفسه تشريفاً، وحث على السعي إليه، ورغب في عمارتها، وأثنى على عمارها، فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ أَمَرَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۝﴾ [التوبة: 18]، وقال جل جلاله: ﴿فِي بُيُوتٍ آذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 36] فهي مكان الاجتماع وموضع الالتقاء؛ موطن الذكر والصلاة والدعاء، أجزل الله تعالى الثواب على كثرة الخطى إليها،⁽¹⁾ وجعل آثار الإقدام إليها محصاة في إمام مبین،⁽²⁾ لأن ذلك أقوى سبب وأوثق عروة يتشبث بها المسلمون لتحقيق وحدة صفهم واجتماع كلمتهم.

وتيسيرا لهذا الاجتماع وتوفيرا لأجوائه الملائمة، حث الإسلام على الاعتناء بالمساجد بناء ورفعا، وتطهيرا وتنقية، وتطيبا وتزكية، بل والتطيب لها وأخذ الزينة عندها، كما قال

(1) فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط». صحيح مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، ح: 251. ص: 74.

(2) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ۝﴾، [يس: 11].

جل جلاله: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ خُذُوْا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 29]، لما في ذلك من الإلف والتأليف، واللفظ والتوليف، كي لا ينفر الأخ من أخيه، ويعرض المسلم عن ذويه، ولذلك نبه رسول الله صلى الله عليه وسلم من يقدم المسجد ألا يأكل ما يحدث النفرة ويسبب الأذية والفرقة. (1)

إن استقراء الخطاب القرآني في الحديث عن الصلاة يظهر كيف أن سياق التشريع اطرده على الصيغة الجماعية، والتي يستفاد منها ضمنا قصد الاتحاد.

يلاحظ هذا في أول سورة بعد الفاتحة، حيث يقول تعالى: ﴿وَيُفِيْمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 2] ثم تتوالى الآيات الكثيرة التي تحت على الأداء الجماعي لها كقوله تعالى: ﴿وَأَفِيْمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: 42]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَفِيْمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُفَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 109]، وقوله عز وجل: ﴿فَلْأَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَفِيْمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: 29].

فالصلاة تعد العمل الجماعي اليومي الذي ينخرط فيه أكبر عدد من المسلمين فيلتقي الإخوة فيما بينهم، يتفقدون غائبهم؛ ويعودون مريضهم، ويزورون مهمومهم، ويذاكرون شؤونهم. صفوف متراصة، وجماعة منتظمة، أفعال متفقة، ووجهة واحدة، تربية على الاستقامة والطاعة وتنشئة على الانضباط والاستجابة، سد لكل فرجة وخلل، وتسوية لكل

(1) إشارة إلى حديث النبي ﷺ: «من أكل ثوما أو بصلا، فليعتزلنا - أو قال: فليعتزل مسجدا - وليتعد في بيته» رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء في الثوم النيء والبصل والكراث، ر. ح: 855، 239/1.

عوج وزلل،⁽¹⁾ محاذاة بين المناكب ولين بأيدي الإخوان حتى لا تختلف القلوب وتتنافر الأفتدة.⁽²⁾ كل ذلك في مكان واحد يكن له المسلمون كل التقدير والاحترام، لأنه محل اجتماعهم وتعارفهم وألفتهم، وطاعتهم لربهم.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب صلاة الجماعة واستفادوا ذلك من صيغ الأمر وخطاب الجمع كما في قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: 43].

وقال القرطبي (ت: 671هـ) رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ "مع" تقتضي المعية والجمعية، ولهذا قال جماعة من أهل التأويل بالقرآن: إن الأمر بال صلاة أولا لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله: "مع" شهود الجماعة».⁽³⁾

- (1) إشارة إلى حديث النبي ﷺ في تسوية الصفوف: «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم». صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها والازدحام على الصف الأول، ح: 432، ص: 110.
- (2) إشارة إلى قوله ﷺ: «أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب، وسدوا الخلل، ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فرجات للشيطان، ومن وصل صفا وصله الله ومن قطع صفا قطعه الله». سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب تسوية الصفوف، ح: 666، تعليق ناصر الدين الألباني، اعتنى به مشهور بن حسن سلمان، مكتبة المعارف الرياض، الطبعة الأولى. 108/1.
- = فقوله ﷺ: «حاذوا بين المناكب ولينوا بأيدي إخوانكم»، فيه دلالة على مقصد التضام والانضمام والتقارب والالتحام، ولا يخفى على أحد ما يوقعه إغفال ذلك وعدم الاعتناء به من تأثير في اختلاف القلوب، وإيغار الصدور، والمواحشة بين المسلمين، زيادة على ما في ذلك من المخالفة للحديث. قال ابن القيم رحمه الله: "اجتماع القلوب وتآلف الكلمة من أعظم مقاصد الشرع، وقد سد الذريعة إلى ما يناقضه بكل طريق حتى في تسوية الصف في الصلاة، لئلا تختلف القلوب، وشواهد ذلك أكثر من أن تذكر". (إعلام الموقعين، 28/5، بتصرف).
- (3) تفسير القرطبي، 30/2. قال ابن كثير رحمه الله: "وقد استدلل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة". (تفسير ابن كثير، 246/1).

= وقال الشوكاني (ت: 1250هـ) رحمه الله: "وقوله: ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ فيه الإرشاد إلى شهود الجماعة والخروج إلى المساجد... وقد ورد في ذلك من الأحاديث الصحيحة الثابتة في الصحيحين وغيرهما ما هو معروف. وقد أوجب حضور الجماعة بعض أهل العلم، على خلاف بينهم في كون ذلك عينا أو كفاية، وذهب الجمهور إلى أنه سنة مؤكدة مرغّب فيها وليس بواجب... والبحث طويل الذيل كثير النقول". (فتح القدير للشوكاني، 179/1).

وعلى فرض رجحان القول بالندب وإفادة المعية للموافقة، فإن الوحدة الشعورية حاضرة حال إقامة الصلاة، بما فرضه الشرع الحكيم من قراءة سورة الفاتحة في كل صلاة،⁽¹⁾ فيلهج المصلي متضرعا إلى ربه مناجيا له ولسان حاله يقول: أناجيك ربي لنفسي وإخواني، وأتضرع إليك لذاتي وأمتي: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ١٥٠: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٥١﴾ [الفاتحة: 4] ففي صيغ الجمع - نعبد، نستعين، اهدنا - وجوه ذكرها الرازي (ت: 604هـ) رَحِمَهُ اللهُ منها: «... الوجه الثالث: أن المؤمنين إخوة، فلو قال: إِيَّاكَ أَعْبُد، لكان قد ذكر عبادة نفسه، ولم يذكر عبادة غيره، أما لما قال إِيَّاكَ نَعْبُد كان قد ذكر عبادة نفسه وعبادة جميع المؤمنين شرقا وغربا...»⁽²⁾ فيشعر الفرد أنه جزء لا ينفصم عن كيان الأمة، وأنه عضو وثيق الصلة بجسدها لا ينفك عنها، فلا يختص نفسه بالإقرار بالعبودية، ولا في طلب الاستعانة ولا في الدعاء والرغبة في الاهتداء.

ومن روائع حرص القرآن الكريم على الاجتماع ما ورد من تشريع صلاة الخوف، إذ لم يفرط الشرع الحنيف في إقامة الجماعة حتى في أحلك المواقف وأشد الظروف، فمع مداهمة الأعداء ومواجهة الألداء يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ٢٤٠: وَإِذَا كُنْتَ بِهِمْ فَأَقْمْتَ لَهُمُ

(1) فريضة أم نافلة، جهرية أم سرية، فردية أم جماعية.

(2) تفسير الرازي، 1/252. وفي هذا الصدد يقول سيد طنطاوي رحمه الله وهو يفسر قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: "وقال: نعبد بنون الجماعة، ولم يقل أعبد، ليدل على أن العبادة أحسن ما تكون في جماعة المؤمنين، وللإشعار بأن المؤمنين المخلصين يكونون في اتحادهم وإخائهم بحيث يقوم كل واحد منهم في الحديث عن شؤونهم الظاهرة وغير الظاهرة مقام جميعهم، فهم كما قال النبي ﷺ: "المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم". (سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في السرية ترد على أهل العسكر، ح: 2751، ص: 219)، (التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، 1/22).

الصلوة قَلْتُمْ طَائِبَةً مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلِيَاخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا
فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِبَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ
وَلِيَاخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ
وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ
بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا
حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠١﴾ [النساء: 100 - 101].

ولا شك أن الإنسان بأصل فطرته حريص على نفسه، ميال إلى النجاة بها والخلاص
من مواطن الهلاك، يفكر في ذاته، وينزع إلى سلامتها وبقائها، فكان التشريع الرباني في مثل
هذه المواقف قاصدا إلى ترسيخ الشعور الجماعي والخلاص الجماعي، بما يضمن بقاء الأمة
برمتها، أو زوالها بأمته، فشرع أن تصلي فئة مجتمعة من المسلمين مع الإمام، وتبقى الفئة
الأخرى مرابطة حارسة حريصة على أختها، قائمة في نحر عدوها، واقية لأمتها وجماعتها.

وهذا الموقف الحمائي والرباط الوقائي يعمق عند كل مرابط الشعور بأنه جزء من
المجتمع الإسلامي، يتحمل فيه مسؤولية الدفاع عنه، والحرص عليه، والذود عن بيضته،
والحفاظ على أمنه وسلامته، وشد خلته وثغرات تربص أعدائه به، فتتكاثر الطائفتان،
وتتنظمان عبادة ومرابطة، صلاة وجهاد، تجسيدا للجماعة المؤتلفة والأمة المتفقة القوية ذات
المقصد الواحد، عبادة الله، والوجهة الواحدة؛ بيت الله، والخصم الواحد؛ أعداء الله،
والإمام الواحد. (1)

(1) صدر الله تعالى حكم الصلاة بقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ فافتضى ببدئي الرأي أن صلاة الخوف لا تقع على هذه
الصفة إلا إذا كانت مع رسول الله ﷺ، فهي خصوصية لإقامته. وبهذا قال إسماعيل بن علية وأبو يوسف صاحب أبي حنيفة
في أحد أقواله، وعللوا الخصوصية بأنها لحرص الناس على فضل الجماعة مع الرسول، بخلاف غيره من الأئمة، فيمكن أن تأتم

إن المشهد التعبدي الجماعي في هذه اللحظات الحرجة يكون له وقعه وأثره على الكفار العداة، والمحاربين الغزاة. قال السعدي رحمته الله: «وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد. ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء لا يخل به لو صلوا بعده أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيبة في قلوب أعدائهم»⁽¹⁾.

فلأهمية الجماعة في الصلاة شرعت حتى في حالة الخوف وفي ميدان القتال وساحة النزال، لما فيها من تقوية الروح القتالية المعنوية والتي هي أهم من القوة العددية والبدنية كما بيّن القرآن في أكثر من موضع، ولو كان في التخلف عنها رخصة لرخص المولى جل جلاله للمجاهدين في أخرج اللحظات وأشدّها، مما يؤكد أن الحاجة إليها في أثناء اللقاء بالأعداء ضرورية، لأن الظرف يتطلب لوحدة الصف، مستدع لاتحاد الجيش سدا لذريعة التفرق والاختلاف، وطلبا لاجتماع القلوب وتآلف الكلمة، وتحقيقا لأعظم مقاصد الشرع، فالصلاة جماعة بهذا الاعتبار رمز لوحدة المسلمين، وجمع قلوبهم، واتحاد صفوفهم، ووحدة جماعتهم.



= كل طائفة بإمام. وهذا قول ضعيف؛ لمخالفته فعل الصحابة، ولأن مقصد شرع الجماعة هو اجتماع المسلمين في الموطن الواحد، فيؤخذ بهذا المقصد بقدر الإمكان. (ينظر: التحرير والتنوير، 5/185).

ومعلوم أن من أعظم مقاصد الاجتماع في الصلوات على إمام واحد أن يصير الكل كالشخص الواحد، فتتضاعف عليهم الرحمة؛ لاجتماع أنوار قلوبهم وسطوع ضيائها على جميعهم، وما إجازة صلاة الخوف على ما فيها من مخالفة نظام الصلاة إلا محافظة على اتحاد الجماعة والإمام، فتجتمع عليه القلوب، وتكون به الجماعة، وتدفع به فتنة تعدد الأئمة التي هي مدعاة للتفرق والاختلاف والتناحر والشقاق.

(1) تفسير السعدي، 5/198.

المطلب الثاني: الحج ووحدة الأمة.

إن من روائع التناسب القرآني بين سور الذكر الحكيم أن جاءت سورة الحج بين سورتي الأنبياء والمؤمنون؛ حيث وردت الآية التي تنص على وصف الأمة بالوحدة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 91]، وقال جل جلاله: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُوا﴾ [المؤمنون: 53]... فكانت سورة الحج، بما تضمنته من تفصيل أحكام هذا الركن العظيم؛ تفيد أن أجل شعيرة وأعظم عبادة يمكن أن تحقق وصف الأمة الواحدة هي عبادة الحج، وهذا أمر لا ينازع فيه أحد؛ لما تحويه هذه العبادة من شعائر ومناسك تؤدي بصورة جماعية ظاهرة مشاهدة، استجابة للصيغة القرآنية التي ورد بها تكليف العباد بهذا الركن، فلم يخاطب الله عز وجل في شأن الحج أفراداً منفصلين، بل خاطب الناس بصيغ تفيد الجمع والعموم فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 97]، وقال جل جلاله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: 25]، وقال عز من قائل: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [الحج: 195].

وهذا الأسلوب التكليفي الجماعي وارد في كافة مناسك الحج، حاضر في كل خطواته فرضاً ونفلاً، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَقْبَضْتُمْ مِنْ عَرَقٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ﴾ ثم أفيضوا مِنْ حَيْثُ أَبَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: 198]، فإذا فضيتم منسيكم فادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ

أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴿البقرة: 197-199﴾، وقوله سبحانه: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَاجِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا
 بِسْمِ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ إِلَّا نَعَمَ فَكُلُوا مِنْهَا
 وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَاطِلِ الْفَافِرِ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ لِيَفْضُوا تَبَثَّهُمْ وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيُطَوِّفُوا
 بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: 26-27]، وقوله جل جلاله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ
 شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا بِسْمِ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ
 جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَانِجِ وَالْمُعْتَرِّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ
 لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّفْوى
 مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَبَشِّرِ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: 34-35].

فالمتمع للآيات يلحظ أن الخطاب أتي موجها للجماعة ليكون الاهتمام بهذه العبادة
 اهتماما جماعيا، يتقاطر إليها الناس من كل فج وصوب، ينضم بعضهم إلى بعض، فيتوحد
 منهم القصد والتوجه، والإزار والرداء، والزمان والمكان، والشعائر والمناسك منذ الابتداء
 والإحرام حتى الانتقال بين الأركان والواجبات، ومنى وعرفات... فينصهر الكل في ميدان
 الجماعة، ويتفاعل الجميع في المواقف والمواضع، فيُشَيِّد الجمع الموحد ويصقل الكيان
 الجماعي، وتنشأ الأمة الواحدة في سياق تعبدي واقعي يوحى بالتواصل والتلاحم، ويظهر
 التآزر والتسالم. ويشهد لهذا المعنى ما ورد في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ
 حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾، فقد ذهب أهل التأويل إلى «أن المعنى بقوله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ قريش
 ومن ولدته قريش، الذين كانوا يسمون في الجاهلية: «الحُمس»، أمروا في الإسلام أن يفيضوا
 من عرفات، وهي البقعة التي أفاض منها سائر الناس غير الحُمس، وذلك أن قريشا ومن

ولدته قريش، كانوا يقولون: «لا نخرج من الحرم» فكانوا لا يشهدون موقف الناس بعرفة معهم، فأمرهم الله بالوقوف معهم⁽¹⁾. وفي ذلك إلغاء لتلكم الطبقية والافتخار بالأنساب، والتمايز القبلي الذي توارثته قريش أبا عن جد، فجاء الإسلام وغير المعايير وقوم الموازين وصحح المفاهيم، وأتى بشريعة العدل والمساواة التي تصهر الكل في نسيج واحد، وتجعل القبائل أمة واحدة، وشرع عبادة الحج، ونقحها من أفعال الجاهلية تشخيصا لذلك وتديلا فعليا وعمليا عليه، قال سيد قطب في تفسيره للآية: «قفوا معهم حيث وقفوا، وانصرفوا معهم حيث انصرفوا... إن الإسلام لا يعرف نسبا، ولا يعرف طبقة، إن الناس كلهم أمة واحدة، سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، ولقد كلفهم الإسلام أن يتجردوا في الحج من كل ما يميزهم من الثياب، ليلتقوا في بيت الله إخوانا متساويين، فلا يتجردوا من الثياب ليتخيلوا بالأنساب... وهكذا يقيم الإسلام سلوك المسلمين في الحج على أساس من التصور الذي هدى البشرية إليه، أساس المساواة، وأساس الأمة الواحدة التي لا تفرقها طبقة، ولا يفرقها جنس، ولا تفرقها لغة، ولا تفرقها سمة من سمات الأرض جميعا»⁽²⁾.

فالأساليب القرآنية تؤكد جماعية الحج، وتولد قناعة بأن مقصد الحج ليس تكليفا خاصا أو جزئيا، أو مجرد فعل يمارسه الفرد منعزلا منفردا، بل الغرض إيجاد مشهد إنساني عالمي، يجلي وحدة الإنسانية تحت راية العبدية والخضوع لله. ويمثل الحج أعلى مستويات الاجتماع دوناً عن سائر العبادات، لأن روح الجماعة فيه ظاهرة، والتشارك الإنساني في أداء المناسك بارز، والجماعة هي محل التكليف في هذه العبادة، والخطاب القرآني موجه إليها بوصف المؤمنين أمة ذات مقصد وجودي واحد، وهي عبادة لا يمكن أن تحقق ما شرعت له

(1) ينظر: تفسير الطبري، 524/3-525. الحديث من صحيح البخاري: حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: "كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الخمس، وسائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام =أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها فذلك قوله: من حيث أفاض الناس".

صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)، ر. ح، 4520، 224/3.

(2) في ظلال القرآن، 200/2.

من المنافع والمصالح العامة إن لم تتم بشكل جماعي وطريقة موحدة، يجأر فيها الكل إلى الله بتلبية واحدة وإجابة واحدة: «لبيك اللهم لبيك» جماعات وزمرا، وطوائف وأما، فتذوب الفوارق المادية والطبقية، وينبذ التنافر والتباعد، وترسخ قيم التقارب والاتحاد، على اختلاف اللغات والألوان، والجنسيات والأقطار، والمناصب والأحوال... وهي فرصة لتظهر شخصية الأمة وتميزها، وتفرض موقعها وكيانها، وتتكامل دولها ومكوناتها، وتتعاقد هيئاتها ومؤسساتها، فتشارك همومها، وتبني سياساتها تجاه قضاياها المصيرية التي يعيشها العالم الإسلامي في شتى بقاعه.

وتتأكد هذه الوحدة للأمة في ركن الحج بوحده الزمانية، حيث نص القرآن الكريم على أن لهذا الركن وقتا محددا، وهي أشهر معلومة لا يصح الإحرام بالحج إلا خلالها قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة 196]⁽¹⁾، «وأشهر الحج هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة، وهي ليست كلها لأعمال الحج، وإنما الثلاثة الأيام الأخيرة من عشر ذي الحجة، هي التي تضم كل أعمال الحج... ولكن الحجيج إذ يأتون من آفاق مختلفة، فإن كثيرا منهم يهيم نفسه، ويخرج من بلده قبل الوقوف بعرفة ببضعة أشهر، وبعضهم قبل ذلك ببضعة أيام، والمدة التي ذكرها القرآن هي المتوسط الزمني بين من يأتون من أقصى الأرض وبين من هم أهل البلد الحرام. وهذه الأشهر لا يصح الإحرام بالحج إلّا فيها»⁽²⁾. وكأن التحديد بهذه المدة تيسير لأمر اجتماع الأبعد والأقارب في بيت الله الحرام، وهم بذلك يتشاركون في وحدة شعورية تهيئية يستحضرها كل من كان على أهبة الاستعداد لأداء النسك. فتكون هذه الأشهر وعاء ظرفيا يتحقق فيه التجمع الإسلامي العالمي لأداء المناسك، ومداواة قضايا الأمة، وتفعيل مقصدية الخلق شعوبا وقبائل؛ فيتعارف المسلمون على اختلاف

(1) قال ابن كثير: "وقت الحج أشهر معلومات، فخصصه بها من بين سائر شهور السنة، فدل على أنه لا يصح قبلها كميات الصلاة" (تفسير ابن كثير، 541/1).

(2) التفسير القرآني للقرآن، 221/1.

بلدانهم، ويتواصل العلماء والأمرء، والدعاة والساسة، ويستشعرون وحدة أمتهم واتحاد جماعتهم، وهذا من جملة المنافع التي تضمنتها الآية: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ «فمن تلك المنافع... تيسير اجتماع المسلمين في أقطار الدنيا في أوقات معينة، وفي أماكن معينة ليشعروا ب1الوحدة الإسلامية، ولتمكن الاستفادة بعضهم من بعض فيما يهم الجميع من أمور الدنيا والدين، وبدون فريضة الحج لا يمكن أن يتسنى لهم ذلك، فهو تشريع عظيم من حكيم خبير».(1) فلا يصح أن يحج كل شخص أو فوج متى شاء من أيام وشهور، بل يجتمع كل من قصد بيت الله لأداء النسك في موسم واحد ووقت موحد، ولا يصح القصد إلا في محله وأوانه.

فنحصر الزمان عنصر جمعي ركين، لا يتحقق الاجتماع العالمي، كما يشاهد كل عام إلا به، ولذلك نصت عليه الآية وأقامت الحج مقام وقته ﴿الْحَجَّ أَشْهَرُ مَعْلُومَةٍ﴾ «فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وجعلت النسبة إلى الحج نفسه لا إلى وقته، للإشعار بأن هذه الأشهر لكونها تؤدي فيها هذه الفريضة قد اكتسبت تقديسا وبركة منها، حتى لكأن هذه الأشهر هي الفريضة نفسها».(2) وفي ذلك إشارة عميقة - زيادة على بيان فضل هذه الأيام - إلى أهمية التوقيت بهذا الزمان الفاضل لتحقيق مقصد الوحدة الزمانية.

ويظهر هذا المعنى الجمعي جليا بتوجيه سبب نزول الآية، فقد أتى التحديد لوقت الحج إنهاء للجدال الذي كان بين أهل مكة في مواقيته الزمانية، قال مجاهد وطائفة معه في معنى الجدال في قوله ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ هو: «المماراة في الشهور حسبما كانت عليه العرب من النسي، كانوا ربما جعلوا الحج في غير ذي الحجة، ويقف بعضهم بجمع وبعضهم بعرفة، ويتمارون في الصواب من ذلك».(3) فأخبر الله تعالى أنه قد ارتفع الخلاف في

(1) أضواء البيان، 536/5.

(2) الوسيط لطنطاوي، 426/1.

(3) تفسير القرطبي، 327/3.

الحج⁽¹⁾، ورد الجميع إلى وقت واحد ثابت بالنص الشرعي، لا يجوز الخروج عنه، وليس لهم فيه شيء من التقديم أو التأخير.

ويتعزز هذا الاعتناء بوقت الحج بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهِلَةِ فَلْهِىَ مَوَافِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 188]، فخص الحج بالذكر دوناً عن بقية العبادات، لأن الوقت أشد لزوماً له، ولا يصح فعله أداء ولا قضاء إلا في زمانه المعلوم. قال السمين الحلبي (ت: 756هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «ولما كان الحج من أعظم ما تُطلب مواقيته وأشهره بالأهلة أُفرد بالذكر، وكأنه تخصيص بعد تعميم»⁽²⁾.

ومن حكمة ذلك وسره أن احتياج الحج للتوقيت المحدد ضروري، ليكون مؤتمراً سنوياً يجتمع فيه المسلمون على اختلاف بلدانهم وأجناسهم وألوانهم ولغاتهم، فيحدث الأثر البالغ بتربية النفوس، وتزكية الأفئدة، وتقوية الأواصر، واتفاق الزي واللون، والذكر والمنسك، وبروز العدد، وظهور القوة، وإرهاب العدو، قال ولي الله الدهلوي (ت: 1176هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «فإن لكل دولة أو ملة اجتماعاً يتوارده الأفاصي والأداني ليعرف فيه بعضهم بعضاً، ويستفيدوا أحكام الملة ويعظموا شعائرها، والحج عرضة المسلمين وظهور شوكتهم واجتماع جنودهم وتنويه ملتهم»⁽³⁾. ولو لم يكن مثل هذا التحديد لزمانه لاستحال تحقيق هذا الجمع.

ومن تمام الحكمة الإلهية أن جعل الله مع هذه الوحدة الزمانية وحدة مكانية وبيتاً جامعاً إليه يتوارد الناس من كل فج عميق فقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً

(1) الكشف، 407/1.

(2) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت: 756هـ). تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، 304/2.

(3) حجة الله البالغة، 87/2.

لِلنَّاسِ وَأَمْنًا» [البقرة: 124] وقال جل جلاله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 96]. وخصه بقداسة في قلوب العباد، وجعل أفئدة الناس تهوي إليه⁽¹⁾، وذكره تنصيحا في عدة آيات،⁽²⁾ تأكيداً على أهمية المكان في تحقيق الاجتماع، وقد أحسن سعيد بن جبير، وعكرمة، وقتادة، وعطاء الخراساني حين فسروا ﴿مَثَابَةً﴾ بقولهم: أي مجمعا.⁽³⁾ فالحج مجمع سنوي عام يتلاقى فيه العباد عند البيت الذي صدرت لهم منه الدعوة، وبدأت منه الملة الحنيفية السمحة على يد أبيهم إبراهيم عليه السلام، وهو أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله خالصا وتأدية المناسك، وإظهار التماسك، فهو مركز اجتماع ومنبع هداية وإشعاع، قال المودودي (ت: 1399هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «إن مكة المكرمة قد جُعِلت مركزا للمسلمين، تهوي إليه نفوسهم من جميع نواحي الأرض، على اختلاف سلالاتهم وأوطانهم، فيشعرون أنهم أخوة فيما بينهم، وأنهم لا يؤلفون بمجموعهم إلا أمة واحدة، فكان الحج هو عبادة الله تعالى في جانب، ومؤتمر عالمي سنوي

(1) إجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿بِأَجْعَلْ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 39]. ونحن نرى تصديق ذلك في واقع الناس وحرصهم على زيارة البيت، وكيف تحن القلوب إلى تلك البقاع، وتكرر الزيارة المرة تلو المرة أداء للفرص، واستجلابا للفضل في شوق ورغبة، وحرص ومحبة، قال السدي (ت: 128هـ) رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: 124]: "أما المثابة فهو الذي يثوبون إليه كل سنة، لا يدعه الإنسان إذا أتاه مرة أن يعود إليه". (تفسير الطبري 518/2).

(2) ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: 124]. ﴿بِمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ إِغْتَمَرَ﴾ [البقرة: 157]. ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 96] ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97] ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: 24].

(3) تفسير البغوي، 1/146. وينظر: تفسير ابن كثير، 1/412.

يفد إليه المسلمون من جميع نواحي الأرض وأقطارها في الجانب الآخر، فهو أكبر وسيلة وأنجح طريقة لتربية الأخوة الإسلامية العالمية على الاتحاد والمحبة والتعاون»⁽¹⁾.

وإظهار لفظ البيت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ فِيهِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ مِّمَّا إِبْرَاهِيمَ وَمَسَّ دَخَلَهُ، كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَسَّ كَبْرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: 96-97] إشارة إلى أن الحج مراد به قصد هذا البيت بعينه، فقوله سبحانه: ﴿حُجُّ الْبَيْتِ﴾ ولم يقل «حجه» مع أن البيت قد سبقت الإشارة إليه في الآية أحسب - والله أعلم - أن القصد منه تعظيم شأن البيت والعناية به، والتنبيه ضمنا على أهمية المكان والاجتماع فيه لإبراز الوحدة مظهرها وحسا، أملا أن تتوحد القلوب وتخلص النيات وتتحد الغايات.

وقد أتت نصوص قرآنية تتحدث عن أمكنة أداء الشعائر، منها قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 124]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّبَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: 157]، وقوله جل وعلا: ﴿فَإِذَا أَقْبَضْتُمْ مِنْ عَرَقَتِ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوا كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٧﴾﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: 197-198]. فمقام إبراهيم، وعرفات، والمشعر الحرام، والصفاء والمروة... كلها أوعية جامعة

(1) مبادئ الإسلام لأبي الأعلى المودودي (ت: 1399هـ)، مكتبة الشباب المسلم، ترجمه محمد عاصم الجواد، الطبعة الثالثة، 1381هـ، 1961م، ص: 106.

لجموع الحجيج، محققة لوحدهم، وقد أشار ولي الله الدهلوي رَحِمَهُ اللهُ إِلَى هذه الحكمة فقال: «والسر في نزول منى أنها كانت سوقا عظيما من أسواق الجاهلية. . وإنما اصطلحوا عليه لأن الحج يجمع أقواما كثيرة من أقطار متباعدة، ولا أحسن للتجارة ولا أرفق بها من أن يكون موسمها عند هذا الاجتماع، ... وكان للإسلام حاجة إلى اجتماع مثله يظهر به شوكة المسلمين وعددهم وعدتهم، ليظهر دين الله، ويبعد صيته، ويغلب على كل قطر من الأقطار، فأبقاه النبي ﷺ، وحث عليه وندب إليه.(1)

وعن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ قال سعيد حوى (ت: 1409هـ) رَحِمَهُ اللهُ: «لينطلقوا بأعظم مظاهرة تعرفها البشرية، معظمة الله وشعائره».(2)

فتحديد البيت المقصود وتعيين بعض الأماكن فيه، وتوجيه خطاب التكليف بصيغة الجمع، - تبتغوا، أفضتكم، اذكروا، واذكروه، أفيضوا...- يوحى أن الغاية من رفع بنيانه هو أن يسارع إليه الناس من مشارق الأرض ومغاربها، رجالا وركبانا، قاطعين المهامه والمفاوز، والمهالك والحواجز، قاصدين ربهم، متقاربين متآلفين، تحويهم دائرة الحرم، وتحتضنهم جنبات مكة على هيئة واحدة، وعلى نحو لا تشهد العين مثله إلا في هذا الموطن. ويكون المشهد معبرا عن وحدة هذه الأمة، واتحاد وجهتها وشعائرها.

إن استقراء آيات الحج يوقف على ما تبطن في ثناياها من روح الجماعة ونفس الاجتماع، وهذا يشكل حجر الزاوية في لبنات المنافع التي أطلقتها الآيات القرآنية. واعتماد هذه الرؤية الكلية للنصوص القرآنية تساعد على إدراك مقصد الأمر القرآني بهذه الشعيرة، فالحج وعاء الاجتماع، وموسم الائتلاف، وفرصة الاتحاد والاتفاق، وهذه ثمرة مرجوة وممكنة إذا تدبرت الأمة قادة وقاعدة، علماء وأمرء، رجالا ونساء في هذا المقصد الشرعي العظيم، وسعت جاهدة إلى بلوغه، وصدقت في تطلُّبه.

(1) حجة الله البالغة، 2/92، بتصرف.

(2) الأساس في التفسير، لسعيد حوى، دارالسلام - القاهرة، الطبعة السادسة 1424هـ، 1/468.

وخلاصة هذا الفصل أجملها في النقاط الآتية:

أ- إن الوحدة أصل في الخلق كله باعتبار مخلوقيته لله تعالى، وهذا فيه إشارة إلى مشترك إنساني كوني، وقد أخبر القرآن عن وحدة هذا الكون في بداية الخلق، فأعلم أن السماوات والأرض كانتا رتقا، ثم شاء الله تعالى أن يفتقهما، وأن يمدد في هذا الكون وينوع الخلق فيه، وجعل أصل الخلق فيه واحدا فجعل من الماء كل شيء حي، كما أخبر عن خلق الإنسان من عنصر هذا الكون فبدأ خلق الإنسان من طين، ثم خلق من أب البشرية آدم عليه السلام وزوجه حواء وأسكنه إليها، وبث من هذا البيت الواحد والأسرة الواحدة رجالا كثيرا ونساء، فتمددت الأسر والعائلات، وتباعدت الصلات والقربات، وتنوعت اللغات واللهجات، واختلفت بعد ذلك حتى الأعراق والأعراف... وتباعدت الأوطان والبلدان... لكن المشترك الواحد والأصل الخلقى مكين. ثم أتت الشرائع توصي بالوحدة وتحث على الألفة، وترنو إلى جمع شتات البيت الواحد -الذي صار أمة عريضة لا يحصي عددهم إلا الله- على دين واحد ومنهج قويم.

ب- إن الإيمان وتوحيد الديان هو جوهر ما دعا إليه الرسل، وتحقيق ذلك بين أفراد الأمة هو ما يوحد تصورهم للكون والحياة والإنسان، وقد نطقت الآيات القرآنية بما يؤكد هذا المعنى في جل سور القرآن بل في كلها، فلا تخلو سورة من سوره ولا صفحة من صفحاته من الإشارة تصریحا أو تلمیحا إلى قضية من قضايا الإيمان والاعتقاد بدءاً من توحيد الربوبية وفيه الإشارة إلى وحدة الأمة الإنسانية، مروراً بتوحيد الألوهية، وبه تحقق الأمة الإسلامية، وانتهاء بوحدة المصير، مع التذكير دائما بقضايا الإيمان الأخرى التى تبنى على إقرار العبد بوجود الخالق ووحدانيته.

ج- إن قضية الولاء والبراء من القضايا الأساسية التي تجلي وحدة الأمة الإسلامية، فلا يقتصر الإيمان على مجرد الإقرار باللسان، بل يصطبغ ذلك إذعان لأحكام الشرع، وامتنثال لأوامر الوحي، ومحبة لأهل الحق، وبراءة من أهل الكفر، ونصرة لأهل الإيمان،

وهذا إذا تحقق على أرض الواقع، واستشعرته النفوس المؤمنة، ولامست آثاره في واقع حياتها، قوى ألفتها، وشد وثاق رابطتها، وصيرها أمة واحدة وجسدا واحدا.

د- إن من مقومات وحدة الأمة، وحدة المرجعية التشريعية فقد نزلت الكتب السماوية من مشكاة واحدة، يخبر السابق فيها باللاحق، ويصدق اللاحق منها السابق، وختم الله هذه الكتب المنزلة بكتابه الخاتم، معجزة خاتم الرسل، وجعله شرعه القائم إلى قيام الساعة، به يحكم الناس وإليه يتحاكمون، ولأمره ونهيه يمتثلون، ونظام تشريعه يخضعون، وذلك ما يضمن لكل حقوقه، ويعرفه واجباته، ويبقى الأمة من أن يظلم بعضهم بعضا أو يقتل بعضهم بعضا، فالكتاب المنزل دستور هذه الأمة الذي بيته سنة النبي ﷺ بما يفى ويشفي، ويبقى الأمة من أدواء الفرقة والشتات.

هـ- يعد اللسان العربي لسان الوحي الخاتم، والتشريع الحاكم، من رام فهم الشريعة وجب عليه تعلمه، بل قد وجب ذلك على كل من أسلم ليفقه ما خاطبه الشرع به، ويعرف حق الله وحقوق العباد عليه، ولسان الوحي مقوم من مقومات وحدة الأمة الإسلامية إذ هو وسيلة تواصل بين أبناء الدول المختلفة والألسن المتباينة، من تعلمه يسر عليه أن يصل رحم إخوانه وأبناء دينه. كما أن تعلم اللسان العربي يقي صاحبه من سوء الفهم لخطاب الشارع مما قد يؤول به إلى فهم لا تستقيم، فيكون سبب فتنة لنفسه ولغيره، وفرقة لأمة.

و- تعد الشعائر التعبدية من أجل مظاهر وحدة الأمة الإسلامية، ومن أظهر الشعائر التي يبرز فيها وحدة صف هذه الأمة؛ عبادة الصلاة والحج، وآياتهما في القرآن الكريم كثيرة سواء ما تحدث عن وجوب الأداء وفرضيته، أو عن زمان الأداء ووقته، أو عن مكان الأداء وشرفه، أو عن بعض الأركان والفرائض والكيفيات... كلها تدل صراحة أو إيماء على مقصد تحقيق وحدة الأمة واجتماعها.

ومن تمام الإنعام على عباده وعظيم العناية بهم والاهتمام بمصالحهم؛ أن أخبر ربنا عباده بما يشكل معوقات لوحدة الأمة، وحذرهم منها، وبين مضارها ومفاسدها، وحكى في محكم تنزيله مصير من تلبسوا بها، وخالفوا ما أوحى الله به إلى أنبيائهم ورسلمهم، وهذه خاتمة العقد لهذه القضايا جعلته في الفصل الثاني والأخير من هذا الباب وعنوانته: معوقات وحدة الأمة الإسلامية.



الفصل الثاني:

☐ معوقات وحدة الأمة

☐ وفيه خمسة مباحث:

✓ المبحث الأول: الاختلاف. ☐

✓ المبحث الثاني: التفرق. ☐

✓ المبحث الثالث: التقطع. ☐

✓ المبحث الرابع: اتباع الهوى. ☐

✓ المبحث الخامس: البغي. ☐

توطئة

من تمام العلم بالشيء بعد إدراك حقيقته وجوهره، معرفة نقيضه وضده، وقد كان من منهج القرآن الكريم، ذكر الخير والشر، والحسن والسيء، والحلال والحرام، والطيب والخبيث، والداء والدواء... والمقوم والمعوق؛ فمنَّ الله على أمته في موضوعات القرآن الكريم بأن عرفهم بمقومات الشيء ومعوقاته، ومن جملة هذه الموضوعات موضوع وحدة الأمة الإسلامية، فبعد الحديث عن مقومات وحدة الأمة يحتاج الناظر في هذا الموضوع إلى معرفة معوقات هذه الوحدة، وهو ما كان حاضرا في نصوص القرآن الكريم، جليا في سياق آيات الوحدة، وقد تيسر لي أن أصوغ قضاياها في خمسة مباحث يجمعها رابط واحد، وهو أن هذه المعوقات أتت في معرض الحديث عن وحدة الأمة ووجوب اتفاقها وائتلافها، وتلبس الأمة بها سيؤول بها لا محالة إلى شتات وفرقة وضياح، وهي التي سأفصلها في هذا الفصل الثاني والأخير.



المبحث الأول الاختلاف

المطلب الأول: مفهوم الاختلاف لغة واصطلاحاً.

يرجع لفظ الاختلاف في اللغة إلى الجذر اللغوي (خ. ل. ف) وهو افتعال من م صدر
اختلف، الذي من معانيه: نقيض قدام، وهو ي ضاد الات فاق.⁽¹⁾ يقال: «تخالف القوم
واختلفوا، إذا ذهب كل واحد منهم إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر».⁽²⁾ ويقال: «تخالف
الأمران، واختلفا إذا لم يتفقا وكل ما لم يتساو فقد تخالف واختلف».⁽³⁾

كما ترد هذه اللفظة بمعان أخرى، تدل عليها الجذور اللغوية للكلمة (خ ل ف)
منها: التغير، وإقامة شيء مقام الآخر، قال ابن فارس: «الخاء واللام والفاء أصول ثلاثة:
أحدها أن يجيء شيء بعد شيء يقوم مقامه، والثاني خلاف قدام، والثالث التغير».⁽⁴⁾ ومنه
قولهم: «اختلف الناس في كذا، والناس خلفة أي مختلفون»؛ لأن كل واحد منهم ينحي قول
صاحبه، ويقيم نفسه مقام الذي نحاه.⁽⁵⁾ وهو ما قصده الفيومي بقوله: «الاختلاف أن
يذهب كل واحد إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر». فكل واحد من المتخالفين يسعى إلى تنحية
قول صاحبه وإثبات قوله، فهو متضمن لنوع من الانتزاع والمجازبة، ويمكن ملاحظة هذا
الأمر من خلال التعريف الاصطلاحي حيث عرف الجرجاني الاختلاف بأنه: منازعة تجري
بين المتعارضين؛ لتحقيق حق أو لإبطال باطل،⁽⁶⁾ فاستعار في تعريفه لفظ: (التنازع) وسمى
المتخالفين ب (المتعارضين)، وفيه معنى من التعريف اللغوي السالف الذكر، وهو إقامة

(1) ذهب الراغب الأصفهاني إلى أنه أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين. (ينظر: المفردات، ص: 208/1).

(2) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (ت: 770هـ)، تحقيق: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، الطبعة الثانية. 179/1.

(3) ينظر: لسان العرب، 4/188.

(4) مقاييس اللغة، 2/210.

(5) نفسه: 2/213.

(6) التعريفات للجرجاني، ص: 164.

الشيء محل الآخر، والغاية من ذلك هي إحقاق حق، أو إبطال باطل.

وتأسيسا عليه، فالاختلاف فيه شيء من التنازع والمجادبة، وسلوك الطريق المخالفة للآخر، فيذهب كل واحد إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر بما يحمله ذلك من معاني المضادة والمعارضة.⁽¹⁾



(1) بعض العلماء يميزون بين لفظ (الاختلاف) و (الخلاف) فيعنون بالخلاف ما كان مؤديا إلى التنازع والتفرق، في حين يختصون مصطلح الاختلاف بما لم يكن كذلك، من ذلك ما ذكره أبو البقاء الكفوي، حيث فرق بينهما من أربعة وجوه ذكرها في كلياته. (ينظر: الكليات للكفوي، ص: 61).

ولعله اصطلاح جرى من باب الشهرة وكثرة الاستعمال؛ وإلا فإن التدقيق في الأصل اللغوي لكلمتي لا يساعد على هذا التفريق، بالإضافة إلى أن الأصل الدلالي للفظتين يفضي إلى عدم وجود فرق حقيقي بينهما، قال الراغب الأصفهاني: "الخلاف والاختلاف في اللغة: ضد الاتفاق، وهو أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل مختلفين ضدين". (ينظر: المفردات، ص: 208/1).

المطلب الثاني: مفهوم الاختلاف في القرآن الكريم.

جاء ذكر الاختلاف في نصوص القرآن الكريم بنفس المعنى الذي ورد به في المعاجم اللغوية والاصطلاحية، دالا على المضادة والمعارضة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولفظ الاختلاف في القرآن يراد به التضاد والتعارض، ولا يراد به مجرد عدم التماثل، كما هو اصطلاح كثير من النظار، ومنه قوله تعالى: ﴿أَبَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلُفْرَأَانَّ وَلَوْ كَانَ مِنْ

عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إختِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 81]». (1)

والمأمل في الحقول الدلالية التي يرد في سياقها ذكر الاختلاف يدرك أن الغالب على معناه في القرآن هو الاختلاف العقدي، سواء الاختلاف الواقع من أهل الكتاب، إما مع بعضهم البعض أو مع رسلهم وأنبيائهم، أو مع رسالة الإسلام ونبى الإسلام، وهو اختلاف مذموم، حذر القرآن المسلمين من الوقوع في مثله. (2)

والذي يهمني في هذا الموضع، هو ذكر ما ورد في سياق الآيات التي تتحدث عن وحدة الأمة أو عقب ورود مشتق من مشتقات لفظ الوحدة، مع الكشف عن العلائق المفهومية بين هذه الآيات القرآنية، وبيان وجه كون الاختلاف من معيقات الوحدة بين المسلمين، مستدلا على ذلك بما يناسب من أقوال المفسرين والعلماء. وهذه الآيات التي سأتناولها بالدراسة والتحليل وردت في أربعة مواضع من القرآن الكريم، كما سيأتي بيانها.



(1) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، طبعة 1416هـ - 1995م. 19/13.

(2) مفهوم الاختلاف في القرآن الكريم لفريدة زمرد، بحث منشور ضمن إصدارات مؤسسة دار الحديث الحسنية بعنوان: "الاختلاف في المجال الإسلامي تأصيلا وتديرا"، إعداد مجموعة من الباحثين، تنسيق عبد المجيد الصغير، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى 1432هـ/2011م 21/1.

المطلب الثالث: الاختلاف من معوقات الوحدة.

ورد ذكر الاختلاف في سياق الآيات التي تتحدث عن وحدة الأمة في أربعة مواضع

هي:

✓ قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: 213].

✓ قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: 50].

✓ قوله جل جلاله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: 19].

✓ قوله عز من قائل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: 118].

ومن اللطائف الواقعة في هذه المواضع أن السور القرآنية بالرغم من اختلاف نزولها بين مكى ومدني؛ فإن النظر إليها بحسب ترتيب المصحف، يكشف عن تقارب في الصيغة البيانية اللغوية فيها؛ فالموضع الأول في سورة البقرة وهي مدنية النزول، بدأ بأسلوب الإثبات والتقرير ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: 211] كانوا أمة واحدة، وبدأت آية يونس بصيغة النفي المفيد للحصر ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [يونس: 19] وهي الموضع الثالث، أما نزولها فهي سورة مكية النزول. والموضع الثاني وهو سورة المائدة وهي مدنية النزول بدأت بنفس ما جاء به الموضع الرابع وهو سورة هود وهي سورة مكية.

فالآية الأولى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 211]. يُذكر مطلعها بما كان عليه الناس من أمر

الوحدة والتآلف.

وقد اختلف المفسرون في تفسير الآية على ثلاثة أقوال: الأول: أنهم كانوا على الهدى جميعاً، أمة واحدة متفقين على توحيد الله تعالى، مُقرين له بالعبودية مجتمعين على شريعة الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنه؛ والقول الثاني: أنهم كانوا كفاراً⁽¹⁾؛ أما الرأي الثالث فقد ذكره الإمام القرطبي بقوله: «ويحتمل أن تكون «كان» للثبوت، والمراد الإخبار عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة في خلّوهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا مَنْ اللهُ عليهم وتفضّله بالرسول إليهم. فلا تختص «كان» على هذا التأويل بالمضي فقط، بل معناها معنى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [النساء: 95]»⁽²⁾.

قال ابن كثير: «والقول الأول عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى، لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض وهو الذي عليه جمهور المفسرين»⁽³⁾.

وخالف محمد رشيد رضا فقال: «لا يمكن حمل هذه الآية على وحدة العقيدة والعمل، كما حملت عليه في مواضع أخرى»⁽⁴⁾ لأنّ الناس ليسوا أمة واحدة بذلك المعنى، بل هم مختلفون، فلا ريب إنّهُ يجب حمل وحدة الأمة على معنى آخر، وهو ذلك الذي نخشاه في الآية التي نحن بصدد تفسيرها. وهو أن الله خلق الإنسان أمة واحدة، أي مرتبة طائفة بهضه ببعض في المعاش، لا يسهل على أفرادها أن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا إلى الأجل الذي قدره الله لهم، إلّا مجتمعين يعاون بعضهم بعضاً، ولا يمكن أن يستغني بعضهم عن بعض، فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشيء من عمله، لكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفيقه جميع

(1) تفسير ابن كثير، 569/1.

(2) تفسير القرطبي، 405/3.

(3) ينظر تفسير ابن كثير، 425/1.

(4) مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 19].

ما يحتاج إليه، فلا بدّ من انضمام قوى الآخرين إلى قوّته فيستعين بهم في بعض شأنه كما يستعينون به في بعض شأنهم»⁽¹⁾.

والآية تبين ما حصل من ضياع أمر هذه الوحدة لما وقع الاختلاف، فأرسل الله الأنبياء والرسول وأمدّهم بالكتب؛ للحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وإرجاعهم إلى ما كانوا عليه من أمر الأمة الواحدة، فالاختلاف في دين الله غير مقبول، وهو استثناء وخروج عن الأصل الأول، ويتعين رفعه والعودة إلى الأمر الأصل. وإرسال الأنبياء وبعثهم كان لغرض إزالة هذا الاختلاف، كما تدل عليه لام التعليل في قوله سبحانه: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

يقول ابن عاشور رحمه الله: «وتعليل البعث بقوله: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، انتظم من ذلك كلام من بليغ الإيجاز وهو أن الناس كانوا أمة واحدة فجاءتهم الرسل بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد ليدوموا على الحق خشية أن صرافهم عنه إذا ابتدأ الاختلاف يظهر، وأيدهم الله بالكتب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فلا جرم أن يكون مجيء الرسل لأجل إبطال اختلاف حدث، وأن الاختلاف الذي يحتاج إلى بعثة الرسل هو الاختلاف الناشئ بعد الاتفاق على الحق»⁽²⁾.

والظاهر من موقع هذه الآية هنا جامع لموقع تذييل لما قبلها ومقدمة لما بعدها. فأما الأول فلأنها أفادت بيان حالة الأمم الماضية كيف نشأ الخلاف بينهم في الحق مما لأجله تداركهم الله ببعثات الرسل في العصور والأجيال التي اقتضتها حكمته الله، وأما الثاني فلأنها مقدمة لما يرد بعده من ذكر اختصاص الإسلام بالهداية إلى الحق الذي اختلفت فيه

(1) ينظر: تفسير المنار، 225/2. بتصرف.

(2) التحرير والتنوير، 301/2.

الأمم. (1)

وفي الآية كذلك إشارة إلى أن الاختلاف قد وقع بعد مجيء البينات،⁽²⁾ والمراد بالذين اختلفوا فيه أهل الكتاب اليهود والنصارى، واختلافهم في الكتاب يشمل تصديقهم ببعثه وتكذيبهم بالبعض الآخر، كما يشمل اختلافهم في تفسيره وتأويله وتنفيذ أحكامه وعدم تنفيذها، وذهاب كل فريق منهم مذهباً يخالف مذهب الآخر في أصول الشرع لا في فروعها. (3)

ومنشأ الاختلاف البغي والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا⁽⁴⁾ ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ وما له أن يترك الناس الحق بالرغم من سطوعه ووضوحه وتبينه جحوداً وعناداً. وفي بيان حال بعثة الأنبياء وعطفه على التذكير بحال الأمة وحدثها، ﴿قَبَعَتْ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ بيان لمقصد آخر من مقاصد إرسال الرسل وهو تبشير «من أطاع الله بجزيل الثواب، وكريم المآب» ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ يندرون من عصي الله فكفر به، بشدة العقاب، و سوء الحساب والخلود في النار». (5) وفي تعقيبه بوقوع الاختلاف وبيان أسبابه، ما يشير إلى التبشير بالوحدة والتنويه بها وبرفع مقامها، فضلاً عما يتضمنه من الحث على الحفاظ على عواهل بقائها. والتحذير من الاختلاف والوقوع فيه.

ويتأكد هذا بتحديد نوع الاختلاف الذي تحدث عنه الآية، إذ يندرج ضمن الاختلاف في أصل الدين، بدليل سباق الآية فهي تتحدث عن قصة إنزال الدين وبعثة

(1) ينظر التحرير والتنوير: 2/299.

(2) ويحتمل أن ذم الاختلاف في هذا الموضع جاء بسبب وقوعه بعد تبين الحق، والله أعلم.

(3) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمحمد سيد طنطاوي، دار نخضة مصر - القاهرة، الطبعة الأولى 1997م، 460/1.

(4) تفسير الرازي، 6/11.

(5) تفسير الطبري، 4/280.

الأنبياء والرسل لإقامته، وتحكي تكذيب بني إسرائيل بالرغم من إرسال الآيات والبيّنات العديدة، ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَآءِيلَ كَمَ - اتَّيْنَلَهُمْ مِّنْ - آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: 209]. فالاختلاف في أصل الدين وجوهر التوحيد اختلاف مذموم ومناقض للوحدة ينبغي محاربته، والآية «استئناف لبيان أن اختلاف الأديان أمر كان في البشر لحكمة اقتضته وأنه قد ارتفع ذلك ورجع الله بالناس إلى وحدة الدين بالإسلام»،⁽¹⁾ فهو بخلاف ما يقع من الاختلاف في المجال التشريعي والتنظيمي، على حدّ قوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 50].

ويفهم من الآية أن الاختلاف يستوجب الرفع ولا ينبغي البقاء فيه، وهو معنى تصدير المقطع بذكر حال الناس قبل الاختلاف: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ لكونه يضاد وحدة الأمة ويعيقها. وإنما تكون الجماعة أمة إذا اتفقوا. والوصف ب: ﴿وَاحِدَةً﴾ في الآية لتأكيد الأفراد في قوله أمة، لدفع توهم أن يكون المراد من الأمة القبيلة، فيظن أن المراد كان الناس أهل نسب واحد، لأن الأمة قد تطلق على من يجمعهم نسب متحد.⁽²⁾

كما تحمل الآية في ختامها امتنان الله سبحانه بهدايته على من يشاء من خلقه وهم عباده المؤمنون، ومن هدايتهم توفيقهم للحق ودلالتهم عليه؛ لما علم من صدق طلبهم له وابتغائهم إياه، بخلاف الفرقة الأولى التي أعرضت واختلفت، وفي الآية أن هذه الهداية ليست عامة لكل الناس، بل هي اختيار واصطفاء منه سبحانه لمن يشاء من عباده وهو مقصود الاهتمام بالامتنان في هذا الموضع والله أعلم.

والموضع الثاني الذي ورد فيه ذكر الاختلاف عقب ذكر الأمة الواحدة هو سورة

(1) التحرير والتنوير، 298/2.

(2) التحرير والتنوير، 300/2.

المائدة، بما يوحي أنه عائق من عوائقها، وأن من نتائج الاختلاف ضياع وحدة الأمة، كما يدل عليه التقابل الذي تضعه الآيات مع بعضها؛ (الأمة الواحدة # الاختلاف)، والآية هي قول ربنا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآءِ اتِّبَاعِكُمْ فَاستَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48].

ومن باب بيان التناسب بين الآيات في هذا الموضع، يمكن قراءتها بالترتيب المصحفي فنعتبر هذه الآية - المائدة 48 - تنمة لآية البقرة السابقة، وهي قوله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 211]. وكأنهما تنتمي إلى سورة ومقطع قرآني واحد في انسجام تام.

وينتج عن هذا الترتيب تحليل المشيئة الإلهية في عدم جعله سبحانه للناس أمة واحدة بالابتلاء والامتحان، وأنه قدّر عليهم أن يختلفوا، وأن لو شاء لجعلهم مجتمعين على الحق جميعاً، فبيّن أن المقصد هو تمييز الحق من المبطل، والمقبل من المدبر، وأن حسم الاختلاف يكون بالرجوع إليه سبحانه، والله أعلم.

لقد رجّح فريق من المفسرين أن المراد من الأمة في الآية: الملة، أي العقائد وأصول الشرائع، أي أن جميع الأنبياء ورسّل الله على ملة واحدة ودين واحد، وقال فريق منهم: إنّ

الأمة في هذه الآية بمعنى الجماعة.⁽¹⁾

ويتبين من سباق هذه الآيات ولحاقها أن أصل الدين واحد، وأن الشرائع رغم اختلافها تعود في جملتها إلى أصل واحد، فلا اختلاف ولا تنافي بين وحدة الدين وتعدد الشرائع. وسباق الآيات من سورة المائدة ينص على أن مصدر الشرائع كلها هو الله تعالى، أوحى بها إلى أنبيائه ورسله ليسوسوا بها مجتمعاتهم، وينظموا سير شؤونهم، وذلك بحسب ما يناسب كل قوم وزمان. قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ والمعنى: إن لكل أهل ملة منكم أيها الأمم جعلنا شرعة ومنهاجا، فالدين واحد، والشرعية مختلفة.⁽²⁾ والخطاب في الآية لكل الأمم وليس موجهها للأمة الإسلامية فقط، قال ابن كثير: «فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمة، لما صح أن يقول: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهم أمة واحدة، ولكن هذا خطاب لجميع الأمم».⁽³⁾

والمقصود بالدين الواحد هو الاتفاق في أصول العقائد التي لا تختلف أبداً باختلاف الأزمان، وهو الذي دعا إليه الرسل وأصلوه بلا هوادة فنادوا بوحداية الله، وعدم الشرك به، وصفات الكمال المطلق فيه، وعدم تعدد الآلهة. وهو الدين الذي ورد في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ

(1) تفسير المنار، 220/2.

(2) اختاره الإمام الطبري واستدل عليه بقوله: "وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال: لكل أهل ملة منكم أيها الأمم جعلنا شرعة ومنهاجا. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولو = كان عني بقوله: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أمة محمد وهم أمة واحدة، لم يكن لقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وقد فعل ذلك فجعلهم أمة واحدة معنى مفهوم". (ينظر: تفسير الطبري، 386/10).

(3) تفسير ابن كثير، 130/3.

إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَفِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» [الشورى: 13]. أما الأحكام العملية فقد أتت بما يناسب الظروف.

فالاختلاف إذن في التشريع والتنظيم وليس في أصل الدين، الذي جوهره التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده والغاية منه الامتحان والابتلاء⁽¹⁾؛ فيكون معنى آية المائدة ولو شاء ربكم لجعل شرائعكم واحدة، ولم يجعل لكل أمة شريعة ومنهاجاً غير شرائع الأمم الآخر ومنهاجهم، فكنتم تكونون أمة واحدة، لا تختلف شرائعكم ومناهجكم. ولكنه تعالى ذكره يعلم ذلك، فخالف بين شرائعكم ليختبركم، فيعرف المطيع منكم من العاصي.⁽²⁾ وقيل: «أنه أراد بالاختلاف إيمان قوم وكفر قوم»،⁽³⁾ فتكون الآية مؤكدة أن الاختلاف في المجال العقدي اختلاف مذموم منبوذ، وعائق من عوائق وحدة الناس واجتماعهم؛ لأن الوحدة العقدية لازمة لكل الأمة.

إن اختلاف الناس في أصل الدين مخرج لهم عن مفهوم الوحدة، و عن الجماعة الواحدة المترابطة الأطراف والمتماسكة البناء، قال ابن عادل: «قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: جماعة متفقة على شريعة واحدة، أو ذوي أمة واحدة، أو دين واحد لا اختلاف فيه»،⁽⁴⁾ أما اختلاف الشرائع في أحكام الحدود والمقدرات والكفارات وغيرها فلا حرج فيه، والله يشرع لكل أمة من الأحكام ما يصلح لها،⁽⁵⁾ فهو صني على اختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال، والله قد جعل الإسلام وكتابه ورسوله ﷺ لنا سخا

(1) يرى القاسمي أن مدار عدم المشيئة المذكورة في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ليس مجرد الابتلاء، بل العمدة في ذلك ما أشير إليه من انطواء الاختلاف على ما فيه مصلحتهم معاشاً ومعاداً. (ينظر: تفسير القاسمي، 4/158. وهذا المعنى المصلحي وارد لأن الشرائع كانت تنزل بحسب مصالح الأقوام).

(2) تفسير الطبري، 389/10.

(3) تفسير القرطبي، 39/8.

(4) اللباب في علوم الكتاب، 371/7.

(5) أي: "فرضت على كل أمة ما علمت أن صلاحهم فيه". (بحر العلوم، 1/396).

لأحكام الشرائع السابقة. وليس في هذا الاختلاف ما يمنع من وحدة الأمم والشعوب.

لقد ورد الاختلاف في آية المائدة في مقابل وحدة الأمة، وفي سياق الحديث عن قضايا عقدية جوهرية سباقا ولحاقا منها وحدة الكتب السماوية، ووحدة الحاكمية، والتحذير من اتباع ذوي الأهواء العقدية، ثم وحدة المصير والمآل، والتنبيه على عقيدة اللولاء والبراء والتحذير من اتخاذ اليهود والنصارى والمستهزئين بدين الله أولياء وهذا من لوازم الاعتقاد الصحيح... وذلك في نظم قرآني فريد، تُسلمك كل آية لما بعدها، ويدل تقابل وحدة الأمة مع الاختلاف في هذا المقام أن المقصود هو الاختلاف في أصول الدين الاعتقادية؛ فهو عائق من عوائق الاتحاد والتآخي؛ لأن التحريف العقدي الذي عرفته الرسالات السماوية السابقة من يهودية ونصرانية، مع ما فيه من خروج عن أصل التوحيد وإشراك بالله تعالى، ونكوص عن إفراده بالربوبية والألوهية، وتوحيده في أسمائه وصفاته، فضلا عن إقرار عقيدة التجسيد وجعل الولد والصاحبة له؛ لا يبقى من مفهوم الأمة الواحدة شيئا؛ والخطب أفدح وأعظم فيما ظهر من التيارات الفكرية واللا دينية اللاحادية المضلة.

وهذا التذكير بأصل الأمة وحالها الأول، هو ما تؤكدُه أيضا آية يونس وتوضحه بجلاء، وهو الموضوع الثالث من المواضع التي جاء فيها تذييل ذكر الأمة الواحدة بالاختلاف، وهو قول ربنا: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 18].

وقد تضمنت هذه الآية التذكير بحال الناس الأول وأنهم كانوا حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا⁽¹⁾ على نحو ما مضى في آية البقرة سابقا، مع بيان إرادة الله سبحانه لهذا الاختلاف وأنه من قدره، وأن هذا القدر لو لم يكن سابقا منه سبحانه؛ لفضى وحسم بين الناس في هذا الاختلاف في الدنيا، وهو معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

(1) الكشف، 2/336.

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ۝ أي: «بتأخير العذاب إلى أجل المعلوم على حسب الحكمة الداعية إلى ذلك، ۝ لَفَضِي بَيْنَهُمْ ۝ أي: لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك»⁽¹⁾ وطريق الف صل في الدنيا هو جعل الناس جميعاً أمة واحدة يتبع كلهم الحق، بأن ينزل عليهم آيات ملجئة إلى إتباع الحق ورفع الاختلاف أو بأن يهلك المبطل ويبقى الحق،⁽²⁾ لكن لما اقتضت م شيئة الله سبحانه أن يقع هذا الاختلاف في الدنيا كان الجزاء عنه -إثابة وعقاباً- مؤجلاً إلى يوم القيامة، فحينها يدرك الناس ما كانوا فيه يختلفون.

وسياق ورود هذه الآيات أنها جاءت بعد تقرير الله سبحانه أن عبادة الأصنام باطلة، وأن الشرك طارئ وعارض، وأن الناس كانوا على ملة واحدة ودين واحد هو دين التوحيد الصحيح والعقيدة الحقّة، ووجه ارتباط الآية بما قبلها أنها كالتأكيد لما أشار إليه من أن التوحيد هو الدين الحق، حيث أفادت أنه ملة قديمة اجتمعت عليها الأمم قاطبة وأن الشرك وفروعه جهالات ابتدعتها الغواية خلافاً لجمهور الناس. وقد اختلف المفسرون في معنى قوله سبحانه: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فقال بعضهم: «أي وما كان الناس كافة من أول الأمر إلا متفقين على الحق والتوحيد من غير اختلاف، وروي هذا عن ابن عباس والسدي ومجاهد والجبائي وأبي مسلم، ويؤيده قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً عَلَى هدى﴾»⁽³⁾.

وأيد أبو حيان هذا الرأي واستدل له بقوله: «والظاهر أن المراد بقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ في الإسلام، لأنّ هذا الكلام جاء عقيب إبطال عبادة الأصنام، فلا يناسب أن يقوي عباد الأصنام. فإنّ الناس كانوا على ملة الكفر، إنّما المناسب أن يقال: إنهم كانوا على الإسلام

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، لأبي الفضل شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألويسي، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ، 90/11.

(2) تفسير الطبري، 125/2.

(3) روح المعاني، 89/11.

حتى تحصل النفرة من اتباع غير ما كان الناس عليه. وأيضاً فقلوله: ولولا كلمة، هو وعيد، فصرّفه إلى أقرب مذكور، وهو الاختلاف؛ هو الوجه، والاختلاف بسبب الكفر هو المقتضي للوعيد، لا الاختلاف الذي هو بسبب الإيمان، إذ لا يصلح أن يكون سبباً للوعيد⁽¹⁾.

فالآية بمجموعها تحكي قصة الاختلاف الواقع بين الناس، وتبين نوعه وصفه، وتؤكد على أنه اختلاف مذموم غير مقبول؛ لأنه شق لعصا الجماعة، وخروج عن وحدة الأمة، وخرق للمبادئ والقواعد الدينية التي جاءت الرسل لتثبيتها، والتي يقوم أساسها على توحيد الخالق سبحانه وإفراده بالعبودية، كما تضمنت الآية بطريق التلميح ذم هذا الاختلاف والتحذير منه، بضميمة التعقيب المتضمن في قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وفيها معاني جمّة من لطف الله ورحمته بخلقه، التي يترجمها كون هذا الاختلاف مقدراً.

وإذا كان هذا الاختلاف مذموماً، كان مآله والغاية من ذمه والتحذير منه؛ إرجاع الناس إلى الأصل الذي كانوا عليه قبل الاختلاف، وردهم إلى الفطرة التي فطرهم الله عليها، وهي الاجتماع على عقيدة التوحيد الخالص⁽²⁾.

(1) البحر المحيط، 29/6.

(2) وإلا لم يكن للتذكير بأصلهم الأول، وبالمعاني التي لحقته كالتعقيب بتقدير الله لهذا الاختلاف، والتخويف منه المتضمن في قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ وترتيب الآية على إبطال عبادة الأصنام كما يظهر من قوله سبحانه: ﴿بِمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ۝﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ فَلْأَتْنِيَهُنَّ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝﴾ [يونس: 17-18]؛ لم يكن لكل ذلك معنى، لو لم يكن القصد الإلماع إلى أصل الناس الأول وردهم إلى وحدتهم الدينية العقدية، التي يدل عليها إرسال الأنبياء لحسم هذا الاختلاف بعد وقوعه، كما في آية البقرة الأولى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: 211].

ولما كان هذا الاختلاف قدرا من الله تعالى وسنة من سننه، كانت العصمة من الوقوع فيه بيده سبحانه: ﴿بِهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 211]. فالهداية والإضلال من الله سبحانه، وهي معطوفة على التذكير بأصل وحدة الأمة، فكأن الوحدة هداية، والفرقة والاختلاف ضلالة، وفي تأسيسها على مشيئة الله وإرادته في جعل الناس أمة واحدة، معان كثيرة منها أنها إكرام وإنعام من الله تعالى على من شاء من عباده، فالهداية ليست بيد الإنسان، بل هي من كرم الله وتوفيقه.

ومن ثمرات هذه الهداية جعل الناس أمة واحدة متفقين في الدين والعقيدة والعبادة؛ فكل من كان على هذا الشأن كان داخلا في مفهوم الأمة الواحدة التي أمر الشرع بها، وجاءت الرسل لتثيبتها كلما اختلفت الأمم فيها؛ ومن خالف أصل الناس وفطرتهم الأولى التي خلقهم الله عليها، كان خارجا عن مفهوم الأمة، بل عدّ خارجا عن مفهوم الدين؛ لأن معنى الأمة الواحدة لا يتحقق إلا في الأمة ذات الدين الواحد، ومن ثم يُعد الخارج من الفئة المختلفة التي لم تهتد بالرغم من مجيء البينات، وتوالي الحجج، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا اِخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ ءَوْتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: 211].

والاختلاف الذي تحدثت الآيات السابقة عن كونه قدرا من الله تعالى، تؤكد آية سورة هود، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَفَهُم وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 118]. أي ولو شاء ربك يا محمد لجعل الناس كلها جماعة واحدة، ومعنى كونها واحدة أن يكون البشر كلهم متفقين على اتباع دين

الحق، قال المعنى إلى: لو شاء ربك لجعل الناس أهل ملة واحدة فكانوا أمة واحدة من حيث الدين الخالص.⁽¹⁾

وقد اختلف⁽²⁾ المفسرون في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ على أقوال كثيرة،⁽³⁾ أشهرها أن المقصود بالاختلاف، الاختلاف في الأديان، فتأويل ذلك على مذهب هؤلاء ولا يزال الناس مختلفين على أديان شتى من بين يهودي ونصراني ومجوسي، ونحو ذلك.⁽⁴⁾ فيكون معنى الاستثناء في: ﴿إِلَّا مَنِ رَّحِمَ رَبُّكَ﴾،⁽⁵⁾ هم أهل الإيمان، فهم لم يختلفوا في الدين الحق؛ بل آمنوا وصدقوا به، فأنجاهم إيمانهم من عذابه سبحانه، يقول ابن عاشور في هذا السياق: «وفهم من هذا أن الاختلاف المذموم المحذر منه هو الاختلاف في أصول الدين الذي يترتب عليه اعتبار المخالف خارجاً عن الدين وإن كان يزعم أنه من متبعيه».⁽⁶⁾

وقد اختار الإمام الطبري رحمه الله هذا القول و صوبه؛ مع للا إياه بقوله: «وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم وأهوائهم على أديان وملل وأهواء شتى [...] لأن الله جل ثناؤه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ف في ذلك

(1) التحرير والتنوير، 189/12.

(2) سبب اختلافهم خفاء المقصود ب: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾، ومن المقصود بالاستثناء في: ﴿إِلَّا مَنِ رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ وللتعليل في: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَفَهُمُ﴾ على من يعود الضمير فيه، وعلاقته بالمشيئة الإلهية التي صدرت بها الآية.

(3) روى الطبري في ذلك أقوالاً عديدة منها: أنهم اليهود والنصارى والمجوس، وقيل: هم أهل الباطل، وقيل: الناس كلهم مختلفون على أديان شتى. ينظر: (تفسير الطبري، 532/15).

(4) ينظر: تفسير البغوي، 472/2، وتفسير الطبري، 531/15.

(5) اختلف المفسرون في تأويل هذا الاستثناء على أقوال منها: "أنهم الحنيفية، وقيل: هم غير المختلفين، وقيل: هم أهل الحق". (تفسير الطبري، 532/15).

(6) ينظر: التحرير والتنوير، 189/12.

دليل واضح أن الذي قبله من ذكر خبره عن اختلاف الناس، إنما هو خبر عن اختلاف مذموم يوجب لهم النار»⁽¹⁾.

ويؤيد هذا المعنى سباق الآية فقد ورد قبلها بيان سبب إهلاك القرى، وأنه كان بسبب الظلم،⁽²⁾ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

ومن أعظم الظلم: الشرك بالله تعالى، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

﴾ [لقمان: 12]. والآية على اختلاف أنظار المفسرين، عدت الاختلاف في الدين مذموماً؛

لأنه شرك بالله تعالى. ومهما يرد من الاختلاف في تفسير الآية، إلا أن ذم الاختلاف والتحذير منه في هذا الموضع لا يرتفع؛ لمقصدية التنبيه إليه، ولكون المقطع قد بدأ بذكر مشيئة الله تعالى وتقديره سبحانه لاختلاف الأمم، بطريق التذكير بقدرته على جعلهم أمة واحدة، ثم ذيله بذكر استمرار اختلافهم - نتيجة لهذا التقدير - ثم استثنى سبحانه عباده المؤمنين من هذا الاختلاف، ليختم المقطع بتوعد المختلفين في الدين الحق والخارجين عنه بعذاب جهنم. ولو لم يكن المقصد ذم الاختلاف والتحذير منه، لم يكن لكل ذلك معنى.

وإذا كان هذا الاختلاف مذموماً ومتوعداً صاحبه بجهنم، فهم من ذلك أنه من المقاصد المعبرة التي انتهض القرآن الكريم ببيانها والتحذير من عواقبها؛ لأنه «لما أشعر بأنه اختلاف في الدين، وأنّ معناه العدول عن الحق إلى الباطل، عُقب بعموم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ باستثناء من ثبتوا على الدين الحق ولم يخالفوه بقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي: فعصمهم من الاختلاف»⁽³⁾. فدل هذا على أن النهي إنما هو عن الاختلاف المؤدي إلى التفرق والتنازع، كما وقع من بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَبَرَّفُوا

(1) تفسير الطبري، 535/15.

(2) ينظر: تفسير الرازي، 207/13، بتصرف.

(3) التحرير والتنوير، 189/12.

وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٥﴾ [آل عمران: 105].⁽¹⁾

وتأسيسا عليه فإنه يتعين دفع الاختلاف قبل وقوعه، فإن وقع تحتم رفعه، يقول الشيخ الطاهر بن عاشور مبينا هذا المقصد، «فإذا طرأ هذا الاختلاف وجب على الأمة قصفه وبذل الوسع في إزالته من بينهم بكل وسيلة من وسائل الحق والعدل، بالإرشاد والمجادلة الحسنة والمناظرة، فإن لم ينجع ذلك فبالقتال، كما فعل أبو بكر في قتال العرب الذين جحدوا وجوب الزكاة، وكما فعل عليّ كرم الله وجهه في قتال الحرورية الذين كفروا المسلمين. وهذه الآية تحذير شديد من ذلك الاختلاف».⁽²⁾

إن نظرة في الآيات الأربع السابقة سباقا ولحاقا، كافية لإعطاء صورة عن الوحدة الموضوعية والمفهومية لهذه الآيات؛ فجميعها تتفق في الحديث عن الاختلاف في مجال الدين والعقيدة، وأكثر ما يرد ذكر الاختلاف في القرآن الكريم إلا وذكر مرتبطا بموضوع الخلاف العقدي، -كما سبق بيانه - على اختلاف أطراف هذا الخلاف.⁽³⁾

وقد خاض الإسلام حربا لا هوادة فيها فيما يتعلق بباب العقيدة، فما فتى يحارب كل مظاهر الشرك بجميع أنواعه، صغيره وكبيره، ظاهره وخفيه، فأوجب أن يكون كل فعل خالصا له سبحانه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 164]. لأن الانحراف العقدي سبب لضعف الأمة وهوانها، ولأن وحدة العقيدة تورث وحدة صفوف الأمة وذاك سبيل قوتها وسؤددها.

(1) وحدة الأمة في القرآن الكريم، تفسير موضوعي، للدكتور خالد الزهراني، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية، العدد 23، السنة السابعة. ص: 45 - 46.

(2) التحرير والتنوير، 12/189.

(3) فتارة يرد ذكر الخلاف في الدين عموما، وتارة يرد في سياق ذكر اختلاف أهل الكتاب، وأخرى يرد فيها في سياق اختلاف المشركين في دين الله. مفهوم الاختلاف في القرآن الكريم للدكتورة فريدة زمرد، 23/1.

وقد حرص النبي ﷺ حرصاً بليغاً على ترسيخ مسائل العقيدة في النفوس، فقد ضى عمراً مديداً من الدعوة وهو يسعى إلى تصحيحها وترسيخها، ولم يقبل أن تخلط تلك العقيدة الصافية بعادات الآباء في الجاهلية، ولا وافق على مزجها بما كان سائداً من طقوس شركية، بل واجهها كأشد ما تكون المواجهة.

ومن هذا المنطلق، نفهم ارتباط الآيات الكريمة واتحادها في إرداف الخلاف بوحدة الأمة، وفي ربطه بالمجال العقدي، لأن الاختلاف إن كان في العقيدة فلا مندوحة من التشتت وضياح وحدة الأمة بسببه؛ فإذا كان الخلاف في الأحكام العملية - وهو مشاهد ومحسوس - قد فرق بين كثير من الفرق؛ فإن الاختلاف في الأحكام العقدية مؤدٍ لا محالة إلى تفرق الأمة وتصدع بنيانها. ويؤكد هذا؛ الصيغ التي ورد بها الحديث عن الاختلاف، وهي صيغ فعلية في غالبها، وهو مؤشر على أن الاختلاف في هذا المجال مرتبط بالفعل الإنساني الذي يتسم بالتجدد والاستمرارية.⁽¹⁾ ووفقاً لتلك المعاني أيضاً تم اختيار هذه الآيات لدراستها في هذا المحل؛ وقد اعتضدت تلك الاختيارات بما يرجحها ويصوبها ويقويها، من أقوال المفكرين وآرائهم على نحو ما بينته سابقاً، والله أعلم.

(1) مفهوم الاختلاف في القرآن الكريم، 23/1.

المبحث الثاني التفرق.

المطلب الأول: مفهوم التفرق لغة واصطلاحاً.

التفرق والتفريق في اللغة: التشيت والتمييز بين الأشياء وهو ضد التجمع. قال ابن فارس: الفاء، والراء، والقاف: أصل صحيح يدل على تمييز وتزييل بين شيئين.⁽¹⁾ ويدور معنى التفرق على معان منها: الانقسام، والمباينة، والتبديد والتمزيق، يقال: فارق الشيء مفارقةً وفراقاً: باينه، وتفارق القوم: فارق بعضهم بعضاً، والفراق: التفريق بين الشيئين والفصل بينهما، ويقال: فرقه تفريقاً وتفرقه أي بدده.⁽²⁾ وهناك من يجعل التفرق للأبدان، والافتراق في الكلام. يقال: فرقت بين الكلامين، فافترقا. وفرقت بين الرجلين فتفرقا.⁽³⁾

واصطلاحاً: يأتي التفرق بمعنى خلاف الاجتماع، والخروج عما اجتمع عليه الناس واتحدوا فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]، أي: بعد الاجتماع، فالافتراق نقيض الاجتماع. ومنه قوله ﷺ: «البيان بالخيار ما لم يتفرقا».⁽⁴⁾ أي ما دام مجتمعين. وقد سمي القرآن فرقاناً لأنه يفرق بين الحق والباطل، وسمى الله تعالى يوم بدر يوم الفرقان لأنه اليوم الذي فصل الله فيه بين دعوة الحق ودعوى الشرك والباطل. قال تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَى الْأَجْمَعُونَ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ [الأنفال: 41].

(1) مقاييس اللغة، 4/493.

(2) معجم متن اللغة لأحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، عام النشر: 1377هـ - 1960م. 4/398.

(3) تاج العروس، 26/297.

(4) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إذا بين البيعان ولم يكتبوا ونصحا، ح: 2079. 2/55،

والفرقة: الطائفة من الناس، والفريق الجماعة المتفرقة عن آخرين.⁽¹⁾ ومنه أُخذ لفظ الفرقة، ليصير فيما بعد لقبا على الطائفة من الناس التي تخالف غيرها في المعتقد إذا عُرِفت به وتميزت عنها؛ ولفظ التفرق من حيث مدلوله الاصطلاحي ألصق بأصول العقيدة من مسائل الفقه العملي وفروع الشريعة.

إن المتمعن في المعاني السالفة للفظ التفرق، يلحظ ارتباط معاني لفظ التفرق، بمعاني لفظ الاختلاف، فمع وجود فوارق واضحة على مستوى الجذر اللغوي، إلا أن هناك تقاربا كبيرا على المستوى الدلالي لكلا اللفظين؛ فكثيرا ما يأتي لفظ التفرق وما اشتق منه ليحبر عن المعاني التي يحملها لفظ الاختلاف، ولاسيما معاني التشتيت والتمييز والمنازعة والمجادبة.



(1) المفردات، 488/2.

المطلب الثاني: مفهوم التفرق في القرآن الكريم.

يتضح من خلال إحصاء مشتقات لفظ التفرق في القرآن الكريم، أن عدد مرات ورودها لا يتجاوز خمسا وخمسين مرة في تسع وثلاثين سورة مدنية، وست عشرة سورة مكية. (1)

والتأمل في هذه الموارد يجدها اشتملت على مجالات مفهومية مختلفة، وحقول دلالية متنوعة، منها ما ينتمي إلى مجال الأمر بالاعتصام والاتحاد، مع ذم التفرق في الدين والتحذير من اتباع السبل: (ولا تفرقوا - ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم - ففريقاً كذبتم - أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه - وتفرقوا بين المؤمنين). ومنها ما جاء في سياق التذكير بإقرار المؤمنين وتصديقهم بجميع الأنبياء والرسول، وبمصير الفريقين المؤمن والكافر: (لا نفرق بين أحد من رسله - ولم يفرقوا بين أحد منهم - فريق في الجنة - فريق في السعير - فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة - فأى الفريقين أحق). وتحدثت مواطن أخرى عن الفئات المخالفة للدين مع حكاية خروجها وتكذيبها برسالة الأنبياء ومحاربتهم، مع بيان مصيرها الذي آلت إليه (فريق منهم - فريقا - فرقة...). ووردت بعض الآيات في سياق وصف ما كان عليه المشركون وأهل الكتاب من الاختلاف والتفرق، وأن تكذيبهم إنما وقع بعد مجيء البينات: ﴿وَمَا تَعْرِفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 12]، ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: 4].

وورد في بعض المواطن الأخرى بيانا لتكذيب أهل الكتاب وكفرهم بالرسول: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 100]. وتحذير

(1) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث القاهرة، طبعة: 1428هـ - 2007م. ص: 627-628.

المؤمنين من موافقتهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا قَرِيفًا مِّنَ الَّذِينَ ءَاوَتْوَا
الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَكُفْرٍ﴾ [آل عمران: 100].⁽¹⁾

فالغالب إذن على ذكر التفرق في القرآن الكريم وروده في سياق ذمه أو ما جرى مجراه
من النهي عنه أو التحذير منه،⁽²⁾ أو يرد معبرا عن معاني الاختلاف، فهو بمنزلة من حيث
الدلالة المفهومية.

وقد ورد ذكر التفرق مقترنا بالاختلاف في موضع واحد في القرآن الكريم، هو قول
الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَبَرَّفُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
الْبَيِّنَاتُ وَأُوذِيَكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]. ولعله ورد في هذا
الموضع من باب التوكيد؛ للتقارب الدلالي الحاصل بين اللفظين.⁽³⁾ ورأى ابن عاشور أن
التقديم للإيدان بأن الاختلاف علة التفرق.⁽⁴⁾ ومن ثمَّ فإن لفظ التفرق قد يأتي أحيانا ليعبر
عن نفس معاني الاختلاف وقد يأتي نتيجة للاختلاف وثمره مرةً له كما في هذه الآية.

(1) ومن تلك المفاهيم أيضا ما ورد في سياق امتنان الله على بني إسرائيل إذ أنجاهم من فرعون: ﴿وَإِذْ قَرَفْنَا بِكُمُ
الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: 49]. ويلاحظ هنا استعمال الجذر
الغوي (فرق) للدلالة على امتنان الله تعالى على المؤمنين بإنقاذهم من فرعون وإغرقه، وتكررت هذه الصيغة في دعاء موسى
عليه السلام ربه تعالى أن يفرق بينه وبين القوم الكافرين من بني إسرائيل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيَّ
فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: 25]. وهي صيغة تضم بعضا من معاني التمييز والتفريق بين
الشئيين، الذي يرد لأجله الجذر للغوي (فرق)، وسمتها الدلالية هنا التعبير عن الفرق والفصل بين الحق والباطل، واضحة في
كلا الموضعين.

(2) وتكفي الإشارة هنا إلى أن لفظ "فريق منهم" ورد في تسع مواضع في القرآن الكريم كلها جاءت في سياق الذم.

(3) ينظر: مفهوم الاختلاف في القرآن الكريم، 32/1.

(4) التحرير والتنوير، 43/4. وقيل إن الاختلاف فيه شيء زائد على التفرق، فالتفرق انقسام إلى أكثر من فريق،
والاختلاف منازعة وتشاجر بين هذه الفرق قد تتباين درجاته، وهذا يعني أن الاختلاف إنما يقع بعد التفرق، وأن التفرق
مقدمة من مقدمات الاختلاف. (ينظر: مفهوم الاختلاف في القرآن الكريم، 32/1).

إن هذه الاشتقاقات والاستعمالات المختلفة للجذر اللغوي (ف. ر. ق)، تعبر عن قضايا مفهومية كبرى، وتؤسس لمعاني نبذ الاختلاف وضم الفرقة، وتدعو إلى الاتحاد بين مختلف مكونات الأمة، ولا أعني بالأمة هنا الأمة الإسلامية وحدها، بل أقصد ما هو أعز حق من ذلك من أمم الأرض جميعاً؛ ذلك أن الحديث عن ترسيخ مبادئ الاتحاد والتضامن، وتعزيز قيم الإخاء والتآزر، نابع مما قصدت إليه الآيات القرآنية الكريمة في اعتبارها للناس أمة واحدة، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: 213]. ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً

وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 91]. ولا يجوز المساس بجوهر دينهم وأساسه التوحيد الخالص، الذي يستوجب إفراده سبحانه بالخلق والألوهية والربوبية والعبادة؛ لأن في المس بذلك تفريقاً لهم، وخرقاً لوحدهم، وتشتيلاً لجماعتهم، وهي رسالة أنيط بتثبيت دعائمها الرسل والأنبياء على مر الدهور والأزمان؛ إذ كل ما ظاهراً لشقاق والخلاف في هذا الأصل لدى أمة من الأمم، إلا وبعث الله إليها أنبياء يعيدونها إلى الحق المبين والصراط المستقيم كما مضى بيانه.

واستناداً إلى مركزية هذه القضية في القرآن، نفهم تكررها في مبحث التفرق، بعد أن تلمسنا بعض جوانبها في مبحث الاختلاف، وأول ما يستدعي الانتباه فيها، هو أن الغالب على ذكر التفرق مجيئه في سياق الدعوة إلى الاعتصام بحبل الله، أو في سياق حكي الافتراق الناس على رسلهم وأنبيائهم وتحريفهم للكلم بعد سماعه، ونقضهم لما عاهدوا عليه الله من قبل، وبيان أن هذا الاختلاف إنما وقع بعد سطوع الحق ومجيء البينات، ثم البراءة عن أحدث هذا التفريق، وهي المعاني التي سأحاول الكشف عنها بشيء من التفصيل فيما يلي من صفحات.



والنهي الواقع في الآية شامل لكل أنواع التفرق، لأنه يشلُّ حركة المجتمع ويقضي على أواصر اللحمة والتآلف فيه، ولذلك حذر النبي ﷺ من خطورته فقال: «إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً، فيرضى لكم: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».(1)

وبعد النهي عن التفرق أمر سبحانه بتذكر نعمته على المؤمنين في التأليف بين قلوبهم بعد أن كانوا أعداء، امتناناً منه سبحانه بعظم هذه النعمة ولا يمتن إلا بعظيم، وفي التعبير بلفظ النعمة ما يشعر بخطورة التفريط فيها وضرر التفرق على الفرد والمجتمع. قال الطبري: «وتأويل ذلك: واذكروا أيها المؤمنون نعمة الله عليكم التي أنعم بها عليكم حين كنتم أعداء: أي بَشْرِكُكُمْ، يقتل بعضكم بعضاً، عصبية في غير طاعة الله ولا طاعة رسوله، فألف الله بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعض إخواناً بعد إذ كنتم أعداء تتواصلون بألفة الإسلام واجتماع كلمتكم عليه».(2)

ثم بين سبحانه أن التفرق وقع بعد مجيء البينات وظهور الحق، إضعافاً لحجة المعاندين، وقطعاً لعذرهم، وبياناً لقوة الحق وسطوعه، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَبَرَّفُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105] وجمهور المفسرين على أن المراد بهم اليهود والنصارى.(3)

فالآية تنهى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، مع قيام الحجة عليهم. إلا أنهم تعمدوا خلافه، وفارقوا أمر الله، ونقضوا عهده وميثاقه، جراءة عليه سبحانه. ومقصد الآية من الأمر بلزوم الجماعة،

(1) صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات، وهو الامتناع من أداء حق لزمه، أو طلب ما لا يستحقه حديث رقم: 1715. ص: 447

(2) تفسير الطبري، 70/7.

(3) ينظر: تفسير القرطبي، 253/5.

والنهي عن الاختلاف والفرقة في هذا السياق هو الإخبار عن سبب هلاك من كان قبلهم، وهو المراء والخصومات في دين الله. وثمرة الإخبار بأن الخلاف قد وقع بعد مجيء الآيات والحجج أنها - أي هذه الحجج والبيانات - «موجبة لاتحاد الكلمة».(1)

ورتب الرازي تفسير الآية على المقطع الذي قبلها: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]. فقال: «لما أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك مما لا يتم إلا إذا كان الأمر بالمعروف قادراً على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمتغالين، ولا تحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل الحق والدين، لا جرم حذرهم تعالى من الفرقة والاختلاف لكي لا يصير ذلك سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف».(2) «وفيه إشارة إلى أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفضي إلى التفرق والاختلاف إذ تكثر النزعات والنزغات وتنشق الأمة بسبب ذلك انشقاقاً».(3)

ثم تأتي الآيات الكريمة من سورة الشورى لتبين سبب هذا التفرق، قال سبحانه: ﴿وَمَا تَعْرَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَهِيَ شَكٌّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ [الشورى: 12]. فالسبب البغي وهو الظلم وتجاوز الحد، على أن العداوة سبب له وهي الداعي للتفرق، أو «طلباً للدنيا والرياسة، على أن البغي مصدر بغي

(1) روح المعاني، 23/4.

(2) تفسير الرازي، 184/8، وروح البيان، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي (ت: 1127هـ)، دار الفكر - بيروت، 75/2، وتفسير المنار، 39/4.

(3) تفسير ابن عاشور، 42/4.

بمعنى طلب»،⁽¹⁾ فالمشركون قالوا: لِمَ خُصَّ بالنبوة؟ واليهود حسدوه لما بُعث؛ وكذا النصارى.⁽²⁾

ومصدر العلم أنبياءهم، ومضمونه تعاليم الشرع وأحكام الدين عقيدة و شريعة، وذهب الألوسي إلى أن المقصود بالعلم هو الإخبار بأن الفرقة ضلال وفساد وأمر متوعد عليه؛ وهذا يؤيد ما دل عليه سابقاً من أن الأمم القديمة والحديثة أمروا باتفاق الكلمة وإقامة الدين.⁽³⁾ والمعنى: ما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان رسلهم من النهي عن التفرق في الدين مع بيانهم لهم مفاصد التفرق وأضراره، فهم تفرقوا عالين بتحريم التفرق مدركين لسوء مآلاته، ولا يعذرون في ذلك بجهل أو عدم بلوغ الدعوة والرسالة.

ولعظم خطورة التفرق توعده الله مرتكبیه بتعجيل العقوبة لهم، لولا أنه قدّر سبحانه عقوبتهم إلى أجل مسمى، وهو معنى قوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾. فكلّمته السابقة هي عدّته تعالى بترك معاجلتهم بالعذاب، ومضمون التهديد بتعجيل العقوبة استئصال المبطلين «حين افترقوا لعظم ما اقترعوا».⁽⁴⁾ ومقصود التهديد: «تحذير للمؤمنين من مثل ذلك».⁽⁵⁾

والظاهر أن التفرق المذكور هنا إنما هو في شأن أمة الرسول ﷺ لأن «مَسَاقَ النِّظَمِ الكَرِيمِ لِبَيَانِ أَحْوَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِتَحْقِيقِ أَنَّ مَا شَرَعَ لَهُؤُلَاءِ دِينَ قَدِيمٍ أَجْمَعَ عَلَيْهِ أُولَئِكَ الْأَعْلَامُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

(1) روح المعاني، 24/13.

(2) تفسير القرطبي، 454/18.

(3) التفسير الوسيط، لمجموعة من العلماء، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى 1393هـ-1973م، 736/9، وتفسير المراغي، 26/25.

(4) البحر المديد، 203/5.

(5) التحرير والتنوير، 57/25.

تأكيداً لوجوب إقامته وتشديداً للزجر عن التفرق والاختلاف فيه»⁽¹⁾.

ويتأكد هذا المعنى بما ذيلت به الآيات لحاقاً، وهو قول ربنا جل جلاله مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿بَلَدَالِكَ قَادَعُ وَاسْتَفِمَ كَمَا أَمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ - أَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: 13]، أي: «فلأجل التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً فادعُ إلى الاتفاق والاتلاف على الملة الحنيفية القديمة، واستقم عليها وعلى الدعوة إليها، كما أمرك الله ولا تتبع أهواءهم المختلفة الباطلة»⁽²⁾.

وإذا كانت الآية السابقة من سورة الشورى قد بينت زمن الاختلاف وسببه، وأنه قد وقع بعد مجيء البينات، وبعد النهي عن التفرق وبيان خطورته، فإن الآية من سورة الأنعام قد وردت لمقصد أعمق هو بيان كيفية التعامل مع من فرق دينه وجعله شيعاً، وفي هذا البيان ما يصف خطورة الفرقة وشؤمها على الفرد والأمة، وذلك قول ربنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام: 160].

فقد أخبر الله تعالى نبيه بالتبرؤ ممن فرقوا دينهم الحق، وصاروا شيعاً وطوائف متناحرة متنازعة، وأمره بعدم التعرض لهم وتجنبهم واعتزالهم، لأنهم بدلوا الدين الصحيح، وزادوا في إفسادهم بالتفريق بين الناس وتشيتهم، وجعل الله جزاءهم على ذلك مردوداً إليه سبحانه، فيحاسبهم على ما أتوا به من أمر عظيم وفساد جسيم.

(1) تفسير أبي السعود، 27/8.

(2) تفسير الزمخشري، 215/4.

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود بالآية هم اليهود والنصارى، فقد تهوّد قوم، وتنصّر آخرون منهم، فجعلوه شيعاً متفرقة؛⁽¹⁾ أي: فرقاً كأهل الملل والنحل والأهواء والاضلالات.⁽²⁾ وقوله سبحانه: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 160]. «إعلام من الله نبيه محمداً ﷺ أنه من مبتدعة أمته الملاحدة في دينه بريء، ومن الأحزاب من شركي قومه ومن اليهود والنصارى».⁽³⁾

وفي قوله سبحانه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد شديد، وتخويف رهيب بجزاء هؤلاء المتفرقين، والمعنى أنه عز وجل هو الذي يتولى وحده أمر جزائهم على مفارقة دينهم والتفريق للأمة في الدنيا بما مضت به سنته في الاجتماع البشري من ضعف المتفرقين، وفشل المتنازعين، وتسلب الأقوياء عليهم ولبسهم شيعاً يذيق بعضهم بأس بعض، بما تثيره عداوة التفريق بينهم من التقاتل.⁽⁴⁾

ولما أن كان ما أتى به هؤلاء من أمر التفريق خطراً عظيماً، وشراً مستطيراً، كان الجزاء لهم من جنس العمل؛ فجعلهم الله متفرقين، لا يقوم لهم أمر ولا تجتمع لهم كلمة، فهم في ذل عظيم وصغار مبین. والنبي ﷺ بريء منهم، ليس من تفرقهم، أو من السؤال عن سبب تفرقهم والبحث عن موجب تحزبهم في شيء من الأشياء، فلا يلزمه من ذلك شيء، ولا

(1) تفسير الطبري، 268/12.

(2) تفسير ابن كثير، 239/2.

(3) تفسير الطبري، 273/12.

(4) ﴿كَمَا بَيَّنَّاهُ تَعَالَى فِي آيَاتٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا ابْتَلَى الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ [البقرة: 253] تفسير المنار: 191/8.

يخاطَب به، إنما عليه البلاغ.⁽¹⁾

وظاهر الآية عند بعض أهل التفسير أنها عامة في كل من فارق دين الله، وكان خالفاً له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه وأحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فكل من اختلف فيه وجعل الأمة شيعاً كأهل المثل والنحل والأهواء والضلالت فهو داخل في عموم الآية⁽²⁾ ومقصد التبرؤ منهم؛ التنفير مما صنعوا، فمن اتبع سننهم في هذا التفريق حقيق ببراءة الرسول ﷺ منه بعد هذا البيان والتحذير.⁽³⁾

ومما يجب التنبيه عليه، أن الفرق الذي يُقصد هنا ليس الفرق الحنبلي على أساس اختلاف الأنظار وزوايا النظر في المسائل العلمية التي فيها بحث ومحاجة، والتي تحتاج إلى استدلال وإعمال فكر، فهذه ليست معنية بالذكر، بل يُقصد منها ما كان مؤدياً إلى الشاحن والتقاتل والاصطفاف في جماعات وفرق، لكل أنصاره ومشايعه.

قال ابن عاشور: «كل تفريق لا يكفر به بعض الفرق بعضها، ولا يفضي إلى تقاتل وفتن، فهو تفريق نظر واستدلال وتطلب للحق بقدر الطاقة، وكل تفريق يفضي بأصحابه إلى تكفير بعضهم بعضاً، ومقاتلة بعضهم بعضاً في أمر الدين، فهو مما حذر الله منه».⁽⁴⁾

وقد كان حال أئمتنا من الصحابة ومن لحق بهم، أن يختلفوا في مسائل كثيرة لكنهم لم يتفرقوا لأجل ذلك يوماً؛ يقول الشاطبي في هذا السياق: «وجدنا أصحاب رسول الله ﷺ من بعده قد اختلفوا في أحكام الدين، ولم يتفرقوا ولا صاروا شيعاً لأنهم لم يفارقوا الدين، وإنما اختلفوا فيما أذن لهم من اجتهاد في الرأي والاستنباط من الكتاب والسنة فيما لم يجدوا

(1) ينظر: فتح القدير للشوكاني، 2/208. وهو كقوله ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا». صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من غشنا فليس منا»، حديث رقم: 104، ص: 35. أي نحن براء منه. ينظر: (تفسير القرطبي: 150/7).

(2) تفسير ابن كثير، 3/377.

(3) ينظر: تفسير المنار، 8/189.

(4) التحرير والتنوير، 8/194.

فيه نصاً»⁽¹⁾.

فالمراد من آية الأنعام التحذير من الافتراق لأنه يؤدي إلى التنازع والاقتتال والتكفير، ومن ثم دخول النار.⁽²⁾

وللمبالغة في ذم التفرق وصفه القرآن الكريم بالكفر في قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا بَرِيضاً مِّنَ الَّذِينَ ءُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَبَرِيرٍ﴾ [آل عمران: 100]. فإن معنى يردوكم بعد إيمانكم كافرين، أي: بعد وحدتكم وأخوتكم متفرقين متعادين كما تدل أسباب النزول.⁽³⁾

فقد جاء التعبير هنا عن الاتحاد بالإيمان، وعن التفرق بالكفر. وكأن التفرق بعد الوحدة ردة إلى ما كانت عليه الأمة قبل البعثة.

فالتفرق؛ الشتات بعد الاجتماع أو فيما من شأنه الاجتماع. وقد تكررت هذه الكلمة في القرآن دالة على وحدة الأمة في سياقات متعددة أبلغها ثوب الأخبار عن تفرق أهل الكتاب متجاوزين ما أمرو به من الوحدة والاجتماع؛ نهياً للأمة المحمدية من سلوك سبيلهم وانتهاج طريقتهم.⁽⁴⁾

وفي النهي عن التفرق دعوة للحض على اجتماع الكلمة ووحدة الصف، قال الرازي: «واعلم أن المراد من الآية - يقصد الآية من سورة الأنعام - الحث على أن تكون كلمة المسلمين واحدة وأن لا يتفرقوا في الدين».⁽⁵⁾ فالآية هادمة للتقاليد التي فرقت الأمة

(1) الاعتصام، للشاطبي، تحقيق هشام بن إسماعيل الصبني، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى 1429هـ-2008م، 3/168.

(2) كما قال رسول الله ﷺ: «وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة». سنن الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، ح: 2641، ص: 595.

(3) ينظر: تفسير الطبري، 5/633. تفسير القرطبي، 5/235. تفسير الرازي، 8/174.

(4) وحدة الأمة في القرآن الكريم، ص: 45.

(5) تفسير الرازي، 4/9.

وجعلتها شيعا، حتى صار بأسها بينها شديدا فسفكت دماءها بأيديها، ومزقت دنياها بتمزيق دينها، وكان من أمرها بعد ذلك ما نرى سوء عاقبته في كل شعب وكل قطر. وتذكير لهذه الأمة «بما هي عرضة له بحسب سنن الاجتماع من إضاعة الدين بعد الاهتداء به بمثل ما أضاعه به من قبلهم، وهو الاختلاف والتفرق فيه بالمذاهب والآراء والبدع التي تجعلهم أحزاباً وشيعاً تتعصب كل منها لمذهب من المذاهب أو إمام، فيضيع العلم وتنقسم عروة الوحدة للأمة الواحدة بعد أخوة الإيمان فتصبح أمماً متعادية ليس لها مرجع متفق عليه يجمع كلمتها فيحل بها ما حل بالأمم التي تفرقت قبلها».⁽¹⁾

لقد ورد لفظ «فريق منهم» في القرآن الكريم تسع مرات كلها أتت في مقامات مذمومة، والتعبير القرآني السالف - في آية الأنعام - على وجازة ألفاظه ضم معاني كبرى، ولطائف ماتعة، فقد جاء الحديث عن الفئة الممارسة لفعل التفريق بإسنادها للمجهول عبر ضمير الغائب - إن الذين فرقوا- وفيه دلالة على الإهمال والتحقير لتلك الفئة، المتمثل في عدم التصريح بذكرهم، استصغارا لشأنهم وتقليلًا من قدرهم، وفيه أيضا تعظيم وتهويل لما اقترفوا من فعل التفريق والخروج عن الدين الحق، فلم يُحتج إلى ذكرهم. ذلك فضلا على ما في اللفظ من البيان لقلة عدد هؤلاء الخارجين عن الدين الحق، وأنهم فئة قليلة تصادر حق الجماعة العظمى والغالبية الساحقة من أفراد المجتمع، فهي إذن تهدد وحدتهم، وتشق صف طاعتهم، وتزعزع ثقتهم وتماسكهم، فكان حقيقا بها أن تلقى الذم والوعيد بالعذاب الأليم.

ثم إن موارد هذه المادة (ف. ر. ق) جاءت في عدد من المواضع بالصيغ الفعلية، مما يشير إلى ارتباط التفريق بالفعل الإنساني تأثرا وتأثيرا، ومنه نفهم ارتباطها ب سياق اللزم والنهي عن التفرق في القرآن الكريم.

ولما كان التفريق بين بني الجسد الواحد مهلكة للأمم، تترتب عنه مفسدات كثيرة،

(1) تفسير المنار، 8/188.

استحق صاحبه وصف المفسد في الأرض، فقال سبحانه عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَدْخُلُ آبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 3]، وذلك لعظم وخطورة ما أتى به من فعل التفريق والتحريش بين الرعية، حيث جعل أهل المملكة شيعة وفرقهم طرائق قددا وجعل منهم مقرين منه، ومباعدين عنه، وأثار بينهم التحاسد والتباغض، وجعل بعضهم يتربص الدوائر ببعض، «فتكون الفرق المحظوظة عنده متطاولة على الفرق الأخرى، وتكدر الفرق الأخرى لتزحزح المحظوظين عن حظوتهم بإلقاء النميمة والوشايات الكاذبة فيحلوا محل الآخرين. وهكذا يذهب الزمان في مكائد بعضهم لبعض فيكون بعضهم لبعض فتنة».(1)

وهذا مضاد لسياسة الإسلام والهدي الإلهي كله القائم على التآليف والجمع على قلب واحد، وإشاعة روح المحبة والود والوئام.

ومما يستأنس به في بيان أن التفرق من معيقات الوحدة ومضاداتها، ورود لفظ التفرق في القرآن الكريم عقب ذكر الجذر اللغوي للفظ «الوحدة» وقد وقع هذا في موضعين؛ كلاهما في سورة يوسف، الأول قوله تعالى: ﴿آرَبَابٌ مُتَّبِعُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39]. والموضع الثاني قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ

(1) التحرير والتنوير، 10/69-70. قال القنوجي رحمه الله وجعل أهلها شيعة أي: "فرقا وأصنافا في خدمته يشايعونه على ما يريد ويطيعونه"، قال مجاهد: "فرق بينهم"، وقال قتادة: "يستعبد طائفة منهم، ويدع طائفة ويقتل طائفة، ويستحيي طائفة، أو فرقا متفرقة، قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء لئلا تتفق كلمتهم". (فتح البيان في مقاصد القرآن، 10/88). ومما يستفاد بالنظر إلى ترتيب النظم القرآني في الآية، أن من وسائل العلو في الأرض، تفريق الناس وجعلهم شيعة مختلفين، يقرب المفسد فرقة ويبعد أخرى، فلا يكون عاليا صرفا في الأرض دون تفريق بين الناس، وقد أثبت التاريخ قديمه وحديثه هذا الأمر؛ فما من طاغية علا في الأرض إلا وكان له رهطه وحاشيته وأتباعه، سواء كانوا من علية القوم، أو من العلماء، أو من سوقة الناس وعوامهم، يزينون له أفعاله ويحسنون له قبيحه، ويؤثرونه الباطل حقا، والمعروف منكرا.

بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَبَرِّفَةٍ ﴿يوسف: 67﴾.

والآية الأولى وردت بصيغة «الاستفهام التقريري»⁽¹⁾ أي أعبادة أرباب شتى متفرقين وآلهة لا تنفع ولا تضر خير، أم عبادة المعبود الواحد الذي لا ثاني له في قدرته و سلطانه، الذي قهر كل شيء وسخره فأطاعه طوعاً وكرهاً. «وهذا القول ذكره سيدنا يوسف عليه السلام للفتيين اللذين دخلا معه السجن، لأن أحدهما كان مشركاً، فدعاه بهذا القول إلى الإسلام وترك عبادة الآلهة والأوثان»⁽²⁾.

فذكر التفرق في الآية أريد به التعدد والكثرة، وأفاد بأنه لا ينفع أصحابه، وهو دليل الضعف والنقص، قال ابن عاشور: «فلله بلاغة القرآن إذ عبر عن تعددها بالتفرق»⁽³⁾. ووسم التفرق بالنقص لأنه «لو كان تفرقهم تفرق ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة، ولو كان تفرقهم تفرق تكرار لما كان لهذا التكرار لزوم، ولو كان تفرقهم تفرق اختصاصات، فهذا يعني أن لكل منهم نقطة قوة ونقاط ضعف وتفرقهم هذا دليل نقص»⁽⁴⁾. فيكون معنى الآية كما ذكره ابن كثير: «أن تكون لكما أرباب شتى، يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا أم أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية، بل هو الغالب»⁽⁵⁾.

وفي التعبير بالتفرق أيضاً تنبيه على أنه لو تعدد الإله لتفرقوا في الإرادة، ولعلا بعضهم على بعض، فإذا تفرقت لم تكن آلهة. فلا يخلو حالهم من تطرق الفساد والخلل في تصرفهم «كما يومية إليه وصف التفرق بالنسبة للتعدد»⁽⁶⁾. وإنما وظف وصف التفرق لما يفتضيه

(1) التحرير والتنوير، 274/12.

(2) تفسير الطبري، 104/16.

(3) ينظر: التحرير والتنوير، 276/12.

(4) تفسير الشعراوي، 6955/11.

(5) محاسن التأويل، 177/6. الكشف، 471/2.

(6) التحرير والتنوير، 275/12.

بطبعه من التنازع والاختلاف في الأعمال، والتدبير المفسد للنظام.⁽¹⁾

والموضع الثاني: ﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَبَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: 67]. فمع أن سياق وروده مختلف عن الموضع الأول، إذ جاء متحدثاً عن وصية يعقوب لبنيه بأن يتفرقوا في دخولهم لمصر ليمتاروا الطعام؛ خوفاً من أن تصيبهم العين، لكثرة أولاده كما استنتجه المفسرون؛⁽²⁾ لأنهم أعطوا جمالاً وقوة، وامتداد قامه، ولهيبتهم وأنهم كانوا ولد رجل واحد، فأمرهم أن يتفرقوا في دخولها؛ لئلا يصابوا بالعين، فإن العين حق.⁽³⁾

وبالنظر في موارد لفظ التفرق وعلاقته المفهومية بلفظ الوحدة نتمسك من الآيتين بتعقيب لفظ «الواحد» بلفظ مشتق من الجذر اللغوي (ف. ر. ق)، إذ هو محل الشاهد، ونستنبط من التقابل الحاصل بين اللفظين، أن الفرقة تضاد الوحدة وهي عائق من عوائقها كما سبق بيانه، وقد أتت في كلتا الآيتين في سياق الذم.

فالنهى عن التفرق له علاقة وطيدة بتحقيق الاتحاد بين أفراد الأمة، وجمع الكلدية، وتحقيق المنعة، وقد بينت الآيات السابقة بوضوح عقوبة المتفرقين وما يلحقهم من ذل وهوان في الدنيا بما مضت به سنة الاجتماع البشري من ضعف المتفرقين وهوانهم، وتسلب الأقوياء عليهم، كما أوضحت الآيات عقوبة المتفرقين وما ينتظرهم من عذاب أخروي بسبب فعل التفرق الذي اقترفوه.

(1) تفسير الطبري، 192/9.

(2) ينظر: تفسير الطبري، 164/16. الباب في علوم الكتاب، 151/1.

(3) روح البيان، 128/10. قال الزمخشري مبينا ذلك: "وإنما نأهم أن يدخلوا من باب واحد، لأنهم كانوا ذوي بقاء وشارة حسنة، اشتهرهم أهل مصر بالقربة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود، وأن يشار إليهم بالأصابع،... فخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة، فيعانوا لجمالهم وجلالة أمرهم في الصدور، فيصيبهم ما يسوؤهم ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكرة الأولى". (الكشاف، 488/2).

كذلك أتى ذكر التفرق في القرآن الكريم، وتلك هي الدلالات والمقاصد المفهومية التي جاء من أجلها، ويبدو جليا بعد هذه النظرة للمواطن التي ذكر فيها التفرق، حزم الـ شريعة وحسمها في هذا الموضوع، والذي بلغ أقصى صورته مع إخبار نبينا محمد ﷺ بالتبرء عن مارس فعل التفریق، وكل موارد مشتقات الجذر (ف. ر. ق) جاء خادما لهذا المقصد، ومؤكدا لهذه الغاية، ذم التفرق والنهي عنه والتحذير منه.



المبحث الثالث التقطع

المطلب الأول: مفهوم التقطع لغةً واصطلاحاً.

التقطع اشتقاق من الجذر اللغوي (قطع)، وتدور معانيه في اللغة على الإبانة والفصل والإزالة، قال ابن منظور: «إِبَانَةُ بَعْضِ أَجْزَاءِ الْجُرْمِ مِنْ بَعْضٍ فَصْلًا»⁽¹⁾، فيدل معناه على صرم وإبانة شيء من شيء، قال صاحب مقاييس اللغة: «تقاطع الشيء: بان به ضمه عن بعض، وقَطَعْتُ الحَبْلَ قَطْعًا فَأَنْقَطَعَ. يقال: تقاطع الرجلان، إذا تصارما»⁽²⁾، والقِطْع، بكسر القاف، ظلمة آخر الليل⁽³⁾، ومن الأمثال السائرة عند العرب قولها: اتقوا القطيعاء، أي اتقوا أن يتقطع بعضكم من بعض في الحرب⁽⁴⁾.

وإذا كان أصل اللفظة (قطع) صحيحاً كما قال ابن فارس: «القاف والطاء والعين أصل صحيح واحد؛ فإن لفظ (التقطع) شُدِّدَ للكثرة»⁽⁵⁾.



(1) لسان العرب، 220/11.

(2) ينظر: مقاييس اللغة، 101/5. لسان العرب، 221/11.

(3) ومنه قوله تعالى: ﴿بَاسِرٌ بِأَهْلِكَ بِفِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: 81] كأنه قطعة، والقطعة من الشيء: الطائفة منه.

(4) ينظر: مختار الصحاح لأبي بكر بن عبد القادر الرازي، المطبعة الكلية، مصر. الطبعة الأولى: 1329هـ. ص: 318.

(5) لسان العرب، 221/11.

(5) مقاييس اللغة، 101/5.

المطلب الثاني: مفهوم التقطع في القرآن الكريم.

إن من استقرأ موارد اشتقاقات لفظ (التقطع) في القرآن الكريم⁽¹⁾ وجدها جمعت بين حقول مفهومية مختلفة، منها ما ينتمي إلى مجال قطع ما هو مدرك بالبصر كقطع الأجسام، نحو قوله تعالى: ﴿لَا فَطْعَنَّ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خَلْفٍ﴾ [الأعراف: 123]، وقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 40]، وقوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: 16]. أو قطع الثوب، وذلك قوله تعالى: ﴿فُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ بَّارٍ﴾ [الحج: 19]... ومنها ما ينتمي إلى قطع ما هو مدرك بالبصيرة، كقطع الوصل الذي يعني الهجران، وقطع الرحم بالهجران، ومنع البر، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَتَفْطَحُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: 23]، وقال: ﴿وَيَفْطَحُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: 27]. ومنها ما ينتمي إلى المجال الكوني الطبيعي، كالحديث عن الأرض أو الأشجار، نحو قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ فِطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ﴾ [الرعد: 4]. ﴿فُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ [الرعد: 32]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَفْطَحُونَ وَادِيًا﴾ [التوبة: 122]. ﴿مَا فَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ﴾ [الحشر: 5]. أو تعيين زمن محدد: ﴿بَاسِرٍ بِأَهْلِكَ بِفِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [الحجر: 65]. أو بعض أحوال نعيم الآخرة كثمار الجنة: ﴿لَّا مَفْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: 35].

ووردت هذه اللفظة أيضا في سياقات ومجالات تضم مفاهيم أخرى، كالحديث عن مصير الكفار والعصاة والمخالفين وما ينتظرهم من خزي في الدنيا والآخرة، ﴿وَرَأَوْاْ

(1) استفدت بعض مكونات هذا التقسيم من الراغب الأصفهاني، فقد ذكر أن القطع يستعمل في فصل الشيء مدركا بالبصر كالأجسام، أو مدركا بالبصيرة كالأشياء المعقولة. (ينظر: المفردات، 527/2).

الْعَذَابَ وَتَفْطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَبُ ﴿البقرة: 165﴾. ﴿لَيَفْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: 127]. ﴿أَوْ يُصَلِّبُوا أَوْ تَفْطَعَ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: 35]. كما حكت بعض المواطن الأخرى ما حلّ بكثير من الظالمين والمكذبين بالدين، كقوله تعالى: ﴿بَفْطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: 46]. وقوله سبحانه: ﴿لَفَدَّ تَفْطَعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: 95]. ﴿وَفَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا﴾ [الأعراف: 71].

وأكثر الصيغ ورودا في القرآن لهذا الجذر، هي الصيغ الفعلية، وهي مؤ ش ر ع لى أن التقطع بمختلف مجالاته متعلق ومرتبطة بالفعل الإنساني، الموصوم بالنقص والقصور، والمفتطور على الخصام والعناد، والإمعان في المجادلة والمماحلة، فدائما ما يرد التقطع في القرآن الكريم على أنه من كسب الإنسان، أو يأتي التقطيع بما يفهم منه أنه وقع به سعيه، أو ترد مادته لإفادة ترتب الجزاء والعقاب عليه في الآخرة، أو لبيان نوع من الجزاء الدنيوي، وقليلة جدا المواضع التي جاء فيها اشتقاق لفظ من هذه المادة لإفادة غير هذه المفاهيم والقضايا.

وسأمثل لبعض تلك الموارد التي جاءت بالشكل السابق وصفه، من غير استقصاء جميعها، حفاظا على شرط هذا الفصل، وهو ذكر ما ورد دالا على أن التقطع عائق عن عوائق الوحدة اتساقا مع موضوع البحث.

فمن تلك المواطن التي حملت معنى الذم للفظ التقطع، قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿وَيَفْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 26]. فالآية

تحدث عن تقطيع الرحم، وذلك أن قريشاً قطعوا رحم النبي ﷺ بالمعاداة معه⁽¹⁾ قال الطبري مفسراً الآية: «وإنما عني بالرحم أهل الرجل الذين جمعتهم وإياه رحم والدة واحدة، وقطع ذلك ظلمه في ترك أداء ما ألزم الله من حقوقها وأوجب من برّها ووصلها».⁽²⁾ وسباق الآية يدل كذلك على سياق الذم الذي أحاول بيانه، فقد جاء في الآية قبلُ وصف هؤلاء المكذبين وما فعلوه من نقض مواعيقهم التي أخذت عليهم، قال الله تعالى مبيناً ذلك ﴿الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: 26]. قال ابن كثير: «ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته، وإنكارهم ذلك، وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبينه للناس ولا يكتُمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً».⁽³⁾ ثم ذكر سبحانه تقطيعهم للرحم وإفسادهم في الأرض.

فتوظيف هذا الجذر اللغوي (قطع) جاء في سياق ذمٍّ يراد به التحذير من تقطيع الأرحام، وعدّ فعل ذلك ضرباً من ضروب الإفساد في الأرض، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ؟

﴿١٢﴾﴾ [محمد: 23]، وهو صفة من صفات من نقضوا عهد الله، وإذا كان هذا التشنيع والتنفير في حق من يقطع رحم الولادة الخاصة به؛ فلا شك أن وزر تقطيع رحم الأمة وأواصرها أشد وأعظم؛ إذ هي مما أمر الله به أن يوصل⁽⁴⁾ ولا أحد يخالف في أن الله تعالى أمر الأمة بالاتحاد، ووصل روابط الأخوة، وإرساء ثوابت المنعة، وبذل أسباب الائتلاف والاجتماع،

(1) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، 1/110.

(2) تفسير الطبري، 10/444.

(3) تفسير ابن كثير، 1/210.

(4) قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: «﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصَّلَ﴾ [الرعد: 26]، قيل: المراد صلة الأرحام والقربات، وقيل المراد أعم من ذلك، فكلما أمر الله بوصله وفعله، فقطعوه وتركوه». (ينظر: تفسير ابن كثير: 453/4، بتصرف).

ومدّ حبال التضامن ورصّ الصفوف، وتعزيز دعائم الصمود لمواجهة أدواء الضمور من
الفرقة والاختلاف والتقطع.

وحكى القرآن مصير الكفار يوم القيامة لما رأوا العذاب، فلم ينفعهم الرؤساء
والوجهاء الذين اتبعوا في الحياة الدنيا، فوصف حالهم، بيانا لنفاذ حيلتهم وانتهاء مصيرهم،
فقال سبحانه ذاكرا أحوالهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا
الْعَذَابَ وَتَفَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 165]. والمراد بالأسباب: الوصلات التي
كانوا يتواصلون بها في الدنيا من رَحِمٍ وغيره.⁽¹⁾ أي عاينوا عذاب الله، وتقطعت بهم الحيل
وأسباب الخلاص، ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصرفاً،⁽²⁾ وروى ابن كثير عن عطاء قال
ابن عباس في تفسيرها ﴿وَتَفَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾، قال: المودة.⁽³⁾

ومزية ذكر انقطاع الأسباب والوصلات التنبيه على دورها في اجتماعهم واتفاقهم
وتوابعهم بالكفر ومحاربتهم الحق وصدّ الناس عنه. ويفهم من استخدام لفظ التقطيع انتفاء
تلك الصلات وعدم انتفاعهم بها، كأنها حبل قطع فانفصل بعضه عن بعض. وقد تكرر
نفس هذا المعنى في سورة الأعراف حين قوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَفَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ
عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأعراف: 95].

وسيق الحديث عن التقطع بما يفيد معنى الاختلاف، في غير تعقيبه على ذكر وحدة
الأمة في موضعين اثنين في سورة الأعراف، أولهما قول الله تعالى: ﴿وَفَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ
عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَمًا﴾ [الأعراف: 160]. أي صيرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض

(1) تفسير القرطبي، 9/3.

(2) تفسير ابن كثير، 477/1.

(3) المصدر نفسه، 477/1.

لاختلافهم في دينهم،⁽¹⁾ فروى المفضل عن عاصم أنه قرأ ﴿فَطَعْنَهُمْ﴾ مخففاً، وسماهم أئماً، لأن كل سبط كان جماعة كثيرة العدد، وكانوا مختلفي الآراء يؤم بعضهم غير ما يؤمه الآخر.⁽²⁾

وثاني تلك المواضع قوله سبحانه: ﴿وَفَطَعْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أئِمَّةً﴾ [الأعراف: 168]. فيذكر تعالى في هذه الآية أنه فرقهم في الأرض أئماً، أي طوائف وفرقاً، وأراد به تشتيت أمرهم فلم تُجمع لهم كلمة، «بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم تنمة لأدبارهم حتى لا يكون لهم شوكة قط».⁽³⁾

وزيادة على هذا الإطار المفاهيمي العام الذي ورد فيه ذكر التقطع في القرآن الكريم والذي حبل بحقول دلالية مختلفة، وحظي ذكره بمجالات مفهومية متعددة، في سياقات متنوعة، أشير إلى ما يدل على ورود التقطع بمعنى تقطيع وحدة الأمة وتفريقها ثم الاختلاف في دينها وتعقيب ذلك بالحديث عن الأمة الواحدة، وهو المقصود أصالة من هذا المبحث، وذلك في المطلب التالي.



(1) تفسير الطبري، 503/10.

(2) فتح القدير، 364/2.

(3) تفسير البيضاوي، 40/3. قال الشعراوي رحمه الله مبينا علة ذلك التقطيع: "وقد قطعهم الحق حتى لا يبقى لهم وطن، ويعيشون في ذلة لأنهم مختلفون غير متفقين مع بعضهم بعضاً منذ البداية، كانوا كذلك منذ أن كانوا أسباطاً وأولاد إخوة على خلاف دائم. أي أن كل قطعة يكون لها تماسك ذاتي في نفسها، وأيضاً لا تشيع في المكان الذي تحيا فيه، ولذلك قلنا: إنهم لا يذوبون في المجتمعات أبداً — كما قلنا — فعندما تذهب إلى أسبانيا مثلاً تجد لهم حياً خاصاً، كذلك في فرنسا، وألمانيا، وكل مكان يكون لهم فيه تجمع خاص بهم، لا يدخل فيه أحد، ولا يأخذون أخلاقاً من أحد، فحرم الله عليهم أن يستوطنوا وطناً واحداً يتجمعون فيه، ونشرهم في الكون كله لأنهم لو كانوا متجمعين لعم فسادهم فقط في دائرتهم التي يعيشون فيها". (تفسير الشعراوي، 4419/7).

المطلب الثالث: التقطع من معوقات الوحدة.

ورد ذكر التقطع في سياق الحديث عن وحدة الأمة في موضعين اثنين، الأول في سورة الأنبياء والثاني في سورة المؤمنون.

أما الموضع الأول، فهو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ بِاعْبُدُونِ ۖ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: 91] [92]. فيلاحظ على مطلع الآية بدايتها بالتأكيد على وحدة الأمة، ثم وحدة المعبود سبحانه وتعالى مع الأمر بعبادته، ومعنى الأمة الملة الواحدة، فعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في تفسير ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي دينكم دين واحد وأنا ربكم أيها الناس فاعبدون دون الآلهة والأوثان وسائر ما تعبدون من دوني. ⁽¹⁾ إلا أنهم «جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه. فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب. تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً شتى». ⁽²⁾

فانتقلت الآية للحديث عن تفرق الناس في الدين وإشراكهم بالله تعالى، ⁽³⁾ ف صاروا بذلك قطعاً ومللاً شتى، بعد أن كانوا ملة واحدة يجمعها دين واحد، يقول الطبري معلقاً على هذه الآية: «وتفرق الناس في دينهم الذي أمرهم الله به ودعاهم إليه، ف صاروا فيه أحزاباً فهوّدت اليهود، وتنصّرت النصارى وعُبدت الأوثان». ⁽⁴⁾

وورد فعل (وتقطّعوا) للتعبير عن تقطيع الناس لدينهم وتفرقهم فيه، بسبب اختلافهم في الدين، والآية ضمت المعاني الثلاثة للمباحث السابقة، إذ لا تقطّع إلا بعد اختلاف ولا

(1) تفسير الطبري، 523/18.

(2) تفسير الشنقيطي، 246/4.

(3) المقصود بالآية المشركون، ذمهم الله بمخالفة الحق واتخاذهم آلهة من دون الله. وقيل المراد جميع الخلق وأنهم جعلوا أمرهم في أديانهم قطعاً وتقسموه بينهم. (ينظر: فتح القدير، 503/3).

(4) تفسير الطبري، 523/18.

اختلاف إلا بعد تفرق، كما يشهد له ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَبَرَّفُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]، ويدل على هذا المعنى أيضا ما أورده القرطبي في تفسير الآية؛ إذ قال: «أي جعلوا أمرهم في أديانهم قطعاً وتقسموه بينهم، فمن موحد، ومن يهودي، ومن نصراني، ومن عابد ملك أو صنم».⁽¹⁾ ووجه التقطيع اختلاف الأمم على رسلها فمن بين مصدق لهم ومكذب.⁽²⁾

ولما كان التقطع والانقسام أمرا شنيعا وفعلا قبيحا متوعداً صاحبه بال عذاب الأليم، صرف الله ذكره إلى الغائب تقييحا له، وتقليلًا لشأن أصحابه، يقول البيضاوي في بيان هذه اللطيفة: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ «صرفه إلى الغيبة التفاتاً؛ لينعى على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قطعاً موزعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم».⁽³⁾ ونلاحظ كذلك ال صيغة التي وقع التعبير بواسطتها عن فعلهم: (تقطع على وزن تفعل) وما تحمله من معاني التأكيد والمبالغة، والذي يقتضي زيادة المعنى تماشياً مع زيادة المبنى في الكلمة، وذلك فضلاً عما يمكن أن توحى به الصيغة من المفاعلة الواقعة بين هؤلاء المتقطعين، والتي تدل على أنهم عما تقطعوا وخالفوا الأمة إلا بعد تأمل ونظر وتبييت نية واجتماع بينهم، كما يدل عليه الضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فإنه لإفادة أنهم تعاونوا وتظاهروا على تقطع أمرهم.⁽⁴⁾ فخلافتهم بالإضافة إلى كونه عنادا ومقاطعة وتكديبا بالحق، ضم معاني أخرى منها صد جماعة المؤمنين عن الحق الذي نزل عليهم، وتشتيت وحدتهم، وتمزيق صفهم، وفي تعبيره سبحانه بل فظ ﴿أَمْرَهُمْ﴾ نسبة للغائب إهمالاً لهم بسبب تقطعهم.

(1) تفسير القرطبي، 339/11.

(2) تفسير ابن كثير، 372/5.

(3) تفسير البيضاوي، 60/4.

(4) التحرير والتنوير، 143/17.

وفائدة التنبيه على التقطع بيان اختلافهم في المعبود الحق، وبالتالي الاختلاف الشرائع وكثرة الأهواء والنزعات، التي تفضي إلى اختلاف أفراد الأمة وتزعزع بنيانها، يقول الشعراوي مبينا هذا الملمح، «وما داموا قد تقطعوا أمرهم بينهم، فصاروا قطعاً مختلفة، لكل قطعة منهج وقانون، ولكل قطعة تكاليف، ولكل قطعة راية»⁽¹⁾ ولخطة هذه التفرقة وعظم أثره على الأمم، عقب سبحانه وتعالى بالتهديد والوعيد، كما دل عليه لحاق الآية: ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾.

وإذ كان الموضع الأول الذي ورد فيه ذكر التقطع عقب ذكر صفات وخصائص الأمة الواحدة وما تتصف به من اتحاد معبودها، واجتماع كلمتها، ووحدة تشريعها، بالإضافة إلى ما أوحى به صيغة المفاعلة في التقطع من تظاهرهم وتعاونهم عليه، وسعيهم إلى تمزيق وحدة الأمة، وشق عصا طاعتها؛ فإن الموضع الثاني في سورة المؤمنون قد بين بوضوح الحالة النفسية لهؤلاء المتقطعين، وانتشاهم وفرحهم بما أتوه من شأن التفريق بين الناس ودينهم ليلبسوا عليهم إيمانهم، فقال سبحانه واصفا حالهم كاشفا سريرتهم: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ زُجْرَتُكُمْ مَثَلًا وَإِنَّمَا تَأْتِيهِمْ فَرَسًا بِأَسَافٍ وَمَا يُخَالِفُوا بِمَا جَاءَهُمْ مِنْ رَسُولٍ وَلَا يَخْلِفُ أَحَدٌ مِنْكُمُ الْآيَةَ وَلَا يَخْلِفُ عَنْ عَهْدٍ إِلَى عَهْدٍ فَإِنَّهُمْ عَلَى شَكٍّ﴾ [53] [54]. فأكد مطلع الآية على وحدة الأمة، ووحدة رسالة الأنبياء المبعوثين للأمم، أي إن هذه الجماعة المرسله إلى الأمم والأقوام السابقة جماعة واحدة وأمة واحدة ذات مقصد ورسالة واحدة، وأنتم يا أمة محمد ﷺ أمة واحدة ما دتم متفقين في الدين، لا تقطع بينكم، وقد ذكر المولى جل جلاله أجل ما يقي من التقطع وهو وحدة الرب المعبود وتقواه ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ ولا يخالف أحد منكم أمري ولا تختلفوا وتفرقوا وتتقطعوا لئلا أعذبكم كما عذبت من تقطع قبلكم.

(1) تفسير الشعراوي، 9641/16.

ولذلك ذكر سبحانه بما وقع من الأمم من مخالفتهم لما أمرهم به الرسل من عدم الافتراق عنهم، فقال سبحانه: ﴿بَتَفَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ بَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِيسٍ ﴿٥٦﴾ [المؤمنون 54-55]. والمعنى أنهم جعلوا دينهم مع اتحادهم قطعاً متفرقة مختلفة.⁽¹⁾ فوصف سبحانه الأمم بأنهم اختلفوا، فاتبعت فرقة التوراة، وفرقة الزبور، وفرقة الإنجيل ثم حرّفوا وبدّلوا، وفرقة مشركة تبعوا ما ر سمه لهم آباؤهم من الضلال.⁽²⁾ والفاء في: ﴿بَتَفَطَّعُوا﴾ «لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم»⁽³⁾ إيذاناً بأن ذلك أعقب الأمر وفيه مبالغة في الذم. وجيء بفاء التعقيب لإفادة أن الأمم لم يترثوا عقب تبليغ الرسل إياهم فاتخذوا آلهة كثيرة فصار دينهم متقطعاً قطعاً لكل فريق صنم وعبادة خاصة به.⁽⁴⁾

ونلاحظ مرة أخرى استعمال مادة (قطع) تعبيراً عن انقسامهم واختلافهم في الحق الذي نزل عليهم، وإيراد التقطع فعلاً متعدياً كما في الموضع الأول من سورة الأنبياء؛ بقصد إفادة الشدة في حصول الفعل. مما يؤكد سياق الذم الذي يأتي فيه هذا الفعل في القرآن الكريم، إذ غالب تلك الموارد جاءت بمفهوم الذم والإنكار، أو في معرض التهديد والوعيد. وإفادة لمعنى الذم هذا وعتابهم على ما اقترفوه من أمر التقطع بينهم، شبه الله سبحانه ما هم فيه من الجهل بالماء الذي يغمر من دخل فيه⁽⁵⁾ حكاية لتمكن الغواية والهوى عنهم فقال سبحانه: ﴿بَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِيسٍ﴾ ومما يزيد معنى الذم شخوصاً في الآية، كما حكاها ابن عاشور تذييله بقوله: ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي وهم ليسوا بحال

(1) فتح القدير، 576/3.

(2) فتح القدير، 576/3.

(3) روح المعاني، 41/18.

(4) التحرير والتنوير، 72/18.

(5) فتح القدير، 576/3.

من يفرح،⁽¹⁾ وسبب فرحهم اعتقادهم أنهم على حق وصواب، وهو المقصد من التعقيب بتركهم في سكرهم وغمرتهم وغيهم، حتى يأتي موعد الحساب والجزاء.

لقد حكى لنا القرآن حال هؤلاء المفترقين وفرحهم بالتقطع وم صيرهم إلى أ حزاب وفرق، كل فرقة فرحة بما اقترفته من فعل التقطع، وعبر عن ذلك الانقسام بقوله: ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي قطعاً، والزبر جمع زبور بمعنى فرقة، أي قطعوا أمر دينهم وجعلوه أدياناً مختلفة مع اتحادهم، وجوز أن يراد بالتقطع التفرق،⁽²⁾ وكل قطعة منها في غاية القوة والاجتماع والثبات على ما صارت إليه من الهوى والضلال، كما أفاده وصف الفرع.⁽³⁾

إن ورود التقطع في القرآن الكريم بتلك المعاني العارضة، ثم اقترانه في الموضعين السابقين من سورة الأنبياء والمؤمنون بوحدة الأمة، لاشك أريد به التنبيه على خطورة هذا الموضوع، والتحذير من شره وشؤمه على الأمة، لأن التقطع يقتضي الفصل والتقسيم لما من شأنه التجمع، وشأن الأمة التجمع والتآلف كما قال سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]، وقد عبر سبحانه وتعالى عن تقطعهم بالتحزب فقال: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أي راضون جذلون بأنهم اتخذوا طريقهم في الدين.⁽⁴⁾ فلم يرحموا أنفسهم بما دعتهم إليه الهداة من الاجتماع والألفة، فأهلكوها بالبغضاء والفرقة.⁽⁵⁾

(1) التحرير والتنوير، 72/18.

(2) ينظر: تفسير الألوسي، 41/18.

(3) تفسير البقاعي، 156/13.

(4) فتح القدير، 576/3.

(5) تفسير البقاعي، 157/13.

والتعبير بلفظ الحزب ﴿كُلِّ حِزْبٍ﴾ جاء تبعا لما يقتضيه بناء الحزب وطبيعته وتشكيله من التعاون والتواطؤ والمشورة والتخطيط والرضا، والمعنى أن تكذيبهم جاء مضاهاة للحق وطلبا لمواجهة، ولذلك كان الوعيد لهم خطيرا، والعتاب عليهم شديدا؛ لأن الذي يأتيه الحق ثم ينصرف عنه تكذيبا أو جحودا ويركن إلى نفسه، لا يستوي مع الذي يأتيه الحق ويحدد به ثم يحاربه ويحشد الناس لمحاربتة، ويَكُونُ لأجله الجماعات والجمعيات والأحزاب والمنظمات... إلى غير ذلك من المسميات، ويبدل في نصرته العتاد والتمويلات، وقد كان هذا شأن المكذبين، وديدن المخالفين في كل العصور؛ فلما بعث رسولنا ﷺ، كذبه المشركون وتحزبوا في دار الندوة لحربه وصرف الناس عنه، فما من شك والحال كما وصف، أن هذا أشد خطرا وأعظم أثرا.

ومغزى المقارنة في هذا المقام من وجهين، أولهما كشف أثر التقطع والتهرب عن حزب على وحدة الأمة وسلامة بنيانها، لأن الذي يجمع الناس حوله ويتحزب لأفكار ورؤى ثم ييثها في الناس ويروج لباطله على أنه الحق، أثره أكثر جسامة وأفدح خطرا على الأمة ووحدتها، وعلى الناس وسلامة معتقدها، لكونه يضاهي الحق بزعمه ويضلل الناس بصرفهم عنه، فهنا تكمن الخطورة وتتجلى المصيبة في أسوأ صورها، والوجه الثاني تبوؤ صاحبها لوزره ووزر من صرفه إليه فيكون عقابه مضاعفا، ولذلك نجد غالب موارد ذكر التقطع أتت في معارض الذم والنهي، والتحذير من السقوط في برائته.

وتحت عتمة هذا التضليل يقع المسخ لمعالم الحق، فتغيب الحقائق وتختفي عن الأنظار الفئة المدافعة عنه، فينفسح المجال للباطل ليطغى ويتنفش ويجول، ثم يطول العهد على الناس وتبدل الأجيال حتى لا يكاد الناس يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا. ولقد ضم واقعنا المعاصر كثيرا من مثل هذه الانحرافات المقيتة والتوجهات المنكرة، التي خرقت سفينة الأمة، وقطعت أواصرها، ومزقت لحمتها، فسهل على الأعداء افتراسها، والحال ما نرى نسأل الله اللطف والعافية، والوحدة الدائمة.

المبحث الرابع اتباع الهوى

المطلب الأول: مفهوم الهوى لغة واصطلاحاً.

تعود الأصول اللغوية لكلمة الهوى إلى الجذر اللغوي (هوي)، يقول ابن فارس مبيناً المعاني التي يدل عليها أصل الكلمة: «الهاء والواو والياء: أصل صحيح يدل على خلو وسقوط. أصله الهواء بين الأرض والسماء، سمي لخلوه. قالوا: وكل خال هواء، ويقال: هوى الشيء يهوي: سقط. وهاوية: جهنم؛ لأن الكافر يهوي فيها».⁽¹⁾

والهوى مقصورٌ: هوى النفس، والجمع الأهواء. وإذا أضفته إليك قلت هَوَايَ،⁽²⁾ وهو مأخوذ من السقوط والانحدار، قال ابن فارس: وأما الهوى: هوى النفس، فمن المعنيين جميعاً، لأنه خال من كل خير، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي.⁽³⁾

واصطلاحاً: عرّف بتعريفات عديدة، منها قولهم: ميل النفس في الاعتقاد وغيره إلى ما يجانب الحق⁽⁴⁾ وقيل: ميل النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع.⁽⁵⁾ ويمكن اعتبار هذا التعريف مستمداً من قول الله عز وجل: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: 23]. وعرفه صاحب الحدود الأنيفة بكونه «ميل القلب إلى ما يستلذ به».⁽⁶⁾

(1) مقاييس اللغة، 15/6.

(2) الصحاح، 2537/6.

(3) مقاييس اللغة، 16/6.

(4) معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عبد الحميد، عالم الكتب، الطبعة الأولى: 1429هـ-2008م، 2379/3.

(5) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي، ص: 344.

(6) الحدود الأنيفة والتعريفات الدقيقة لتركيباء بن محمد بن أحمد الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى: 1411هـ، ص: 68.

فالتعريف الأول يجعل الهوى شاملا للفساد النفسي والانحراف العقدي، ولم يقصره على ما تهواه الأنفس من الشهوات الحسية التي تحمل لذة ومتعة كما ورد في التعريف الثاني، ويمكن اعتبار التعريف الثالث شاملا للمعنيين السابقين جميعا، إذ ميل القلب وانحرافه يحدث في العقائد، كما يقع في الأخلاق والنفوس. وهذه التعريفات بالرغم من اختلاف عبارتها وتعدد قائلها، إلا أن التمعن فيها يفضي إلى اعتبارها تدور في فلك واحد، نظرا لكون معانيها لا تخرج عن الانحراف العقدي أو السلوكي.



المطلب الثاني: مفهوم الهوى في القرآن الكريم.

إن التأمل في الاستعمال القرآني للفظه الهوى، يجده قد ضم التعبير عن المعاني السالفة جميعها، فقد جاء فيه ما يعبر عن كون الكفر بالدين الحق وتكذيب الأنبياء والرسول، وإشراك غير الله في العبادة؛ كان اتباعا للهوى ورسوخا على عقائد الآباء والأجداد الفاسدة، فقال سبحانه: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيفًا كَذَّبُوا وَقَرِيفًا يَفْتُلُونَ﴾ [المائدة: 72]. وقال في موضع آخر: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام: 150]. وقال عزّ من قائل: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: 43]. فالآيات جميعها تتحدث عن الانحراف العقدي، وتكذيب الناس لأنبيائهم ورسولهم، ورفض رسالتهم، وجعل أهوائهم آلهة تعبد.

ثم جاء فيه أيضا ما يدل على كون الانحرافات السلوكية والأخلاقية اتباعا للهوى، فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 134]. وقال تعالى: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: 51]. فجعل الجور وعدم الحكم بين الناس بالعدل اتباعا للهوى، ولا شك أن هذا انحراف أخلاقي وسلوكي، فيقاس على العدل سلوكات أخرى إنما يكون سببها اتباع الهوى وما تشتهي النفس. وبهذا يكون ذكر الهوى في الاستعمال القرآني قد ورد بمعناه اللغوي والاصطلاحي، وهو ما تميل إليه النفس وتشتهيه، سواء في العقائد أو الأخلاق.

إن الحديث عن الهوى في القرآن الكريم جاء معبرا عن مجموعة من القضايا والموضوعات المختلفة. فبيّنت الآيات الكريمة مسببات الهوى وخطورته وعواقبه وآثاره على الفرد والمجتمع، ويعد هذا أجلاً القضايا التي تناولتها الآيات وشغلت حيزا واسعا من القرآن الكريم، فرتبت على اتباع الهوى آثار خطيرة؛ من كفر واستكبار وظلم وتكذيب وضلال

وإضلال وفساد...⁽¹⁾ ولا بد أن يصيب صاحب الهوى منها نصيب.

وإن من أوليات المفاهيم التي ورد الحديث عنها في القرآن الكريم حسب ترتيب المصحف الشريف بخصوص الحديث عن الهوى قضية الإيمان والكفر، فوقع الكلام عن تكذيب الأقوام المختلفة لمن بعثوا إليهم من الأنبياء والمرسلين، ويُن أن سبب ذلك هو اتباع الهوى، فقال سبحانه في سورة البقرة مستنكراً على هؤلاء عدم تصديقهم، ومبيناً شناعة ما اقترفوه من التكذيب للأنبياء والإزراء بهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيفًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 86].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ مفسراً الآية: «ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة، والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم، فقد كانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء عليهم السلام أسوأ المعاملة، ففريقاً يكذبونه وفريقاً يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم»⁽²⁾.

والمراد بالهوى «ما تميل إليه أنفسهم من الانحلال عن القيود الشرعية والانغماس في أنواع الملذات والتصميم على العقائد الضالة»⁽³⁾.

ولبيان شناعة ما قاموا به صيغت تلك الأوصاف التي قاموا بها في حق من أرسل إليهم، في صورة الاستفهام الإنكاري لتكون أقوى في الذم والتوبيخ، يقول محمد رشيد رضا مبيناً هذا الوجه البلاغي: «كان المعهود في التخاطب وكلام الناس أن تذكر هذه المساوئ ثم يوجحون عليها، ولكن طواها في الخطاب وأدجها في الاستفهام لتفاجئ النفوس بقوة التشنيع

(1) تنظر على سبيل المثال الآيات: [الفرقان: 43] [البقرة: 86] [البقرة: 144] [المائدة: 72] [الأنعام: 57]

[الأنعام: 120] [المؤمنون: 72].

(2) تفسير ابن كثير، 321/1.

(3) التحرير والتنوير، 598/1.

والتقبيح، وتبرز لها في ثوب الإنكار والتوبيخ».⁽¹⁾ كما أوضحت الآية أن ذلك الإعراض كان بسبب الاستكبار، ﴿إِسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وعطف الاستكبار على الهوى، يفهم منه أن من مساوى الهوى تورث التكبر والإعراض عن الحق في نفوس أصحابه.



(1) تفسير المنار، 1/312.

المطلب الثالث: اتباع الهوى من معوقات الوحدة.

ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى كون الاختلاف نتيجة لاتباع الهوى في سياق الحديث عن ذكر الأمة الواحدة، وذلك في قول ربنا جل جلاله في سورة المائدة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِمْ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَايَكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: 50].

فقد أمرت الآية الكريمة الرسول ﷺ بالحكم بين من كان يأتيه من المتقاضين من أهل الكتاب والمشركين⁽¹⁾ بالحق الذي أنزله على نبيه في كتابه من الأحكام والشرائع،⁽²⁾ كما أمرته بالإعراض عن أهوائهم؛ قال ابن كثير في تفسيرها؛ أي: «آراءهم التي اصطَلَحُوا عليها، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسوله». ⁽³⁾ وقال ابن عاشور: «أي ولا تتبع ما يهونون، وهو الحكم بما يسهل عليهم ويخف احتمالاه»،⁽⁴⁾ فاتباعها مؤدٍّ لا محالة إلى الاختلاف، لتباين مدارك العقول وتنوع طبيعة النفوس وما تهواه بحسب ما أشربت من

(1) عن ابن عباس قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم مخيراً، إن شاء حكم بينهم، وإن شاء أعرض عنهم. فردهم إلى أحكامهم، فنزلت: وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما في كتابنا". (تفسير ابن كثير، 3/128).

(2) قال الإمام الطبري في بيان نوع تلك الأحكام: "في كل ما احتكموا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحدود والجُرُوح والقَوَد والنفوس، فارجم الزاني المحصن، واقتل النفس القاتلة بالنفس المقتولة ظلماً، وافقأ العين بالعين، واجدع الأنف بالأنف". (تفسير الطبري، 10/382).

(3) تفسير ابن كثير، 3/128.

(4) تفسير المنار، 6/341.

الخير والشر، وبحسب ما اعتادت وألفت من العادات والعوائد.

ثم ذكر الله نبيه الكريم بأنه جعل لكل أمة شريعة خاصة بها، وأن الاختلاف في الشرائع لا يعني تعدد الأديان، بل هو دين واحد لا اختلاف فيه؛ كما قال سبحانه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 50]. وإنما تنسخ الشرائع بعضها، وشريعة نبينا محمد ﷺ ناسخة للشرائع كلها؛ لأنها آخر الرسالات كما قال سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 50]. ورسولنا خاتم الأنبياء والمرسلين.

وَضُمَّتْ الآية كذلك التنبيه على أن هذا الاختلاف ابتلاء وامتحان ليميز الله الخبيث من الطيب، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَايَكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وأن الموعد يوم القيامة فيعلم الجميع حقيقة ما كانوا يختلفون فيه ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 50].

ومن اللمع البانية في الآية أنها ختمت بتقرير يوم القيامة موعدا لحسم النزاع والاختلاف بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون؛ مع أنها لم تحك لنا وقوع الاختلاف بين الناس ولا عبرت عنه بمشتق من ألفاظه لا في سباق الآية المدروسة ولا في لحاقها؛ وإنما هي لمحة بيانية قد يفهم منها التنبيه على شؤم الهوى وأثره على أصحابه، فتذليل الآية بإفادة إرجاء الفصل بين المختلفين إلى يوم القيامة، من غير سابق ذكر لوقوع الخلاف بين المختلفين، تنبيه على أن اتباع الأهواء من أسباب وقوع الاختلاف، والله أعلم.

ثم إن الحديث عن الهوى وتعقيبه بذكر الأمة الواحدة، وعن مشيئة الله وإرادته لاختلاف الشرائع، فيه بيان لأثر الهوى على وحدة الأمة، وأن اتباع أفرادها لأهوائهم ورغبات نفوسهم ونزواتها مع تركهم للحق، مؤذن بفرقتهم، وخراب عمرانهم، وتشتت كلمتهم، وانفضاض جمعهم. وهي ثمرة الاقتران السياقي بين الذكْرين - ذكر الهوى وذكر

الأمة الواحدة- بحيث يراد بذلك كشف ضرره على لحمة الأمة ووصف أثره على وحدة صفها. كما قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ إِتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَبَسَدَتْ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: 72]. ففساد دين الناس ودنياهم وشتات جمعهم وأمتهم، وكذا فساد نظام الكون وخراب السماوات والأرض له علاقة تلازمية باتباع الهوى، فهو أصل كل بلية، وسبب كل ذل ورزية؛ فأساس البدع والمنكرات، والخوض في أمور الدين والقطيعيات هو الاستجابة لداعية الهوى، والقلب إن تمكن منه الهوى عمي عن رؤية كل مليح، وذهل عن مشاهدة كل صحيح، فلا يرى إلا ما سولته له نفسه طريقا وخلاصا، وقد قال الله تعالى عمن خالف رسالة الرسول ﷺ وجحد دعوته: ﴿بِإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: 50]. فبين أن مخالفتهم سببها اتباع أهوائهم، ولا شك في كون النفوس مفطورة على النقص وحب الراحة والدعة والسكون، والنفرة من كل ما فيه بعض مشقة أو تكليف وحزم، وهذا مناف لمقصد الشارع الذي تغيبى من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبدا لله اختيارا كما هو عبد لله اضطرارا.

وللشاطبي نص نفيس في وصف حال من أعماه الهوى حتى تمكن من قلبه يقول فيه: «وذلك أن مخالفة ما تهوى الأنفس شاق عليها وصعب خروجها عنه ولذلك بلغ أهل الهوى في مساعدته مبالغ لا يبلغها غيرهم، وكفى شاهدا على ذلك حال المحبين وحال من بعث إليهم رسول الله ﷺ من المشركين وأهل الكتاب وغيرهم ممن صمم على ما هو عليه حتى رضوا بإهلاك النفوس والأموال ولم يرضوا بمخالفة الهوى».(1)

(1) الموافقات، 2/158.

ولخطورة الهوى وعظم شره ووخيم مآلاته تكررت الدعوة إلى الحذر منه والتوكيد على اجتنابه في الآية الموالية من سورة المائدة فقال سبحانه: ﴿وَأَنْ حَكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 51].

بل قد بلغ التحذير القرآني من اتباع الهوى والتنفير منه، مبلغا عظيما في تصوير أصحابه ونعتهم بأشنع النعوت، فقال سبحانه مبينا حالهم: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوِيَهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثَ﴾ [الأعراف: 176].

إن التأمل في معاني الآيات السالفة ودلالاتها يؤكد أن من الهوى ما يؤثر على العقيدة ويوصل إلى التكذيب والكفر بالله تعالى، ومنها ما هو دون ذلك مما يؤثر على السلوك والقيم والأخلاق، فأثر الهوى خطير على النفس البشرية، يصيب القلوب والأفهام، ويهوي بصاحبه في بحر من الرذائل ومستنقع من الآثام، بل إن من آثاره ما يخفى على بعض النفوس، فلا تقدر على تشخيصه وكشفه.

ومن عواقبه في الدنيا أنه متى ما حلّ بنفوس أصحابه وأشربته قلوبهم، إلا وصعب عليها الاهتداء إلى الحق والاجتماع على الصواب، فيستكبر أهل الأهواء في الأرض، ويظلمون العباد ويضلونهم، وتختلف اتجاهاتهم؛ وتتفكك بذلك مجتمعاتهم، وتتصدع أمتهم وتنحل عرى وحدتهم ثم لا يكون لهم شأن. فصاحب الهوى مفرق لجماعة المسلمين؛ لأنه باتباع هواه ينشق عن السواد الأعظم للأمة، ويتقديم ما تشتهي نفسه يعتزل الناس ولا يقترب إلا ممن هم على شاكلته، فيكون معهم حزبا دون غيرهم وحربا على من سواهم.

ولذلك كان للقرآن الكريم عناية بالغة بهذا الموضوع، فأمر باجتنب الهوى والابتعاد عنه بصيغ متعددة وأساليب مختلفة، فمرة بالنهاي المباشر، وأخرى بالتحذير منه، والإلزام بالابتعاد عنه، وثالثة بوصف أهل الأهواء بأبشع العيوب، وتارة بذكر مآلات من اتبعوا أهواءهم من أهل القرون الأولى وكيف كانت عاقبتهم، وأحيانا يعد مجتنب الهوى بالفوز بالجنة ونعيمها... وكل هذا التنوع في الخطاب لأجل الابتعاد عن أهواء النفوس ونزواتها، وللحض على مخالفتها ومعاكستها، درءا لعواقبه الوخيمة على الفرد، وحفظا لسلامة بنيان الأمة.

وقد كانت السنة النبوية الشريفة صنو القرآن في الأمر باجتنب الهوى والتحذير من خطورته، فما فتى رسول الله ﷺ يحذر من اتباع الهوى ويبين عواقبه، فقال ﷺ: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر، وأما المهلكات: فهوئى متبع، وشح مطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن»⁽¹⁾ وعن علي رضي الله عنه قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل، أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة»⁽²⁾.



(1) شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق ومراجعة عبد العلي عبد الحميد، مكتبة الرشد بالرياض مع الدار السلفية بالهند، الطبعة الأولى 1423 هـ 2003 م، فصل في الطبع على القلب أو الرين: 396/9، حديث رقم: 6865.

(2) شعب الإيمان، فصل فيما بلغنا عن الصحابة رضي الله عنهم، فيما تقدم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، 172/13، حديث رقم: 10129.

المبحث الخامس البغي

المطلب الأول: مفهوم البغي لغة واصطلاحاً.

البغي: مصدر بغي يبغي بغياً: إذا تعدى وظلم. قال ابن فارس: الباء والغين والياء أصلان: أحدهما طلب الشيء، والثاني جنس من الفساد؛ فمن الأول بغيت الشيء أبغيه: إذا طلبته.⁽¹⁾ والأصل الثاني: قولهم بغي الجرح: إذا ترامى إلى فساد، ثم يشتق من هذا ما بعده. فالْبَغْيُ الفاجرة، ومنه بغي المطر، وهو شدته ومُعظمه. وإذا كان ذا بغي فلا بد أن يقع منه فساد.⁽²⁾ وبغى عليه يبغي بغياً: علا عليه وظلمه.⁽³⁾

وأصل البغي مجاوزة الحد والاستطالة على الناس؛ كما ذكره ابن منظور: «حيث قال: البغي: التعدي، وبغى الرجل علينا بغياً: عدل عن الحق واستطال».⁽⁴⁾ وقال الأزهري: «معناه الكبر، لأن المتكبر تجاوز منزلته إلى ما ليس له»؛⁽⁵⁾ والبغي الظلم⁽⁶⁾ والفساد.⁽⁷⁾ ومن أهل اللغة من جعل أصله من الحسد، ثم سمي الظلم بغياً لأن الحاسد يظلم المحسود جهده إراغة زوال نعمة الله عليه عنه.⁽⁸⁾

(1) ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِي﴾ [الكهف: 64].

(2) مقاييس اللغة، 1/271-272.

(3) المحكم والمحيط الأعظم، مادة: ب غ ي. 28/6.

(4) لسان العرب، 1/457.

(5) المفردات، 1/71.

(6) كتاب العين، 1/154.

(7) لسان العرب، 1/457.

(8) المصدر نفسه، 1/458.

وأما اصطلاحاً فقد عُرِّفَ البغي بتعاريف عدة لا اختلاف بين بينها، فمعناه في الاصطلاح يدور على معانيه اللغوية، ومن تلك المعاني التي يأتي بها: التسلط والظلم، والحسد الاستعلاء والفساد، قال الكفوي: «البغي الحسد وقصد الاستعلاء والترقي في الفساد»⁽¹⁾.

وقد يكون البغي محموداً وقد يقع مذموماً، كما قال الراغب الأصفهاني: «والبغي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يُتَحَرَّى، تجاوزَه أم لم يتجاوزَه، فتارةً يعتبر في القدر الذي هو الكمية، وتارةً يعتبر في الوصف الذي هو الكيفية، يقال: بَغَيْتُ الشيء: إذا طلبت أكثر ما يجب، والبغي على ضربين أحدهما محمود؛ وهو تجاوز العدل إلى الإحسان، والفرض إلى التطوع، والثاني مذموم؛ وهو تجاوز الحق إلى الباطل»⁽²⁾. ولأن البغي قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً قال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي

الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: 39] فخص العقوبة بغيرهم بغير الحق⁽³⁾.



(1) الكليات، ص: 247.

(2) المفردات، 71/1.

(3) المصدر نفسه، 71/1.

المطلب الثاني: مفهوم البغي في القرآن الكريم.

ورد البغي في القرآن الكريم بعدة صيغ اسمية وفعلية في حوالي ستة وتسعين موضعاً⁽¹⁾، بمعنىين، الأول: طلب الشيء والتطلع إليه، والثاني: الفساد والظلم والحسد والضغينة، وورد في أكثر هذه المواضع مذموماً، قال تعالى: ﴿يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: 23]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: 58] وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: 23]، وقال جل جلاله: ﴿إِنَّ فَارُوقَ كَانَ مِنَ الْقَوْمِ مَوْسَىٰ بَغْيِي عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: 76] وقال عز من قائل: ﴿فَبِأُفٍّ بَغَتْ إِبْدِيهِمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ بَفْتِلَوْا أَلْتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِجَءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: 9]،⁽²⁾ أما الابتغاء فقد خص بالاجتهاد في الطلب لما كان محموداً،⁽³⁾ والذي يعني في هذا المبحث من آيات البغي ما ورد في سياق الحديث عن وحدة الأمة واتحاد كلمتها واجتماع صفها مع الكشف عن العلاقة بين هذه الآيات، وبيان وجه كون البغي من معوقات الوحدة بين المسلمين، مستدلاً على ذلك بصريح النصوص ومنطوقها، ومفهومها ودلالاتها، مستأنساً بأقوال أهل التفسير، وهو ما سأتناوله في المطلب التالي.



(1) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: 161-163.

(2) المفردات، 71/1.

(3) المصدر نفسه، 72/1.

المطلب الثالث: البغي من معوقات الوحدة.

إن الآيات القرآنية التي جلت قضية البغي، وأبانت عليته في اختلاف الأمة وشتات أمرها قد وردت في المواطن التالية:

✓ قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: 211].

✓ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: 19].

✓ وقوله جل جلاله: ﴿وَمَا تَعَرَّفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 12].

✓ وقوله عز من قائل: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الحائية: 16].

والناظر في هذه النصوص القرآنية يلحظ أن الشارع الحكيم أرجع سبب الاختلاف بين الناس بعد مجيء البينات وظهور الحجج الواضحات إلى علة صريحة، هي البغي بما يحمله اللفظ من معاني العدوان والتجاوز للحد والحسد والظلم وقصد الفساد، وكلها معان مذمومة تمجها النفوس السوية والفطر النقية. وهذه العلية هو ما أكدته الآيات الأربع بالصيغة نفسها والأسلوب ذاته «بغيا بينهم» وهو انحراف سلوكي عن منهج الله وإعراض عن شرع الله وحيدة عن العلم والبيانات المنزلة من عند الله.

وقد علم من ضرورت الحياة وواقع المعاش أن الناس يشتركون في أعمالهم، ويشتبهون في معاملاتهم، وتقع منهم الخلطة والشركة، وهم لذلك عرضة لأن يختلفوا في الحقوق ويتنازعوا فيها ظنا ووهما، أو قصدا وعمدا، فكان من حكمة الله سبحانه وتعالى إخراج الناس عن داعية الهوى بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ صُحفا قيمة بينة لا عوج فيها ولا خلل، تبين الحقوق والواجبات، وتُجلى الفرائض والمحرمات، وتحكم بين الناس في

المتشابهات والمختلفات، قال تعالى: ﴿قَبَعَتْ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ⁽¹⁾ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا إِخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: 211]، فيحفظ جامعتهم من الاضطراب، ويضمن للأمة والجماعة حسن المآب، ويوفق بين الخلائق. إلا أن فريقا من الناس أبوا إلا الاختلاف، وسعوا إلى الإشقاء والتمزيق، والخصومة والتفريق «بغيا بينهم وتعديا لحدود الشريعة التي أقامها حواجز بين الناس».⁽²⁾ قال الطبري في تفسيره آية البقرة: ﴿وَمَا إِخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ 211. «لم يكن اختلاف هؤلاء المختلفين من اليهود من بني إسرائيل في كتابي الذي أنزلته مع نبيي عن جهل منهم به، بل كان اختلافهم فيه وخلاف حكمه من بعد ما ثبت حجته عليهم بغيا بينهم، طلب الرياسة من بعضهم على البعض استدلالا من بعضهم على بعض».⁽³⁾ فكان اتباع الكتاب يقضي عليهم بالاجتماع والائتلاف، وتخليص النفوس من كل هوى سوى الميل إلى تقرير الحق وتطبيق الواقعة عليه، لكن شاب طلب الحق شيء من الرغبة في عزة الرياسة أو ميل إلى وجاهة ومراتب، أو طمع في مصالح ومناصب، فولج بهم ذلك إلى شقاق، وأحدث بينهم اختلافا وافترقا، وهذا من «البغي على حق الله في عباده أولا، والبغي على حقوق العباد الذين جاء الكتاب لتعزيز الوفاق بينهم ثانيا».⁽⁴⁾

(1) أضاف جل ثناؤه الحكم إلى الكتاب، وأنه الذي يحكم بين الناس دون النبيين والمرسلين، إذ كان من حكم من النبيين والمرسلين بحكم، إنما يحكم بما دلهم عليه الكتاب الذي أنزل الله تبارك وتعالى، فكان الكتاب بدلالته على ما دل على صحته من الحكم، حاكما بين الناس، وإن كان الذي يفصل القضاء بينهم به غيره. (تفسير الطبري، 627/3).

(2) تفسير المنار، 288/2.

(3) تفسير الطبري، 628/3.

(4) تفسير المنار، 288/2.

فأهل الكتاب لم يؤتوا من قلة علم، وضآلة معرفة، وخفاء حجة، والتباس بيان، إنما كان سبب هلاكهم وعلة اختلافهم؛ الظلم والتباغي، والحسد والتعادي، ففرقوا دينهم، وقطعوا أرحامهم، وقطّعوا علاقاتهم، فصاروا قصصا للعبرة وأخبارا للعتة والدرس لمن يأتي بعدهم.

ولا يقتصر البغي على مجرد الخصومة في أمور الدنيا، والعداوة عليها، وظلم بعض الناس لبعض، والاستطالة على حقوقهم المادية، بل قد بلغ البغي بالناس مبلغه حتى أفضى إلى الكفر، فأعمى القلوب عن الحق المبين، وأعمى البصائر عن نور اليقين، فتكرت للوحي والرسالة بعد أن كان القوم ينتظرون بعثة النبي ﷺ بل ويستنصرون في ذلك على الذين كفروا من أهل الجزيرة العربية، فاستحقوا اللعنة والغضب لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم، وذلك ما أخبر به ربنا جل جلاله في حق اليهود بالمدينة حيث قال تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ بَيِّنَاتٍ لِيُثْبِتُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَبِئْسَ الْوَعْدُ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: 88-89]. فعن ابن عباس رضي الله عنه: «أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه»⁽¹⁾ فنالوا الوعيد الأليم بصلي الجحيم وفوت النعيم المقيم. وهذا البغي «لم يكن بغيا في شأن نبي دون نبي، أو في شأن كتاب دون كتاب، وإنما كان معناه التخلي عن أصل الإيمان، وعن مبدأ الإيمان، فإنهم

(1) تفسير الطبري، 237/2.

كفروا بالحق الذي جاء مصدقا لما معهم، وبذلك كفروا بجميع الكتب المنزلة التي كانت عندهم، والتي تبشر بمجيء هذا النبي وهذا القرآن»⁽¹⁾.

وقد كان هذا البغي سنة متوارثة بين الناس، وداءً ينقله الخلف عن السلف، ولم يفارقهم في فترة من فترات تاريخهم الطويل، وهو ما تؤمى إليه الآية 211 من سورة البقرة ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ وذلك على تفسير الكتاب في الآية بأنه لفظ يعم كل الكتب المنزلة قال البغوي في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ «أي الكتب، تقديره وأنزل مع كل واحد منهم الكتاب»⁽²⁾. فظاهر المعنى بحسب هذا التأويل أن البغي كان سببا في اختلاف الناس على مر الدهور والقرون، وإن ورد في بعض الآيات وصفا لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٥﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَفْضِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [الجاثية: 15-16].

فآليات القرآنية تلوم الأمم السابقة على موقفها السيء من الكتاب، وتكشف الداء الذي حملهم على اتخاذ هذا الموقف المشين؛ ألا وهو البغي. ويتأكد هذا المعنى وهذا الذم في معرض آيات آل عمران في قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ

(1) البرهان في نظام القرآن محمد عناية الله أسد سبحاني، قدم له: محمد أديب الصالح، وأبو الحسن الندوي، ومصطفى

مسلم، دار الكتب، الطبعة الأولى: 1414هـ/1994م، ص: 146.

(2) تفسير البغوي، 244/1.

بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴿[الآية: 19]﴾، وهو إخبار يفيد تحذيرا مكررا يشي بقبح الدافع إلى الاختلاف ومذموميته، لأنه ليس اختلافا عن جهل بحقيقة الأمر، بل قد أتى العلم القاطع بوحدانية الله وتفرد به بالألوهية، ووحدة الدين الذي ارتضاه المولى سبحانه وهو ما صرح به سباق الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ فَأَيُّمًا بِالْفِئْتِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴿[آل عمران: 18-19]﴾. فتضافرت المعاني في تناسق بديع تنسج صورة الوحدة التي تشهد عليها الملائكة، ويشهد لها أهل العلم الصادقين، وتنظم وحدة الألوهية سباقا ولحاقا، تقريراً وتأكيذاً في آية واحدة، ويرتب المولى على هذه الحقيقة نتيجتها الطبيعية ألوهية واحدة، ويقرر وحدة الدين المرتضى عنده سبحانه، وهو دين الإسلام، إلا أن البغي أفضى بالناس إلى تعطيل العمل بالكتاب، وإبطال أحكامه حرصاً على دنياهم، وتكالباً على مصالحهم، وطلباً للوجاهة والسلطة، فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، وآثروا العاجلة على الآجلة، والفانية على الباقية، وكانوا سبباً في مزيد اختلاف وافتراق وشتات، ففوتوا على أنفسهم شرف إقامة حكم الله ورفع الاختلاف والرجوع بالجماعة الإنسانية إلى وحدة واحدة وأمة متحدة.

وخلاصة هذا الفصل أجملها في النقاط الآتية:

أ- إن الاختلاف من معوقات الوحدة وقد صرحت بذلك الآيات القرآنية في مواطن عدة، وأكثر ما ورد فيه ذكر الاختلاف؛ الاختلاف في المجال العقدي الديني، سواء ما كان واقعا من أهل الكتاب مع بعضهم البعض، أو مع رسلهم وأنبيائهم، أو مع رسالة الإسلام ونبى الإسلام؛ محمد ﷺ، وهو كله اختلاف مذموم، حذر القرآن منه، ونفّر الأمة من الوقوع في مثله، إذ اختلاف الناس في مرجعية العقيدة الإيمانية ينعكس قطعاً على وحدة الجماعة التصورية والشعورية، وعلى وحدة المثل الأعلى بين أفرادها، فتفقد بذلك مقوما

من مقومات وحدتها، وهو وحدة القصد والمعتقد.

ب- إن من المفاهيم التي وردت مقترنة بلفظ الاختلاف، وأتت في سياق آيات وحدة الأمة، لفظ «التفرق»، والمتبع لورود مشتقاته في القرآن الكريم عموماً يجدها تضم مجالات مختلفة، لكن الغالب الأعم فيها ورودها في سياق الذم وما جرى مجراه من النهي عنه، والتحذير منه، وكل ذلك أو جله في معرض الدعوة إلى الاعتصام بجبل الله، أو في سياق حكي افتراق الناس على رسلهم، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، ونقضهم العهد والميثاق... وقد وردت مشتقات التفرق في هذه السياقات بالصيغة الفعلية، مما يشير إلى ارتباط التفريق بالفعل الإنساني تأثراً وتأثيراً، وهذه الصيغ تترى لبيان شر التفرق وضرره، ولتنفير الأمة من الوقوع في مثله.

ج- ورد من معوقات الوحدة أيضاً مفهوم «التقطع»، بما تدل عليه صيغته من الشدة والكثرة، واستقراء موارده في القرآن الكريم يوقف على الصيغ الفعلية التي ورد بها، وهو مؤشر على ارتباطه كذلك بالفعل الإنساني، الموسوم بالتجدد والاستمرارية، والمتصف بالعناد والخصومة، وقد ورد في سياق الذم كثيراً، وأتى دالاً على تقطيع وحدة الأمة وتفريقها والاختلاف في دينها، وذلك في موضعين من الذكر الحكيم، في سورتي الأنبياء والمؤمنون، فأخبر الله تعالى عن تقطيع المشركين وأهل الكتاب لدينهم، وتمزيق وحدتهم، وذر صنيعهم، وتوعد من سلك مثل سبيلهم، ونهج نهجهم، كي تحفظ الأمة وحدتها ولحماتها.

د- إن من أدواء النفوس التي كشف عنها القرآن الكريم وأبان عن تأثيرها في توجيه عقول الناس وقلوبهم، داء اتباع الهوى، فقد أفصح القرآن عما يسببه من كفر وضلال وإضلال واستكبار وظلم وفساد وقتل... ومن وخيم آثاره وسيء عواقبه؛ تفريق وحدة الأمة وتمزيق جمعها، وقد ورد ذمه في القرآن الكريم في سياقات الحديث عن الانحراف العقدي والسلوكي الذي وقعت فيه الأمم السابقة، بعد أن من الله عليها بالبعثة والرسالة،

حيث أعرضوا عن الحق المبين، والوحي اليقين اتباعاً لأهوائهم وميلاً إلى ما تستلذه قلوبهم وأنفسهم، فمزقوا أمتهم، وفرقوا وحدتهم.

هـ- من جملة العوامل التي تعوق وحدة الأمة وتمنع تحقيقها "البغي" بما يفيد من معاني الفساد والحسد والظلم والاعتداء، وقد ورد في سياق الذم في جل مواضعه في القرآن الكريم، وورد سبباً من أسباب الاختلاف والتفرق في أربعة مواطن كلها بصيغة المفعول لأجله -بغياً بينهم- دالاً على أنه سبب الاختلاف والتفرق إمعاناً في تقييح هذا الاختلاف؛ لأن المسبب له قبيح ومذموم، وهو وإن كان وروده في هذه الآيات في معرض الحديث عن أهل الكتاب والمشركين إلا أن المخاطب بذلك هي أمة الوحي والرسالة تحذيراً وتنبيهاً، حتى لا يؤول أمرها إلى ما آلت إليه الأمم السابقة.

خاتمة

لقد كانت هذه الدراسة بحثا علميا هادفا يتناول موضوع وحدة الأمة الإسلامية من خلال القرآن الكريم وفق منهج ينشد الرصانة والدقة، وقد وطأت بمدخل مصطلحي للفظي «الوحدة» و «الأمة»، أعقبته بتفسير موضوعي؛ الذي هو عبارة عن قضايا تشكل صلب البحث، وقد خلصت بعد جولة ماثرة في كتاب الله وآياته، وصوله حافلة في كتب التفسير ومؤلفاته إلى جملة من النتائج والفوائد العلمية والمنهجية أجملها في الآتي:

- فائدة دراسة المفاهيم القرآنية بمنهج الدراسة المصطلحية: لقد تبين لي من خلال مقاربتني لمفهوم الوحدة إحصاء وورودا ودراسة سياقية في القرآن الكريم، أن هذا المنهج البحثي يغوص بالباحث في أبعاد المفاهيم وموضوعاتها، ويساعد على استخراج لطائفها وإيجاءاتها، ويقرب المعاني الصحيحة، ويبعد المعاني الدخيلة، ويجلي القضايا التي اكتنزاها كل مصطلح في سياقات وروده خصوصا، وفي القرآن عموما، ويعين على تحريرها وبسطها في عقد منضود منظوم.

- توصلت من خلال الدراسة المعجمية إلى أن مدار مصطلح الوحدة على الانفراد والتفرد، وهو الأصل الدلالي الكلي الذي ترجع إليه المعاني الأخرى وعنه تفرعت، فالوحدة بمعنى: انقطاع النظر، آيل إلى التفرد بخصائص وسمات لا تماثل ولا تسامى. والوحدة بمعنى: عدم قبول التجزؤ، يعني قوة الارتباط بين الشئين كأنهم شيء واحد. والوحدة بمعنى: الاتفاق دال على الالتحام والاتحاد؛ حيث تصبح الكثرة المتعددة متحدة كفرد واحد.

- إن أظهر معاني مشتقات الوحدة في القرآن الكريم معنيان اثنان: الأول هو الانفراد والتفرد، وتعلق هذا المعنى بالله عز وجل وصفا بارز في آيات الذكر الحكيم، وهو متضمن لمعنى نفي المثل عنه. والمعنى الثاني هو الاتحاد والاتفاق، وأظهر ما استعمل فيه هذا المعنى هو وصف الأمة بأنها أمة واحدة، وقد ورد ذلك في تسع آيات. والرباط بين المعنيين في وصف الأمة هو أن الأمة تكون متحدة متفقة إذا اجتمعت على توحيد الخالق جل جلاله.

- إن مصطلح الأمة على تعدد معانيه يرجع في دلالاته اللغوية الأصلية إلى لفظ الأمّ بمعنى التوجه والقصد، ومنه سميت الجماعة لاتفاق مقصدها واتحاد غايتها، وسمي الدين وحدة؛ إذ به يتحقق الاجتماع والاتحاد، وعليه تجتمع قلوب العباد. وسمي الحين والفترة أمة؛ لأنه محل الأمة وزمان وجودها، وسمي الرجل أمة إما لاجتماع الخصال الحسنة فيه، وإما لأنه سبب لاجتماع أشتات الناس على ما يدعوهم إليه من خلال الخير.
- إن المعنى الأصلي للفظ الأمة -وهو المستعمل غالباً في القرآن الكريم- هو الجماعة من الناس تجتمع على أمر ما، وأخص هذه المعاني للجماعة ما كان الجامع لها ديناً وعقيدة، وهو أمر قد استقرأه صاحب كتاب «مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف».
- إن بين مصطلحي الوحدة والأمة نوع انسجام وتقارب، فالوحدة عبارة عن جمع متشتت، وتأليف متباعد، وتقريب متنافر، والأمة بدلالاتها على الجماعة تحمل هذه المعاني، فالأصل في الأمة أن يكون أفرادها مجتمعين متآلفين متقاربين، يشكلون لحمه واحدة وجسداً واحداً.
- لقد تضافرت الأدلة القرآنية على طلب الشارع لوحدة المسلمين، وتنوعت أساليبه في الدلالة على وجوب ذلك، فبين نصوصٍ تأمر بالاجتماع وتحث على الائتلاف، وثانيةٍ تنهى عن الفرقة وتُحرِّمها، وثالثة تبين مآلات التفرق والتشردم، ورابعة تُعدُّ الفرقة منهاج غير المسلمين وتحذر من سلوك نهجهم والتشبه بهم، وأخرى تبين أن الوحدة من أجل مقاصد البعثة، وهذه الصيغ كلها تؤكد فرضية الوحدة، وأنها من كليات الشريعة التي بها حفظ الدين وأهله.
- إن من أجل مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ وحدة الأمة، وقد ثبت ذلك بصريح الأمر وإبتدائه، وأصليه وتبعيه، ولو استقرأ الباحث تفاصيل الشريعة وتتبع أحكامها لوجد أن مقصد الاتحاد والتأليف والاتفاق حاضر في جل الشريعة بل في كلها، فهو من حيث تعلقه بعموم الأمة أكد المقاصد وأسس المصالح، وبه يتحقق حفظ الدين والملة، ورعاية

الوحدة والأمة، وهذا موضوع لم يطرق تتبعاً واستقراء من خلال القرآن الكريم، وهو بحث جدير بالنظر وتحقيق بالدراسة.

- إن وحدة الأمة الإسلامية ضرورة حضارية لتحقيق الشهود الإنساني على البشرية كلها، وسيادة القيم الأخلاقية الإسلامية، وتصحيح مسار الحضارة المادية التي شئت كل قيمة، وغيّت المبادئ والفضائل في مقابل نشر المصالح الدنيوية والمنافع الوهمية والقيم الكونية المزعومة التي تتنافى والفطر السليمة والشيم النبيلة، فالأمة مدعوة لتكون قوامة على البشرية بعد نبينا، وصية على الناس بموازين شريعتها وتربيتها، مكلفة بإظهار الحق الذي معها وتبليغه، وهو مقصد من مقاصد إخراجها، فهي أمة رسالية قاصدة نفع الناس، مبتغية الخير لهم، حريصة على استيعاب الآخرين بحضاراتهم المختلفة، وأنساقهم الثقافية المتنوعة، وألستهم المتباينة، لإرشادهم إلى ما فيه نجاتهم، وهدايتهم إلى ما يحقق صلاحهم ومصالحهم العاجلة والآجلة.

- إن وحدة العقيدة هو أساس وحدة الأمة الإسلامية؛ عليه ينبنى التصور السليم للكون والحياة والإنسان، وبه يتقوم السلوك الإنساني، وينضبط بضوابط الشرع الحكيم، ومما يدل على ذلك أن جل مشتقات لفظ الوحدة أتى في سياق الحديث عن قضايا إيمانية اعتقادية، وأخص هذه القضايا قضية توحيد الله عز وجل وما يتعلق بها.

- لقد عقد الإسلام راية الولاء والمودة والإخاء بين الناس على أساس التوحيد، وأكد هذه الأخوة، وسن لها المنهج الذي لو عملت به لصلحت وأصلحت، ألا وهو كتاب الله والسنة الصحيحة، وهما المرجعية التشريعية للأمة في كل قضاياها واختلافاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والتربوية... ولا تلبث أن تعود إليهما في نهضاتها وهبّاتها عبر التاريخ.

- من الأسس الداعمة لوحدة الأمة وحدة مصيرها، ولعل من لطيف الموافقات أن ورد لفظ: «واحدة» -المشتق من الوحدة- في سياق الحديث عن القيامة وبعض أحوالها وأهوالها،

وذلك في اثنتي عشرة آية، وهي موافقة تعكس البعد العقدي في قضية الوحدة، وتبين أهمية الإيمان بالبعث والحشر والحساب في تحقيق الألفة وتوحيد الأمة.

- لقد ورد ما يمثل عوائق للوحدة في سياق آيات الوحدة نفسها، وهذا على وزان منهج القرآن في المقابلات، وهو منهج بليغ رائق، فقد أفصحت الآيات القرآنية عن مضادات الوحدة، فذكرت كلا من الاختلاف والتفرق والتقطع واتباع الهوى والبغي، وعند تدقيق النظر يظهر ما قد يكون عائقا في نفسه أو علة لغيره... وكلها تشكل عند التدبر عوامل هدم لوحدة الأمة.

هذا ما خلصت إليه من خلال هذا البحث على مستوى بعض النتائج العلمية والمنهجية؛ أما على مستوى الآفاق العلمية التي يفتحها هذا البحث، فيمكن أن أذكر منها:

- إن البحث والتتبع لأحكام الشريعة المقررة في القرآن الكريم، سيمكن من إثبات مقصد وحدة الأمة وألفة الجماعة من وجوه شتى وطرق متنوعة، وهو ما لم يتيسر لي تتبعه في بحثي وتحريري لمباحث هذه الأطروحة، وهو موضوع حقيق بالنظر والتحرير من لدن الباحثين والدارسين.

- إن هناك وشائج عدة بين مفهوم الوحدة ومفاهيم قرآنية أخرى كالتعارف، والتآلف والتأليف، والجمع والإجماع، ورص الصفوف، والاعتصام، والتعاون، والولاء، والأخوة، والمحبة... وهي مفاهيم يمكن تعميق النظر فيها والبحث في سياقات وورودها لينتظم بذلك منظومة مفهومية خادمة لوحدة الأمة، كاشفة عن امتداداتها في القرآن الكريم.

- إن ما أثرته من قضايا وحدة الأمة اقتصر في على ما ورد في سياق آيات الوحدة، والموضوع كثير الذبول إذا تم تتبعه في كل الألفاظ الدالة على الوحدة مفهوما، وهو أكثر طولا وامتدادا إذا تغيب الباحث استقراء أحكام الشريعة واستدراار مكنوناتها وأسرارها؛ إذ سيجد في كل باب فقهي -سواء في العبادات أو في المعاملات- موضوعا متكاملا عن قضية الوحدة، وقل مثل ذلك في باب العقائد وباب الأخلاق، وهذه مشاريع بحثية ينوء بحملها العصبية من الباحثين والدارسين.

- إن الموضوع يحتاج مقارنة بالمنهج نفسه من خلال نصوص السنة النبوية، وهذا ما لم أقف عليه في مسيرة بحثي وتتبعي للموضوع، وهو أمر جدير بالدراسة ليكون ذلك توفية لما لم يبلغه هذا البحث في تجلية وحدة الأمة الإسلامية، فيكون ذلك من تمام النعمة وكمال الرؤية.

ولا يدعي الباحث، بعد ذلك كله، أنه قد بلغ الكمال، وأحاط بموضوعه إحاطة شاملة، بل إنه جهد يقصد من خلاله تقديم دراسة تنشُد العلمية والمنهجية والتكاملية في موضوع وحدة الأمة من خلال القرآن الكريم، ويبقى مجال البحث في هذا الصدد مشرعا للدارسين، لرحابته وغناه.

وفي ختام بحثي هذا، أجدد شكري الخالص لأستاذتي الفاضلة الدكتورة جميلة زيان، سائلا الله جل في علاه أن يحفظها من أي مكروه، وأن يجزيها عني الجزاء الأوفى. كما أسأله سبحانه أن يحقق عملي ما كان يصبو إليه منذ البدء، وأن يوفقني إلى إنجاز ما هو أحسن منه، والحمد لله رب العالمين.



الفهارس

- ✓ فهرس الآيات القرآنية.
- ✓ فهرس الأحاديث النبوية.
- ✓ فهرس المصادر والمراجع.
- ✓ فهرس الموضوعات.

فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	رقمها	الصفحة
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ١٥٠ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ١٥١...﴾	الفاتحة	4	310
﴿وَيُفِيْمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ٢٠٦	البقرة	2	308
﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلّٰهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٢١٧	البقرة	21	66
﴿الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ ٢٤٨	البقرة	26	367
﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ٢٥٨	البقرة	26	366-365
﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ ٢٥٩	البقرة	30	234
﴿قَالَ يٰٓآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ ٢٦٠	البقرة	32	234
﴿وَفَلَنَّا يٰٓآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ ٢٦١	البقرة	34	234
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ ٢٦٢	البقرة	33	234
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ٢٦٣	البقرة	42	308
﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ٢٦٤	البقرة	43	309
﴿وَإِذْ بَرَفْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ٢٦٥	البقرة	49	349
﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يٰٓمُوسَىٰ لَنْ نَّبْرِيَّكَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ ٢٦٦	البقرة	60	-63-37 64
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ...﴾ ٢٦٧	البقرة	82	264-265
﴿أَقْبَلْتُمْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمْ يٰٓكٰٔفِرْتُمْ...﴾ ٢٦٨	البقرة	86	379

391	89-88	البقرة	﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.
348	100	البقرة	﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.
308	109	البقرة	﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿١٠٩﴾﴾.
223	116	البقرة	﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٦﴾﴾.
99-98	123	البقرة	﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴿١٢٣﴾﴾.
319-318	124	البقرة	﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴿٣١٨﴾﴾.
320	124	البقرة	﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴿٣٢٠﴾﴾.
53-37	132	البقرة	﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴿٣٧﴾﴾.
91	133	البقرة	﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴿٩١﴾﴾.
286	135	البقرة	﴿فُولُوا أَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا...﴾.
172-171 92	143	البقرة	﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا...﴾.
319-320	157	البقرة	﴿إِنَّ الصَّبَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَبِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴿٣٢٠﴾﴾.
-54-53 -37-65 250-256	162	البقرة	﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.
366-365 368	165	البقرة	﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿٣٦٥﴾﴾.
264	177	البقرة	﴿بِمَنْ غُمِّي لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ ﴿٢٦٤﴾﴾.

287	284	البقرة	﴿كُلِّمَ امْسَ بِاللّٰهِ وَمَلَكَيْتِهِ وَكُتِبَ عَلَيْهِ وَرُسُلِهِ لَا تُقَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾.
285	3-1	آل عمران	﴿أَلَمْ يَأْتِ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٣١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...﴾.
393-392	19-18	آل عمران	﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَابِإِمًا بِالْفُسْطِ...﴾.
96	19	آل عمران	﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.
389-392	19	آل عمران	﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾.
281-280	28	آل عمران	﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾.
274-164	30	آل عمران	﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا...﴾.
234	33	آل عمران	﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ﴾.
97	39	آل عمران	﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.
234	58	آل عمران	﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ...﴾.
288-159	63	آل عمران	﴿فُلْ يَتَّخِذِ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ...﴾.
255	82	آل عمران	﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٢﴾﴾.
96-91	84	آل عمران	﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.
319-320	97-96	آل عمران	﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ...﴾.
319-313	97	آل عمران	﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾.
122-112	100	آل عمران	﴿إِنْ تُطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ

358-349 -268			﴿إِيْمَانِكُمْ كَالْهَرِيِّ...﴾.
111-109 139-114 177-153 194-178 374-351 346-264	103	آل عمران	﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...﴾.
82-113 115-93 178-74 -353	104	آل عمران	﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ...﴾.
352-178 371-351 133-127 191-144 344-343 120-349 115-121 116	105	آل عمران	﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا...﴾.
121	106	آل عمران	﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ...﴾.
176-93 191	110	آل عمران	﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾.
191	-113 114	آل عمران	﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَآنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ...﴾.
366	127	آل عمران	﴿لِيَقْطَعَ طَرَبًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.
202	152	آل عمران	﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ...﴾.
198-199	167	آل عمران	﴿وَفِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَلِّكُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ إِدْعُوا...﴾.
214	173	آل عمران	﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾.
57-38-1 241-235 254-242	1	النساء	﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾.
163	8	النساء	﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ...﴾.

60	11	النساء	﴿بِإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ إِثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ...﴾.
264	36	النساء	﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾.
159-150	58	النساء	﴿بِإِنْ تَنْزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾.
329	81	النساء	﴿أَقْبَلًا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ...﴾.
331	95	النساء	﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾.
60-311	-100 101	النساء	﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ...﴾.
305	103	النساء	﴿إِنْ الصَّلَاةُ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا ﴿١١٢﴾﴾.
378	134	النساء	﴿بَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ أَنْ تَعْدِلُوا﴾.
280	143	النساء	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكُفْرَى أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾.
-53-37 54	170	النساء	﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ...﴾.
187-161	3	المائدة	﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.
349	25	المائدة	﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.
366	35	المائدة	﴿أَوْ يُصَلُّوا أَوْ يَنْقُطَ أَيْدِيهِمْ﴾.
365	40	المائدة	﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾.
285	46	المائدة	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.
287	46	المائدة	﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا...﴾.
285	48	المائدة	﴿وَفَقَّبْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...﴾.
335-91 61-38 -286	48	المائدة	﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾.

334-330 382-381			
287-289 282-285	50	المائدة	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ...﴾.
384-378	51	المائدة	﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.
280	53	المائدة	﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ...﴾.
216-185	54	المائدة	﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.
279	55	المائدة	﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾.
279	57	المائدة	﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُفِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.
284	58	المائدة	﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٨﴾﴾.
378	72	المائدة	﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيفًا كَذَّبُوا وَقَرِيفًا يَفْتُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.
54-37 257	75	المائدة	﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.
280	83-82	المائدة	﴿تَبَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾.
156	92	المائدة	﴿إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.
161-155	93	المائدة	﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوفَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ...﴾.
66	2	الأنعام	﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.
233	3	الأنعام	﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ...﴾.

54	20	الأنعام	﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾.
82-81 74-101 88	39	الأنعام	﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾.
366	46	الأنعام	﴿بَقِطْعِ دَابِرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.
272	63-61	الأنعام	﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَقَّيْكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ...﴾.
131	90	الأنعام	﴿وَتِلْكَ الْأَنبِيَاءُ الَّتِي هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾.
366-49 368	95	الأنعام	﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾.
57-38 236-235 251	99	الأنعام	﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.
236	100	الأنعام	﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾.
55	103	الأنعام	﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾.
378	150	الأنعام	﴿وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا...﴾.
291	-152 153	الأنعام	﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ...﴾.
291-118	154	الأنعام	﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ...﴾.
292	156	الأنعام	﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَرَكٌَ فَاتَّبِعُوهُ...﴾.
292-116 355-122 356	159	الأنعام	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ...﴾.
344	164	الأنعام	﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
308	29	الأعراف	﴿يَلْبِسْ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ...﴾.
90	32	الأعراف	﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ...﴾.
270	58	الأعراف	﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ...﴾.

38-50-51	69	الأعراف	﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ...﴾.
270	74	الأعراف	﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا...﴾.
366	71	الأعراف	﴿وَفَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنًا...﴾.
270	85	الأعراف	﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا...﴾.
213	111	الأعراف	﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ...﴾.
365	123	الأعراف	﴿لَا قُطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلَفَ﴾.
90	164	الأعراف	﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ...﴾.
368-369	168	الأعراف	﴿وَفَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمَّا...﴾.
384	176	الأعراف	﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا...﴾.
235-57 241-238	189	الأعراف	﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾.
346	41	الأنفال	﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَى الْأَجْمَعُونَ...﴾.
206	44	الأنفال	﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا...﴾.
125-207 3-210 146-124 205	47-46	الأنفال	﴿وَلَا تَنْزِعُوا قَتَبَشْلُوا...﴾.
126	48	الأنفال	﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ...﴾.
208-210	60	الأنفال	﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ...﴾.
210-211	64-63	الأنفال	﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ...﴾.
211	65	الأنفال	﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.
174	74	الأنفال	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾.
283-282	75	الأنفال	﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ...﴾.
264	11	التوبة	﴿بَلَىٰ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ بِإِخْوَانِكُمْ فِي

			الَّذِينَ...
307	18	التوبة	﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ...﴾
282	24-23	التوبة	﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ...﴾
54	31	التوبة	﴿وَمَا أَمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا...﴾
197-4	47	التوبة	﴿لَوْ حَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا...﴾
196	49	التوبة	﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ إِذْنَ لِّي وَلَا تَفْتِنَنِي...﴾
190	67	التوبة	﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ...﴾
190-189 278	72	التوبة	﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...﴾
195	108	التوبة	﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيفًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ...﴾
192	113	التوبة	﴿الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾
365-94 192	123	التوبة	﴿قَلِيلًا نَّبْر من كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَّبِعُوهَا فِي الدِّينِ...﴾
66-338 2-340 149-61 331-330	19	يونس	﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا...﴾
388	23	يونس	﴿يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ...﴾
248	31	يونس	﴿قُلْ مَنْ يَزِرُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾
-91-87 92	47	يونس	﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ...﴾
-82-76 101-99	8	هود	﴿وَلَيْسَ آخِرُنَا عَنْهُمْ الْعَذَابُ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ...﴾
283	46-45	هود	﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ...﴾
284-283	47	هود	﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ...﴾

270-166	61	هود	﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾.
217	79	هود	﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ إِيَّاكُمْ إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾.
216	91	هود	﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَكَ...﴾.
343	117	هود	﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾.
-61-38 330-190 341	118	هود	﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾.
298	2	يوسف	﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِرْعَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾.
60	31	يوسف	﴿وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكًا...﴾.
260	38	يوسف	﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.
-260-46 360	39	يوسف	﴿ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.
-82-76 -100-99 101	45	يوسف	﴿وَاذْكُرْ بَعْدَ ذَلِكَ أُمَّةً﴾.
-361-57 362	67	يوسف	﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنِّي بَابٍ وَاحِدٍ...﴾.
161	100	يوسف	﴿مِنِّي بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.
226	2	الرعد	﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا...﴾.
63-226 228-229 365	4-3	الرعد	﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا...﴾.
226	14-13	الرعد	﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾.
-223-46 248-227	18	الرعد	﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.
367	26	الرعد	﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾.
365	32	الرعد	﴿فُطِئَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾.
298	38	الرعد	﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

300-295	5	إبراهيم	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ...﴾.
319	39	إبراهيم	﴿بِاجْعَلْ أَفِيدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾.
46	50	إبراهيم	﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٥٠﴾﴾.
233	26	الحجر	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾.
233	28	الحجر	﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِيَّةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾.
365	65	الحجر	﴿بَاسِرٍ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْبَلِّ﴾.
269	2	النحل	﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ...﴾.
224	5-3	النحل	﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ...﴾.
101	12	النحل	﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً...﴾.
249	22-17	النحل	﴿أَقَمَنْ يَخْلُقُ كَمَ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ...﴾.
269	36	النحل	﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ...﴾.
224	40	النحل	﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾.
-55-54 250-257	51	النحل	﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِلَّا هِيَ وَإِنَّي...﴾.
158	64	النحل	﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾.
-240 245-241	72	النحل	﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا...﴾.
-80-61 127	93	النحل	﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾.
-298 294-303	103	النحل	﴿لِسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

97	120	النحل	﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً فَايْتَأَ لِلَّهِ حَنِيبًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢)
-50-38 52	46	الإسراء	﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُ، وَلَوَّأَ عَلَىٰ أَذْبُرِهِمْ تُفُورًا﴾ (٤٦)
194-161	53	الإسراء	﴿وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ...﴾ (١٦١)
285	55	الإسراء	﴿وَمَا آتَيْنَا دَاوُودَ رُبُورًا﴾ (٢٨٥)
231	36	الكهف	﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ...﴾ (٢٣١)
164	49	الكهف	﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ (١٦٤)
386	64	الكهف	﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ (٣٨٦)
55	105	الكهف	﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوجِبِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...﴾ (١٠٥)
66	65	مريم	﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (٦٦)
265	97	مريم	﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (٩٧)
183-184	31-25	طه	﴿قَالَ رَبِّ ابْشِرْ لِي صَدْرًا...﴾ (٢٥)
184	35	طه	﴿قَالَ فَذَا أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَلْمُوسِي﴾ (٣٥)
213	59	طه	﴿فَتَوَلَّيْ بَرَعُونَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ، ثُمَّ أَتَى﴾ (٥٩)
213	63	طه	﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آيَتُوا صَبَآءَ﴾ (٦٣)
213	66	طه	﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾ (٦٦)
213	67	طه	﴿فُلْنَا لَا تَخَفِ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (٦٧)
298	110	طه	﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (٢٩٨)
234	112	طه	﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ﴾ (٢٣٤)
234	117	طه	﴿فَقُلْنَا يٰٓأَدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ (٢٣٤)

340	127	طه	﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾.
-223-56 256	22	الأنبياء	﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَقَسَدَتَا...﴾.
-230 257-269	25	الأنبياء	﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوجِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.
225-226 229-228	30	الأنبياء	﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْفًا فَتَفْتَنَهُمَا...﴾.
-61-88 350-122 267-266 313-297 370-131 95-252	92	الأنبياء	﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾.
231-225	5	الحج	﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ...﴾.
365	19	الحج	﴿فُطِئَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن بَارٍ﴾.
319	24	الحج	﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾.
313	25	الحج	﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا...﴾.
314	27-26	الحج	﴿لِيَشْهَدُوا مَنَاجِعَ لَهُمْ...﴾.
314	35-34	الحج	﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾.
168	38	الحج	﴿وَلَوْلَا دِقُّعُ اللَّهِ إِلَيْنَا بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَّهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيَعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ...﴾.
192-95	39	الحج	﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.
388	58	الحج	﴿ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾.
172-173	78-77	الحج	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ...﴾.
313	195	الحج	﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾.

233	12	المؤمنون	﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾.
-62-61 82-95 267-252 122-313 372-132 373	53	المؤمنون	﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ بِاتِّفَاقٍ﴾.
383	72	المؤمنون	﴿وَلَوْ إِبْتِغَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾.
248-249	90-85	المؤمنون	﴿فَلِّمَسِ الْأَرْضِ وَمَن فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ...﴾.
-256-56 257	92	المؤمنون	﴿مَا إِتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ...﴾.
164-163	99	المؤمنون	﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾.
276-136	116	المؤمنون	﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَفْنَاكُمْ غِبْتًا وَآتَاكُمْ مِنَّا لَا تَرْجِعُونَ﴾.
307	36	النور	﴿فِي بُيُوتٍ آذَنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ...﴾.
229	43	النور	﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾.
248	2	الفرقان	﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدَرِهِ تَفْدِيرًا﴾.
56	14	الفرقان	﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.
65-64	32	الفرقان	﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْفُرْقَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً...﴾.
378	43	الفرقان	﴿أَرَأَيْتَ مَنِ إِتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ...﴾.
240-1	54	الفرقان	﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا...﴾.
278	77-75	الشعراء	﴿أَفَبَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ...﴾.
66	98-97	الشعراء	﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَمِيزٌ ضَلَالٍ مُّبِينٍ...﴾.
298	-192 195	الشعراء	﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾.

275	3-1	النمل	﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْفُرْعَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ...﴾.
217	51	النمل	﴿قَالُوا تَفَاسَّمُوا بِاللَّهِ لِنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ...﴾.
224	90	النمل	﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.
360-195	3	القصص	﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ...﴾.
146	14	القصص	﴿بَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾.
89-87	22	القصص	﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسَفُونَ ﴿٢٢﴾﴾.
183	32-31	القصص	﴿وَأَن أَلِيَّ عَصَاكَ...﴾.
183	34-33	القصص	﴿فَأَرْسَلَهُ مَعَهُ رِدَاً يُصَدِّقُنِي...﴾.
184-186	35	القصص	﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ...﴾.
383	50	القصص	﴿بَلَى لَّمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾.
164	61	القصص	﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْفَيْلَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾.
388	76	القصص	﴿إِنَّ فَارُوقَ كَانَ مِّنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ بَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.
275	83	القصص	﴿تِلْكَ أَلْدَارُ الْأَخِرَةِ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ غُلُوًّا فِي الْأَرْضِ...﴾.
274-272	88	القصص	﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا - آخَرَ...﴾.
270	15	العنكبوت	﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ...﴾.
288-304	46-45	العنكبوت	﴿آتِلْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ...﴾.
273	57	العنكبوت	﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِفَةٌ الْمَوْتِ...﴾.
231-232 244-242 241	21-19	الروم	﴿وَمِنَ - آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ...﴾.
121-3-4 133	29-31	الروم	﴿بِأَفْئَمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا...﴾.
275	4-1	لقمان	﴿أَلَمْ تَلَمْ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ...﴾.
343	12	لقمان	﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

251	27	لقمان	﴿مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾.
233	6	السجدة	﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ...﴾.
273	11	السجدة	﴿قُلْ يَتَوَفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ...﴾.
199	18	الأحزاب	﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّفِينَ مِنْكُمْ...﴾.
277	21	الأحزاب	﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾.
248	3	فاطر	﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾.
194	6	فاطر	﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا...﴾.
231	11	فاطر	﴿وَاللَّهُ خَلَفَكُمْ مِنْ تَرْابٍ...﴾.
92	24	فاطر	﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٩٢﴾﴾.
228	28-27	فاطر	﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً...﴾.
307-263	11	يس	﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ﴾.
186-48	13-12	يس	﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ...﴾.
186	20-19	يس	﴿وَجَاءَ مِنْ أَفْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى...﴾.
58	28	يس	﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً...﴾.
58	48	يس	﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً...﴾.
58	52	يس	﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً...﴾.
224	83-82	يس	﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ...﴾.
250	5-4	الصفات	﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٤﴾﴾.
58	19	الصفات	﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ...﴾.
204	-103 104	الصفات	﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ...﴾.
51	4	ص	﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا...﴾.

58	14	ص	﴿وَمَا يَنْظُرُ هَتَؤُلَاءِ إِلَّا صَيَّحَةً وَاحِدَةً...﴾.
60	22	ص	﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً...﴾.
46	64	ص	﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِثْلُ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٤﴾﴾.
46-45	5	الزمر	﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.
235-58 241-238	7	الزمر	﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾.
298	27	الزمر	﴿فَرَأَى أَنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾.
50-38	42	الزمر	﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.
248	60-59	الزمر	﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ...﴾.
50-38 52-51	11	غافر	﴿ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَبَرْتُمْ﴾.
46	15	غافر	﴿لَمِ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٥﴾﴾.
231-232 251	68-67	غافر	﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ...﴾.
50-38	83	غافر	﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾.
298-295	2	فصلت	﴿كِتَابُ بُصِّلَتْ - آيَتُهُ، فَرَأَى أَنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾﴾.
188	33	فصلت	﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ...﴾.
294	1	الشورى	﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾.
298-294	5	الشورى	﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فَرَأَى أَنَا عَرَبِيًّا...﴾.
62-61	6	الشورى	﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾.
159	8	الشورى	﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ بِحُكْمِهِ إِلَى اللَّهِ﴾.
66	9	الشورى	﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.
139-130 353-348 261-389	13-11	الشورى	﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا...﴾.

336-269 355			
128	14	الشورى	﴿وَمَا تَعْرَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ﴾.
387	39	الشورى	﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ...﴾.
298	2	الزخرف	﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ فُرْعَانًا عَرَبِيًّا﴾.
73	3	الزخرف	﴿وَإِنَّهُ فِي حَقِّ الْكِتَابِ﴾.
-88-82 -101-96 -95-74 96	22-21	الزخرف	﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ...﴾.
48	30	الزخرف	﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْفُرْعَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّ عَظِيمٍ﴾.
61	32	الزخرف	﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾.
269	45	الزخرف	﴿وَسُئِلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا...﴾.
136	37-36	الدخان	﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ...﴾.
389-392	16-15	الجاثية	﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ...﴾.
273	25	الجاثية	﴿فَلِإِلَهِ يَحْيِيكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ...﴾.
261	8	الأحقاف	﴿فَلِ مَا كُنْتَ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ...﴾.
298	11	الأحقاف	﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا...﴾.
365	16	محمد	﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿٦٦﴾﴾.
365-367	23	محمد	﴿بَهْلٍ عَسِيتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...﴾.
184-185 216	29	الفتح	﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ...﴾.
388	9	الحجرات	﴿بَلْإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ بَفْتَلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَمُوتَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾.
263-262 297-279	10	الحجرات	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾.
264	12	الحجرات	﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا...﴾.

237-144 161	13	الحجرات	﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ...﴾.
267	14-12	ق	﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ...﴾.
277	22	ق	﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا...﴾.
273	42	ق	﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾.
146	26	الذاريات	﴿فِرَاحٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ بِجَآءٍ بَعْجَلٍ سَمِيعٍ ﴿٢٦﴾﴾.
259	56	الذاريات	﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾.
376	23	النجم	﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ...﴾.
273	41	النجم	﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴿٤١﴾﴾.
47	24	القمر	﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّثَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ...﴾.
59	31	القمر	﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً...﴾.
59	50	القمر	﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾.
233	12	الرحمن	﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِمَّ صَلَاسٍ كَالْبَجَارِ ﴿١٢﴾﴾.
365	35	الواقعة	﴿لَا مَفْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٥﴾﴾.
136	25	الحديد	﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ...﴾.
282	21	المجادلة	﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾.
365	5	الحشر	﴿مَا فَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ﴾.
263	10	الحشر	﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْمِرْ لَنَا وَإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾.
214	14-13	الحشر	﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ...﴾.
50-39 277	4	المتحنة	﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا...﴾.
185	8	المتحنة	﴿لَا يَنْهَيْكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُفْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ...﴾.

201-169 207-202 210	4	الصف	﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَبًا كَأَنَّهُمْ بُنَيَّ مَرْضُوصٌ﴾.
184	14	الصف	﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.
273	8	الجمعة	﴿قُلْ إِنْ أَلَمْتُ أَلِذِي تَعْرِثُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلْفِيكُمْ...﴾.
306	9	الجمعة	﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ...﴾.
48	6	التغابن	﴿أَبَشِّرْ يَهُدُونََنَا﴾.
227	3	الملك	﴿مَا تَبَرَّى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَقْوَةٍ﴾.
277	43	القلم	﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾.
59	12	الحاقة	﴿بِإِذَا نُبِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾.
59	13	الحاقة	﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾.
5-6	2-1	الجن	﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾.
39-49	11	المدثر	﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَفْتُ وَحِيدًا﴾.
273	29	القيامة	﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَافُ﴾.
59	14-13	النازعات	﴿بِإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ...﴾.
213	24-20	النازعات	﴿فَأَبْرِئِهِ الْآيَةَ الْكُبْرَى...﴾.
263	44	النازعات	﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾.
223	1	العلق	﴿إِفْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.
348	4	البينة	﴿وَمَا تَقْرَءُ الَّذِينَ ءَاثَرُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾.
256	1	الإخلاص	﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة	طرف الحديث
309	استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم...
309	أقيموا الصفوف، وحاذوا بين المناكب...
5	ألا إنها ستكون فتنة...
246	إن إبليس يضع عرشه على الماء...
385	إن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل.. (عن علي رضي الله عنه).
352	إن الله يرضى لكم ثلاثاً، ويكره لكم ثلاثاً...
237	إن أمة قدمت علي راغبة وهي مشركة أفصلها...
131-130	إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي...
63	الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى...
346	البيعان بالخيار...
385	ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات...
291	كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم...
31	لو يعلم الناس ما في الوحدة...
74	لولا أن الكلاب أمة لأمرت بقتلها...
30	مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم...
108	مثل المؤمنين في توادهم، وتراحهم...
262	المسلم أخو المسلم، لا يظلمه...
308	من أكل ثوماً أو بصلاً، فليعتزلنا...
357	مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا...
156	ولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا...

فهرس المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم برواية ورش.

كتب التفسير والدراسات القرآنية.

- (1) أحكام القرآن لابن العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة، 1424هـ - 2003م.
- (2) أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص، تحقيق: محمد صادق القمحاوي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، طبعة: 1412هـ - 1992م.
- (3) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي (ت: 982هـ)، تحقيق: حسن أحمد مرعي - محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
- (4) الأساس في التفسير، لسعيد حوى (ت: 1409هـ)، دارالسلام - القاهرة، الطبعة السادسة 1424هـ.
- (5) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، وقف: مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية، دار عالم الفوائد، الطبعة الثانية: 1400هـ - 1980م.
- (6) الاعتصام، للشاطي، تحقيق هشام بن إسماعيل الصيني، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى 1429هـ - 2008م.
- (7) إعراب القرآن وبيانه لمصطفى درويش، (دار الإرشاد للشؤون الجامعية - حمص - سورية)، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت) الطبعة السابعة: 1420هـ - 1999م.
- (8) الأمة في دلالتها العربية والقرآنية لأحمد حسن فرحات، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى: 1403هـ - 1983م.
- (9) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى - 1418هـ.
- (10) بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي، تحقيق: علي محمد عوض، عادل أحمد عبد الموجود، زكرياء النوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 1413هـ - 1993م.

- (11) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأنديلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض. شارك في التحقيق: زكريا عبد المجيد النوتي وأحمد الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1413هـ - 1993م.
- (12) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة الفاسي، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، سنة الطبع: 1419 هـ - 1999م.
- (13) بدائع التفسير الجامع لما فسرهُ ابن القيم جمع وتخرّج: يسري السيد محمد، مراجعة وتنسيق: صالح أحمد الشامي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1427هـ.
- (14) البرهان في نظام القرآن، محمد عناية الله أسد سبحاني، قدم له: محمد أديب الصالح، وأبو الحسن الندوي، ومصطفى مسلم، دار الكتب، الطبعة الأولى: 1414هـ/1994م.
- (15) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: 817هـ)، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي -، القاهرة، طبعة 1416هـ-1996م.
- (16) تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: 276هـ)، شرحه ونشره: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث القاهرة، الطبعة الثانية: 1393هـ - 1973م.
- (17) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر - تونس، طبعة: 1984 هـ.
- (18) تحصيل نظائر القرآن للحكيم الترمذي، تحقيق: حسني نصر زيدان، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى: 1389هـ-1969م.
- (19) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الغرناطي، تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، ضبط وتصحيح: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1415هـ-1995م.
- (20) التفسير الحديث، ترتيب السور حسب النزول لمحمد عزت دروزة. دار الغرب الإسلامي، بيروت. الطبعة الثانية: 1421هـ - 2000م.
- (21) تفسير القرآن الحكيم، المعروف بتفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: 1990م.
- (22) تفسير القرآن العزيز، لابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، مصر - القاهرة، الطبعة الأولى: 1423هـ - 2002م.
- (23) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية: 1420هـ - 1999م.
- (24) التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب. دار الفكر العربي، القاهرة. 868/9.

- (25) تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى: 1365 هـ - 1946م.
- (26) التفسير الموضوعي والفلسفة الاجتماعية في المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، تقديم وتعليق: جلال الدين علي الصغير، الدار العالمية، بيروت، ط: 1، 1409هـ/1989م.
- (27) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمحمد سيد طنطاوي، دار نخضة مصر - القاهرة، الطبعة الأولى 1997م.
- (28) التفسير الوسيط، لمجموعة من العلماء، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى 1393هـ - 1973م.
- (29) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1420 هـ - 2000م.
- (30) التيسير في أحاديث التفسير لمحمد المكي الناصري، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1405 هـ - 1985م.
- (31) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع: مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية، دار هجر، الطبعة الأولى: 1422 هـ - 2001م.
- (32) جامع البيان في تفسير القرآن للإيجي، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى: 1424 هـ - 2004م.
- (33) الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان للقرطبي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، شارك في تحقيق هذا الجزء محمد رضوان عرقسوسي، ماهر حبوش، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1427 هـ - 2006م.
- (34) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1418 هـ - 1997م.
- (35) حجة القراءات، لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة (ت: 403هـ)، تحقيق: سعيد الأفغاني. بيروت. مؤسسة الرسالة. الطبعة الخامسة، 1418 هـ - 1997م.
- (36) الخواطر لمحمد متولي الشعراوي (ت: 1418هـ)، مطابع أخبار اليوم.
- (37) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون لأحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي (ت: 756هـ). تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.
- (38) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، دار الفكر بيروت.
- (39) دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم زاهر بن عواض الأملعي الطبعة الرابعة: 1428هـ/2007م، الرياض. ص: 11.
- (40) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، تعليق: محمود محمد شاكر. مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني بمصر.

- (41) روح البيان، لإسماعيل حقي بم مصطفى الإستانبولي الحنفي (ت: 1127هـ)، دار الفكر - بيروت.
- (42) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، لأبي الفضل شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: 1270هـ)، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى 1415هـ.
- (43) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة: الثالثة: 1404هـ - 1984م.
- (44) زهرة التفاسير لأبي زهرة، دار الفكر العربي. بدون تاريخ.
- (45) غرائب القرآن و رغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1416هـ - 1996م.
- (46) فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق خان القنوجي، عني بطبعه وقدم له وراجعته: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، عام النشر: 1412هـ - 1992م.
- (47) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية للشوكاني، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، الطبعة الأولى: 1414هـ -
- (48) في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي (ت: 1385هـ). دار الشروق. الطبعة الثانية والثلاثون: 1423هـ - 2003م.
- (49) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبد الرحمن حنبكة الميداني دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، 1989.
- (50) الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التويل للزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد عوض، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى: 1418هـ - 1998م.
- (51) كيف نتعامل مع القرآن محمد الغزالي في مدرسة أجزاها عمر عبید حسنة، دار نهضة مصر، الطبعة الثالثة عشر: 2012م.
- (52) لباب التأويل في معاني التنزيل لأبي الحسن علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي، الشهير بالخازن (ت: 725هـ)، ضبطه وصححه: عبد السلام محمد علي شاهين، محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1425هـ - 2004م.
- (53) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: محمد سعد رمضان حسن - محمد المتولي الدسوقي حرب، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1419هـ - 1998م.
- (54) مباحث في التفسير الموضوعي مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة: 1421هـ/2000م.
- (55) محاسن التأويل للقاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى: 1376هـ - 1957م.

- (56) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1422 هـ - 2001 م.
- (57) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1419 هـ - 1998 م.
- (58) المدخل إلى التفسير الموضوعي إبراهيم بن صالح الحميضي، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1437 هـ.
- (59) المرشد إلى فهم آيات القرآن، محمود فواز العقيل، دار الفكر، بيروت - لبنان، طبعة: 1414 هـ - 1994 م.
- (60) معالم التنزيل في تفسير القرآن لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: 516 هـ)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1409 هـ - 1989 م.
- (61) معاني القرآن وإعراجه، للزجاج، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1408 هـ - 1988 م.
- (62) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير لفخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1401 هـ - 1981 م.
- (63) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: مركز الدراسات والبحوث، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- (64) مفهوم الأمة في القرآن الكريم والحديث الشريف لعبد الكبير حميدي، دار السلام، الطبعة الأولى: 1431 هـ - 2000 م.
- (65) منهجية البحث في المصطلح القرآني من الدراسة المصطلحية إلى التفسير الموضوعي، جميلة زيان الطبعة الأولى: 2014/2013 م.
- (66) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة، 1404 هـ - 1984 م.
- (67) النكت والعيون للماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
- (68) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب القيسي، مجموعة رسائل جامعية، قام بتدقيقها ومراجعتها مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى: 1429 هـ - 2008 م.
- (69) الوجيز في تفسير

- (70) الكتاب العزيز لأبي الحسن الواحدي النيسابوري، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، الطبعة الأولى: 1415هـ - 1995م.
- (71) الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود. علي محمد معوض - أحمد محمد صبرة - عبد الرحمن عويس. قدمه: عبد الحي الفرماوي. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى: 1415هـ - 1994م.

كتب الحديث والسيرة.

- (72) سنن أبي داود، تعليق ناصر الدين الألباني، اعتنى به مشهور بن حسن سلمان، مكتبة المعارف الرياض، الطبعة الأولى.
- (73) الجامع الصحيح لابي عيسى محمد بن سورة الترمذي، اعتنى به: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض. الطبعة الأولى.
- (74) سيرة ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلي، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.
- (75) شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق ومراجعة عبد العلي عبد الحميد، مكتبة الرشد بالرياض مع الدار السلفية بالهند، الطبعة الأولى 1423هـ 2003م.
- (76) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه لمحمد بن إسماعيل البخاري، قام على نشره: علي بن حسن الحلبي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة. طبعة: 2006م.
- (77) صحيح مسلم، مكتبة الرشد، الرياض - المملكة العربية السعودية، طبعة: 1422هـ - 2001م.
- (78) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز بن باز. ترقيم وتبويب: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة: 1424هـ - 2004م.
- (79) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، دار المعرفة، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية: 1391هـ - 1972م.
- (80) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حيث رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1421هـ - 2001م.
- (81) مصنف ابن أبي شيبة تحقيق: محمد عوامة، شركة دار قرطبة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1427هـ - 2006م.

- (82) المعجم الكبير، لأبي القاسم الطبراني (ت: 360هـ)، تحقيق حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.
- (83) المنهاج في شرح صحيح مسلم للنووي، بيت الأفكار الدولية، الأردن، بدون تاريخ.
- (84) النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين بن الأثير (ت: 606هـ)، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، 1399هـ - 1979م.
- (85) فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة لمحمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ودار الفكر، دمشق، سورية. الطبعة الحادية عشر: 1412هـ - 1991م.

كتب اللغة والمعاجم

- (86) أساس البلاغة، للزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1419هـ - 1998م.
- (87) أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد، لسعيد الخوري الشرتوني اللبناني، مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، 1403هـ. ص: 1432.
- (88) تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، راجعته: لجنة فنية من وزارة الإعلام بالكويت، مطبعة حكومة الكويت، 1391هـ - 1971م.
- (89) التعريفات للجرجاني، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار النفائس، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1424هـ - 2003م.
- (90) التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية للصغاني، تحقيق: إبراهيم إسماعيل الأبياري، راجعه محمد خلف الله أحمد، مطبعة دار الكتب - القاهرة، السنة: 1391هـ - 1971م.
- (91) تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، مراجعة: علي محمد البيحاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- (92) تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت: 370هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكاتب العربي، طبعة: 1967م.
- (93) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي القاهري، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، عالم الكتب - القاهرة، الطبعة الأولى: 1410هـ - 1990م.
- (94) المجلس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي لأبي الفرج المعافى الجريري، تحقيق: محمد مرسي الخولي وإحسان عباس، عالم الكتب، الطبعة الأولى: 1413هـ - 1993م.

- (95) الحدود الأنيفة والتعريفات الدقيقة لتركيباء بن محمد بن أحمد الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى: 1411هـ.
- (96) درة الغواص في أوهام الخواص، لأبي محمد الحريري البصري، تحقيق: عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1418هـ - 1998م.
- (97) دستور العلماء، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون للقاضي الأحمد نكري، عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية - لبنان - بيروت، الطبعة الأولى: 1421هـ - 2000م.
- (98) ديوان أبي دؤاد الإياديّ نشر ضمن دراسات في الأدب العربي، ترجمة إحسان عباس، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، الطبعة الأولى: 1959م.
- (99) ديوان الأعشى الكبير لميمون بن قيس، شرح وتعليق: محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، د ط، د ت.
- (100) ديوان الطغرائي، تحقيق علي جواد الطاهر ويحيى الجبوري، مطابع الدوحة الحديثة، قطر، طبعة: 1986م.
- (101) ديوان النابغة الذبياني، لصنعة ابن السكيت، تحقيق: شكري فيصل، دار الفكر، د ط، د ت.
- (102) الزاهر في معاني كلمات الناس للأنباري. تحقيق: حاتم صالح الضامن، إعتنى به: عز الدين البدوي النجار، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى: 1412هـ - 1992م.
- (103) الزينة في الكلمات الإسلامية العربية لأبي حاتم الرازي، تحقيق: حسين بن فيض الله الهمداني اليمني الحرازي، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، الطبعة الأولى: 1415هـ - 1994م.
- (104) شرح أشعار الهذليين لصنعة السكري، تحقيق عبد الستار فراج، ومراجعة محمود محمد شاكر، دار العروبة، القاهرة، طبعة: 1384هـ - 1965م.
- (105) شرح الرضي لكافية ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: يحيى بشير مصري، الإدارة العامة للثقافة والنشر بالجامعة، الطبعة الأولى: 1417هـ - 1996م.
- (106) شرح ديوان أبي نواس ضبط معانيه وشرحه: إيليا الحاوي، الشركة العالمية للكتاب، د ط، 1987م.
- (107) شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد الأصفهاني، تحقيق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 1424هـ - 2003م.
- (108) شرح هاشميات الكميت لأبي ريش أحمد بن إبراهيم القيسي، تحقيق: داود سلوم ونوري حمود القيسي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية: 1406هـ - 1986م.
- (109) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها لابن فارس، علق عليه ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1418هـ - 1997م.

- (110) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة: 1990م.
- (111) الصعقة الغضبية في الرد على منكري العربية، لنجم الدين الطوفي (ت: 716هـ) دراسة وتحقيق: محمد بن خالد الفاضل، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الطبعة الأولى: 1434هـ - 2013م.
- (112) العين مرتبا على حروف المعجم للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1424هـ - 2003م.
- (113) القاموس المحيط للفيروز آبادي، وبهامشه تعليقات وشروح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، السنة: 1400 هـ - 1980م.
- (114) الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة: 1408 هـ - 1988م.
- (115) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية للكفوي، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية: 1419هـ - 1998م.
- (116) لا وجوه ولا نظائر في كتب الوجوه والنظائر لعبد الجبار فتحى زيدان، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، طبعة: 1971م.
- (117) لسان العرب لابن منظور، تحقيق: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة: 1419هـ - 1999م.
- (118) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1421 هـ - 2000 م.
- (119) محيط المحيط قاموس مطول للغة العربية لبطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة: 1987م.
- (120) مختار الصحاح لأبي بكر بن عبد القادر الرازي، المطبعة الكلية، مصر. الطبعة الأولى: 1329هـ.
- (121) المستقصى في علم التصريف لعبد اللطيف محمد الخطيب، مكتبة دار العروبة.
- (122) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي (ت: 770هـ)، تحقيق: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، الطبعة الثانية.
- (123) معجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للبحوث وإحياء التراث، القاهرة - مصر. طبعة: 1409هـ - 1988م.
- (124) معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عبد الحميد، عالم الكتب، الطبعة الأولى: 1429هـ - 2008م.
- (125) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لمحمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث القاهرة، طبعة: 1428هـ - 2007م.
- (126) المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة: 1425هـ - 2004.

- (127) معجم متن اللغة لأحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، عام النشر: 1377هـ - 1960م.
- (128) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة: 1399هـ - 1979م.
- (129) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناتي، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الأولى: 1996م.

كتب الأصول والمقاصد.

- (130) الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، تعليق عبد الرزاق عفيفي، دار الصميعي المملكة العربية السعودية الرياض، الطبعة الأولى: 1424هـ - 2003م.
- (131) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، دمشق - كفر بطنا، قدم له: الشيخ خليل الميس والدكتور ولي الدين صالح فرفور، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى: 1419هـ - 1999م.
- (132) أصول السرخسي لأبي بكر أحمد بن أبي سهل السرخسي (ت: 490 هـ)، حقق أصوله أبو الوفا الأفغاني نشر لجنة إحياء المعارف النعمانية بالهند، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة الأولى: 1414هـ - 1993م.
- (133) إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: 1411هـ - 1991م.
- (134) البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي، قام بتحريره: عبد القادر عبد الله العاني، راجعه: عمر سليمان الأشقر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الثانية، 1413هـ - 1992م.
- (135) حجة الله البالغة لشاه ولي الله ابن عبد الرحيم الدهلوي (ت: 1176هـ)، تحقيق: السيد سابق، الناشر: دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، الطبعة الأولى: 1426هـ - 2005م.
- (136) الحرام في الشريعة الإسلامية فقهه وضوابطه وتطبيقاته المعاصرة لقطب الريسوني. دار ابن حزم. الطبعة الأولى: 1432هـ - 2011م.
- (137) الرسالة للشافعي (ت: 204هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى: 1357هـ - 1938م.
- (138) شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول للقرافي، إعتناء: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت - لبنان، طبعة: 1424هـ - 2004م.

- (139) ضوابط اعتبار المقاصد في مجال الاجتهاد وأثرها الفقهي " لعبد القادر بن حرز الله، مكتبة الرشد، الرياض - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1428هـ - 2007م.
- (140) طرق الكشف عن مقاصد الشارع لعثمان جعيم، دار النفائس - الأردن. الطبعة الأولى: 1422هـ - 2002م.
- (141) الفوائد في اختصار المقاصد أو القواعد الصغرى للعز بن عبد السلام، تحقيق: إيداد خالد الطباع، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق - سورية. الطبعة الأولى: 1416هـ - 1996م.
- (142) قواطع الأدلة في الأصول لأبي المظفر السمعاني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1418هـ - 1999م.
- (143) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام، تحقيق: نزيه كمال حماد، عثمان جمعة ضميرية، دار القلم - دمشق، الطبعة الأولى: 1421هـ - 2000م.
- (144) المستصفي للغزالي، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1993م.
- (145) مقاصد الشريعة الإسلامية تأصيلاً وتفصيلاً لمحمد بكر إسماعيل حبيب، دعوة الحق، العدد: 213، العام: 1427هـ.
- (146) مقاصد الشريعة الإسلامية للطاهر بن عاشور، تحقيق محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن. الطبعة الثالثة: 1432هـ - 2011م.
- (147) مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، لمحمد سعد البيوي، دار ابن الجوزي - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: 1429هـ.
- (148) المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي لفتحي الدريني، مؤسسة الرسالة، دمشق - سوريا، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة: 1434هـ - 2013م.
- (149) الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى: 1417هـ - 1997م.
- (150) نثر الورود شرح مراقبي السعود لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت: 1393هـ)، تحقيق علي بن محمد العمران، الناشر مؤسسة سليمان بن عبد العزيز الراجحي الخيرية، دار علم الفوائد للنشر والتوزيع.
- (151) نور البصر في شرح مقدمة المختصر لأبي العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي، طبعة حجرية، 1309هـ.
- (152) الوجيز في أصول الفقه لوهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق - سوريا، الطبعة الثالثة عشر: 1429هـ - 2008م.

كتب العقيدة والفكر.

- (154) أدب التخاطب، لأبي عبد الله مصطفى بن العدوي، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى: 1420هـ - 1999م.
- (155) أدب الدنيا والدين للماوردي، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، الناشر: دار اقرأ، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة: 1405هـ - 1985م.
- (156) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصل الاعتقاد للجويني، تحقيق: محمد يوسف موسى وآخر. مكتبة الخانجي مصر. سنة الطبع: 1369هـ.
- (157) الأزمة الفكرية ومناهج التغيير الآفاق والمنطلقات لطفه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، طبعة: 1401هـ - 1981م.
- (158) الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية، لأبي الحسن الندوي. دار الصحوة. الطبعة الأولى: 1406هـ - 1986م.
- (159) اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: 1420هـ - 1999م.
- (160) الإيمان لابن تيمية. خرج أحاديثه: ناصر الدين الألباني، إشراف: أمير شاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة: 1416هـ - 1996م، بيروت.
- (161) تجريد التوحيد المفيد لأحمد علي المقرئ (ت: 845 هـ) تحقيق: علي بن محمد العمران. دار الصميعة، المملكة العربية السعودية، الرياض. الطبعة الثالثة: 1436هـ - 2015م.
- (162) الحجاب لأبي الأعلى المودودي، تعريب محمد كاظم السباق، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، 1384هـ - 1964م.
- (163) الحضارة فريضة إسلامية لمحمود حمدي زقزوق. ملحق بمجلة الأزهر تصدر عن مجلة البحوث الإسلامية، رجب: 1438هـ - أبريل: 2017م.
- (164) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل - بحث في جدلية النص والعقل والواقع، لعبد المجيد النجار، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرنند - فرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الثانية: 1414هـ - 1993م.
- (165) السنن الاجتماعية ومنطق التدافع والتعارف الحضاري لأبي عبيد صالح الازدهار، دار الكلمة، طبعة سنة: 2014م.

- 166) شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار الهمذاني. تحقيق: عبد الكريم عثمان. مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الثانية: 1408هـ.
- 167) ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ لعبد الرحمن حنبكة الميداني. دار القلم دمشق الطبعة الأولى: 1414هـ.
- 168) العقيدة الإسلامية وأسسها، لعبد الرحمن حنبكة الميداني، دار القلم - دمشق الطبعة الرابعة عشر: 1430هـ - 2009م.
- 169) لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة للجويني، تحقيق: فوقية حسين محمود، مراجعة التحقيق: محمود الخضيرى، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية: 1407هـ - 1987م.
- 170) مبادئ الإسلام لأبي الأعلى المودودي (ت: 1399هـ)، مكتبة الشباب المسلم، ترجمه محمد عاصم الجواد، الطبعة الثالثة، 1381هـ، 1961م.
- 171) منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية وال عمران لفتحي حسن ملكاوي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرنند - فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، الطبعة الأولى: 1434هـ - 2013م.
- 172) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم لمحمد سعيد رمضان البوطي، الناشر: دار الفكر المعاصر، طبعة: 1401هـ - 1981م.
- 173) نحن والحضارة والشهود نعمان عبد الرزاق السامرائي. "كتاب الأمة" سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر العدد: 81، محرم: 1422هـ، الطبعة الأولى.
- 174) واقعنا المعاصر لمحمد قطب، دار الشروق، القاهرة. الطبعة الأولى: 1418هـ - 1997م.

مصادر ومراجع أخرى

- 175) الأعلام، لخير الدين للزركلي (ت: 1396هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر 2002م.
- 176) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد.
- 177) خلق المسلم لمحمد الغزالي، دار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى، 1408هـ - 1987م.
- 178) الداء والدواء لابن القيم. تحقيق: محمد أجمل الأصلحي، تخريج زائد بن أحمد النشيري، إشراف: بكر أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد.
- 179) سير أعلام النبلاء، للذهبي، دار الحديث القاهرة، طبعة 1427هـ - 2006م.
- 180) صلاة الجماعة حكمها وأحكامها، لصالح بن غانم السدلان، دار بلنسية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة: 1416هـ.

- 181) الفروسية المحمدية لابن القيم، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد — مكة المكرمة، الطبعة الأولى: 1428هـ.
- 182) كتاب صلاة الجماعة مفهوم وفضائل وأحكام وآداب في ضوء الكتاب والسنة، لسعيد بن وهف القحطاني، مطبعة سفير، الرياض.
- 183) مجموع الفتاوى، لابن تيمية، تحقيق عبد الرحمان بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، طبعة 1416هـ - 1995م.
- 184) مدارج السالكين، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط، اعتنى به: مصطفى شيخ مصطفى. مؤسسة الرسالة، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى: 1414هـ - 2013م.
- 185) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لعبد الرحمان بن محمد الأنباري (ت: 577هـ)، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الرقء — الأردن، الطبعة الثالثة 1405هـ - 1985م.

المجلات.

- 186) اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن الكريم: دلالاته الحضارية لعبد الرحمن حللي، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد: 27. العدد الثالث: 2011.
- 187) مجلة حراء: مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين من اسطنبول. العدد: 33 بتاريخ: نوفمبر - ديسمبر: 2012م.
- 188) "الاختلاف في المجال الإسلامي تأصيلاً وتديراً"، إعداد مجموعة من الباحثين، تنسيق عبد المجيد الصغير، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية مؤسسة دار الحديث الحسنية، الطبعة الأولى 1432هـ/2011م.
- 189) وحدة الأمة الإسلامية في السنة النبوية لأحمد عمر هاشم، بحث مقدم للملتقى الأول للعلماء المسلمين تحت عنوان: وحدة الأمة الإسلامية في مكة المكرمة، مطابع رابطة العالم الإسلامي، الطبعة الأولى: 1427هـ - 2006م.
- 190) وحدة الأمة في القرآن الكريم، تفسير موضوعي، للدكتور خالد الزهراني، حولية مركز البحوث والدراسات الإسلامية، العدد 23، السنة السابعة.



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة.....	01
الباب الأول: وحدة الأمة: تعريف مصطلحي	20
توطئة.....	21
الفصل الأول: مفهوم مصطلح الوحدة.....	23
المبحث الأول: تعريف الوحدة في اللغة.....	23
المبحث الثاني: تعريف الوحدة في الاصطلاح.....	32
المبحث الثالث: مفهوم الوحدة في القرآن الكريم.....	36
الفصل الثاني: مفهوم مصطلح الأمة.....	70
المبحث الأول: تعريف الأمة في اللغة.....	70
المبحث الثاني: تعريف الأمة في الاصطلاح.....	77
المبحث الثالث: مفهوم الأمة في القرآن الكريم.....	83
المبحث الرابع: مفهوم وحدة الأمة.....	102
مدخل إلى التفسير الموضوعي.....	104
الباب الثاني: وحدة الأمة الإسلامية: الأهمية والسبل والمقاصد.....	105
الفصل الأول: أهمية وحدة الأمة الإسلامية.....	106
توطئة.....	107
المبحث الأول: وحدة الأمة الإسلامية فريضة شرعية.....	108
المطلب الأول: الأمر بالاجتماع والحث على التآلف.....	108
المطلب الثاني: النهي عن الفرقة والتحذير من التشرذم.....	114
المطلب الثالث: بيان مآلات التفرق والتشتت.....	120
المطلب الرابع: الوحدة غاية البعثة.....	130
المطلب الخامس: الفرقة منهاج حياة غير المسلمين.....	133
المبحث الثاني: وحدة الأمة الإسلامية مقصد شرعي.....	136
المطلب الأول: مجرد الأمر والنهي الابتدائي التصريحي.....	139

142	المطلب الثاني: الأمر والنهي التصريحي التبعي.....
146	المطلب الثالث: اعتبار علل الأمر والنهي.....
153	المطلب الرابع: وصف الشيء بالخير والحسن.....
155	المطلب الخامس: المناسبة.....
158	المطلب السادس: القصد التبعي الضمني.....
163	المبحث الثالث: وحدة الأمة الإسلامية مطلب حضاري.....
166	المطلب الأول: الوحدة أساس العمران الحضاري.....
168	المطلب الثاني: الوحدة ضرورة لتحقيق التدافع الحضاري.....
171	المطلب الثالث: الوحدة ضرورة لتحقيق الشهود على الناس.....
176	المطلب الرابع: الوحدة أهم وسائل الشهود الحضاري.....
181	الفصل الثاني: سبل وحدة الأمة الإسلامية ومقاصدها.....
182	توطئة.....
183	المبحث الأول: سبل تحقيق وحدة الأمة.....
183	المطلب الأول: الدعوة إلى الله.....
189	المطلب الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.....
194	المطلب الثالث: درء الفتنة والشقاق.....
201	المبحث الثاني: مقاصد وحدة الأمة.....
201	المطلب الأول: تحقيق القوة.....
208	المطلب الثاني: إرهاب الأعداء.....
220	الباب الثالث: مقومات الوحدة ومعوقاتها.....
221	الفصل الأول: مقومات وحدة الأمة.....
222	توطئة.....
223	المبحث الأول: وحدة الخلق.....
223	المطلب الأول: وحدة الخلق والكون.....
228	المطلب الثاني: وحدة الأصل في خلق الأحياء وتنوعها.....
231	المطلب الثالث: وحدة الخلق الإنساني.....
234	المطلب الرابع: وحدة النفس البشرية.....
239	المطلب الخامس: الأسرة ووحدة النظام الزوجي.....
248	المبحث الثاني: وحدة التصور العقدي.....

248	المطلب الأول: أثر توحيد الربوبية في تحقيق وحدة الأمة.....
256	المطلب الثاني: أثر وحدة الألوهية في تحقيق وحدة الأمة.....
266	المطلب الثالث: البعد التاريخي العقدي لوحدة الأمة.....
271	المطلب الرابع: وحدة المصير.....
277	المطلب الخامس: الولاء على العقيدة أساس لتحقيق الوحدة.....
285	المبحث الثالث: وحدة المرجعية التشريعية.....
285	المطلب الأول: وحدة الكتاب.....
294	المطلب الثاني: أهمية اللسان في توحيد الأمة.....
304	المبحث الرابع: الشعائر التعبديّة ووحدة الأمة.....
304	المطلب الأول: الصلاة ووحدة الأمة.....
313	المطلب الثاني: الحج ووحدة الأمة.....
325	الفصل الثاني: معوقات وحدة الأمة.....
326	توطئة.....
327	المبحث الأول: الاختلاف.....
327	المطلب الأول: مفهوم الاختلاف لغة واصطلاحاً.....
329	المطلب الثاني: مفهوم الاختلاف في القرآن الكريم.....
330	المطلب الثالث: الاختلاف من معوقات الوحدة.....
346	المبحث الثاني: التفرق.....
346	المطلب الأول: مفهوم التفرق لغة واصطلاحاً.....
348	المطلب الثاني: مفهوم التفرق في القرآن الكريم.....
351	المطلب الثالث: التفرق من معوقات الوحدة.....
364	المبحث الثالث: التقطع.....
364	المطلب الأول: مفهوم التقطع لغة واصطلاحاً.....
365	المطلب الثاني: مفهوم التقطع في القرآن الكريم.....
370	المطلب الثالث: التقطع من معوقات الوحدة.....
376	المبحث الرابع: اتباع الهوى.....
376	المطلب الأول: مفهوم الهوى لغة واصطلاحاً.....
378	المطلب الثاني: مفهوم الهوى في القرآن الكريم.....
381	المطلب الثالث: اتباع الهوى من معوقات الوحدة.....

386	البحث الخامس: البغي
386	المطلب الأول: مفهوم البغي لغة واصطلاحاً.....
388	المطلب الثاني: مفهوم البغي في القرآن الكريم.....
389	المطلب الثالث: البغي من معوقات الوحدة.....
396	خاتمة.....
402	فهرس الآيات القرآنية.....
423	فهرس الأحاديث النبوية.....
424	فهرس المصادر والمراجع.....
438	فهرس الموضوعات.....

ملخص الأطروحة التي أعدها الباحث: عبد الحق معزوز في موضوع:

«وحدة الأمة الإسلامية من خلال القرآن الكريم: تعريف مصطلحي وتفسير موضوعي»

قد شاء الله عز وجل بحكمته سبحانه أن يكون منطلق الإنسانية كلها من نفس واحدة، خلق منها زوجها، ثم بث منهما رجالا كثيرا ونساء، حتى صاروا قبائل وشعوبا، وعشائر وبطونا، يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ بِتَفْؤَا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]، ثم ربط سبحانه بين هؤلاء وهؤلاء بأمشاج التراحم، فتكوّن منهم الأصول والفروع، والخواشي والأصهار، وهذا من تجليات القدرة الإلهية والعظمة الربانية، يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: 54].

فتقرر من هذا أنه مهما تفرق الناس إلى قبائل وأمم، وأجناس ودول، فإنما هو كتفرق الفروع والأغصان، التي ترجع في أصولها إلى جذر أصيل، يجمع شتاتها، ويوحد أطرافها، وما الاختلاف بين الناس في الأجناس والألسن والأوطان، إلا اختلاف تعارف وتكامل.

لقد كانت الإنسانية أول الأمر متواطنة على الأخذ بهذا المنهج القويم، منهج الوحدة في الأصول، والتنوع في الفروع، واستمسكت بذلك حيناً من الدهر، تتعاون على البر والخير، وتجتمع على الإيمان والتوحيد؛ وفق ما نزل على الأب آدم نبي الله عليه الصلاة والسلام لا تستمرئ التشرذم والتفرق؛ لكن أتى عليها زمن الغربة عن الدين، فاجتالهم الشياطين عن شرع الله، وزجت بهم في مهاوي الكفر بالله، وأمرتهم أن يشركوا به ما لم ينزل به سلطانا، فافترقوا واختلفوا، وتفرقوا وتحالفوا، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً

وَاحِدَةً بَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: 19]. فشاء الحكيم العليم أنه كلما حصل للإنسانية التنكب عن هذه الوحدة -التي هي أولى مراحل الوجود البشري- وتفرق الناس شذر مذر في عقائدهم وشرائعهم وسلوكاتهم... إلا وجدد البعثة، فيوحي إلى من اصطفاهم من خلقه، وينزل عليهم من لدنه نورا يمشون به في الناس، ينشدون جمع الكلمة، وتوحيد الصف، وتصويب المعتقد، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكَمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اِخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: 211]. فيستضيء بهم العُشُو، ويستهدي بهم الضُّلَال، فتتقارب بدعواتهم القلوب، ويحصل التآلف، ويتحقق التساكن.

ثم شاء الله عز وجل أن تختتم هذه السُّنة التجددية ببعثة سيدنا محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه، الذي جمع الله به الناس بعد فرقة، ولملم شعثهم، وحقق وحدتهم؛ ثم توفاه الله وقد ترك أمته كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضا، لا تجد فيه فُرجا ولا شقوقا. وقد استمرت الأمة الإسلامية على هذا السُّنن مدة من الزمن فسادت، ثم اعترتها لحظات ضعف وخور فبادت، ثم استمسكت مرة أخرى بذاك الحبل المتين، واهتدت إلى الصراط المستقيم، فجددت قومتها، واستعادت مجدها... فكان منحناها التاريخي بين صعود وأفول، وظهور وضمور.

وأما حال الأمة اليوم، فإن الناظر في واقعها وحالها، تكاد عيناه تبيض من الحزن وهو كظيم. لما يرى من الجموح المتنامي عن توجيهات الشارع الحكيم، ويبصر الفرق الشاسع بين مقررات الشريعة وواقع الحال، حيث أسلمت الأمة نفسها إلى أودية الضياع، ومجاري التقاطع والنزاع، واستبدلت أسباب القوة بأسباب الضعف، وكواهل العزة بعوامل الذلة، وبواعث الشدة بعلل الوهن، فجرها ذلك إلى الفشل والخمول والذبول، حتى تدهورت

قوتها، وزالت دولتها، وذهبت ريحها، وتحقق فيها ما حذر منه ربنا سبحانه، حيث قال: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا قَتَبِشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 47].

وقد كان للأيدي العميلة، والتنظيمات الدخيلة، والحركات النفاقية، اليد الطولى في تفويض بنيان الأمة، وتخوير قوتها، وتفكيك لحمتها، ولذلك نبه القرآن الكريم على خطرهما، وكشف دسائسها، وفضح سرائرها، وأبان عن سماتها وصفاتها، لئلا تحذر عبر التاريخ، ذلك أن اتباعها والتهاون في التعامل معها مفض لا محالة إلى الفتنة والفرقة؛ يقول ربنا سبحانه: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَافَكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلِئِنَّةً وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 47].

والمأمل لواقع الأمة اليوم ينكشف له بجلاء صدق هذا الكلام الرباني ودقته، فقد أصغى بعض أمتنا للمتربصين بها، فوقع الضعف والوهن، وأصاب الأمة خبال وفتنة، فتمكن الأعداء من بث الفرقة فيها، وتقطيع وصالها، فرسموا الحواجز في ديار المسلمين، وحدوا الحدود بين أراضيهم وأوطانهم، وجعلوا الأشبار والأمتار تزهق من أجلها الأرواح والأعمار، وأثاروا الثارات، واستدعوا النعرات، وأحيوا صراع اللهجات واللغات... واستثمروا كل فرصة ترد عليهم لتمزيق وحدتها، وإنهاكها بالصراعات الانفصالية التي تستنزف قوتها ومقدّراتها الاقتصادية والعسكرية، وتقطع علاقاتها السياسية والاجتماعية، وتشوه مجهوداتها الفكرية والمعرفية، مستثمرين في ذلك كله قوتهم الاقتصادية والسياسية والإعلامية، ومستفيدين من نيران الفتن الطائفية الواقعة بالمسلمين.

إن هذا الوضع الذي تعيشه الأمة محرج وخطر، يستدعي النظر والاجتهاد، وتضافر جهود الساسة والعلماء، والمفكرين والفقهاء، والمثقفين والأدباء، والطلبة والباحثين في حل معضلاته، وكشف بواعثه ومسبباته، وبيان عواقبه ومآلاته... فلا بد لكل مسلم حريص

على دينه، غيور على أمته، أن يتفكر في همومها، وما انتابها من صروف الدهر ومظاهر الوهن، حتى صارت مهیضة الجناح، مستنزفة تحت مطارق الهيمنة الغربية، ويسعى جهده ويستفرغ وسعه فكرا وقلما، تخطيطا وعملا، ليعالج علل التفرقة، وعوامل التجزئة التي نخرت جسد الأمة الواحد.

وأجل ما يفيد في ضبط عوامل الفرقة وحصرها، ويكشف أسرار الاختلافات ويفسر آثارها، ويُجلي طرق علاجها والحد من نتائجها، هو مطالعة كتاب الله تعالى، وتأمل ظواهر ألفاظه وأسرار آياته، والغوص في سبر معانيه وهداياته، فهو الدواء لكل داء قد يصيب الأمة ويفت عضدها، والمضاد الحيوي الذي يذهب أسقامها.

ولقد تبين من خلال هذا البحث أنه لطالما صرح كتاب الله بوجوب وحدة الأمة الإسلامية، وتضافرت نصوص الوحي على تأكيد ذلك، وتنوعت أساليب الخطاب القرآني في الدلالة عليه؛ أمرا به، وترغيبا فيه، وترهيبا من الفرقة، وتحذيرا من نزغات الشيطان ومكايد جنده ممن يسعون إلى شتات الأمة وتمزيق لحمتها، وورد تعليل الوجوب بذكر بعض مقاصد الوحدة وثمراتها، وحسن مآلاتها، وكذا التذكير بمفاسد الفرقة، وتبيين وخيم عواقبها وأضرارها. وصرحت الآيات القرآنية بأن وحدة الأمة الإسلامية من أجل مقاصد الشريعة الإسلامية، فكما أن غاية البعثة والرسالات توحيد الله تعالى، فإن من مقاصد هذا التوحيد؛ توحيد الأمة وتأليف صفها، وهذه الوحدة من المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، وهي مقصد شرعي معتبر دلت عليه نصوص القرآن الكريم دلالة قاطعة، بل قد ورد الحث على الوحدة في الشرائع كلها؛ وصية واحدة وصى الله بها جميع أنبيائه ورسله أن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه.

إن وحدة الأمة الإسلامية ضرورة حضارية لتحقيق الشهود الإنساني على البشرية كلها، وسيادة القيم الأخلاقية الإسلامية، وتصحيح مسار الحضارة المادية التي شئت كل قيمة، وغيّت المبادئ والفضائل في مقابل نشر المصالح الدنيوية والمنافع الوهمية والقيم الكونية المزعومة التي تتنافى والفطر السليمة والشيم النبيلة، فالأمة مدعوة لتكون قوامة على البشرية بعد نبينا، وصية على الناس بموازين شريعتها وتربيتها، مكلفة بإظهار الحق الذي معها وتبليغه، وهو مقصد من مقاصد إخراجها، فهي أمة رسالية، قاصدة نفع الناس، مبتغية الخير لهم، حريصة على استيعاب الآخرين بحضاراتهم المختلفة، وأنساقهم الثقافية المتنوعة، وألسنتهم المتباينة، لإرشادهم إلى ما فيه نجاتهم، وهدايتهم إلى ما يحقق صلاحهم ومصالحهم العاجلة والآجلة.

إن الشريعة الإسلامية لم تكن فقط بيان فرضية وحدة الأمة، ومقصديتها، وأبعادها الحضارية، بل قد تطرقت لوسائل تحقيق هذه الوحدة وسبل بلوغها، ومن أساسيات هذه الوسائل والسبل؛ أمر الدعوة إلى الله أولاً، فهو وسيلة لتوحيد الأمة، وهو غاية في الآن نفسه من غايات ومقاصد وحدة الأمة، فبالدعوة إلى هذا الدين يتوحد صف الناس، ويجمع شملهم، وتوحيد صفهم سبيل ناجحة لتحقيق ثمرات يانعة في مجال الدعوة إلى الله.

ومن مقتضيات الدعوة إلى الله تعالى؛ قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تطابقت النصوص القرآنية على وجوبها، وعدتها وصفاً من أوصاف المؤمنين، فهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهذا الوصف دليل خيريتهم، ومقصد إخراجهم، كما نصت عليه الآية ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]

وكما أن وحدة الأمة مقصد شرعي فإن لهذا المقصد مقاصد، ومن أجل مقاصده ما أومأت إليه الآيات القرآنية من تشكيل أمة قوية، ترهب العدو، وترد العدوان، وتتوج

بالنصر إذا اضطرت إلى خوض المعارك. قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ لِّخَيْلٍ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:61] وهذه القوة المرجوة للأمة، والمطلوبة شرعا، ليست قوة تؤم بها الاعتداء والطغيان على الخلائق، بل هي قوة تجعل للأمة هيبة ورهبة في قلوب من قد يطمع في خيراتها ومقدراتها ، أو يرنو إلى قتالها واحتلال أراضيها وانتهاك ومقدساتها. وهي قوة تؤهلها لأداء المنوط بها من إخراج البشرية من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهدى. وقد جعل المولى جل جلاله لهذه الوحدة مقومات تنبني عليها فخلق من أب البشرية آدم عليه السلام زوجه حواء وأسكنه إليها، وبث من هذا البيت الواحد والأسرة الواحدة رجالا كثيرا ونساء، فتمددت الأسر والعائلات، وتباعدت الصلات والقربات، وتنوعت اللغات واللهجات، واختلفت بعد ذلك حتى الأعراق والأعراف، وتباعدت الأوطان والبلدان... لكن المشترك الواحد والأصل الخلقي مكين. ثم أتت الشرائع توصي بالوحدة وتحث على الألفة، وترنو إلى جمع شتات البيت الواحد -الذي صار أمة عريضة لا يحصي عددهم إلا الله- على دين واحد ومنهج قويم.

فكان الإيمان وتوحيد الديان هو جوهر ما دعا إليه الرسل، وتحقيق ذلك بين أفراد الأمة هو ما يوحد تصورهم للكون والحياة والإنسان، ويُقَوِّم سلوكهم، لذلك لا تخلو سورة من سور القرآن العظيم، ولا صفحة من صفحاته من التصريح أو التلميح إلى قضية من قضايا الإيمان والاعتقاد؛ بدءًا من توحيد الربوبية وفيه الإشارة إلى وحدة الأمة الإنسانية، مرورًا بتوحيد الألوهية، وبه تحقق الأمة الإسلامية، وانتهاء بوحدة المصير، مع التذكير دائما بقضايا الإيمان الأخرى التي تبنى على إقرار العبد بوجود الخالق ووحدانيته.

وقضية الولاء والبراء من القضايا الأساسية التي حظيت بعناية الذكر الحكيم، لما فيها من تجلٍّ لوحدة الأمة الإسلامية، فلا يقتصر الإيمان على مجرد الإقرار باللسان، بل يصطبغ ذلك إذعان لأحكام الشرع، وامتنال لأوامر الوحي، ومحبة لأهل الحق، وبراءة من أهل الكفر، ونصرة لأهل الإيمان، وهذا إذا تحقق على أرض الواقع، واستشعرته النفوس المؤمنة، ولا مست آثاره في واقع حياتها، قوى ألفتها، وشد وثاق رابطتها، وصيرها أمة واحدة وجسدا واحدا.

إن من مقومات وحدة الأمة التي تنبئ عن البعد التاريخي لأمة الإسلام؛ وحدة المرجعية التشريعية، فقد نزلت الكتب السماوية من مشكاة واحدة، يخبر السابق فيها باللاحق، ويصدق اللاحق منها السابق، وختم الله هذه الكتب المنزلة بكتابه الخاتم، معجزة خاتم الرسل، وجعله شرعه القائم إلى قيام الساعة، به يحكم الناس وإليه يتحاكمون، ولأمره ونهيه يمتثلون، ونظام تشريعه يخضعون، وذلك ما يضمن لكل حقوقه، ويعرفه واجباته، ويقي الأمة من أن يظلم بعضهم بعضا أو يقتل بعضهم بعضا، فالكتاب المنزل دستور هذه الأمة الذي بينته سنة النبي ﷺ بما يفى ويشفي، ويقي الأمة من أدواء الفرقة والشتات.

ومن رام فهم هذا الكتاب، وجب عليه تعلم اللسان العربي لسان الوحي الخاتم، والتشريع الحاكم، بل قد وجب ذلك على كل من أسلم ليفقه ما خاطبه الشرع به، ويعرف حق الله وحقوق العباد عليه، ولسان الوحي هذا مقوم من مقومات وحدة الأمة الإسلامية؛ إذ هو وسيلة تواصل بين أبناء الدول المختلفة والألسن المتباينة، من تعلمه يسر عليه أن يصل رحم إخوانه وأبناء دينه. كما أن تعلمه يقي صاحبه من سوء الفهم لخطاب الشارع مما قد يؤول به إلى فهوم لا تستقيم، فيكون سبب فتنة لنفسه ولغيره، وفرقة لأمة.

ومن مقومات وحدة الأمة الإسلامية والتي تعد من أجل مظاهر الاجتماع والاتحاد؛
الشعائر التعبدية التي تبرز فيها وحدة صف هذه الأمة؛ وعلى رأسها عبادة الصلاة والحج،
وآياتهما في القرآن الكريم كثيرة سواء ما تحدث عن وجوب الأداء وفرضيته، أو عن زمان
الأداء ووقته، أو عن مكان الأداء وشرفه، أو عن بعض الأركان والفرائض والكيفيات...
كلها تدل صراحة أو إيماء على مقصد تحقيق وحدة الأمة واجتماعها...

ومن تمام البيان والهداية في منهج الذكر الحكيم؛ أن ذكر ربنا ما يمثل عوائق للوحدة
في سياق آيات الوحدة نفسها، وهذا على وزان منهج القرآن في المقابلات، وهو منهج بليغ
رائق، فقد أفصحت الآيات القرآنية عن مضادات الوحدة، فذكرت كلا من الاختلاف
والتفرق والتقطع واتباع الهوى والبغي، وعند تدقيق النظر يظهر ما قد يكون عائقا في نفسه
أو علة لغيره... وكلها تشكل، عند التدبر، عوامل هدم لوحدة الأمة.

فالاختلاف من معوقات الوحدة الذي صرحت به الآيات القرآنية في مواطن عدة،
وأكثر ما ورد فيه ذكر الاختلاف؛ المجال العقدي الديني، سواء ما كان واقعا من أهل الكتاب
مع بعضهم البعض، أو مع رسلهم وأنبيائهم، أو مع رسالة الإسلام ونبى الإسلام؛ محمد
ﷺ، وهو كله اختلاف مذموم، حذر القرآن منه، ونفّر الأمة من الوقوع في مثله، إذ اختلاف
الناس في مرجعية العقيدة الإيمانية ينعكس قطعاً على وحدة الجماعة التصورية والشعورية،
وعلى وحدة المثل الأعلى بين أفرادها، فتفقد بذلك مقوماً من مقومات وحدتها، وهو
وحدة القصد والمعتقد.

ومن المفاهيم التي وردت مقترنة بلفظ الاختلاف، وأتت في سياق آيات وحدة الأمة،
لفظ «التفرق»، وأغلب موارد أتي في سياق الذم وما جرى مجراه من النهي عنه، والتحذير
منه، وكل ذلك أو جله في معرض الدعوة إلى الاعتصام بجبل الله، أو في سياق حكي افتراق

الناس على رسلهم، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، ونقضهم العهد والميثاق... وقد وردت مشتقات التفرق في هذه السياقات بالصيغة الفعلية، مما يشير إلى ارتباط التفريق بالفعل الإنساني تأثراً وتأثيراً، وهذه الصيغ تترى لبيان شر التفرق وضرره، ولتنفير الأمة من الوقوع في مثله.

وورد من معوقات الوحدة أيضاً «التقطع»، بما تدل عليه صيغته من الشدة والكثرة، واستقراء موارد في القرآن الكريم يوقف على الصيغ الفعلية التي ورد بها، وهو مؤشر على ارتباطه كذلك بالفعل الإنساني، الموسوم بالتجدد والاستمرارية، والمتصف بالعناد والخصومة، وقد ورد في سياق الذم كثيراً، وأتى دالاً على تقطيع وحدة الأمة وتفريقها والاختلاف في دينها، فأخبر الله تعالى عن تقطيع المشركين وأهل الكتاب لدينهم، وتمزيق وحدتهم، وذم صنيعهم، وتوعد من سلك مثل سبيلهم، ونهج نهجهم، كي تحفظ الأمة وحدتها ولحمتها.

ومن أدواء النفوس التي تكون سبباً في الاختلاف والتفرق والتقطع؛ داء اتباع الهوى؛ وقد كشف عنه القرآن الكريم، وأبان عن تأثيره في توجيه عقول الناس وقلوبهم، وأفصح الذكر الحكيم عما يسببه الهوى من كفر وضلال وإضلال واستكبار وظلم وفساد وقتل... ومن وخيم آثاره وسيء عواقبه؛ تفريق وحدة الأمة وتمزيق جمعها، وقد ورد ذمه في القرآن الكريم في سياقات الحديث عن الانحراف العقدي والسلوكي الذي وقعت فيه الأمم السابقة، بعد أن من الله عليها بالبعثة والرسالة، حيث أعرضوا عن الحق المبين، والوحي اليقين، واختلفوا من بعدما جاءتهم البينات اتباعاً لأهوائهم وميلاً إلى ما تستلذه قلوبهم وأنفسهم، فمزقوا أمتهم، وفرقوا وحدتهم.

ومن جملة العوامل التي تعوق وحدة الأمة وتمنع تحقيقها: "البغي" بما يفيد من معاني الفساد والحسد والظلم والاعتداء، وقد ورد في سياق الذم في جل مواضعه في القرآن

الكريم، وورد سببا من أسباب الاختلاف والتفرق في أربعة مواطن كلها بصيغة المفعول لأجله -بغياً بينهم- دالاً على أنه سبب الاختلاف والتفرق إمعانا في تقييح هذا الاختلاف؛ لأن المسبب له قبيح ومذموم، وهو وإن كان وروده في هذه الآيات في معرض الحديث عن أهل الكتاب والمشركين إلا أن المخاطب بذلك هي أمة الوحي والرسالة تحذيرا وتنبيها، حتى لا يؤول أمرها إلى ما آلت إليه الأمم السابقة.

وبعد؛ فهذا ملخص أوجزت فيه ما قد ضمته في موضوع هذه الرسالة، وأرنو من خلاله إلى تقديم إضاءة عجلى تقرب القارئ من محتوياته على سبيل الإجمال والاختصار. والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.